الهيئة المصرية العامة للكتاب
سلسلة الجوائز
سلسلة الجوائز
٦٦

رواية

كارلوس فوينتس

كرسي النسر

ترجمة: مروة رزق

كرسي النسر

رواية

كارلوس فوينتس

ترجمة: مروة رزق



٢٠١٠



تليجرام
هنا
سور الأزبكية

• الكتاب: كرسى النسر
La SILLA Del AGUILA
• تـألـيف: كـارلـوس فـويـنـتـس Carlos Fuentes
• ترجمة: مروة رزق.
• يصـدر هذا الكتـاب باللغـة العربيـة بإذن خـاص من المؤلف للهيئة المصرية العامة للكتاب.

• الطبعة الأولى ٢٠١٠.
• طبع فى مطابع الهيئة المصرية للعامة للكتاب.

ـ ١ ـ

ماريا ديل روساريو جالبان

إلى نيكولاس بالدييبا

قد تفكر فى سوء. وتقول إنى امرأة تهوى النزوات. لك حق. ولكن، من يتخيل أن يتغير كل شىء بين عشية وضحاها. قلت لك، عندما تعرفنا أمس، إنه لا ينبغى أن نترك شيئاً مكتوباً فى السياسة. واليوم، لا توجد أمامى وسيلة أخرى للتواصل معك. هذا سيعطيك فكرة عن أهمية الموقف.

ستقول لى إن اهتمامك بى ـ الاهتمام الذى أبديته بمجرد أن تبادلنا النظرات فى حجرة انتظار مكتب وزير الداخلية ـ لا يمت للسياسة بصلة. هو حب، وانجذاب جسدى، أو حتى إعجاب إنسانى نقى وبسيط. ينبغى أن تعرف من البداية، يا نيكولاس، يا حبيبى، أن كل شىء عندى مرجعه السياسة. بما فى ذلك الجنس. قد يصدمك هذا الشبق الاحترافى. ليس أمامى سبيل آخر. لدى خمسة وأربعون عاماً ونظمت حياتى من أجل غرض واحد وحسب: أن أصبح سياسية، وأعمل بالسياسة، وآكل بالسياسة، وأحلم بالسياسة، استمتاعى ومعاناتى من السياسة. هذه طبيعتى، هذه مهنتى. ولكن لا تعتقد أنى لهذا السبب سأهجر حسى الأنثوى ومتعتى الجنسية، ورغبتى فى أن أضاجع شاباً جميلاً مثلك.

ببساطة أعتبر أن السياسة هى السلوك العلنى لعواطفنا الخاصة، بما فيها عاطفة العشق بخاصة. لكن العواطف هى صور اندفاعية للسلوك فى حين أن السياسة نظام. نعشق بأقصى حرية يمنحها لنا عالم مكتظ، مبهم،

محفوف بالمخاطر ولا غنى عنه فى الوقت ذاته، اقتناص السلطة، ونتنافس للحصول على قطعة منها.

هل تعتقد حدوث الأمر نفسه مع الحب؟ أنت مخطئ. يتمتع الحب بقوة بلا حدود تسمى الخيال. وأنت مسجون داخل قلعة "أولوا" لا تزال لديك حرية الرغبة، وتكون مهيمناً على خيالك الحسى. فى المقابل فى السياسة لا تفيدك الرغبة أو الخيال بلا سلطة.

طبيعتى السلطة، أكررها لك. ومهنتى السلطة. هذا أول ما أود أن أحذرك منه. أنت شاب فى الرابعة والثلاثين. جذبنى جمال جسدك على الفور. وأقولها لك، لكى لا تغتر، أنه لا يوجد بكثرة رجال مرغوبون وجذابون فى حجرة انتظار صديقى وزير الداخلية السيد بيرنال إيريرا. كما تغيب أيضاً النساء الجميلات. يراهن صديقى الوزير على شهرته كزاهد. ولا تقترب الفراشات من أجمته. وإنما تعشش تحت سجادها عقارب الخيانة ويهرع النحل إلى شمعها.

هل بيرنال إيريرا يستحق سمعته أم لا؟ سوف تعرف حالاً. فى مساء شديد البرودة فى بداية شهر يناير، ومع ذلك، تتبادل النظرات فى حجرة انتظار الوزير بقصر "كوبيان" القديم بين امرأة لا تزال مرغوبة ـ تفضح نظرتك كل شىء ـ وفى الخمسين من عمرها تقريباً وشاب جميل، مرغوب هو أيضاً، تجاوز الثلاثين بالكاد. تشتعل الشعلة، يا حبيبى نيكولاس، وتضطرب الهرمونات وتجرى السوائل الحيوية بسرعة.

تتأجل الرغبة. تتأجل، يا صديقى الشاب.

اعترف لك بكل شىء. أنت فى الطول الذى يعجبنى. لقد رأيت أنى طويلة ولا أحب أن أنظر إلى فوق أو تحت، وإنما إلى الأمام مباشرة فى أعين رجالى. كانت عيناك فى نفس مستوى عينىَّ، وكانتا فى منتهى الصفاء ـ خضراوين، رماديتين ـ مثل عينىَّ اللتين تتمتعان بسواد ساكن، بالرغم من أن بشرتى أكثر بياضاً من بشرتك. لا تعتقد أنه فى بلد مهجن، عنصرى، معقد بسبب لون البشرة مثل المكسيك (بالرغم من عدم اعترافها

بذلك أبداً) فإن هذا سيساعدنى، بل تجذب إلىّ هذه الرزيلة الوطنية، الاحتقار، مثل ملك مسكين فى بلاط يعج بالأقزام الحاقدين. وفى الوقت نفسه، تمنحنى قامتى تفوقاً غير مفهوم، وتكريماً ضمنياً نهديه لعرق الغازين.

أنت يا حبيبى، من يملك هبة الجمال المهجن الحقيقى. بشرة ذهبية، بلون القرفة، تتلاءم مع مكسيكى ذى تقاسيم رقيقة وبروفيل مستقيم وشفاه رقيقة وشعر مسترسل. لاحظت كيف تبرق الأنوار فى رأسك، مانحةً إياها حياة تليق بجمال ذكورى يخفى فى معظم الأحيان فراغاً عقلياً كبيراً. كفانى تبادل الحديث معك لبضع دقائق لأكتشف إنك جميل جداً من الخارج وذكى جداً من الداخل. وما زاد الطين بلة، أن لديك طابعًا حسنًا.

سأكون صريحة معك: فأنت وقح وساذج جداً. انظر إلى نفسك. تتقن جميع الكلمات التمائم. الديمقراطية، الوطنية، دولة الحقوق، فصل السلطات، المجتمع المدنى، الإصلاح الأخلاقى. الخطير إنك تؤمن بها. والسيئ إنك تقولها باقتناع. يا حبيبى نيكولاس بالديبيا الحنون والمعبود. دلفت إلى الغابة وترغب أن تقتل الأسود بدون أن تحشو بندقيتك بالذخيرة. قال لى الوزير إيريرا بعد أن تحدث معك:

هذا الشاب ذكى جداً، ولكنه يفكر بصوت عال. لم يتعلم بعد أن يتدرب أولاً على ما ينطقه لاحقاً. يقولون إنه يكتب جيداً. قرأت مقالاته فى الجرائد. لا يوجد بين الصحفى والمسئول سوى حوار أصم. لماذا كوزير لا أشعر بالثناء أو اللامبالاة أو الغضب لكلماته، لأنه بالنسبة للسياسى المكسيكى، هى قاعدة ذهبية ألا يترك شيئاً مكتوباً وبالأخص التعليق على الآراء التى تنصب على أحدهم.

دعوه يسخر منى!.

واليوم لم يتبق أمامنا سوى كتابة الرسائل. تعطلت كل وسائل الاتصال الأخرى. بالطبع لا تزال أمامنا وسيلة المقابلة الشخصية. ولكن علينا ألا

نهدر وقتاً لا بأس به فى الاتفاق على الموعد وفى الانتقال من مكان لآخر، بدون أن نتأكد من أن الشىء الوحيد الذى ربما لا يزال يعمل هو الميكروفون المخبأ فى أبعد مكان قد يتخيله المرء. على أية حال، تقتضى الوسيلة الأولى حميمية غير مرغوب فيها. فى حين تخضع الثانية لحوادث الطرق المرعبة. وليس ثمة تعريف أكثر مأسوية للحياة من أنها مجرد حادث طريق.

حبيبى نيكولاس، أنا أتحدى العالم. سوف أكتب الرسائل. سأعرض نفسى لأكبر خطر فى السياسة البولندية: أن تترك دليلاً مكتوباً. هل أنا مختلة عقلياً؟ لا. ببساطة، أثق فى قدرتى على الإقناع والتى لا تضاهيها سوى قدرتى على المحاكاة. عندما تكتشف طبقة الساسة فى هذا البلد أن ماريا ديل روساريو جالبان تتواصل عبر الرسائل مع الآخرين، لن يرغب أحد أن يكون أقل منى. يا لها من جريئة ماريا ديل روساريو. هل أنا أقل جرأة منها؟

وأنا أضحك، يا صديقى الشاب والجميل. سترى كيف يسود نموذجى حيث يصبح إقدامى المثال. ياللعجب! قالت لى أمى فى بوكاريلى:

لا تكتب أبداً، يا نيكولاس. لا يجب أن يسمح رجل أن تترك السياسة آثاراً على رعونته، والتى تدمر الثقة فيه، وتدمر موهبته، والتى يتغذى عليها الناقمون.

ولكن اليوم، بعد الكارثة التى حلت هذا الصباح، ها قد رأيت، علىّ أن أتصل وأخون فلسفتى الصغيرة التى لازمتنى طوال الحياة وأطالبك:

اكتب لى يا نيكولاس... أنت أمام امرأة مقامرة. لسبب ما ولدت فى "آجواسكالينتيس" أثناء مهرجان القديس ماركوس. اختلط ثغائى الأول بصهيل الخيول، وصياح الديوك وطعنات المطاوى على الحلبات الخشبية، و"تفنيط" أوراق اللعب، ونغمات الجيتار، وصوت المغنيات الأوبرالى، وأبواق الماريانشى وهتافات "اغلقوا الأبواب!!".

لا مزيد من المراهنات(*). ها قد رأيت، راهنت أمس بكل ثقتى على الكتمان. كان يحضرنى أن المكتوب خفية سوف ينقلب علناً ضدنا يوماً ما. كنت أتذكر الهوس النفسى لدى الرئيس ريتشارد نيكسون بتسجيل كل الدسائس والفضائح بأبذأ لغة متخيلة . أقولها لك بحسم: كل سياسى عليه أن يكون منافقاً. كل شىء مباح للصعود. ولكن على المرء ألا يكون مزيفاً وحسب وإنما ماكر. يرتقى كل سياسى عن طريق صف من الفضائح المربوطة به، كصفائح الكوكاكولا المربوطة فى ذيل قط متمرد ومفزوع فى آن واحد. السياسى القدير هو من يصل عالياً بعد أن يتخلص من كل مرارة وحقد وأوقات عسيرة. البوريتانى مثل نيكسون هو السياسى الأشد خطورة على الآخرين وعلى نفسه. يؤمن أنه يجب أن يتحمله كل العالم؛ لأنه جاء من القاع. يغذى تواضعه المطأطئ الرأس غطرسته المهينة. هذا ما افتقر إليه نيكسون: الحنين إلى الوحل، الميل اليائس للعودة إلى قناة الصرف للتطهر من الشرور، بدون أن يدرك أنه يعود للاستحمام فى وحل أصله.

يقول الفرنسيون الحنين للوحل (وبين قوسين هذا شىء آخر أسعدنى فيك، إنك فرانكفونى، ودرست فى المدرسة الوطنية للإدارة بباريس، ومتفاهم معنا نحن الذين هجروا الإنجليزية بعد أن تحولت إلى لغة صريحة، ومعيدين للفرنسية مكانة التواصل الأكثر رقياً، وسرية، بين الساسة المشاهير).

نيكسون فى الولايات المتحدة، دياث أورداث فى المكسيك، بيرلسكونى فى إيطاليا، وربما هتلر فى ألمانيا، وستالين فى روسيا، بالرغم من أن هذين الأخيرين يحولان الشر إلى مجد والأولين يحولونه إلى شقاء. ادرس هذه النماذج، يا نيكولاس. استكشف الأطراف إن رغبت أن تقيم فى الوسط الفضيل، يا حبيبى.

(*) Les jeux Son Faits كتاب وجودى لجان بول سارتر، ويعنى اسمه «تمت المراهنات» (المترجمة).

حسناً، تذكر الافتتان المرضى للرئيس نيكسون بأن يسجل كل المكائد والفضائح، الموشاة بألفاظ بذيئة، لا تليق أحيانًا سوى بفتى ثائر على العالم، أو أحياناً أخرى بمجرم شوارع عتيد. وماذا نقول عن حكام ولايتنا فى المناطق الاستوائية، الذين يصورون أسوأ بطولاتهم ويستمتعون بإثبات رعب جرائمهم غير الخاضع للعقاب؟ ما الرعشة الجنسية التى يشعرون بها بالتأكيد عندما يرون حفنة من الفلاحين العزل تسقط برصاص قوات السيد الحاكم؟.

المكسيك مصبوغة بأنهار الدم ومحفورة بخنادق جنائزية ومزروعة بجثث غير مدفونة. والآن وأنت تدخل السياسة، يا جميلى، وصديقى المرغوب، لا يزغ عن عينيك أبداً مشهد الظلم، الذى هو الكتابة المقدسة لأراضينا فى أمريكا اللاتينية. لا شك أن السر يحمى، ولكن يكفى أن ينكشف السر لتتحول الحصانة المتغطرسة لأى حاكم أو رئيس إلى عار جماعى لا تستطيع وقاحة القوى أن تخضعه.

لم أستعد لانقلاب جذرى كهذا الذى منحه لنا العام الجديد. إن لم تشتغل وسائل الاتصالات، ولم يكن هناك هاتف، أو فاكس، أو بريد إلكترونى، أو التلغراف الحقير القديم، ولا حتى حمام زاجل (والذى تسمم كله كما لو أنه سحر) ولم يتبق لنا سوى إشارات الدخان لهنود تاراؤماراس وهم يلوحون بريشاتهم الملونة، وكل هذا لا يحدث بسبب تغيير الألفية كما توقعنا من قبل، عندما انتقل التاريخ من ١٩٠٠ إلى ٢٠٠٠ ولكن لهذا التشابه المزيف بين أرقام العام الجديد، أعترف لك أن حياتى تتغير بدون إرادتى مفرقةً إياى فى ذهول. يمكننى أن أستجمع أجزاء من قوتى لأقول لك:

ماريا ديل روساريو، اهتمى بصديقك خابيير ثاراجوثا المعروف باسم "سينيكا"، المستشار الملكى للسيد الرئيس لورينثيو تيران، حين يقول إنه فى غياب النفائس والمعادن فى هذا العالم الخائن، يصبح الآس فى ورق اللعب، والورقة المخبأة فى الكم، هى الورقة التى يحتقرها الجميع؛ لأنها مخادعة

وغير عملية: الرمز النبيل الذى بسموه يكفر عن انحطاط الجميع. الرجل النقى الذى يخلص النظام.

هل هذا الرجل. هو أنت، يا نيكولاس بالديبيا؟ هل أنا مخطئة لو فكرت فى هذا؟ هل ضعف حدسى المشهود له؟ هل فقدت النطق لأن السياسة اليومية جعلت نصف مخى ـ النصف الأخلاقى ـ مشلولاً؟ أو أنك أنت من ستبعث فيه الحياة، يا صديقى الجميل؟ بمعجزة؟

حسنًا إن أصبحت قاعدة الكتمان مستحيلة، فربما تتبدد معها قواعد النفاق، والفساد والكذب. حتى، أقولها لك، أستغل الحاجة وأسلم نفسى، بتهور تام، إلى الاندفاع.

هذه الرسالة التى أخطها لك، يا نيكولاس بالديبيا، هى دليل على ذلك. لم تعد هناك وسيلة اتصال أخرى، ما عدا الاتصال الشفهى، والتواجد الفورى وهى خطرة للغاية، أو بعد مدة، وهى أقل خطراً ولكنها الوحيدة المتبقية لنا فى النهاية. المسألة هى، يا حبيبى المرغوب جداً، معرفة أياً من هاتين الوسيلتين ـ المكتوبة أم الشفهية ـ سوف تعجل، لا محالة، بما نرغب فيه نحن ـ الاثنين ـ ولكن بإيقاعين مختلفين. الطريق إلى مخدعى ليس ممهداً، يا حبيبى نيكولاس. ثمة ألف باب وباب عليك أن تفتحها قبل الوصول إليه. كما لو أنك فى حكاية من الشرق. تذكر؟ سوف أخضعك للتجارب يوماً بعد يوم. والمكافأة تعتمد عليك. أعرف أنه يكفيك العشق الجسدى لتشعر بالرضا وحسب. أعترف أنى أشتهى جسدك، ولكنى أشتهى نجاحك أكثر. يمكنك ممارسة الجنس سريعاً، ولكنك ستقعد بعده حزيناً وغير مرضٍ.

وفى المقابل، فإن الثراء السياسى هو "أورجازم" طويل، يا حبيبى. يجب أن يأتى النجاح بعد وقت وعلى مهل كى يدوم للأبد. "أورجازم" طويل يا حبيبى. سوف ترى الأبواب تنفتح أمامك، يا صغيرى، واحداً واحداً. والعتبة الأخيرة التى ستخطوها هى عتبة غرفتى. والقفل الأخير هو قفل جسدى.

نيكولاس بالديبيا، سأكون ملكك عندما تصبح رئيساً للمكسيك.

أؤكد لك: أني سأجعلك رئيساً للمكسيك. أقسم لك بهذا الصليب الذي بين أصابعي. بعذراء جوادالوبي المقدسة، أعدك بمنتهى القداسة يا حبيبي.

ـ ٢ ـ

خابيير ثاراجوثا «سينيكا»

إلى ماريا ديل روساريو جالبان

لا أسعى أن يعيرونى اهتماماً. ينفذ "مستشار البلاط" واجبه بالنصح بنية خالصة ـ أمر غير كافٍ ـ وبمعلومات كافية إن أتيحت. إن استطعت أن أتجاوز هذه المحنة سيكون، بالذات، لأن السيد الرئيس قد منحنى فى هذه المرة، للأسف، اهتمامه.

كما هى عادتى صديقتى العزيزة استدعيت المبادئ التى جعلتنى أذن الرئيس. أنا صوت وعيه. أخرج من الحافظة مجموعة المبادئ الأخلاقية خاصتى. وربما أملى الخفى، يا ماريا ديل روساريو" فى نجاة ضميرى بالرغم من أن سياسة الواقع تنحاز للانتهازية. كما تعلمين فإن السياسة مثل المؤخرة تطرد ما يؤكل، كافيار أو صبار، بط بالبرتقال أو عصفور بالحمص. فى المقابل فإن المبادئ بمثابة رأس بدون فتحة شرج. لا تذهب المبادئ إلى المرحاض. تسد سياسة الواقع مراحيض العالم وفى عالم السلطة ليس ثمة مخرج آخر سوى أن تلقى بالضريبة إلى الطبيعة الأم.

ولكن اليوم ولأول مرة انتصرت المبادئ. فقد قرر الرئيس، ربما كهدية لشعب متلهف بمناسبة عام ٢٠٢٠ الجديد، والتى أكثر من كونها أنباء طيبة فإنها متماشية مع الأخلاق، أن يطلب فى خطابه أمام الكونجرس مغادرة قوات الاحتلال الأمريكى لكولومبيا وفى ضربة قاصمة، حظر أيضاً تصدير البترول المكسيكى إلى الولايات المتحدة حتى تدفع لنا واشنطن

الثمن الذى حددته منظمة الأوبك. والأعتى أنه أعلن هذه القرارات من قلب مجلس الأمن بالأمم المتحدة. ولم يتأخر الرد كما رأيتِ. طلع علينا فجر اليوم الثانى من شهر يناير، ونحن نملك بترولنا وغازنا ومبادئنا ولكننا معزولون عن العالم. زعمت الولايات المتحدة حدوث عطب فى القمر الصناعى الخاص بالاتصالات والتى بكرمها منحته لنا، وتركتنا بدون فاكس أو بريد إلكترونى أو شبكة وحتى بدون هواتف. لم يتبق أمامنا سوى الرسائل الشفهية أو كتابة الخطابات ـ كما يثبت هذا الخطاب الذى أكتبه لك مع رغبتى بأن أكله وأبلعه. بحق أى شياطين أعارنى السيد الرئيس اهتماماً ووضع المبادئ فى مرتبة أعلى من الواقعية الخسيسة. أضرب رأسى الآن عرض الحائط وأقول لنفسى:

سينيكا، ما الذى دفعك أن تصبح رجل مبادئ؟

سينيكا، ما الذى سيضرك لو أصبحت انتهازياً قليلاً؟

سينيكا، لم تسير ضد غالبية أعضاء الحكومة؟

والآن ها أنا ملكك، يا حبيبتى ماريا ديل روساريو، ها لديك رأس سينيكا الكبير الذى يضربه بحائط جمهوريتنا- حائط مبكى المكسيكيين الأبدى.

أحمد الرب، يا صديقتى العزيزة، أن الحائط ليس مصنوعاً من الأحجار، بل محشو مثل الحوائط فى مستشفى المجانين، حيث ينبغى أن يقيم صديقك خابيير ثاراجوثا، والمدعو "سينيكا" لأسباب متميزة ونحسة. "سينيكا" فيلسوف من فلاسفة مذهب الطبيعة مولود فى قرطبة (تعلمى إن كنتِ تجهلين وتحملينني بصبر إن كنتِ تعلمين ولا تزالين تحبينني) أنهى حياته منتحراً فى بلاط نيرون. لم تتوافق مبادئه مع الممارسات الإمبراطورية. وفى المقابل يرمز "سينيكا" حتى اليوم، فى مسقط رأسه الأندلس، للحكمة والفلسفة.

عزيزتى ماريا ديل روساريو، ماذا تعتقدين أن يكون مستقبلى فى البلاط الرئاسى بالمكسيك؟ حياة سعيدة أو موت بائس؟وخذى فى الاعتبار

أنه لدينا دوافع للإحباط فى بلدنا مع بداية عام ٢٠٢٠ هذا ـ اتصالات مقطوعة، عزلة عن العالم، تمردات هنا وهنا، تحذيرات بانقسامات اجتماعية وجغرافية... ورئيس طيب، ذو نية صافية وضعيف .. وسلبى.

ماريا ديل روساريو، لا تلقِ علىّ باللوم. تعلمين أن نصائحى مخلصة وقاسية فى بعض الأحيان. لا أحد يتحدث مع الرئيس بالصراحة التى تعهدينها فىَّ. أعتقد بشدة أن بلدنا فى حاجة إلى صوت واحد نزيه على الأقل بالقرب من مسامع الرئيس لورينثو تيران. وكما هو اتفاقنا، صديقتى العزيزة، اتفاقكِ واتفاقكِ سوف أقول:

سيدى الرئيس، أنت تعلم أنى صديقك المخلص تماماً.

وهو الأمر الذى ليس صحيحاً تماماً. فغايتى هى أن يتخلص الرئيس من سمعته بأنه فاقد الإرادة، والتى أخذ يكوّنها على مدى ثلاثة أعوام من حكمه، واقتناعه الواهم بأن المشكلات تحل بمفردها، وأن حكومة متداخلة تخلق مشكلات أكثر من التى تحلها، وأن المجتمع المدنى ينبغى أن يكون صاحب المبادرة فى الفعل. بالنسبة له تأتى الحكومة فى المرتبة الأخيرة. أما الآن فقد يكون على حق. من يعرف أى حيوان قد قرصه ليستهل العام الجديد مستدعياً مبادئ السيادة لا التطفل بدلاً من أن يدع الثمار تتساقط من الشجرة بمفردها حتى لا تتساقط فاسدة. فيما تهمنا كولومبيا؟ ولماذا لا نلتفت إلى العمل القذر فى أسواق البترول، والذى تقوم به دوماً فنزويلا والدول العربية عوضاً عن تضامننا مع عصابة حكام الولايات الفاسدين؟ لقد استفدنا دوماً من الصراعات البعيدة عنا، بدون حاجة إلى التحيز لجبهة ما. ولكن لا أحد يعرف من أين تأتى طلقة البندقية عندما تستمر فى إسداء النصائح ، وأنا أعترف أنها ارتدت لى هذه المرة من مؤخرة البندقية.

– أطلق سراح الأفكار، سيدى الرئيس، قبل أن تطلق هى سراحك. على المدى الطويل إن لم تكن لديك أفكار سوف تهاجمك أفكار الآخرين.

– مثل أفكارك؟ قالها لى السيد لورينثو بوجه تعلوه البراءة.

-لا- تحليت بالجرأة لكى أجيب ـ مثل متملقك تاثيتو دى لا كانال.

أعرف الآن أنى لمست عشقه الخاص، وانتهى إلى فعل النقيض لما ينصحه به تابعه مدير مكتب شئون الرئاسة تاثيتو دى لا كانال والذى لم يكن ذليلاً وحسب وإنما الرجل الذى اخترع الذل نفسه.

سوف تجلسين أمامى ذات يوم، يا صديقتى العزيزة، لتشرحى لى لماذا يُقرب رجل ذكى وشريف وطيب مثل رئيسنا من كرسى الحكم عبداً مداهناً مثل تاثيتو دى لا كانال، يكفى أن تريه هو يدعك يديه ويضمها بتواضع إلى شفتيه، وهو محنى الرأس لتكتشفى بوضوح أنه ليس سوى فاسد وأن نفاقه ناجم عن طموح وليس لمجرد افتقار النزاهة التى لا يجيد إخفاءها.

هل ترين ياصديقتى، هذه المفارقة: أسفرت نصائحى الطيبة عن نتائج سيئة بينما جنبتنا نصائح تاثيتو الكوارث. هذا لأننى قد غفوت، يا ماريا ديل روساريو، وأنا معتاد أن أسدى نصائح طيبة مع اقتناعى أنها لن يتم الالتفات إليها كالعادة. أنا أعرف أن كلماتى تداعب الأنا الأخلاقية لدى رئيس الدولة وهذا يكفى لكى يفكر، لمجرد أنه سمعنى وحسب وشعر بأنه "أخلاقى" للغاية، بأن يراهن على المبادئ، والآن يستطيع أن يتصرف بوعى جيد مسترشداً بالنصائح، المخالفة لنصائحى، نصائح تاثيتو دى لا كانال.

قولى لى إن هذا لا يدعو للإحباط والرغبة فى التخلى عن كل شىء. ماذا يوقفنى؟ سوف تتساءلين. مجرد أمل فلسفى واهٍ. إن لم أكن موجوداً هناك، بكل نواقصى، كان ما هو أكثر سوءاً منى سوف يشغل مكانى. أنا شيمون بيريز فى القصر الرئاسى. وبالرغم من ضخامة هزائمى، إلا أننى أستطيع النوم هانئاً على الأقل: لقد أسديت النصح بكل أمانة. وإن لم يلتفتوا لى فهذا ليس ذنبى. فأصوات شتى ترغب فى الحصول على انتباه الرئيس. ولكن فشل ما، ذرة ما من حقيقتى، يجب أن تعشش فى روح السيد الرئيس تيران. وفى مرات مثل هذه، يا صديقتى الحبيبة، أفكر أنه كان من الأفضل أن ينصت الرئيس ليس إلىَّ وإنما إلى أعدائى.

ـ ٣ ـ

ماريا ديل روساريو جالبان

إلى نيكولاس بالديبيا

ما زلت تصر، يا صديقى الجميل نيكولاس. أرى أن خطابى لم يقنعك. تؤلمنى عدم قدرتى على الإقناع أكثر من افتقارك للذكاء. ولذا لا ألقى باللوم عليك. لابد أنى كنت غليظة وبلهاء فى الحقيقة وغير مفهومة. أخبرتك بدوافعى بطريقة مباشرة وأنت الصبى الذكى جداً لم تفهمنى. أكرر أن الخطأ كان بسببى أنا. ومع ذلك أعترف بأن عاطفتك شغلتنى وتدفعنى للتراجع. لا تعتقد أنك بكلماتك الحارقة استطعت أن تهد جدران حصنى الجسدى ـ إن أسميناه هكذا ـ لا، لم يزل الجسر المتحرك مرفوعاً ولا تزال سلاسل البوابة موصدة بالأقفال، ولكن ثمة نافذة، يا نيكولاس الشاب الجميل، تضاء كل ليلة الساعة الحادية عشرة.

وهناك امرأة ترغب فيها تتعرى ببطء، كما لو كان يراقبها شاهد شهوانى ودافئ أكثر من زئبق مرآتها. هذه المرأة لا يراها أى شخص ومع ذلك فهى تتعرى ببطء شهوانى بسبب خيالها المسكون بالعديد من المراقبين. إنها امرأة شهية يا نيكولاس. وبالنسبة لها فهى تتلذذ عندما تتعرى أمام المرآة ببطء الفنانين على المسرح (أعترف بأنه تشبيه غير محتشم) وهى تتخيل أية أعين شرهة غير المرآة التى تعكس صورتها تتطلع إليها بشهوة ـ برغبة حارقة كالتى تفصح عنها نظراتك أيها الطفل الشرير والصبى الشقى، والتى تصبو إليها رغبتى بشدة وذلك لأنك هدف مؤجل.

ولأن الرغبة تنفد. ألم تعرف بعد؟ وتقودنا إلى الفضيلة التالية أو إلى ما هو أسوأ، إلى اللامبالاة.

قد تقول إن سيدة فى الخمسين من عمرها تدافع عن نفسها ـ وهى على حق، أعترف بذلك ـ عن طريق عاطفة الشباب الملتهبة، ولكنها قد تكون عاطفة عابرة وعابثة لشاب تعدى الثلاثين بالكاد. فكر بهذه الطريقة إن كانت هذه رغبتك. ولكن لا تكرهنى. أنا على استعداد أن أؤجل كراهيتك لى وأن أشعل أملك. الليلة فى الحادية عشرة سوف أواصل خلع ملابسى. وأترك ستائر غرفتى مفتوحة على آخرها. والأنوار مضاءة ـ بحكمة و حذر وإيحاء بنفس القدر، أؤكد لك.

تعال إلى اللقاء، لا أقدر أن أعرض عليك المزيد فى هذه اللحظة.

ـ ٤ ـ

آندينو آلماثان

إلى الرئيس لورينثو تيران

سيدى الرئيس، إن كان هناك أحد تضرر من القيود الأخيرة المفروضة على الاتصالات فهو أنا تابعك الأمين. تعلم، يا سيدى، أنه من عاداتى الراسخة ترك توصياتى مكتوبة. أو الآراء كما يطلق عليها بعض الوزراء فى حكومة سيادتك، أى زملائى، كما لو أن العلوم الاقتصادية مجرد مسألة آراء. أو عقائد كما يسميها أعدائى داخل مجلس الوزراء نفسه، نماذج لليقين المقدس الذى لا يطاق لوزير المالية آندينو آلماثان، خادمك المخلص، يا سيدى الرئيس. ولكن هل تعد القوانين عقائد؟ هل تعتبر التفاحة التى سقطت على رأس نيوتن فكشفت له قانون الجاذبية عقائدية؟ هل عندما أسس نيوتن أن الطاقة تساوى الكتلة مضربة فى مربع سرعة الضوء فى الفراغ كان مجرد رأى؟.

وبفضل الحظ نفسه، لم تكن مصادفة منى، يا سيدى الرئيس، أن تحدد الأسعار حجم الموارد المستخدمة أو أن تعتمد الأرباح على السيولة النقدية أو أن تحدد إنتاجية العامل حدود الطلب عليه فى سوق العمل. ولكنك تعرف هذا، يا سيدى، أن أعدائى ـ أود أن أقول، زملائى، يدعوننى بـ"الزنّان" ومع ذلك، يا سيدى الرئيس، فإن اليوم أكثر من أى يوم مضى وبسبب موقف يعاقبنا قررت سيادتك بحكمة لا غبار عليها اتخاذ إجراءات شعبية (وأحذرك أن منتقديك سوف يعتبرونها مجرد نزوة، أما أصدقاؤك

مثلى سيعدونها امتيازات تكتيكية) وأقول إن اليوم أكثر من أى يوم مضى سوف أكرر عليك إنجيلى من أجل الصحة الاقتصادية للبلد.

أولاً تجنب التضخم لا تسمح بأن يشغلوا ماكينات طباعة الأوراق المالية تحت ذريعة الطوارئ الوطنية. ثانياً، ارفع الضرائب من أجل تمويل الطوارئ بدون التخلى عن الخدمات. ثالثاً، واصل خفض المرتبات باسم الطوارئ أيضاً: مزيد من العمل مع مرتبات أقل، لو استطعت أن تقدمها سيادتك على أنها الصيغة الوطنية. وأخيراً أسعار ثابتة. ولا تتهاون وعاقب بقسوة من يجرؤ، فى وقت الطوارئ، على رفع الأسعار.

ذات مرة قلت لى سيادتك إن الاقتصاد لم يعطل التاريخ قط وربما تكون على حق. ولكن الاقتصاد يصنع التاريخ. لقد قررت سيادتك اتخاذ سياستين تضمنان لك الدعم الشعبى (ولكن إلى متى؟) والنزاع الدولى (مع القوة العظمى فى العالم). فيما يتعلق بالدعم الشعبى أعود وأسأل، إلى متى؟ وفيما يتعلق بالتوترات الدولية، ولكى لا ترى أنى دوجماتى للغاية كما يدعى أعدائى، لن أقول لك إنه أطول من الدعم الوطنى العابر، والذى نحصل عليه فى حال واجهنا الأمريكيين، بدون حساب العواقب. سوف أدير الخد الآخر وأقول لك، يا سيدى الرئيس، تحت وطأة الخجل لأن المكسيك وأمريكا اللاتينية سوف تتقدمان فقط فى حال تفرغنا لخلق المشكلات.

تكمن أهمية المكسيك وأمريكا اللاتينية فى أننا لا نعرف إدارة ثرواتنا. وبالتالى، نحن مهمون لأننا نخلق المشكلات للآخرين.

انتظر بفارغ الصبر تقريرك إلى الكونجرس غداً وأظل دوماً رهن إشارتك.

ـ ٥ ـ

نيكولاس بالديبيا

إلى ماريا ديل روساريو جالبان

لا أعرف إن كنت أعجب بجمالك أو بقسوتك. ليس للجمال سوى اسم واحد وليس هناك مفردة تصلح. بما أستطيع أن أقارن الشيء الذى لا يقارن؟ لا تصدرى علىَّ أحكاماً بأنى ساذج أو أعمى. لقد شاهدت سيدات عاريات كثيرات. ومع ذلك عندما رأيتك تعرفت للمرة الأولى بالفعل على أنثى تتجرد من ملابسها بالكامل.

لا أشير إلى جمالك وحسب، يا سيدتى ـ فسوف يكون هناك وقت للحديث عنه ـ وإنما عن فحش عريك الكامل. لا أرغب فى اللعب بالكلمات (تنسبين لى ذكاءً أكبر من الذى منحته إياى سنوات عمرى)، ولكن عندما أقول إن عريك فاحش، لم ير من قبل، ولا يقارن ولا يمكن تخيله لو ظهر خارج وجودك أو وجودى المعتادين، خارج حياتك أو حياتنا اليومية، من الطريقة التى ترتدين بها ملابسك وتظهرين بها للعالم، عارية، خارج المسرح، فاحشة، وأكرر هل أنت امرأة أخرى، أم نفسها، هل تفهميننى؟ أو متحولة، كما لو أنك عندما تخلعين ملابسك تتعجلين، يا سيدتى، روعة نهائية، روعة موت حى للأبد. تناقض مذهل. مثل الذى أراه، سيكون هكذا دوماً، حتى فى الموت.

لا، أسمح لى أن أصلح لنفسى، كان ينبغى أن أقول حتى الموت، فى الموت فقط. شعرت فيكِ منذ تعرفنا بالرغبة المتأججة، وبأقصى حسية

شعرت بها فى حياتى، لا يمكن مضاهتها بتجاربى وخيالاتى الماضية. الجائزة التى لا أستحقها لرؤيتك من الغابة، وأنتِ تخلعين فستانك الأسود "السواريه" من النافذة الوحيدة المضيئة من المنزل، وذراعاك منسحبتان حتى الكتف، تقومين بفك مشد الصدر الأسود أيضاً بحركة مضللة وماكرة حتى تفكى "السوتيان" وفى الحال، تسحبين الجزء الأمامى من السوتيان وتحررين نهديك بمداعبة مزدوجة لتظلى فقط بالجورب الأسود أيضاً، والذى تخلعينه عندما تجلسين على حافة سرير أتخيله ـ أعذرينى ـ بارداً جداً و منعزلاً وعبثياً وتهتزين من الشهوة سيدتى فى الحال بكل بهاء نضجك الجنسى، بيضاء بالكامل، ووردية مرتين وسوداء مرة، وأنت تعطيننى وجهك ثم ظهرك فى الحال لأستمتع بإليتى فينوس الرائعتين، فينوس المدهشة حتى أغرق فى الأرض و ترتجف أردافى وأحصل على ما قلتيه لى ذلك اليوم: مشاهدة المتعة والتى يجب أن أنولها بثمن ـ أسخر من نفسى، ياسيدتى ـ قد لا يمكن تحقيقه.

نعم لو لم أخدع نفسى أكثر من ذلك. كنت سأحتفظ لنفسى فقط بالإكرامية التى تلطفتى ومنحتيها إياى، يا ماريا ديل روساريو، لأنك قلت لى:

ـ إنه لى وحسب. مشهد منتصف الليل هذا، من داخل الغرفة الوحيدة المضاءة فى منزل مخفٍ وسط غابة من أشجار الصنوبر.

لماذا، يا سيدتى، وبأية قسوة لانهائية، وبأية رزيلة شريرة، أرغمتينى على مشاركة الرؤية التى اعتقدت أنها ملكى بلا منازع، مع ناظر آخر، متلصص آخر مثلى، واقف على بعد عدة أمتار أمامى، اكتشفته من طقطقة أفرع الأشجار، والذى لا يسمع عادة، ولكنه كان رعداً لأذنىّ العاشقتين المرهفتين؟ لماذا يا سيدتى؟ لماذا هذا المتطفل فى مشهد اعتقدت أنه لى وحدى، أو لنا نحن ـ الاثنين ـ أنا وأنتِ فقط.

من كان المتلصص الآخر؟ هل دخيل عابر؟ هل تعرفين عاداته، يا سيدتى؟ جاء مثلى إلى موعدك القاسى ـ أعذرى إساءتى ـ الملكى

المحترف، والمترف للغاية؟ هل يمكن أن تصارحيني بالحقيقة؟ هل يمكن أن تنقذيني من حالي القذر والحزين كمتلصص، وكمريض نفسي، ومن عاشق يُستهزأ به؟

ـ ٦ ـ

بيرنال إيريرا

إلى الرئيس لورينثو تيران

أكتب لك، يا سيدى الرئيس، لأتمنى لك أكبر نجاح فى تقريرك السنوى إلى الكونجرس لشهر يناير لمواجهة حالة الطوارئ التى يواجهها الوطن مستبقاً هكذا، بشجاعة تثير إعجابى، الرسالة الخاصة بحال الأمة لرئيسة الولايات المتحدة. قرارتك فى الكريسماس ـ بالحفاظ على أسعار البترول المرتفعة والمطالبة بإنهاء الاحتلال الأمريكى لكولومبيا ـ أثارت رد فعل البيت الأبيض والتى لا يمكن وصفها إلا أنها عقاب. وأنصحك ألا تصفها هكذا فى تقريرك، وإنما تتقبل حجة سقوط النظام العالمى للاتصالات. حسناً لا تقل " لقد سقط النظام"، أولاً لأن ذلك يسبب ذكريات أليمة لمن تجاوزا والغش القديم لـ"الدكتاتورية المتقنة" للحزب الثورى المؤسسى. وثانياً لأن فعل "سقط" يتمتع بالعادة السيئة للتحول إلى نبوءة والتى تنتهى بالتنفيذ (يقول أبناء عمومتنا فى الشمال نبوءة تحقيق الذات). أنصحك بألا تذكر أى انتقادات لحكومة الولايات المتحدة الأمريكية، وتقبل أن الأمر مجرد عطل فنى عابر للنظام العالمى للاتصالات عبر القمر الصناعى، والذى أصاب كل العالم وله علاقة برد الفعل غير المتوقع للأرقام المتكررة ـ مثل عامنا ٢٠٢٠ كما لو أنه رد فعل متأخر ولكنه مفسر لظاهرة الأصفار عام ٢٠٠٠ والتى أثارت الرعب، عندما كانت كل كمبيوترات العالم ـ شخصية وكمبيوترات الحكومة والبنوك والمطارات

وكمبيوترات عامة وخاصة ـ ستصاب بالجنون لأنها ستتخلى عن مرجعية "١٩"وبدون أن تعرف كيف ستنتقل إلى فاصل "٢٠"الجديد .. ليس من المهم ألا يصدقوك غداً. إن ابتلعوا الطعم اليوم. استخدمه. لن تخسر شيئاً. لا تذكر الحكومة الأمريكية، يا سيدى الرئيس. تحدث عن عطل فنى بسيط. أعذرنى على إلحاحى. والذى هو أكثر من تذكير لك، هى مذكرات أوجهها لنفسى، فأنت تعرفنى. ثقتك ستجعلك تعرف أن تتفهم وتغفر لصديقك الأبدى. أواصل. أشر بصورة سطحية إلى مواضيع كولومبيا وأسعار البترول وركز على مشكلاتنا الداخلية. اعلم أن بعض الوزراء ـ وبخاصةً من يطلقون على أنفسهم"تكنوقراطيين"– يلقون علىَّ باللوم كوزير للداخلية. أرغب فى حمل المياه إلى طاحونتى. هذا هو موقفى ـ اغفر لى صراحتى ولذا لسنا فقط رئيساً ومرءوساً بينهما ثقة وإنما أصدقاء قدامى، أشعر بذلك دوماً. أنا مع تغيير الرئاسة كل ثلاثة أعوام أو أقل، إلى آخره. أنت تعرفنى وتعرف أنى طالما نصحتك بمقتضى اعتبارين. أنا معاونك المخلص؛ وضع فوق كل شىء مصالح المكسيك. لا أستحق أن أكون وزير الداخلية إن لم أخلط بين الواجبين. الإخلاص للمكسيك والإخلاص للرئيس. بهذا النظام ، اسمح لى أن أكرر عليك بأشد اقتناع أن المشكلات الحقيقية التى علينا معالجتها بوضوح و برأى صائب هى الإضرابات الثلاثة المتعلقة.

أولاً: إضراب الطلبة الذين يرفضون دفع المصاريف أو اجتياز امتحانات القبول فى الجامعات العامة والذين يحتلون منشآت المدينة الجامعية احتجاجاً.

ثانيا: إضراب العمال فى المصنع العملاق للمستثمر اليابانى فى سان لويس بوتوسى.

ثالثاً: مسيرة الفلاحين فى لا جونا المطالبين باستعادة الأراضى التى حصلوا عليها فى الإصلاح الزراعى للرئيس كارديناس والتى نهبها منهم تدريجياً، العجائز الفاسدون بشمالى المكسيك.

وبالتالى فإن نصائحى سيدى الرئيس هى كالتالى:

لا تلق بالاً لإضراب الطلبة. دعهم يسيطرون على مكتب العميد والمبانى الجامعية حتى يوم القيامة. مع الطلبة، استخدم أى شىء ماعدا القمع. تذكر دوماً مذبحة ١٩٦٨بميدان الثلاث ثقافات وكيف انتحر النظام بعد أن اعتقد أنه انتصر، مسبباً إدانة عامة، ونحيب الجميع وفى النهاية اختفاء التسلطية والحزب الآحادى، إلى جانب النكبة الأبدية للرئيس الشهير والتزام خليفته بالاختلاف عن جزار تلاتيلولكو، حتى ولو كان على حساب الترشيد الاقتصادى. النتيجة، ننتقل من أزمة إلى أزمة إن أخذنا نقتل الطلبة. دع الموقف حتى يفسد. يتحلل. وبالرغم من أعداد الطلبة الكثيرة وتضامنهم اليوم مع رفاقهم فهم غداً سيكونون أكثر إخلاصاً لمستقبلهم الخاص وضرورة الدخول لسوق العمل بإعداد جيد.

اهدأ سيدى الرئيس. أكثر هدوءاً من خواريث نفسه.

وفى المقابل مع العمال المضربين فى مصنع السيارات الذين يطالبون بزيادات مبالغة لرواتبهم ويتجرءون على مقارنة رواتبهم برواتب أقرانهم فى اليابان، أوقف الإضراب بالقوة وقل للعالم إن المكسيك تستقبل بأذرع مفتوحة الاستثمارات الأجنبية. لدينا أيدى عاملة رخيصة ومتوفرة، سوف نخرج جميعاً فائزين أما العمال غير الراضين فأقم لهم صالة سينما مجانية مستشفى نظيفة للغاية.

يمكنك أن تتذرع بأن تدخل القوات العامة فى سان لويس بوتوسى كان لصالح حاكم الولاية رودولفو روكى مالدونادو، ولكنى كنت سأتحجج بأن نشر قواتنا لترهيب مالدونادو واتخذ إلى جانبنا اليابانيين الماكرين. أنه رهان. فكر فى الأمر يا سيدى الرئيس. وتذكر أنه لا أحد يغامر بلقمة العيش. هل تذكر أغنية قديمة لبيدرو إنفانتى "اسمعى يا بارتولا، اترك لك بيزوين، ادفع الإيجار، والهاتف، والنور". أشعر بالحنين لزمن ما قبل التضخم. حسناً، من المفيد أن نكسب قليلاً من لاشىء وعائلات الأجراء

أنفسهم فى سان لويس سوف يتولون أمر أرباب العائلات الذين لا ينفقون على بيوتهم. سوف ترى الشركات الأجنبية أن السلطة هنا إلى جانب الاستثمارات ؟ أليست هذه هى الطريقة التى حقق بها نمور آسيا الازدهار؟ اسألوا روح لى كوان يو(*). هناك أمان فى سنغافورة؛ لأنهم قطعوا أيدي اللصوص. إلى جانب أن وجود القوات العامة فى إقليم بوتوسى سوف يخدم غرضاً آخر، يا سيدى الرئيس، وهو "حكام الولايات" الصغار الذين يستغلون فراغ السلطة الإقليمية التى نشأت نتيجة فترة انتقالنا الطويلة نحو الديمقراطية. أعرف أنى أكرر أمراً ذكرته قبل سطور. اعذرنى إن كنت مملاً. غالباً، كلما منحنا ديمقراطية خسرنا السلطة، لقد خلقنا فجوات من الفوضوية والتى يملؤها، مستفيدون، حكام الولايات و"قواتهم الحية" ـ مالدونادو فى سان لويس، و فيليكس إلياس كابيساس فى سونورا، و"تشيتشو" ديلجادو فى كاليفورنيا السفلى، وخوسيه دى لاباث كينتيرو فى تاماوليباس.... ـ وفى الختام، يا سيدى الرئيس، ودعماً لنصيحتى السابقة اصغ إلى فلاحى لاجونا. انتهز الموقف لاسترداد رايات الإصلاح الزراعى التى تركناها تسقط بسبب البراجماتية لا أكثر. امنح حكومتك دعم كتلة الفلاحين والذين استغلهم أعداؤنا دوماً، بدءاً من أصحاب النفوذ الذين ذكرتهم مراراً، بالعزلة والجهل، معتمدين على أن قربنا فى الحدود مع الولايات المتحدة يشل أيدينا،، كما لو أن الديمقراطية والسلطة لا يجتمعان معاً. أنت تعرف شعارى: نعم للسلطة ولا للتسلط. استغل الموقف من أجل تدمير أصحاب النفوذ. سوف يذكر لك هذا الجميل رجال الأعمال الوطنيون فى شمال الجمهورية، لأنهم يعرفون أن الفقر أسوأ استثمار وأن الفلاح الميت من الجوع لا يذهب إلى السوبر ماركت أو يشترى ملابسه من أفرع بينيتون.

وفيما يتعلق بالموضوع الذى يشغل الجميع فى السر، وهو اغتيال توماس موكتيثوما مورو، انصحك بأن تظل كما أنت، فالسر يناسبنا جميعاً.

(*) رئيس وزراء سنغافورة السابق ـ (المترجمة).

سيدى الرئيس، أتمنى أن تلتفت إلى نصائحى بروح الوطنية والدعم الذى أقدمه لإدارتك. قال فيلسوف ألمانى إن "هذا" هى أصعب كلمة يمكن أن نتفوه بها. ولكن حسناً سيدى الرئيس سأقول لك افعل هذا. وقل تجرأت على قول "هذا".

بيرنال إيريرا

وزير الداخلية

ملحوظة، أرفق المذكرة التى كلفت بها خابيير ثاراجوثا لشرح تحليل عجزنظام الاتصالات.

مذكرة

عانى نظام اتصالاتنا الحديث من تناقض خطير. من جهة سعينا إلى الانضمام لأكثر الأنظمة العالمية اتساعاً. ومن الجهة الأخرى احتكار الاطلاع على المعلومات لصالح الحكومة. ومن أجل تحقيق الهدف الأول تركنا إدارة محطات التليفزيون والإذاعة والهواتف وشبكة الإنترنت إلى مركز فلوريدا للأقمار الصناعية وإلى "عاصمة أمريكا اللاتينية" ميامى. وكان أملنا أن يعمل هذا القرار على تأكيد دخولنا الكامل على الاتصالات. وتركنا عملياتنا العالمية لشركات خاصة مثل (بى ٤ إم) و (إكس ٩ إن) للحصول على أقصى كفاءة و أكبر تغطية. ولم نكن نعرف أن هذه الشركات الخاصة التى نعتمد عليها تعتمد بدورها على البنية التحتية، التى تتحكم فيها وزارة الدفاع الأمريكية بأمريكا وأن البنتاجون يحكم مركز فلوريدا للأقمار الصناعية، والذى يعدل من الكفاءة أو عدم الكفاءة، الأزمات الحالية، القوية والمبرمجة للنظام بأكمله، عن طريق الدخول الحصرى إلى المدارات المتواقتة الكائنة فى أقمار ثابتة على بعد أربعين ألف كيلومتر فوق مستوى سطح البحر. وكانت هذه السابقة للقمر الذى أطلق عليه اسم يو تو كى لعام ١٩٩٩ ـ ٢٠٠٠ الجديد، والذى سمى بـ"وحش الألفية"، والذى استطاع أن يسبب فوضى للنظام العالمى للاتصالات لو أن نظام الحساب

المعتاد على الانطلاق من رقم "١٩" انتقل فجأة إلى ترتيب رقم "٢٠" ولم يحدث الإنذار، نعرف ذلك اليوم، تحذير من البنتاجون وقدرته على إزاحة المعلومات عن المركز فى حال الهجوم على البنية التحتية أو هز استقرار النظام بإرادته، مدعياً حدوث هجوم (وهمى) على نفسه. يكمن الخطأ الوطنى المكسيكى فى دخولنا بأعين مغلقة وبأمل عولمتنا سريعاً فى نظام لم نكن نتحكم به طالما، فى الداخل، قمنا بتسييس الاتصالات من أجل عدم استخدامها بصورة جماعية وديمقراطية. اختارت حكومة الحزب الثورى المؤسسى بعد عودته (٢٠٠٦) التحديث الخارجى عن طريق فلوريدا والفشل الداخلى عن طريق الاحتكار الرسمى للشبكة. لدى الحكومات تنظيمات رأسية. فى حين تعمل الشبكة أفقياً. قرر الرئيس ثيسار ليون جعل كافة عمليات الاتصالات الداخلية رأسية، حارماً النقابيين من الدخول إليها، وأصحاب النفوذ والجامعات والحكومات المحلية والمجتمع المدنى عامةً معترفاً بالاتصال الأفقى فقط للشركات المقربة من الدولة، وحتماً للتسلية. والنتيجة لم يحدث أى إضراب عام. وفى حين تبدأ الأنظمة العالمية صغيرة، تصعد سريعاً وتثمر عن قيمة، فإن حكومة المكسيك بدأت عظيمة، صعدت ببطء وأثمرت قمامة. ففى الداخل انحصرنا فى بوابة ضيقة. وعالمياً انفتحنا على بوابة شاسعة. ومن هنا تضاعفت هشاشتنا. أغلقت الولايات المتحدة علينا البوابة الضخمة مما ألقى بآثاره على كافة الاتصالات ليست الدولية وحسب وإنما المحلية أيضاً، لأنها بدورها تعتمد هى الأخرى، بالرغم من ضآلتها، على مركز فلوريدا للأقمار الصناعية. تم استبدال "الوحش" الافتراضى لعام ٢٠٠٠ ببساطة بوحش عام ٢٠٢٠ للتأثير على المكسيكيين حصرياً، ومعاقبتنا على سياستنا الرافضة لاحتلال القوات المسلحة الأمريكية لكولومبيا والمؤيدة لزيادة أسعار البترول التى حددتها منظمة الأوبك. إنها "عملية الصرصار"، وكما تعلم يا سيدى الرئيس، فإن الصرصار يسير معتمداً على ما يستنشقه ماريجوانا، وشيكولاتة فو مانشو.... ولكن ما يفصلنا عنها حدود طولها ألفا كيلومتر.

استنتج سيدى الرئيس النتائج اللازمة. وفكر إلى متى سوف نستطيع أن نبقى اليابانيين فى كواأويلا(*) هادئين، بالرغم من أنهم يقولون عنهم إنهم لديهم طرق سرية وخاصة لجعلنا نفهم.

(كتابة : خابيير ثاراجوثا).

(*) ولاية مكسيكية (المترجمة).

ـ ٧ ـ

ماريا ديل روساريو جالبان

إلى نيكولاس بالدييبا

هل أزعجك كثيراً موعدي ليلة أمس الأول؟ هل شعرت بالاحتقار لأنى وضعتك فى موقف المتلصص؟ لا تكن متعجلاً أو ساخطاً. مزيد من الرقة والعطف والعدل والتعاطف تجاه صديقتك المسكينة. فلدى حياة سابقة لليوم الذى التقيتك فيه. هل تعلم؟ وأنت نيكولاس الطيب ترغب أن تتخيل " أن الماضى غير موجود وأننا اتولدنا فى اللحظة التى تعرفنا فيها". ولكن لم يحدث هذا. تخيل. فأنا أتميز عنك بأحد عشر عاماً ليس قبل أن نتعرف وحسب وإنما قبل حتى أن تولد أنت. إن كنت ستلوموننى على الحياة التى عشتها قبل معرفتك فسوف تعرض نفسك لأمور شتى. أولها مفاجآت عدة. بعضها غير سارة. وبعضها لطيف. ثانياً سوف تشتعل من الغيرة تجاه الرجال الذين كانوا عشاقى. ثالثاً سوف تتعجل المهلة التى حددتها لك.

لماذا هم وأنا لا؟

من بين الاحتمالات الثلاثة، يعجبنى الاحتمال الثانى . تحب المرأة ـ وأنا لست استثناء ـ أن تثير الغيرة. لأنها تأجج العاطفة. تشعل الانتظار البارد. كما تضمن ذروة جنسية رائعة. سوف أدخل فى الموضوع. سوف ترى. الآن أنا متلصصة معك. سوف نجلس معاً، جنباً إلى جنب، هنا فى صالة منزلى، لنرى ونبحث رؤيتى الخاصة حول تقرير الرئيس أمس. لقد أمرت بتصوير الحدث، مع التركيز، لا على كلمات السيد الرئيس وإنما

على وجوه الحاضرين، بهدف أن نعرف أفضل السياسيين الذين يحكموننا.

اعذرنى لو كانت تعليقاتى لاذعة قليلاً. أرغب أن تتعرف على هؤلاء البشر بدون مكياج. فأحياناً الذى يبدو جورج كلونى هو ميكى رونى ومن يبدو شبيهاً لمينى درايفر ليس إلا مينى ماوس.

اسمح لى أن أفرغ سريعاً من رئيس البرلمان الذى علق على تقرير الرئيس. يدعى أونيسمو كانابال وهو ضئيل فى كل شىء: الماضى والحاضر والمستقبل وحجم الجسد والمكانة السياسية أو الأخلاقية. هو واحد بين آلاف إلا أنه يشعر بالتفرد. كيف سيعلم بالحقيقة؟ لن يخبره أحد بها. ينبغى أن يضربه شخص علقة بالعصا ليتعرف على مدى غبائه. ولكن معظم البلهاء يموتون بدون أن يعلموا أنهم كانوا أغبياء.

ودعنا نلتفت إلى طاقم الحكومة الذى جلس فى الصف الأول فى الكونجرس.

السيد وزير الداخلية بيرنال إيريرا، هو صديقى وأهل للثقة. يتمتع بالخبرة والجدية والحس العملى. وهو يعى أن للنظام حدوداً، وأن الفوضى تفتقر لهذه الحدود. وتتمثل سياسته فى التوازنات، وفى تفادى الفوضى العارمة والتطرفات الشريرة التى تغذيها: الجوع وانعدام القيم، وفقدان ثقة الشعب. يعلم إيريرا جيداً أن الفوضى تتسبب فى أعمال هوجاء وتأوى المغامرات السياسية التى سرعان ما تتكشف لتصبح مصائب. تفتح المرارة جروحاً كثيرة ولا تمنح الوقت الكافى لمداوتها. يشجع إيريرا ثلاثة أنواع من القوانين: القوانين التى يمكن تطبيقها، والقوانين التى لا يمكن تطبيقها أبداً والقوانين التى تعطى آمالاً للشعب، سواء طبقت أم لا، فهى للغد أكثر من كونها لليوم. هذا هو أفضل وزير وسياسى لدينا.

أما وزير الخارجية باتريثيو بالافوكس الجالس بجوار إيريرا هو رجل محنك آخر، ومثالى لكن عملى. يتفهم أننا جيران للقوة العظمى الوحيدة وأننا نستطيع اختيار أصدقائنا وليس جيراننا (ولا ـ كما يقول المثل ـ

يمكنا أيضاً اختيار أقاربنا المزعجين بالنسبة لنا أحياناً). يتعاون بالافوكس بشرف مع الأمريكيين ولكنه ماهر ليجعلهم يعتقدون أن فى المكسيك ديمقراطية وأنها عليها أن تحترم الرأى العام لمواطنيها. أحياناً يقول لهم لا نستطيع أن نعارض الرأى العام مثلما لا تستطيعون أنتم، هل تفهموننى. السيئ أنهم يستسلمون بدون عواقب هذه الحقيقة. تهتم الإدارة الأمريكية بالاستفتاءات والمعارضة داخل الكونجرس والمحررين فى الجرائد الكبرى أما الحكومة فهى تفعل ما يحلو لها طالما تتصرف مع كل هذه العوامل.

ندفع أحياناً ثمناً غالياً لقرارتنا بالاستقلال، مثلما يحدث الآن فى قضية كولومبيا. اضطررنا إلى تأييد الرئيس الجديد خوان مانويل سانتوس مطالبين إياه بخروج القوات الأمريكية. لم نكتف بالخضوع فى الاتفاقيات التجارية، ودعم مكافحة الإرهاب، والإدلاء بأصواتنا المؤيدة داخل المنظمات الدولية، وعدم حماية المكسيكيين، الذين تعرضوا لاعتداءات، والقابعين فى السجون الأمريكية ظلماً فى انتظار أحكام الإعدام. يكفينا الزرين الأحمرين: كولومبيا والبترول لإثارة رد فعل واشنطن الوحشى والمتطرف هذا، بأن تتركنا بلا أى اتصالات، فى فضاء صحراوى من العولمة.

ومع ذلك لن تلمح أية إشارة تنم عن القلق فى وجه السيد الوزير بالافوكس. فهو ينحدر من عائلة عريقة كانت شاهدة على ثلاثة قرون من التاريخ الوطنى المضطرب. لن يحركه شىء. فهو بلا أعصاب. ومحترف. بالرغم من أن الألسن الشريرة تقول عنه:

لا يعود الهدوء الشديد لوزير الخارجية بالافوكس إلى انتمائه للدم الأزرق وإنما لشهرته التى اكتسبها كلاعب بوكر.

يبدو أن السيد الوزير لم يتلق العلم فى قاعات فيرساى وإنما فى صالات القمار، والغرف المتلئة بدخان السجائر والأضواء الخافتة والموائد الخضراء. أو كما نسميها مملكة الحظ. قل لى يا تلميذى الجميل، كيف أجمع ما بين حاجتى والحظ؟ فهذا هو السؤال الكبير الذى لا رد له على

مدار العصور، كما يقول لى صديقى الحميم خابيير ثاراجوثا والذين أطلقوا عليه على حق اسم "سينيكا" والذى تعلمت أنا منه، يجب أن تعرف هذا، أكثر مما تعلمت فى السوربون عندما كنت أدرس العلوم السياسية. أقرأ بهذه المناسبة المقال المهم الذى كتبه دون فيديريكو رييس إيروليس. تأملاته بعد أن أكمل الخامسة والستين.

والآن سوف نتدنى عزيزى التلميذ نيكولاس بالديبيا. وهاهو مسئول الإنفاق بالجمهورية السيد دومينجو هدى لاروسا والذى يطلقون عليه لقب "الفلامنجو" لا يعرف على أية قدم يقف، اليمنى أم اليسرى. وبما أن حكومة السيد الرئيس حكومة وحدة وطنية، فهى أحياناً تفضل المحافظين و أوقات أخرى التقدميين. السيئ أنهم لا يحظون بالشرف إلا وهم فى مناصبهم. وبمجرد أن يدخلوا الحكومة يتآخون ويختلطون فى الفترة البائدة لشخصية غريبة الأطوار فى تاريخ بلادنا الرهيب، وهى شخصية "تلاكواتشى" جارثوريتا.

من يعش خارج الميزانية، فإنه يعيش فى الخطأ.

وأنقل عنه لك أن من يحاول الحصول على صداقات الجميع بمنحهم امتيازات، لن يجمع أبداً مالاً يغنيه. هو لا يفعل ذلك وإنما الجمهورية هى التى تفعل.

أنت على حق يا حبيبى نيكولاس. فى أن وزير التعليم أوليسيس باراجان ملىء بالعيوب. يقولون عنه إنه أكثر كذباً من أطباء الأسنان. وأن حواراته الفردية الأبدية التى لا تنقطع لا فائدة منها سوى أنها تدهش أى مستمع، وهو أمر مفيد إن تعلق بنقابة العاملين بوزارة التعليم، والتى تضم مليونى عاملى ترهبهم الحكومة عندما يجتمع بهم فى قاعة "إلبا إيستر جورديو" للمناسبات. والسيئ فى السيد الوزير باراجان أن خطبه مملة لدرجة أنها لا تجعل المستمع إليه ينام وإنما تجعله يغفو هو شخصياً. ومن المعروف قصة قاعة المؤتمرات حيث وجدوا الحاضرين غارقين فى النوم مع انتهاء السيد الوزير من كلامه. نام الحاضرون ونام هو أيضاً. جذب

الصمت الطويل داخل القاعة حارس "الكلية الوطنية"، والذى اكتشف أن الجميع غارقون فى السبات الكامل. الحاضرون الستة وستون ومحاضرهم الوزير باراجان.

أما سيادة وزير الصحة أبونديو كولميناريس فهو يتولى مهام منصبه بأناقة وفانتازيا بعض الشيء. رجل ساحر ويستغل منصبه فى تحقيق الاستمتاع تحت مسمى العلاج. ويقولون عنه إنه قاس وهائج، لا يدع أى رجل يكرهه أو أية امرأة يشتهيها.

وتلمع السيدة جويرمينا جيين وزيرة البيئة بنواياها الطيبة. فهى خيالية للغاية ويكفيها أن تفعل عكس ما تقوله ليصبح واقعياً. تحصن محميات الطيور بالأدخنة حتى يهلك أى شىء طائر هناك. تمنح امتيازات قطع الأشجار حتى لا تصبح هناك غابات تحميها. وتُحل المشكلة. طُلقت من زوجها من وقت قريب عندما اكتشفت أن الرجل الطيب لا يضع طاقم أسنانه المستعار سوى عندما يذهب لعشيقته.

والسيد باسيليو تاراسينا وزير العمل فهو نقيض لكل ما يبدو عليه. تحقق فى عينيه التى تشبهان عينى الهنود، صافيتين ولكنهما غير هادئتين. غائمتين وحذرتان وساخرتين، وإن كان هناك ما يعيبه فهو جسده. لاحظ سلسلة الرعشات المستمرة، هرشه الدائم فى ضلوعه ورقبته وتحت إبطيه وبين فخذيه كما لو أن البق يعشش فيها.

السيد وزير الزراعة إيبيفانيو آلاتورى يمارس السياسة الوطنية منذ عهد لوبيث ماتيوس ويشتهر بتنبوءاته فى المحاصيل والمناخ.

تبعاً للأمطار، فإن المحصول هذا العام قد يكون جيداً أو سيئاً أو عكس ذلك بالمرة.

ولأنه يمارس السياسة منذ أكثر من نصف قرن فهو ـ دوما ـ يواجه سؤال كيف عاصر كل هذه التغيرات من لوبيث ماتيوس إلى فوكس إلى تيران. وعندها يبلل السيد إيبيفانيو أصبع السبابة ويرفعه للإشارة إلى أنه

يعرف أين تتجه الرياح. إياك أن تدخل معه فى جدال. سيكون الأمر كما لو أنك تتناقش مع فريق ماريانشى(*).

ولا تثق كذلك فى وزير الإعلام فيليبى آجييرى. لاحظ أن وجهه بلون جواربه، وهى إشارة لا تخطئ عن الانحطاط. أو افتقار الخيال. وهو ما تثبته مقولته الشهيرة عن الزواج:

ـ هل ترغب فى أن تصبح عجوزاً؟ إذاً عليك بالعيش مع السيدة العجوز نفسها .

وإن كانت النصيحة عاطفية، فإن سلوكه لا يعكس ذلك. فقد كبر السيد الوزير مع نفس السيدة العجوز، وهى سيدة هائلة الحجم تدعو إلى التحلى بالوقار معها، حيث تمشى مغلقة العينين، كمصاص دماء تعميه أشعة الشمس. وهو دليل على أن مسئول الإعلام لدينا يستطيع التواصل أفضل من خلال الصمت، فى الظلمات، ويصدر ـ كما يفعل فى الواقع، امتيازات وعقود عن طريق لجان لعوبة. ولماذا يغفر له السيد الرئيس، لأنه يعرف أن السيد الوزير لا يرى شيئاً ليسرقه الكامل؟ نظرية فريدة وقديمة، يا حبيبى نيكولاس، ليس هناك حكومة تعمل بدون زيت الفساد .

انظر إلى الوجه المتحسر للمدير العام لشركة البترول الحكومية السيد أوليجاريو سانتانا . يتجه إلى العاصمة الأمريكية مع تأميم الصناعة، ولكنه عندما يحين وقت الدفاع عن أسعار البترول، تعاقبنا حكومة الولايات المتحدة، معاقبةً مستثمريها أنفسهم.إنه التناقض الدائم لواشنطن ما بين ادعاءاتها الدولية ومصالحها المحلية الصغيرة: مصنع النسيج بكارولينا الشمالية دوماً ما يفوز على مصنع النسيج البرازيلى ومنظمة التجارة العالمية، لأن هؤلاء لا يدلون بأصواتهم.... ما هذا الوجه الذى تضعه؟ للمدير العام كما تستطيع أن تلاحظ، وجه مغتصب طفلات من ذوات العشرة أعوام. كيف يظهر أمام العالم بهيئة المذنب تلك؟ اشفق عليه.

(*) موسيقى شعبية مكسيكية (المترجمة).

والآن حوّل نظرك إلى العسكريين اللذين يجلسان جنباً إلى جنب. وزير الدفاع يدعى موندراجون فون بيرتراب ويبدو أنه "جانكر" [١] من بروسيا. درس فى المدرسة العسكرية الألمانية، وعلى علاقة رائعة بالبنتاجون، ويحفظ عن ظهر قلب حملات قيصر فى غرب أوروبا وحملات بونابرت فى إيطاليا، ويتلو عليك فون كلاوزفيتز، وليس هناك صفحة من حكايات ليفيو[٢] وكتاب جيرمانا لتاثيتو[٣] لم يقرأها. هو الثمرة الأكثر نضجاً للقيادة المثقفة والمسئولة، جادة ومخلصة، التى استغرقت المدرسة العسكرية البطولية أجيالاً لتشكيلها. ولكن لا تتعجل أن تضع يدك فى النار، يا عزيزى نيكولاس بالديبيا. بالتحديد فإنه نتيجة لتأهيله وجديته فإن بون بيرتراب هو رجل مستقل منظم يقوم بواجباته على أكمل وجه: الإخلاص للسيد الرئيس مادام يجد السيد الرئيس ـ مخلصاً بدوره لمؤسسات الجمهورية، ولكن إخلاصه أكبر لروح الوطن ـ مهما كانت كلفة الأمر – عن إخلاصه للرئيس نفسه، إن لم يلب الرئيس ـ فى رأى الجنرال، أوامر الوطن بالحرف الواحد. ولكن لوردنا الشاب المثير للإعجاب لا يوسخ يديه أيضاً، يا نيكولاس، يدع هذا الأمر للشخص الشؤم الذى تراه جالساً بجواره، الجنرال ثيثيرو آروثا، رئيس الشرطة الفيدرالية.

عليك بالحرص فى التعامل معه، خذ كلامى مأخذ الجد. فإن بون بيرتراب هو الوجه اللطيف للقوة. وآروثا هو الوجه الكريه. وشعاره هو الدم والموت والنار. إنه ذئب وجلده ملون. عقبته الوحيدة هى بون بيرتراب والذى قال عن ثيثيرو:

منح السلطة لآروثا هو وضع مهووس بإشعال الحرائق أمام فريق من رجال المطافئ.

---

(١) كلمة ألمانية تعنى لورد شاب. (المترجمة).

(٢) كاتب ومؤرخ رومانى قديم ولد ٥٩ ق. م. وتوفى ١٧ ق. م (المترجمة).

(٣) كاتب ومؤرخ رومانى وكتاب جيرمانيا يدور حول عادات وتقاليد الشعوب التى كانت تقطن منطقة جيرمانيا آنذاك (المترجمة).

ولكن لا أحد ينكر - وأقول لك لا أحد - لا يشك فى أن آروثا لا غنى عنه فى لحظة معينة. وهو يعلم ذلك و يستغل هذه اللحظة بترقب فهد فى الغابة. يقولون إن الجنرال ثيثيرو كان قادراً على جعل بينيتو خواريث الذى كان عميلاً للفرنسيين يعترف. هو إيجابى دوماً، والإيجابية بالنسبة إليه كممارسة فعل حميمى فى العلن.

سوف أكتفى بجملة أو جملتين فى الحديث عن السيد وزير الإسكان، إيفرين إيتوربيدى. يقولون عنه إنه أكثر البلهاء أناقة فى العالم. يتباهى أنه سليل إمبراطور القفشات فى بداية القرن التاسع عشر، آجوستين الأول، وهذا ليس صحيحاً. ينتهز إفرين هيئته الطيبة ليختلق شجرة عائلة مزيفة. حقاً، لا يمكن لأحد أن يتمتع بهذه البشرة الرائقة بدون أن يكون "طيب الخلق". طيب الخلق، صديقى؟ يقول الرأى العام عنه وعن منصبه:

إيفرين إيتوربيدى هو وزير الدولة لمسكن إيفرين إيتوربيدى.

هذا ما حدث. لم يشيد سوى منزل واحد، وهو منزله.

هذا الرجل ذو الوجه المنذهل هو خوان دى ديوس مولينار، وزير الإعلام والاتصالات، والآن هو محروم نتيجة وبفضل جيراننا الأقوياء من أية قدرة إعلامية أو معلوماتية، ما عدا كما قررت أنا (ويا ليت تنتشر وسيلتى هذه) الرسائل. انظر إليه يالسوء توزيعه. هيئة شخصية تنتمى لزحل، أعين نمر، ابتسامة خجولة، وأيدى نجار ونصف جسده الأعلى لتينور إيطالى. أحياناً تكون الطبيعة مخادعة!!! وما يزيد الطين بلة الفم المغلق كما لوكان قفلاً. إنه صورة للذهول الأبله تزعجنى. يقول صديقى إيريرا إنه هكذا أفضل. طالما وزير الإعلام لا يدلى بمعلومات فإن وزارة الداخلية تحيك أمام نظارته الأخبار.

وعلى النقيض ألق نظرة إلى جانبه لتجد النائب العام المبتسم بالاديو بياسينيور وهو يقول للجميع " حسناً جداً، حسناً جداً" ولهم حق أن يطلقوا عليه السيد "حسناً جداً"، ولكنى أعتقد أنه أكثر مكراً مما يبدو عليه

وتنقذه شهرته كغبى من اتخاذ القرارات الحاسمة. له استخدامات ومزايا. وليس عبثاً أنه وفقاً للظروف أحياناً ما يكون ثعبان بحر أو أخطبوطًا.

والآن، يا عزيزى نيكولاس، يأتى الثقيل. وزير المالية آندينو آلماثان وهو تكنوقراطى من حديد ليس على استعداد أن يتزحزح قيد أنملة عن قناعاته الاقتصادية. يخترع نظريات فى الاقتصاد عتيقة وفخمة. بالنسبة إلى آندينو، فإن تخفيض قيمة العملة كما لو أن لديك ابنة مومس. الذى لا يعرفه المسكين أن زوجته المعروفة باسم "البذرة" هى بالفعل مومس تخونه طوال اليوم. ولكن دعنا نتحدث عن هذا الأمر لاحقا يا حبيبى.

أرغب فى الخوض فيما هو أسوأ، أتوج مراجعتى هذه بمن يمثل الرعب نفسه، الصوت الأكثر غموضاً فى هذه الجوقة الجمهورية: المنافق البائس الحقير تاثيتو دى لا كانال. غطاء جيد: لا ينبغى أن يتعرض للضوء. وجهه كما لو أنه ندبة واحدة. من أسفل ذقنه إلى قفاه والتى تعلوهما أشواك مزغبة والتى تزين رأسه الصلعاء التى تشبه البيضة بصورة رديئة. انظر إليه وهو يفرك يديه فى فعل متواضع متقن. يأخذ هيئة المحتاج دوماً، والذى على وشك أن يعود للشحاذة. هو ممسحة أرجل أو البساط المؤدى إلى السيد الرئيس، بكافة المعانى. يتحكم فى الدخول إلى مكتب مجلس الوزراء. ويعرض أن يمسح نعل حذاء الرئيس قبل دخوله مكتبه الرئاسى. إن تاثيتو دى لا كانال رجل يعطى انطباعاً بأنه لم يتنفس هواء نقياً فى حياته قط. هذا ما يقولونه عنه. وأن أعلم أنه ليس حقيقة. لأن تاثيتو دى لا كانال هو الرجل الذى يتجسس على كل ليلة من الغابة وأنا أخلع ملابسى. هو المتلصص ـ الذى سبقك، الحقير الذى رأيته ليلاً....

هذا هو توزيع الأدوار فى الفيلم. وأدع إلى مناسبة أخرى فريقًا تمثيليًا آخر فريدًا، أفراد الحظيرة المتميزين، أعضاء مجلسى الشعب والشيوخ، الذين تفرقوا فى أحزاب صغيرة، تاركين قيادة البرلمان فى أيدى عاجز قدمته إليك سابقاً أونيسيمو كانابال، ولكنهم يعوقون، بفضل تشرذمهم نفسه، تمرير القوانين التى لا غنى عنها، تاركين الرئيس والوزير

إيريرا مضطرين إلى "عدم الالتزام بالقوانين" أى بنفعية أحياناً ما تكون شرعية مثل الآن (كولومبيا، البترول)، والتى تضطر إلى إخراج قوانين تتسم بالمبادئ لتعويض نفعية اضطرت، نتيجة تشرذم البرلمان، أن تصبح مكررة علينا كل يوم.

والآن النبأ الجديد، يا بطلى الوسيم الليلى. طلب صديقى المقرب وزير الداخلية بيرنال إيريرا معروفاً شخصياً من السيد الرئيس بأن يعينك مستشاراً لمكتب الرئيس فى "لوس بينوس" حيث تكون تحت إمرة تاثيتو دى لا كانال كليةً.

هل منحتك هدية سامة؟ لا. بل أعرض عليك فرصة استعادتى، يا حبيبى المتدين، تفاحة ذهبية من الجنة البائدة. انتهز الفرصة يا بالديبيا. ماذا تريد أكثر من ذلك يا نيكولاس؟.

ـ ٨ ـ

خابيير ثاراجوثا "سينيكا"

إلى الرئيس لورينثيو تيران

آه يا سيدى الرئيس! كيف أنسى ما أخبرتنى به بعد توليك الرئاسة بأربع وعشرين ساعة؟

تولى الرئاسة يا "سينيكا"، وأن يضعوك فى قلب رايتنا ثلاثية الألوان، وأن تجلس على كرسى النسر و "هيا" كما لو أنك قد صعدت إلى الأرجوحة، تشبث بكامل قوتك بالمقعد واجعل وجهك مذهولاً ولا تبدله أبداً، وبمجرد أن تبدر منك إيماءة تعد إلى قناعك ثانية، ولا تغير هيئة وجهك طوال السنوات الستة، كلما تظاهرت بطرق ابتسام مختلفة أو سمت الجاد أو المتشكك أو الغاضب، سوف تتملكك إشارة هذه اللحظة المرعبة التى تكتشف فيها، يا صديقى، أن مقعد الرئاسة، كرسى النسر، ليس إلا، لا يزيد أو ينقص، عن كونه مقعداً فى أرجوحة نسميها جمهورية المكسيك.

منذ اللحظة التى أخبرتنى فيها بهذا، يا سيدى الرئيس، فهم كل منا ـ سيادتك وأنا ـ أنك دعوتنى إلى جانبك للحديث بصراحة، لتقديم النصح إليك بدون أى انتهازات شخصية، لأساعدك على إخفاء إشارات الدهشة والتى شعرت بها بعد أن عرفت إنك تم إلقاؤك إلى الهوة من القمة المتعرجة فى هذا الاستعراض الكرنفالى المدعو " رئاسة الجمهورية".

سوف يختارونك يا "سينيكا". وسوف تفقد اتصالك بالناس. ولن يجرؤ حتى أصدقائك المقربين على انتقادك.

حسناً لقد حاولت أن أكون جديراً بثقتك ومع أنه ربما قد تكون نصائحى ليست أفضلها، ولكن معك الحق أن تواجهها بآرائك المعارضة لها. إن واجبى (كما أفهمه على الأقل) هو إخبارك بما أفكر فيه بمنتهى الصراحة. لقد مرت أيام معدودة من سنواتك الثلاثة الأولى فى الرئاسة، وانتقادى الصريح إليك هو أن الجميع يشعر بأنك مفتقر للعزيمة. لا يرونك تفعل. وإنما يرونك تترك الأمور تجرى. أنا مطلع على فلسفتك. لقد مضى عهد الشمولية، عندما لا يتم اعتبار سوى إرادة الرئيس سوف يعم التمرد من سونورا إلى يوكاتان(*) مثلما تنتشر قبعات ماركة تاردان التى أضحت موضة.

نحن نعلم أن هذا ليس صحيحاً بالمرة. فإن الدكتاتورية الناعمة للحزب الثورى المؤسسى قد تم تقليصها بهامش من التسامح تجاه النخبة المكسيكية، انتقاداتها، سخريتها، وآراؤها فى العموم التى تتسم بعدم الاطلاع. يستطيع الشعراء والروائيون وبعض الصحفيين ورسامو الكاريكاتير ورسامو الجداريات غير المفهومين لدينا التعبير ورسم ما يحلو لهم تقريباً. كانت انتقادات النخبة المثقفة إلى النخبة الحاكمة، تنفيسات ضرورية للبخار، مثل كاركاتيرات سوتو إلى بريستاين وكانتينفلاس وباليو. والذين كانوا يتمتعون بهذا الامتياز اللطيف. والذى لم يحظ به العاملون فى السينما وغالبية الصحفيين والمنتسبون للنقابات المستقلة. وفى المقابل؟ ماذا عن حكام الولايات، والعمد، والعساكر وقوات الشرطة فى العموم، بما فيهم مساعدو الجمارك؟ هم قطيع من السلطات المحلية، سيدى الرئيس، يتصرفون بحصانة فاسدة و وكلها نزوات. الفاسدون وحدهم هم من كانوا أحراراً. لقد اخترعنا ثقافة لعدم المساواة، حتى عندما يعمل الرئيس بصورة شرعية أو يشن "حملات أخلاقية".

بحق الرب، ياسيدى الرئيس! إذا كانوا يتحدثون من المستعمرة الإسبانية مدريد عن الشعب المكسيكى أى عن الرشاوى والفساد و..... كوسائل شرعية لحكام الولايات . فأنت تعلم سيدى "من لا يدفع لا يمر".

(*) ولايتان فيدراليتان من بين ٣١ ولاية فيدرالية فى المكسيك (المترجمة).

ماذا حدث لسيادتك، رجل نقى وصل من المعارضة لتنظيف إسطبلات آوخياس وتصادف أنك هرقل ديمقراطى يثق فى قوة المجتمع من أجل تحقيق الطهارة التى حققها هرقل الأسطورى بضرباته، ومثلما فعل هرقل الإله، قام المسيح بتطهير معبد التجار بالسياط.

إن أخلاقك يا سيدى الرئيس تثير الإعجاب. دع المجتمع يطهر نفسه بذاته. واترك الأنقياء يطهرون الفاسدين. اعذر، صراحتى، للمرة الثانية، واسمح لى، يا سيدى الرئيس، أن أخفف من انتقاداتى. ولقد اكتشفت بنفسك أن هناك جوانب مظلمة جداً من الحياة المكسيكية لا يستطيع أن يسيطر عليها سوى أصحاب الأيدى القذرة.

وفى الوقت نفسه اعتن سيادتك بالارتقاء بالموظفين النزيهين القادرين على إصباغ صورة جيدة على نظام الجمهورية. والدليل على هذا العامل الأخير وزيرك للدفاع ورجل الجيش الذى تم التأكد من نزاهته الجنرال موندراجون بون بيرتراب. ودليل آخر وزير الداخلية بيرنال إيريرا، المحترف الشريف، والذى يلتزم بالقانون ولكنه يعلم جيداً الحكمة اللاتينية القانون صارم ولكنه القانون - القانون صارم ولكنه القانون(*). وفى المقابل تعلم تماماً سيادتك وبون بيرتراب أن رئيس الشرطة قاتل متوحش.

شر لابد منه؟ ربما يكون الأمر هكذا. ولكن هناك حالة أخرى، ياسيدى الرئيس، ترفض أن تتأملها وهو مدير مكتبك تاثيتو دى لاكانال. أعرف أنى أعرض أفكارى بصورة رهيبة: أتهم بدون أدلة. حسناً. سوف أشير وحسب إلى ملاحظة أخلاقية بسيطة. هل يمكن لرجل بكل هذا التملق مثل تاثيتو أن يكون شريفاً؟ ألا تشك سيادتك أنه وراء كل هذا الخنوع بئر من النفاق؟ ألا تعتقد أن تاثيتو دى لاكانال يحتاج إلى نظرة أكثر دقة من جانب سيادتك؟ أو علىَّ أن أتخيل أنك تغض النظر من أجل المنفعة ليصبح حارسك العبد والثقيل لكى تعيش فى سلام، متملقاً من عبدك

(*) باللاتينية فى الأصل dura lex, sed lex .

ومحمياً من كلبك؟ أقسم لسيادتك إنى أعلم ضرورة أن تمتلك قزماً مشوه الخلقة على بوابات القلعة من أجل طرد غير المرغوبين والطموحين والمضجرين. هل فكرت سيادتك فى أن كلب منفعتك هذا يطرد أيضاً المستشار الأمين والصديق الوفى والتقنى النافع والمفكر المهموم لأن تاثيتو يرى فيهم، وهذا الوقح على حق فى هذا، خصومه اللُد فى التمتع باهتمام الرئيس؟

أكرر، يا سيدى الرئيس، أعذر صراحتى القاسية أحياناً فى التحليل، ولكنك منحتنى هذه الوظيفة من أجل أن أخبرك بالحقيقة. ولقد حذرتك من أول يوم. يستطيع السياسى أن يدفع للمفكر. ولكن لا يقدر على الثقة به. ينتهى الأمر بالمفكر إلى المخالفة ودومًا يعدها السياسى خيانة. شرير أم ساذج، ميكافيللى أم مثالى، يعتقد صاحب السلطة دائماً أنه على حق وأن من يعارضه خائن أو على أقل تقدير شخص لا لزوم له.

ـ ٩ ـ

ماريا ديل روساريو جاليان
إلى بيرنال إيريرا

أتفهم، يا بيرنال، أنك يجب أن تجرى فحصاً أمنياً شاملاً قبل أن تقبل فى المركز العصبى للرئاسة شخصاً مجهولاً مثل نيكولاس بالديبيا. اقرأ بتمعن المعلومات التى أرسلتها إلىَّ. مولود فى ١٢ديسمبر ١٩٨٩ بمدينة خواريث بولاية تشيهواهوا. من أب مكسيكى وأم أمريكية. وكان يعملان فى "الباسو" بولاية تكساس، ولكنهما أقاما فى مكسيكو. وسجل نيكولاس يقبع فى مكتب سجلات مدينة خواريث. توفى الوالدان فى حادث طريق عندما كان بالديبيا فى سن الخامسة عشرة.

ثمة فجوة كبيرة إلى حين ظهر بالديبيا وهو يدرس فى باريس فى نفس المدرسة التى درسنا فيها أنا وأنت. لقد تحققت. يعرف جيداً المواد والمعلمين. تعرّف فى السفارة المكسيكية فى فرنسا على الجنرال موندراجون بون بيرتراب والذى كان يشغل آنذاك منصب الملحق العسكرى بالسفارة. استغل بون بيرتراب الشاب التلميذ فى المدرسة الوطنية للإدارة بباريس لتقديم تقارير وجمع معلومات وما شابه. وأعاده إلى مكسيكو، حيث قضى بالديبيا خمسة أعوام يدرس على نفقته الخاصة فى موطن رأسه تشيهواهوا.

ماذا عن حياته بين الخامسة عشرة والخامسة والعشرين. لقد طلبت هذه المعلومات من وزير الدفاع الآن بون بيرتراب. ولكنه ابتسم. من يعرف فى الحقيقة حياة مراهق يتيم مجبر على كسب عيشه.

وهدأني بون بيرتراب. تحدث معه إن رغبت في إنهاء الموضوع. لقد عاش نيكولاس حياة متسكعة، داخل سفن نقل مكسيكية و شاحنات هولندية ماراً بانتظام على ميناء "تامبيكو"، يقرأ بنهم، ويتعثر في الدراسة وكان يحصل على مقبول في المواد الدراسية. حتى تمكن من دخول المدرسة الوطنية للإدارة بفضل طلب من الجنرال بأوراق تثبت تعليم بالديبيا المتعثر، إلى جانب عزيمته وإخلاصه. ياللعجب شاب يشبه جاك لوندون أو إرنست هيمنجواي.

هل ترغب في توصية أفضل من هذه، يا بيرنال؟ ربما هناك شقاوة أو أخرى في حياة مثل تلك. ثق (لمرة أخرى) في حدسي الأنثوي. يتطلع إليَّ نيكولاس بالديبيا بوجه ملائكي. يقول إنه يحبني. سوف أتركه يحبني. ولكني أفهم النظرة الأخرى، المتأججة، التي يضعها هذا الشاب عندما يعتقد أني لا أراه. هذه النظرة " الضعيفة والجائعة" والتي وصفها شكسبير في يوليوس قيصر. هي نظرة الطموح. شيطان صغير بوجه ملائكي؟ ماذا نريد أكثر من ذلك، يا صديقي الحبيب لنهزم تاثيتو دي لا كانال؟ سوف يدين لنا بالديبيا بكل شيء ويسلمنا كل شيء. يخبرني حدسي بأنه عميلنا المثالي. لقد قلت لي إنه في السياسة تكون الدماء الجديدة لازمة ولكنها خطيرة.

دعني، يا حبيبي، أكون من يخوض المخاطرة، وفي حالته، أدفع ثمن الخسائر إن وجدت. أنت وأنا في لعبة من ألعاب السياسة الواقعية. والتي أحياناً ما تكون مثالية، كما أثبت رئيسنا بصورة كارثية في الأول من يناير. ولكنها في النهاية، قسراً، هي واقعية. أجمل ما في سياسة الواقع هو أنك قد تعكسها في لحظة. تاركاً المبادئ الأساسية دون أن تمس. ويعتبر نيكولاس بالديبيا عرضاً في سياستنا الواقعية نحن - الاثنين - ننتشله ثم نرميه في القمامة.

تخيل لقد ذهبت معه إلى أبعد حدود اللعبة بأن قلت له إني سأكون ملكه جنسياً حين يصل للرئاسة. أعتقد أنه صدقني!! أو على أية حال فقد أشعل عرضي خياله وحفز رغبته.

مهما حدث، نحن فى حاجة إلى عامل داخل كهف الأفعى. وإن لدغت نملتنا بالديبيا وماتت. سوف نزرع آخر. هو الآن رجلنا فى قصر "لوس بينوس". دعنى أخدعه وأتحكم فيه. وثق فى أنه لو ذكى سوف يساعدنا بانتظام.

عندما قلت له:

سوف تكون رئيساً للمكسيك.

لم يهتز بالديبيا الشاب. ولم يظهر أية دهشة. وربما فكر مثلك:

ماذا يحدث لو أنه خاننا، ماذا لو كشف عن مخططنا، بدون قصد أو من أجل طموحه.

أظن أن هذا الشاب فى غاية الذكاء. يعرف قراءة النظرات، عندما قرأ نظرتى:

لو خنتنى، لن يصدقك أحد. سوف يعتقدون أنك مجرد طموح ضئيل أو ربما أبله كبير. لن تهمنى لو أصبحت ضحية أريدك حليفاً. فأنا فى حاجة إلى .... مثلك.

بقدر ما هو ماكر فهو مغرور. يصدقنى. سوف تحدث المشكلة عندما يكتشف خدعتنا. قد يتخذ رد فعل انتقامى. ينبغى التأكد من أن ضحايانا ليس لديهم أسلحة للانتقام.

ـ ١٠ ـ

"لابيبا" آلماثان

إلى تاثيتو دى لاكانال

يا سيدى، وأصلعى الذهبى، وبيضتى المملحة، قل لى إن كان سيهمنى كتابة الرسائل لك إن كنت لم أفعل شيئاً آخر منذ أن ارتبطنا وحرصت، الآن أكثر من أى وقت مضى، يا حبيبى، على عدم ذكر اسمك المقدس. أنت تعلم: أرغب فى يوم ما، بعد مضى وقت طويل، نعم، أن يعثروا فى خزانة جدتى اليوكاتانية على حزمة رسائل حبى، والتى وقتها لن تصير رسائل زوجة غير مخلصة، وإنما من عاشقة متلهفة ورومانسية، والتى هى أنا بالضبط نحوك، يا خطيبى، سوف تنطلق ألسنة السوء؛ لأنهم لا يعلمون شيئاً عن لسانك الطيب واللذيذ، الطويل، الدافئ عندما تجوب بقبلاتك جسدى المثالى كفينوس من الرخام، كما اعتدت أن تسمينى... ولكن كفانا من المتع، يا حبيبى السرى، وهيا إلى ما يشغلك، وهو القرب المتزايد كل مدى للمتآمرة م. ر مع خصمك الوزير ب. إ. أحياناً تفيض طيبتك، يا حبيبى المقدس، ولولائك لـ "ر"(*) لا ترى من يرغب أن يغرقك بوسمك أنك واش قذر. هذه هى اللعبة القذرة للزوج الحقير، يجعلك تبدو لاعق أحذية متسلقًا عديم الخلق يستغل قربه من الـ " ر" ليتسلق، ليصل هو أيضاً إلى الرئاسة فى الجولة المقبلة. ولما لا تصير "ر"، يا حبيبى «ت»، فقد مر العام الثالث من "الفترة" (ولا أشير إلى هرموناتى الإلهية) ، كل ما يهم فى الـ "ر" هو خلافة الـ "ر".

(*) «ر» تعنى رئيس (المترجمة).

سترى كيف أنظر إلى الأشياء. م. ر متحالفة مع ب. إ. تكمن قوة ب. إ في جديته وتوازنه اللذين يقدرهما الآخرون. شهرته بأنه أمين في بلد من اللصوص. اترك المؤامرة القذرة تدبرها م ر، التي تملك أذن الـ "ر" لأنك تعلم أن الـ "ر" رجل يقدر المعروف وكانت امرأته العطوف التي علمته حيل السياسة الأساسية. أسوأ وأجمل ما في الـ "ر" دائماً أنه يقدر المعروف. فانظر إلى الطريقة، يا جميلي، التي يقدرك بها أكثر من أي شخص آخر، يا رائعي الوسيم. المسألة صلعاء (آي، ليس تلميحاً عنك، يا أصلعي الإله) ونحن في أشد الحاجة، أنت وأنا، إن رغبنا فيما نرغب فيه، بأن نعثر على خطأ لهذا الزوج الشيطاني. لدينا ميزة هي الوقت نفسه عيب. يا زوجي الحبيبي كالصخرة في جبل طارق. لا يحركه شيء، هو ممل ولكنه أمين. يكفيه أن يطلع على أي تحرك مريب لهذين الشخصين ليعلم الـ "ر"، كما تقدم موسى في الجبل، مسلحاً بالشرائع.

زوجي موهوب في أن يجعل الناس يشعرون بالذنب. نعلم أن الـ، "ر" لا يتسامح في الشعور بالذنب. يكفي أن يُبلغ زوجي عن خطوة مزيفة لـ ب. إ لكي يرتاب الـ "ر". صدقني، يا حبيبي المعبود، خير سبيل لتكسب الـ "ر" هو أن تجعله يشك. أنت تعلم أنه رجل يحب الأمن، والأمن، ومزيد من الأمن. فدعنا لا نستغبي. حتى أنه يتساهل مع الفساد بشرط أن يكون آمنًا، أي، متوقع وموثوق. خذ إليك حالة السيد وزير الاتصالات، فيليبي آجيري. جميعاً نعلم، ويعلم الـ "ر" عنه أنه يلتهم قطع اللحم الأشهى من فخذ راقصة من كل تعاقد يوقع عليه. يعلم الـ"ر" ولكنه لا يهتم، بنظريته فهذا هو الفساد الملمع. وزير الاتصالات رجل ماكر. هذا معروف ومقبول ويقلده غيره، وأنت كما تحب.

ولكن ب. إ يتوقع منه (أو يتوقع منه السيد "ر" المبهم) الاستقامة والشرف والأخلاق وكل ما لا يؤكل. ولذا، يا أصلعي القوي، يكفي أن نوقع ب إ والعقيمة م. ر في حركة مريبة للقضاء على الطموحات السلطوية لهذين المدعوين. يثق فيك الـ "ر" ثقة وحشية، لأسباب أخرى. يقولها

بصوت عالٍ. بدون تاثيتو لن أخطو أية خطوة. أو لكل ما أحتاجه، يكفينى تاثيتو. وحتى هنا فى ميريدا يعلم الناس ما يقوله الـ "ر".

(ت) هو أكثر خادم وفى لى، لا يمكننى أن أخطو بدون ت، أثق فى ت كما فى نفسى ذاتها، ت هو الولد الذى لم أحظ به...

وهكذا وهكذا.

يا حبيبى الثمين، علينا أن نكون نسوراً أكثر من الذى صعد إلى الكرسى دون أن يستأذن. النسر الذى يزين كرسى الرئاسة.

ما مميزاتنا؟ فى البدء، تكتمنا. ليس هناك تدريب أفضل على السياسة خير من الزنا. أسرار، أسرار. مفاجآت، مفاجآت. لا يشك فينا أحد ولا يربط بيننا أحد. أعيش هنا فى أرض الطاووس والوعل، حسناً، ولقاءاتنا كعشاق فى كانكون لا يشك فيها أحد. ياللوحشية! بشعارك المستعار للهيبز، لا أعرفك نفسى فى الفندق، وأنت تسامحنى، يا رائعى الجميل، ولكننا فى آخر مرة ذهبنا فيها إلى الشاطئ دعانى زوج من الأمريكيين الشبان إلى الرقص فى "بار"، قائلين لى:

اتركى والدك بمفرده، دعيه ينام القيلولة..

سامحنى، سامحنى، يا "بابا"، ولكن أن أقول لك هذا فلكى تفهم أننا عرفنا كيف نتكتم أمرنا، بشدة، وأنه لا ذيل لدينا يدوسون عليه. أنت، من ناحيتك، كنت دائماً أستاذاً مدنياً فى جامعة المكسيك الوطنية، نائبًا محترمًا فى الحزب الثورى المؤسسى الراحل، ثم قناصًا للمرشح فى الأمس و الـ"ر" حالياً. بعيداً عن كل المساوئ. بالطبع يمكن اتهامك بأنك هائج، يا حبيبى المقدس، ولكن هذه ليست خطيئة، أو حتى مخالفة. ولكنك لست لصاً. ولا تقل لى شيئاً حيال هذا الموضوع. أرى كيف تعيش. شقة من غرفة واحدة فى كولونيا كواوهتيموك. برائحتها المفزعة للطبخ، والقمامة والبول الذى يفوح من دلاء السلم. حتى أنك ليس لديك مصعد! وستراتك الثلاثة من سيرس، وأحذيتك الستة من البورسيجى، قبعتاك الباسكيتان

اللتان تحميان صلعتك فى يناير. يا ربى! أنت زاهد، يا حبيبى! ما لا يعلمونه أن الصلع علامة ـ ثانوية، يقولون، ولكنها علامة فى النهاية ـ على الفحولة، وإنك إن كنت متواضعاً فى كل شىء آخر كما تبدو، فمواهبك الذكورية، يا ذكرى الصعب الاحتواء، لا منافس لها. كما لو أن الرب قد أعطاك كل شىء صغيراً ما عدا ما تعرفه، أسفل البطن الذى يشبه طرزان، عضو الشمبانزى هذا الذى تحمله، يا خجولى، والذى هو ملكى أيضاً، و لل "ر" الذى يعبدك ويطلبك، فكر جيداً، شغل مخك، فلم يتبق أمامنا سوى عامين لنصبح مزعجين.

أعبدك، يا ت، قل لى متى سنتقابل مرة أخرى.

ـ ١١ ـ

نيكولاس بالديبيا

إلى ماريا ديل روساريو جالبان

أشكرك على السماح لى برفع الكلفة فى الحديث معك، يا ماريا ديل روساريو. هذه هدية، خاصةً لأنك تكافئيننى على الموقف الذى وضعتينى فيه. أعلم أنه قرار السيد الرئيس. أعلم أنى أدين له ـ من خلالك ـ لوجودى هنا بمكتب بين مكاتب الحكومة. ولكن ما الثمن الذى ستجعليننى أدفعه، يا امرأة! إجبارى على رؤية تاثيتو دى لاكانال اليوم بأكمله! كل ما أخبرتينى به عنه ليس شيئاً أمام الحقيقة المعتمة. إن احتملته فلأنى أحبك لا غير وأقدر طلبك لى. وأحترم ـ فى الوقت نفسه ـ دوافعك. إن منصبى الأول فى إدارة تيران قريب جداً من الرئيس، فى المكتب الذى بمثابة قلب الرئاسة و إلى أوامر وزير شئون السياسة، تاثيتو دى لاكانال.

علىَّ أن أهذب نفسى وأتقبل الرفقة اليومية لهذا الشىء القمىء. وتلبية أوامره. واحترامه، إن لم يكن هذا دليلاً على حبى لك، يا ماريا ديل روساريو، فلا أعرف طريقة أخرى لتعرفى أفضل وتتأكدى، سوى انتحار رومانسى للشاب ورثر(*) تقولين إنه يبدأ الفعل من أى مكان وأنتظر أن يكون مرورى على هذا المكتب خاطفاً ومفيداً. أشعر بالاشمئزاز من حفاوة المحترم دى لاكانال، طريقته فى الانحناء أمام الرئيس، وضعه الدائم إلى جوار الرئيس كما الكاردينال إلى جانب الملك، حركته السريعة الخاصة بالخدم وهو يجهز المقعد للرئيس فى كل مرة يقف فيها تيران أو يجلس.

(*) أوبرا للفرنسى جول ماسينيه (المترجمة).

هل من الضرورى أن يكون تاثيتو هو من يفرد ويمد المنشفة إلى الرئيس وقت الطعام؟ ومع تبسط لورينثيو تيران، الذى يأكل فى أكمامه ويقذف ببقايا اللحم إلى كلبه الفرعون... لا أعلم إن كان "رئيس الخدم" يرغب فى أن يطعم الكلب، أو أنه يفضل فى الحقيقة أن يكون هو نفسه الكلب ويتلقى فضلات المائدة الرئاسية على أرجله الأربع.

إن كنت رغبتِ، يا ماريا ديل روساريو، أن تمنحينى دليلاً فورياً على الانحطاط الذى تؤدى إليه العبودية السياسية، لم يكن فى استطاعتك اختيار مكان أفضل أو ممثل أقدر. مضى علىَّ نحو أسبوع فى هذا المكتب، ولكن بإمكانى أن أعطيك تحليلاً مصغراً. تاثيتو دى لاكانال هو أستاذ التخفى، ماكر فى الظل، ومتواضع فى الشمس، كريم حين يكون الأمر لصالحه، ولكنه بخيل بطبيعته. يكفى رؤيته وهو يتعامل مع من هم أقل منه شأناً. يبدو أن لديه خليطًا من الخوف والاحتقار؛ لأنه لم يعد قليل الشأن ولكنه قد يعود ليصير هكذا.

هناك سكرتيرة مصطنعة نتيجة لمظهرها التنكرى الغريب الذى تأتى به للعمل. فى الأربعين من عمرها ـ ويلاحظ العمر عليها ـ ولكنها تمشى مرتدية كالطفلة الصغيرة. لا كشابة، يا ماريا ديل روساريو، وإنما ـ فى الحقيقة ـ كطفلة تماماً. خصلات شعر مموجة و"فيونكة" أزرق سماوى(*) تتوجها. فساتين من "التافتا" الأزرق أو الوردى، جوارب بيضاء ذات ثنايا مطوية وأحذية بدون كعب ذات إبزيم من ماركة مارى جان. خضوعها الوحيد للزمن هو وفرة الأصباغ فى وجهها لمداراة التجاعيد، ولون شفتيها الأحمر الفاقع الوقح، وحاجباها المزججان ورموشها المصبوغة بالريميل.

منذ رأيتها بالكاد، قررت أن هذه السيدة لديها سر، وأن احترامه من التعقل والإنسانية.

تخيلى اشمئزازى، ورعبى، عندما ظهرت أمس دمية "باربى" جالسة على المقعد الدوار للسكرتيرة الطفلة، والتى اضطربت أول الأمر ثم قرأت البطاقة المعلقة بمشبك فى شعر "باربى" الأشقر.

(*) Baby - blue بالإنجليزية فى الأصل.

لا أعلم ماذا تقول البطاقة، ولكن السكرتيرة قرأتها، وانفجرت فى البكاء وألقت بالدمية فى سلة المهملات. رغبت أن أستكشف وشرحت لى بينيلوبى، وهى سكرتيرة ناضجة، جذابة، ومستقيمة، أن المحترم دى لا كانال يتسلى باحتقار دوريس ـ وهو اسم المرأة- الطفلة ـ بإرسال هدايا تصلح لطفلة فى العاشرة من عمرها لها وانتقادها بعبارات مثل:

ماذا ستقول والدتك؟ أنت طفلة غير مجتهدة. وسوف يعاقبك المعلم.

وحينئذ دخلت دوريس مكتب تاثيتو، وخرجت بعد نصف ساعة باكية وهى تحاول أن توارى بكاءها، وغير مهندمة، و"الفيونكة" فى يدها، وهى تعدل "الكورسيه".

تقول بينيلوبى إن المحترم دى لا كانال لا يستطيع العيش بدون موظفة لا تكون "دميته"، وعثر فى دوريس على ضحيته النموذجية. ماريا ديل روساريو: أنا دوماً أطرق الباب قبل دخول مكتب تاثيتو، ولكنى لم أحتمل أمس وولجت عندما كانت دوريس بمفردها مع دى لاكانال. كان يحتجز المرأة - الطفلة، وهو يداعب أحد نهديها بيده اليمنى ويدخل اليسرى فى صدارى دوريس، وهو يهمس فى أذنها:

لا تقولى شيئاً لأمك أو سأعاقبك بشدة. كونى طيبة معى وسوف أهديكِ دمى أخرى. خافى من أمك وأطيعيها فى كل شىء- ولكن ليس فيما نفعله معاً، يا مومس.

أقول لك، يا ماريا ديل روساريو، إن توحش تاثيتو دى لاكانال أسوأ من فساده. يفعل أشياء صغيرة بغيضة مثل تفتيشه كل أسبوع على مخزن الأدوات المكتبية، ليحصى الأقلام الرصاص، والأوراق ذات العناوين المطبوعة، والأوراق بدون عناوين، ومشابك الورق، وأعداد الممحاة والمقصات والملفات والريشات وأقلام الحبر، وغيرها. وأمس سبقته الماكرة بينيلوبى وراجعت أدوات المكتب الناقصة.

معى العدد المضبوط، أيها السيد المحترم. إن رغبت، نراجعها معاً وترى سيادتك بنفسك أن العدد مضبوط.

أعدتيها فى الوقت المناسب، يا آنسة بينيلوبى؟- قال دى لاكانال المتحذلق.

لم أخذها قط، يا سيدى المحترم.

أى أنك تفتشين مكتبى، يا آنسة بينيلوبى؟

واجبى ألا ينقص منه شيء، يا سيد تاثيتو.

هل تعلمين ماذا فعلت، يا ماريا ديل روساريو؟ أخذت دوريس من ذراعها، وحملتها إلى محل "فراتينا" وألبستها كلها أسود، سترة سوداء، جوارب سوداء، حذاء بكعب عالٍ، حقيبة "تشانيل"، تبأ له، ثم حملتها من يدها إلى منزل والدتها فى "كولونيا ساتيليتى". والطفلة دوريس متجمدة من الرعب، وقدمتها لوالدتها، عجوز فظة ذات نظرة زائغة وكرة صوف فى يدها، جالسة على مقعد متحرك، إلى جانب إبريق ليمون وترسانة من المسكنات. آه، وهرة قبيحة فى حجرها. قلت لها فقط:

هكذا سوف تذهب دوريس من الآن فصاعداً إلى المكتب.

ومن أنت، بحق الجحيم؟

رئيسها، يا سيدتى، وإن رغبت أن تحضر ابنتك راتبها إلى المنزل وترعاكِ، فالأفضل لها أن تذهب وهى مرتدية هكذا للمكتب، لأنها لو لم تفعل، سوف أخطفها، وأحملها لتعيش معى.

صرخت العجوز وتملكنى واحد من هذه الهواجس المباغتة التى مثل البرق فى الدماغ:

وكل الحذر أن تخبرى الوقح دى لاكانال . فقد انتهت الصفقة، يا سيدتى. لن تجروئى على الاستمرار فى بيع ابنتك، وإلا سأحملها للسجن.

والآن أخذت العجوز فى الزعيق وقفزت الهرة، وهى تموء مهددة، كما لو أنها تود الدفاع عن سيدتها. منحت الهرة الوقحة ضربة بقدمى فى مؤخرتها ورأت دوريس أمها مهزومة، ابتسمت للمرة الأولى ومنذ الآن وهى تذهب مرتدية كامرأة فى نفس عمرها.

غمزت لى بينيلوبى بعينيها ورفعت لى إصبعى النصر.

ولكن تاثيتو أخذ ينظر بمقت حقيقى. يعرف أنى قرأته من البداية إلى النهاية. خادمًا مع الأقوياء. ومتغطرسًا مع الضعفاء. وفى أى وضع وسط وضعت نفسى؟ أنظر له مباشرةً فى عينيه. ليس أمامه سبيل آخر سوى أن يرد لى النظرة. ولكنى أبتسم. وهو لا. وعندما يطلب أن تدخل دوريس مكتبه، أقول له:

سامحنى، يا سيدى المحترم. تقوم دوريس بعمل عاجل لى.

إن كان لديه شعر هذا الجبان كان سيقف منتصباً.

ـ ١٢ ـ

بيرنال إيريرا

إلى ماريا ديل روساريو جالبان

هل أنتِ على يقين من أن خطتك ستنجح؟ وأن عمل صغيرك نيكولاس بالديبيا مع تاثيتو دى لاكانال ليس لمجرد كسب الخبرة. أو للتعرف على خصمنا عن قرب. هو هناك ليجد نقطة ضعف تاثيتو، وفى الحقيقة سوف يقضى عليها وهو ما سوف يدينه. نعلم أنه وغد. أخرجى قائمة الأوغاد المحصنين الذين تعرفتِ عليهم فى الحياة السياسية ولا يزالون اليوم محصنين ولكنهم أثرياء. علينا أن نتصيد تاثيتو وهو متلبس. ماذا اكتشف بالديبيا. أشياء قليلة. كنا نعرفها ـ سلفاً ـ أن تاثيتو خنوع، وأنه قاس ومنافق لمن فوقه ومستغل لمن تحته. بأنه مسّاحة أحذية للرئيس. ربما يحتاج الرئيس إلى خادم أنيق. أو إلى كلب بطوق شائك لحمايته من غير المرغوبين.

لا شىء جديد. إن أشهر الرؤساء يرغب فى تأمين رجل يقول له نعم على كل شىء. ترين أن رءوساءنا يواصلون العادة نفسها منذ قرون. مثلما فعل فيدريك فى بروسيا أو كاتالينا العظمى، حين أحضر إلى بلاطه مشاهير فرنسا، مثل فولتير و ديدرو، وهو ما يحدث حالياً مع صديقنا الحميم خابيير ثاراجوثا المدعو "سينيكا". وكان لدى فيدريك أيضاً خادمه فريديرسدورف ليلعق حذاءه وكان لدى كاتالينا بوتمكين ليلعق لها شيئًا آخر. ولذا لورينثو تيران لديه تاثيتو دى لاكانال.

لست راضياً، يا صديقتى. فإن المهلة تنقضى وفى السياسة فإن المهلة هى نصف اللعبة على أقل تقدير. إن لم نقض على تاثيتو دى لاكانال فى غضون ستة أشهر من اليوم، سوف يستغل منصبه ليقفز على ترشيح نفسه للرئاسة. وهل تعلمين شيئاً؟ لا يستفزنى أن أكون منافساً لتاثيتو فقط وأنما يشعرنى بالحقارة. إن فزت فى انتخابات ٢٠٢٤ على دودة مثل تاثيتو، يكون انتصارى مثل انتصار رجل يسحق بقدمه صرصاراً. انتصاراً فارغاً. وفى حال تفوق على نتيجة علاقته بالرئيس فإنها نهاية مستقبلى السياسى.

تعلمين يا ماريا ديل روساريو أنى لست جباناً وأنى أتولى أمر مسئولياتى الخاصة. ولكن الحياة جعلتنا أكثر من صديقين: حليفين. مصيرنا مرتبط. أنا فى حاجة إليكِ لأنك امرأة. بمعنى، أنه لديك ما هو أكثر من مجرد الحدس الأنثوى المعهود. إلى جانب الفطرة تتمتعين بموهبة سياسية غير عادية. تعرفين قراءة الحقيقة الخفية. تعرفين رؤية ما هو فى الجوانب. ترين ما يفلت منى. لا أقول لك شيئاً تجهلينه (أو لم أقله لك من قبل). بدونك. لا أتقدم. أنت تسمحين لى بتحمل الاعتداءات الخطرة لمن حولى. أنتِ تزودينني بميزة لا غنى عنها فى السياسة: القدرة على إدارة جماعات من الرجال الخطرين. أنت تعرفين ذلك وأنا شاهدته. أكثر أعضاء الحكومة تفاهة (وبالكثرتهم كما تعرفين) تجعلينه يشعر بأنه أرسطو متوحداً مع بونابرت. والجميع، بعد منحهم الثقة، تجعلينهم يعرفون بأنك تمثلينني، وأنك تتبعين تعليماتى. أنت سيدة رائعة ذات موهبة، ولكنك لست عميلة حرة. فأنت مرتبطة للأبد ببيرنال إيريرا.

أى أن الجميع يعرفون أن كل الدعم والنصح الذى تمنحينه لهم يرجع لأنى طلبت منك ذلك. جاء إلىَّ وزير الزراعة إيبيفانيو لاتورى ليشكرنى على المعلومات حول الهبوط الوشيك لأسعار السكر، والذى لم يشك أنه سيحدث، وهو الرجل الذى يخزن السكر ببلاهة كأنه كنز. يجهل الوزير آتورى تماماً أن السياسة الزراعية للولايات المتحدة والاتحاد الأوروبى تعمل

على إقصاء الصادرات الزراعية من الدول الفقيرة: نبيع قليلاً، وبسعر رخيص ولن نكسب شيئاً من التخزين على أمل ارتفاع الأسعار. لن تكون هناك ندرة فى العالم النامى. ليس هناك سوى الميل الشديد إلى الشحاذة، لا أكثر. والحسنات. يدين لى وزير الأشغال العامة أنطونيو بيخارانو بحياته لأنك أطلعتيه على تربيطات المقاول من الباطن برونو ليفى مع الشركة الخصم للوزير فى نشاطه الخاص القديم ـ والذى لم يتخل عن أسهمها كما أشيع، يا لهم من خيالات مآتة. يا لها من رغبة فى مباغتة تاثيتو فى ورطة كهذه. ولكن ليس لبيخارانو أهمية سياسية. يمكنه أن يكون فاسداً كما يشاء. ومع ذلك، ولكننا نتحكم به، حين تسنح الفرصة. بدونى ـ بدونك ـ كانت فضيحته ستكون مؤكدة.

وهكذا نستطيع أن نواصل، يا سيدتى الحبيبية جداً. ولكن أسمن سمكة، خصمى المعروف الوحيد فى انتخابات٢٠٢٤ لا يدين لنا بشىء، لا لكِ ولا لى. وهذه نقطة ضعفنا الكبرى. لا أعتقد فى ذكاء تاثيتو، ولكنى أعلم أن هذا ما يطلقون عليه فى الإسطبلات كلباً ماكراً، مُيكافيللى مقنع بقدرته الهائلة على التآمر، يا صديقتى الحبيبة، كقدرتنا المتبادلة على العرفان والعاطفة. علينا أن نفترض أنه لا يوجد وزير لا يدين لتاثيتو بأفضال مثلما يدين لك ولى. ليس عبثاً أنه مالك مفاتيح دخول قدس الأقداس، مكتب السيد الرئيس، مكتبنا المربع جداً "المكتب البيضوى".

علينا ـ فى كافة الأحوال ـ أن نعلم أن الصراع مشترك وألا نغفل لحظة. والآن هل صغيرك بالديبيا، المتوغل فى بيروقراطية تاثيتو، بقادر على العثور على السر الذى يدين تاثيتو، بخلاف إغوائه للسكرتيرات؟.

نتيجة هزيلة، يا سيدة ماريا ديل روساريو، هزيلة حقاً. إن لم نعثر قريباً على أدلة تدين جدياً تاثيتو دى لا كانال، آسف أن أخبرك أننا سنصل إلى ميدان المعركة، على أقل تقدير، فى ظروف متكافئة هو وأنا. ولن أتسامح فى هذا. أرغب أن أصل إلى ميزة واضحة. ما هى؟ اعتمدى على شهرتك المكتسبة كسيدة ذكية وسريعة البديهة.... ومغوية.

ـ ١٣ ـ

نيكولاس بالديبيا

إلى ماريا ديل روساريو جالبان

حسناً، يا سيدتى المحبوبة والجميلة، لقد نفذت تعليماتك (التى تسمينها بحماستك "توصيات") مرة أخرى وانتقلت إلى ميناء بيراكروث من أجل "التأهل" و "تنقيح تعليمى السياسى"، كما أشرت علىّ سيادتك. وصلت بخطاب توصية من سيادتك لـ"الشخص".

وهناك كان ـ كمًا وكيف قلتِ لى ـ جالساً على مائدة على باب مقهى "لاباروكيا"، وعصاه فى يده وفنجان قهوة يتصاعد منه الأبخرة قبالته. على نفس الهيئة التى تعرفينها وأعرفها وكل البلد تعرفها. الرأس النبيل على الجسد الهزيل. الجبهة العريضة، جانبا رأس متسعان وخاليان من الشعر تماماً، الشعر مقصوص بعناية، ومائل للبياض ومصفف جيداً. (لا أعرف لماذا أعطانى "الشخص" انطباعاً بأنه حليق من رأسه إلى أخمص قدميه) وبالطبع أكثر شىء مؤثر به: النظرة. يا لها من طريقة ليبدو شارداً كعصفور وحاداً كصقرا هو ـ فى الحقيقة ـ نسر، بكل المعانى مهما كانت درجة حدة أو شرود ـ المحسوبة كل منهما بعناية ـ النظرة. ليس هناك رئيس جمهورية استحق مثله التعايش بين الشخصية والرمز. جالس على كرسى النسر، كان "الشخص" هو نفسه، النسر.

والآن يُعرف فى العالم أجمع بأنه "عجوز المقهى". ولكن بالرغم من تغير الاسم والعمر، التى لم تتغير هى الهالات الغائرة التى تظلل جفونه

كستارتين سوداوين، والتى لا يخفف منهما سوى حاجبيه العريضين. وإن كنا نتحدث عن "ثلج أبدى" فى الجبال. فإنه لدى "عجوز المقهى" "سواد أبدى" فى هذين الحاجبين والتى يمكن وصفهما بالشيطانين إن لم يتناقضا، يا سيدتى، مع الابتسامة المتحجرة لشفتين غليظتين، ورطبتين لرجل فى مثل عمره المتقدم، اللتين تشى بهما الشقوق العميقة التى تحددهما. وبين الفم والأعين، أنف مستقيم رومانى، رصين، ولكن تفضحه هاتان الفتحتان، التى يتصاعد منهما الدخان كفتحتى أنف كلب حبيس.

أضف ما تعرفينه سيادتك جيداً لأؤكد على رؤيتى الخاصة عن "العجوز". لأنه معروف بهذا هنا: عجوز المقهى، يجلس اليوم بأكمله على مائدة فى الهواء الطلق بمقهى "لاباروكيا"، يرتشف إكسير كواتيبيك ذا الرائحة النفاذة بين رشفة ماء غازية وأخرى مع نسخة من "لا أوبينيون" مفتوحة على ركبتيه. مرتدى سترة أنيقة ـ كعادته ـ مؤلفة من ثلاثيته الغامقة والمخططة، وقميصه الأبيض، و "بيبيونه" المعهود ذى النقاط البيضاء، وزرى كمه على شكلى الأفعى والنسر، وجواربه المزينة بالسهام وحذائه الملمع جيداً.

قدمت نفسى، وسلمته رسالة سيادتك، وكما حذرتينى سيادتك، بدأ "عجوز المقهى" قائمة تعريفاته وتوصياته السياسية كقس يتلو الصلاة. لم يكن العجوز يفتقر خفة الظل. يدرك أنه ـ بالفعل ـ عجوز طاعن فى السن وأن الشباب قد أدانوه منذ وقت مضى، إلى موت النسيان.

هناك من يعتبرون أن التعجيل بخطواتى إلى القبر عمل إنسانى ـ ضحك بدون أن يضحك، عادة، كما هو من الواضح، خاصة به جداً. لن أمنحهم هذه المتعة. سأظل ما يسميه البعض "عقبة سياسية".

قالها لى بغلظة، ثم (كما حذرتينى وبما أنه يعلم أنك تعلمين ما قاله لى وأننى فى حالة انتظار) تلى أقواله المأثورة، وأمثاله التى اخترعها، القديمة والمعروفة حتى أنها تشكل جزءاً من تراثنا السياسى. ولكن ـ كما قلت لكِ ـ لم يكن العجوز يفتقر خفة ظل، أو جرعة نقد ذاتى حقيقية بوجه متجمد.

فلنمر سريعاً على الأقوال التى ينسبونها لى، ولكى لا نكررها ثانيةً.....

أنا لست من هؤلاء الشباب الذين يعدون سيادتك عقبة سياسية، يا سيدى الرئيس. فبالنسبة لى كل ما يخص سيادتك هو جديد.

ما معنى "يخصنى؟ لا تدعونى " سيدى الرئيس". وتذكر أنى لم أعد كذلك.

بسبب تعليمى الفرنسى، يا سيدى الرئيس. ففى فرنسا ليس هناك أحد "سابق". تعد إساءة أدب.

فرنسى آخر فى بيراكروث!- تعجب بدون أن يضحك. تباً للفرنسيين!

تعلمت فى المدرسة الوطنية للإدارة بباريس....

إلى هنا وصلت سفنهم الحربية أثناء حرب الحلوى.

حرب ...ماذا؟ ـ قلت، يا سيدتى، معترفاً بفجواتى فى فترة ما قبل التاريخ بالمكسيك.

نعم، وكيف لا، أرتشف القهوة باللبن. أشتكى حلوانى فرنسى بمدينة مكسيكو من أنهم، أثناء تمرد شعبى، دمروا إكليره وكرواسونه، ولذا أرسل الفرنسيون فى ١٨٣٨ أسطولاً لقصف بيراكروث للمطالبة بدفع ثمن الحلوى هذه. ما رأيك؟ ألم تر فيلم "مابى كورتيس"؟

مابى...؟

سيدة بورتوريكية، يا سيدى الرئيس. سيدة تسلب الألباب. فخذان رهيبان. ترقص إيقاع كونجا يسمى بيم بام بوم- قال وعاد ليرتشف القهوة.

وكيف لا ـ حاولت أن أسترد احترامى الجريح، مادام أن مابى كورتيس وبيم بام بوم مهمان أكثر من المدرسة الوطنية للإدارة بفرنسا-. كيف لا، دخل العالم إلى المكسيك عبر بيراكروث منذ أن رسى إيرنان كورتيس هنا فى ١٥١٩ ....

ثم عاد الفرنسيون، لمساندة إمبراطورية ماكسيميليانو وكارلوتا، عام ١٨٦٢ جعلت قوة الحنين عينيه المعتمتين تبرقان للحظة ـ هل رأيت القوات البلغارية، النمساوية، المجرية، الألمانية، وأناس من براغ، وتريستى ومارسيليا ويوهيميون دخلوا إلى هنا رافعين الرايات، يا صديقى، رايات خالصة لنسور، نسور برأسين، نسور متوجة، نسور كاسرة، ونحن هنا بنسر وحيد، ولكن يا له من نسر يا صديقى بالديبيا، نسر بكل النسور، لا مثيل له، بمخالب على صبار ويلتهم أفعى، هذا ما لم يكن ينتظره الأوروبيون، هنا لا، أليس كذلك؟

أتخيل لا، يا سيدى.

آى، وسيل الفتيان ذوو البشرة السمراء والأعين الزرقاء الذين تركتهم قوات الإمبراطورية تلك. ألم تشاهد قط فيلم فرسان الإمبراطورية؟

لا، ولكنى قرأت رواية رائعة، أخبار إمبراطورية فيرناندو ديل باسو.

الحمد لله- قالها بيأس ـ تعلم شيئاً، إذاً.

نظر بعيداً نحو البحر وحصن سان خوان دى أولوا. كتلة رمادية، هائلة، ومهجورة، جزيرة صغيرة ثمينة. ضبطنى العجوز وأنا أنظر ولم تعجبه نظرتى. جاوبت كما لو أنه وجه لى سؤالاً.

ـ لا، يا سيدى الرئيس... اعذرنى، فأنى أتذكر أنه لما كنت طفلاً كان هناك مصد للأمواج يربط بين قلعة أولوا واليابسة.

ـ أمرت بإزالة مصد الأمواج.

ـ ؟

- كان المنظر قبيحاً ـ قال عندما اقترب الخادم لصب القهوة المغلية من جديد من أعلى رأسه إلى أكوابنا الزجاجية بالضبط، بتصويب متقن.

واصل العجوز: ولذا ترانى أجلس هنا، متطلعاً إلى ميناء بيراكروث لأعطى إنذارًا إن تجرأ أى أجنبى دخيل ـ كما يقول نشيدنا الوطنى ـ يدنس بباطن قدمه ترابنا.

بدأت أشعر أن عجوز المقهى رجل مهووس يردد هلاوسه، وهو يواصل أغنيته عن الاعتداءات التاريخية التى مرت على المكسيك.

والأمريكان، أيها الشاب، الأمريكان الذين سرقوا أدمغة شبابنا. أضحوا يرتدون كالأمريكان، ويرقصون كالأمريكان ويفكرون كالأمريكان ويرغبون أن يتأمركوا.

قام بحركة بذيئة بيده اليسرى ورفع عصاه باليمنى.

أقسم إن الأمريكان عبروا قوس النصر! رسوا هنا فى ١٨٤٧ومرة ثانية عام ١٩١٤ ... متى ستكون المرة المقبلة؟

عدّل من وضع طاقم أسنانه المصطنع الذى يترك موقعه مع كل هذا الحنين ورجع إلى الموضوع:

اسمع، إيها الشاب لكى لا ترجع وأملك خائب سوف أكرر عليك أقوالى الأسطورية.

كررها وهو جاد جداً ومستغرق تقريباً، بدون أن يدع تحريك السكر بالملعقة داخل كوب القهوة.

السياسة هى فن ابتلاع الضفادع بدون أن يبدو عليك.

لم يضحك، ثم عدّل طاقم الأسنان المصطنع ليثبته جيداً على اللثة.

فى السياسة المكسيكية، حتى العجزة بهلوانات.

انتهز ضحكتى المصطنعة وطلب من الخادم خبزاً.

الخبز الساخن مع الفاصوليا المقلية والجبن المخفوق. جيد للهضم. قال. والحقيقة المجردة هى: الرئاسة مثل الأرجوحة. يبقى الواحد منا بنفس الوجه الذى كان عليه وهم يلقونه من أعلى التل.

اقتضم قطعة كبيرة من الخبز.

ـ لذا ستراني بنفس هذا الوجه دوماً، أول يوم لى فى السلطة...

ثم تابع، يا ماريا ديل روساريو، بنصف ابتسامة ميتة:

الذى لا يعرفه أحد أن ترسانتى من الأقوال غير المنشورة لا تنتهى...

استجوبته بأدب، بدون أن أنطق كلمة. قلت لنفسى وأنا أخفى صوتاً يماثل صوت لهاة الحلق إن كان للهاة الحلق صوت الميتين.

اعرفها مرة واحدة. أنا لا أُصاب لا بالرصاص ولا بالزكام.

إزاء هذا القول الحاسم، بقيت صامتاً، مترقباً كلمات العجوز التالية ومتسائلاً ماذا أفعل هنا إلا أنى أنفذ تعليماتك، يا سيدتى الجميلة:

تكلم مع عجوز المقهى. اصبر وتعلم.

هل تعلم، أيها الشاب؟ قبل أن تكون رئيساً يجب أن تعانى وتتعلم. إن لم تفعل، سوف تعانى وتتعلم أثناء الرئاسة على حساب البلد.

إذًا فماريا ديل روساريو ـ أشير إلى سيادتك ولا تتجاهلينى- قد أبلغتِ العجوز والرئيس السابق بوعدك الماكر لى بحملى إلى كرسى النسر وأنا هنا لتلقى الدروس. لم أجرؤ سوى أن أعلق:

كان كارديناس رئيساً فى السادسة والثلاثين، وآليمان فى التاسعة والثلاثين، وأوبريجون فى الرابعة والأربعين، وساليناس فى الأربعين.

لا أشير إلى العمر، يا سيد بالديبيا. لم أذكر السن، فهذه الموضوع "تابو" بالنسبة لى. أشير إلى المعاناة والألم. أشير إلى الخبرة. كل من ذكرتهم كانوا شباباً ولديهم خبرة. وأنت؟

نفيت برأسى: أعترف، يا سيدى الرئيس. أنا جديد. ولكن صباح أمضيه معك يكفينى لأتعلم ما لم أتعلمه فى المدرسة الوطنية للإدارة بباريس.

هز رأسه بخفة، كما لو أنه يخشى أن تتفكك القطع الحبيسة هناك أو أن تنفك المسامير.

ارتشف القهوة: كن طيباً. تعلم أن كل رئيس ينتهى حيث ينبغى أن يبدأ التالى. أى حيث كان ينبغى أن يبدأ هو. هل فهمت؟ يتحدث السابق مع التالى بدون الحاجة أن يقول كلمة. هذه هى الخبرة التى أتحدث عنها.

ماعدا أنه على الخليفة أن يكون أصم وثقيل الظل مع من سبقه.

اعتقدت أن مزحتي الحادة سوف تخفف عنه، ولكن على العكس، أغمقت الهالتان السوداوان أكثر.

العرفان، يا سيد بالديبيا، العرفان، وإنكار الجميل. الأولى هى عملة سياسية نادرة. والثانية، "خردة". فكر فى عدد الرؤساء الخارجين من الحزب الثورى المؤسسى، الذين كانوا أوفياء مع الذين سبقوهم. ومع كل شىء، فإنه فى نظام الحزب الثورى المؤسسى فإن الرئيس الذى يجلس على كرسى النسر يصل بقرار من الرئيس الذى كان جالساً قبله. ويرغب الجديد أن يثبت بأسرع وقت أنه لا يعتمد على من عيّنه. يا له من تناقض، يا سيد بالديبيا. نظام الحزب الواحد الذى تفوز فيه المعارضة دوماً، لأنه على الرئيس الجديد أن يخون من سبقه.

هناك استثناءات ـ قلت بأدب جم.

اختار العجوز ثلاث قطع من سلة الخبز وترك داخلها ثمانى أخرى. لم يكن عليه قول المزيد، بالرغم من أنه كتب بإصبع الرب خفيةً على المفرش ١٩٤٠ ـ ١٩٩٤.

علقت بتفاؤل مغتصب ـ ولكننا نعيش اليوم فى ديمقراطية.

ولا يزال لدى الرئيس الحالى تفضيلات بشأن من يخلفه، يفكر فى رأسه ويراجع من سيخدم البلد أكثر، ومن سيكون أكثر إخلاصاً له، من سيحترم عائلته ومن لا...

ولكن لم يتحدد بعد الآن مرشح الرئيس كما فى أيام سيادتك، مجرد مجرد...

ولكن تحدد الرئيس السابق الخارج، والذى لا مفر منه أن الرئيس السابق يكسب من يفوز فى الانتخابات. ويحدث أنه لدى كل رئيس سابق هياكل فى خزائنه. أخوان أشقياء، عشاق خائنون، شقيقات غير محترمات، أبناء عاقون، رجال كخيالات المآتة فى إدارة الأعمال، أصدقاء حياته الذين

لا يمكن الحكم عليهم بالموت، ماذا أعرف أنا.. لا يبقى أمام الواحد منا سوى أن يعوض غرابات أقاربه بتقشف الزاهدين؟ فقد رأيت ما قالوه عنى. أنام مبكراً حتى لا أستهلك شمعاً.

تعلم سيادتك كل شىء. منحته أفضل ابتسامة عندى. لم يردها.

المعاناة والتعلم ـ تنهد ونظر مجدداً بحنين نحو الكتلة الغائمة لقلعة سان خوان دى أولوا، الحصن الذى يراقب مدخل الميناء.

شعرت أنه ، لانتباهى لإشارات وكلمات عجوز المقهى، لم ألق نظرة فاحصة على كتلة اولوا الرمادية، التى تبدو كمبنى منعزل، متوغلة فى الماضى، محملة باحتمالات جامدة...

انظر إلى القلعة التى كالسجن؟ تخيل أعداد السياسيين الذين لا بد أنهم هناك ليتطهروا من إساءتهم للوطن؟

ما الذى تقوله يا سيدى.

طقطق كتفيه مصدراً فرقعة خفيفة.

لدينا قاعدتان ذهبيتان فى السياسة المكسيكية. الأولى طيبة: عدم الانتخاب. والثانية صارمة: المنفى. والسبب واحد فى الاثنين: كل خطأ يمكن تكراره، أيها الشاب الصديق.

نظر نحوى من عمق هالتيه.

هل تعلم؟ من الخطأ الاعتقاد أن الرئيس لا يحكم سوى الضعفاء. الأكثر ضرورة وصعوبة هو التحكم فى الأقوياء، سوف أعطيك قاعدة، وإن رغبت مررها إلى المتطلعين إلى مناصب عامة. وهى إن رغب أحد أن ينضم للحكومة، فعليه أولاً أن يصب لتراً من الخل فى أنفه. فهذا خير تأهيل للوصول للرئاسة، أؤكد لك.

اقترب جرسون المقهى وبيده إبريق القهوة الهائل الذى تتصاعد منه الأبخرة. اعتذر العجوز. لم يدعونى لتناول القهوة للمرة الثالثة. قرّب منى الكوب الزجاجى. قام الخادم الفانتازى بطقوسه الغريبة التى يعرفها كل

من يتناول إفطاره فى المقهى. رفع الخادم إبريق القهوة إلى أعلى من رأسه. أحناه وترك تيار السائل ذا الرائحة يسقط بدقة داخل الكوب.

بدا كما لو كان سحراً. وكانت هذه هى اللحظة، والتى لم تكن ملائمة، عندما سألت رئيس الجمهورية السابق:

وسيادتك، يا سيدى الرئيس، هل تميل لشخص بعينه لخلافة لورينثيو تيران؟

تمكن العجوز من البقاء صامتاً، ناظراً إلى الغربان وهى تعشش لتقضى ليلة طيبة على أشجار الميدان: سحاب من الطيور تبحث عن عش ليلى بضجة غطت على كلماتى لحسن الحظ، بالرغم من أن العجوز قد سمعها. أستطيع أن أقول لكِ، يا سيدى، إنى لم أشهد أذناً مرهفة أكثر من أذن الرئيس السابق، والذى كان كل من يرغب فى طلب معروف منه، ولغبائه، يأخذه إلى ركن قصى من مكتبه ليقول له:

كما يقولون إنك رجل طيب جداً فى أعماقك...

أنا لا أعلم إن كان عجوز المقهى طيباً أم شريراً. ما أعرفه وحسب أنه عجوز ماكر، يعرف كل شىء ولا يفوته شىء. هل سمعنى، أم لم يسمعنى، لا يرغب أن يسمع الجرسون؟ ما حدث، يا صديقتى الجميلة ولكن القاسية، أن العجوز استغل لحظات الصمت هذه التى لم يقطعها سوى ضجيج نعيق الطيور الليلية، ليعطينى درساً فى كيف يقال كل شىء بدون أن يقال شىء فى السياسة المكسيكية.

أطلب منكِ أن تحاكى أمام المرآة كل حركة قام بها الرئيس السابق العجوز.

رفع إصبعه إلى طرف أذنه ودعكها. يجب أن تتعلم أن تسمع.

ثم مرر يديه أمام عينيه، وغطاهما. إن رأيتك، فأنا لا أذكر.

ثم، شد بسبابته الجفن السفلى لعينه، وفتحها على اتساعها. الحذر. كل الحذر.

وبعدها مباشرة، قوّس حاجباً واحداً للدلالة على الشك. لا تنخدع فى أى شخص.

وفى الوقت نفسه قام بحركة طيران بيد واحدة. احذر فهو أطول من صيام الأربعين. تعلم كيف تسيطر على الخديعة.

ثم انتهى بوضع سبابته على فتحة أنفه. لا تدع أحداً يخدعك. تشممه.

ثم أذكر لك، يا صديقتى الحبيبة، تتابع الإشارات السريع الذى تبع هذا الرمز الأنفى. يده على قلبه. يدان مرتعشتان فى إشارة إلى فصل المواضيع غير ذات صلة. الإبهام مرفوع مثل قيصر الذى مَنح الحياة ثم عاد ليواجه الموت. السبابة تقطع الرقبة كالمطواة. السبابة والإبهام متصلان ليشكلا حرف " O" آخر حرف من حروف كلمة منفى(*)، إيماءة الشفتين لحقن الشك فى وهم الانتصار. والعينان ضيقتان بفعل الشك و "من تظن نفسك؟" الكتفان مرفوعتان فى علامة على الاستسلام، "ماذا أفعل له؟". ثم سبابته الشهيرة مرفوعة فى تحذير خطير، ثم فى النهاية الإصبع نفسه وهو يمر على الشفتين. ولا كلمة. الصمت من ذهب.

وبعد هذا العرض للحكمة بالإشارات، يا سيدتى المرغوبة، لم يتبق أمامى سوى أن أشكر عجوز المقهى على نصائحه، ووقته، واهتمامه. التفت نحوى بقناعه الحيادى. رغب أن أرى فيه شخصاً يلعب دوراً. شيشرون المكسيكى الحكيم. باترياركا الولاية الطيب. كان يلقنى: أيها الطفل: العب دور الطيب. عليك أن تتعلم كيف تكون أبله. كان مهرج المسرحية.أستاذ التلخيص. ساحر ما لا يقال لأنه مفهوم. ملك الكلمات البديلة الألطف.

انسحبت وأنا أشكره فى حين أحنى العجوز رأسه لى، وحط ببغاء على كتفه وقدم له الجرسون صندوق قطع الدومينو.

غربت الشمس منذرة، ونعقت الغربان واستعادت قلعة سان خوان دى اولوا السجن، المضطربة طوال اليوم، بريقاً إسطورياً مع سقوط الليل.

(*) كلمة منفى بالإسبانية هى exillio (المترجم).

ملحوظة: سحبتِ منى حق الحديث معك مع رفع الكلفة مادام لم أظهر على مستوى الظروف. أرسلتينى كالطفل لتلقى درساً من عجوز المقهى كما لو أن أكاديمية أفلاطون توجد فى الميدان الرئيسى لهذا الميناء الصعلوك. لا تعتقدى أنى شعرت بإساءة. فأنت تحفزيننى. اتفقنا. ن ب .

ـ ١٤ ـ

دولسى دى لا جارثا

إلى ماريا ديل روساريو جالبان

سيدتى، إن تجرأت وكتبت إليك فهو لأننى لا أجد وسيلة أخرى لمخاطبتك. وسيادتك كما أنتِ. تعرفك البلد كلها. لا توجد امرأة تتمتع بنفوذ أكبر (لا أعلم إن كنت أقولها صحيحة، أو من الأفضل أن أقول ليس هناك امرأة مؤثرة أكثر؟) من سيادتك. تُفتح لها جميع الأبواب. معك آذان أصحاب السلطة. ولكن أبوابك موصدة أمام الأشخاص عديمى السلطة. وأنا سيدة تافهة جداً. كان بإمكانى أن أكون مؤثرة كسيادتك. يقول اسمى بوضوح إنه كان بإمكانى، ولكنى لم أستطع. ولذا أكتب إليكِ، أعترف بهذا، لأنك صاحبة سلطة وأنا لا. ولكنى أكتب لك أيضاً، يا سيدتى، من امرأة لامرأة. ماذا عن اسمى، يا سيدتى؟ هل باستطاعتك إجابتى؟ من المدفون فى قبر حبيبى فى بيراكروث؟ لمَ يوجد قبران لرجلى، واحد فوق الآخر؟ واحد بداخله دمية شمعية تذوب بفعل الحر والآخر فارغ؟ سيدتى، إن شعرتِ ذات مرة بحب تجاه رجل، وأنا لا أشك فى هذا، فامنحينى بعض العطف. لأجل أكثر رجل أحببته فى حياتى، فكرى فى، وارحمى وحدتى ومعاناتى وقولى لى، أين جثة حبيبى؟ إلى أين أحمل له الزهور، وأركع، وأدعو، وأفكر فيه وأقول له كم، كم أشتاق إليه، كم أفتقده؟ هل بإمكانك مساعدتى؟ هل ما أطلبه كثيراً؟ هل ما أطلبه مستحيلاً؟

ـ ١٥ ـ

الرئيس السابق ثيسار ليون
إلى الرئيس لورينثيو تيران

أود أن أشكر، يا سيدى الرئيس، الصداقة والثقة التى أبديتهما لى سيادتك، برفعك الاعتراض المحسوس على وجودى فى البلد طوال أعوام، دعنا نسميها، "التالية للرئاسة". كرمك هذا خير دليل على ثقتك بنفسك. لم آتِ لأنتزع منك شيئاً، يا سيدى الرئيس. ربما اعتقد من سبقوك فى هذا. المنفى، مهما كان مذهباً، فهو مر. نحمل الوطن فى قلوبنا، ودمائنا، ورءوسنا، وفى أقدامنا أيضاً. الرجوع لوطء الأرض المكسيكية، يا سيدى الرئيس، هدية منحتها لى وأنا لا يمكننى سوى أن أرد بعرفان جميل وإخلاص.

ووصلت فى تفكيرى، بخصوص هذا الملمح، أن دليل ولائى كان صمتى. وسيادتك، بسعة صدرك المعهودة، تطلب منى، كجزء من هذا الولاء، النصح.

تخيل ماذا يعنى لرجل مثلى، رئيس سابق كان محاطاً بكل نفاق العالم والذى أصبح، فى يوم تعس آخر، وقد ترك السلطة وهو يتساءل بألم:

أين ذهب جميع أصدقائى؟

كانت هناك لحظة مبدئية شعرت فيها بتجربة جراكو المريعة، النبيل الرومانى الذى يجرى نحو الشاطئ معتقداً أن الجنود أتوا ليحرروه ويكتشف أنهم من سيعدمونه فى الحقيقة. لاشىء أسرع، فى ارتداء

الملابس، من تغيير السترة. من كان منذ دقائق صديقى، تحول إلى عدو لى فى أقل من نصف ساعة... ولكن حسناً، يا سيدى الرئيس، فهأنت تطلب منى الحديث بصراحة، فهذه هى الرسالة.

بالرغم من أنك قد فزت فى الانتخابات، لا تنس أبداً أنك فى النهاية سوف تخسر السلطة.

أقولها لك.

جهز نفسك.

انتصارك بأنك صرت رئيساً يؤدى حتماً إلى هزيمة أن تصبح رئيساً سابقاً.

عليك أن تتمتع بخيال أخصب وأنت رئيس سابق عن كونك رئيساً حالياً. لأنك ستترك خلفك حتماً مشكلة تحمل اسماً: هو اسمك.

تعود مشكلات المكسيكى لقرون ولت. لم يستطع أحد حلها. كم هو مريح توزيع المسئوليات منذ اليوم الأول. أليس كذلك؟. لا يمكن هذا. على الرئيس أن يظهر منذ أن يجلس على كرسى النسر أنه ليس هناك سوى صوت واحد فى المكسيك، صوته. هكذا كان يسمى الإمبراطور الإيزتيكى، تالاتوانى، سيد الصوت الجهور. هذا ما يفرضه علينا الموقع الذى نحتله، كرسى النسر: أن نمتلك الصوت الجهور. الصوت الوحيد.

بالطبع نتمتع بالسلطة لفصل وزير خارجية غير مناسب (أو غير مخلص). ولكن فى نهاية المطاف، تقع على عاتق الرئيس كافة المسئوليات. أحياناً يقدمون لنا كئوس الشمبانيا. ولكنها دوماً تقريباً جرعات المر. نرغب جميعاً ألا يحكمون علينا نتيجة أخطائنا خلال الأيام الأخيرة فى الحكم، وإنما للفضائل المحتملة للأعوام الستة السابقة. ولكن نادراً ما يحدث هذا، أحذرك مع كل احترامى.

كما أن النوايا لا تؤخذ فى الحسبان، وإنما النتائج وحدها. وبما أنك سمحت لى سيادتك أن أطرح عليك موضوع الخلافة الرئاسية، والذى يبرز

مع العجلة لنظام ديمقراطى جديد (نجحنا نحن أعضاء الحزب الثورى المؤسسى فى أن نحبس الجياد فى الإسطبل حتى آخر لحظة ممكنة قبل السباق، ولكن هذه كانت حلبة أخرى كما أن الفرسان كانوا ثقيلى الوزن)، ما أذكره لك أنه فى تلك الأزمنة، وبمجرد أن يتحدد المرشح ـ أصر، فى آخر لحظة ممكنة، يصير الرئيس الحالى رئيساً شكلياً.

ما الذى لم يتغير أن عملية الخلافة تحدث، أولاً، داخل رأس من يشغل كرسى النسر. هناك، فى رأسك، فلندرس مَن، بين الخلفاء المحتملين لجمهورية الحزب الثورى المؤسسى الموروثة، يحظى بأكبر دعم شعبى، وتعاطف النقابات العمالية ونقابات الفلاحين، وحصل على أفضل مركز فى الاستفتاءات.

سيدى الرئيس، هل أخبرك بالحقيقة، الحقيقة المجردة؟ آراء الشعب غير ذات أهمية بالمرة. فحقيقة أن نعتبر فلاناً جديراً بالرئاسة لأنه يتمتع بالشعبية، تعمل فقط ضد مصلحة الرئيس الحالى. من يرغبه الواحد منا وينتهى به الأمر لاختياره هو "علان" لأنه يحظى بدعمى أنا فقط، ولأنه فى آخر مركز فى الاستفتاءات، لأنه سيخلفنى وسوف يدين لى بكل شىء. وبالتالى، سيكون الأكثر ولاءً لى.

ياه يا سيدى الرئيس. خطير، خطأ خطير. إن اخترت من يدين لك بالكثير، يمكنك أن تثق أنه سيخونك ليثبت أنه لا يعتمد على سيادتك. بمعنى: أن أكثر من يدين لك سيشعر بأنه مرغم على إثبات استقلاليته. بكلمات أخرى، عدم وفائه. تمارس الكانيبالية السياسية فى كل مكان، ولكن فى المكسيك وحدها تتبل الجثة العامة بمائتى نوع من الفلفل: من "البيكين" الصغير إلى الكبير والـ "خالابينيو" والـ "تشيبوتلى" والـ "مارون". الفعل الملائم للرئيس الجديد هو قتل من سبقه. استعد، يا سيدى الرئيس، واحترس. لنرى من سيصحبك فى المأساة كما صحبك فى المجد. وهناك ـ فقط ـ يقاس الولاء. الفرصة ـ أو الميزة ـ التى تتبقى لنا وهى صعبة للغاية أن نصبح " أفضل رئيس سابق"ـ ألا ندع أية شكوى واحدة تفلت منا،

وأن نترفع عمن جرحونا، ونمسح كل الإساءات، وأن نصير مخلصين للرئيس الجديد. أذكر: هذه هو أصعب جزء. فنحن نميل للغضب، والكراهية، والحقد، والتآمر، والانتقام. ونشعر بالإغراء الحتمى لكى نلعب دور الكونت دى مونت كريستو. خطأ خطير. إن أضفنا إلى إرادة الانتقام ألم المنفى، الطوعى ولكنه إجبارى فى الحقيقة، فسوف ينتهى بك الأمر بأن تفقد الإحساس بالواقع، وتخترع بلداً خيالية، وتقنع نفسك أن كل شىء لا يزال كما تركته سيادتك عندما نزلت من كرسى النسر.

سيدى الرئيس: نصيحتى الأكثر جدية لك، أنه بالرغم من شعورك بالمطاردة، تظاهر أنك لا تشعر بشىء. وأن يصير تظاهرك بالإخلاص انتقامك الماهر والأنيق. عشت فى المنفى فى سويسرا وقرأت الكثير عن التاريخ القديم، ليس هناك دروس دائمة أكثر لممارسة السلطة من التى رواها بلوتارخ، وسويتونيو وتاثيتو. ويحكون فى هذا الصدد، يا سيدى الرئيس، أنه بعد أن اغتيل أحد النبلاء، المشتبه فى عدم ولائه لقيصر، فإن كلبه لم يفارق الجثة، وكان يحمل له طعامه فى فمه. وفى النهاية، حُملت جثة سابينو وأُلقى بها فى النهر، ولكن الكلب ألقى بنفسه أيضاً فى المياه وحافظ على الجثة طافية.

اقتلوا الكلب!! هتف الحراس حينئذ.

هذه هى حدود الولاء، يا سيدى الرئيس. اعتمد على ولائى.

ـ ١٦ ـ

نيكولاس بالديبيا

إلى ماريا ديل روساريو جالبان

إن كان تاثيتو دى لاكانال، كما تشكين سيادتك، يا سيدتى، ماكراً جداً، حتى الآن لم أستطع أن أتحقق سوى من كرمه مع من هم أعلى منه وقسوته مع من هم أقل منه. حرص وزير الرئاسة على الاحتفاظ بواجهة متواضعة نموذجية. أنتِ تعرفين، يعيش فى شقة من قطعتين ومطبخ فى "كولونيا كواوتيموك، تفوح منها رائحة بول القطط فى دلاء السلم، وأثاث من"ليردو تشيكيتو" وأكوام المجلات القديمة. راهب هو، بلا أية رفاهية سوى السلطة من أجل السلطة.

حسناً، وفى النهاية لدى دليل على أنه فى قرارة نفسه ليس حاسماً، ولكنه قد يفتح لنا الطريق لألغاز أكبر.

هل تعلمين، يا سيدتى ماريا ديل روساريو؟: كما فى كتب حكايات جداتنا. يظهر فى الصفحة مسكن من الداخل به نافذة تسمح برؤية الحديقة فى الصفحة التالية، التى بدورها بها سور يُفتح ـ الصفحة الثالثة ـ على غابة تنحدر ـ بدورها ـ إلى ضفة البحر، حيث تنتظرنا سفينة تحملنا إلى الجزيرة المسحورة. هى الحكاية التى لا تنتهى أبداً، أليس كذلك؟

إذاً بمجرد أن تحولت دوريس إلى موديل لفيرساتشى فى اختيار سليم لكاتب هذه السطور، جعلت تاثيتو يعتقد، بدون أى تعقيدات، وهى الأنيقة

المودرن، أنه يستطيع إقامة علاقة ـ بوسعنا أن نصفها ـ أكثر حميمية معها. وبما أن تاثيتو شهوانى، بدأت ماكينة الإله "بان" [1] فى عملها وتدريجياً لعبت دوريس ـ اختيارى السليم ـ والتى لم يكن ينقصها سوى التخلص من والدتها الكئيبة لتزدهر ـ أجلته، دفعته أن يدعوها إلى المطاعم أولاً، ثم إلى البارات، لتستعرض نفسها وهى ترقص "تاباريه" فى "جران ليون"، وليس إلى "بلاط"، وبالأخص فندق.

كانت رغبة تاثيتو تزداد اشتعالاً. لاحظها المكتب كله. وفى النهاية وافقت على الذهاب إلى الشقة فى شارع ريو جواديانا. دخلت، غطت أنفها وقالت جملة لبيت دافيس علمتها[2] إياها:

ـ ما هذه الحظيرة[3] ! يا لها من نفاية! دكان حقير! كوخ وضيع!

تحكى لى المرأة، وهى تموت من الضحك، أن الذل الذى شعر به تاثيتو كان هائلاً حتى أنه أخذها من يدها فى نفس المكان، وأخرج حفنة مفاتيح، وتوجه إلى مطبخ الشقة، فتح القفل والباب، كاشفاً عن مشهد فى منتهى الفخامة. كما فى الحكايات القديمة لجداتنا، رأت دوريس أمامها " بنت هاوس" فاخر، "تراس" به أصص مزهرة، وحوض سباحة دائرى و كراسى الاسترخاء للاستمتاع بالشمس. وخلف "التراس"، صالون شاسع، وأثاث فاخر، لوحات فنية أغلبها تقليد لروبنز، وأبسطة إيرانية، آرائك محشوة، وكريستالات مزيفة وباب موارب على الحجرة الملحقة.

أبدت دوريس ـ التى اختيرت بعناية ـ دهشتها وسعادتها، وأبدى تاثيتو غروره وتصديقه. وحين قام وزير رئاستنا الكريه بأكثر تلميحاته وضوحاً، انتقلت دوريس بدلال إلى الحمام، كما لو أنها تستعد لاتصال عاطفى ليلى، أخرجت هاتفها المحمول من الحقيبة، وهاتفتنى؛ كنت أعرف موقع شقة ريو جواديانا وبعد خمس دقائق، هجمت على غرفة تاثيتو

---

(١) إله الخصوبة والذكورة لدى الإغريق (المترجمة).

(٢) ممثلة أمريكية (١٩٠٨ م ـ ١٩٨٩م) (المترجمة).

(٣) What dump بالإنجليزية فى الأصل (المترجمة).

الأخرس، متظاهراً بالغضب، ضابطاً إياه عارياً، وهو الذى وهبته الطبيعة بفظاظة، رأس صلعاء وشعر غزير فى الصدر والرجلين، إلى جانب مناطق أخرى كثيفة الشعر أسكت عنها، وهو يجرى فى الغرفة وراء دوريس المدربة جيداً، والمرتدية كامل ملابسها، وهو يصرخ:

لا أستطيع! ماذا ستقول أمى عنى!.

لا يهم أن أقول إنى احتضنتها وأبعدتها عن وزير الرئاسة العارى، سببته، وقلت له إن دوريس حبيبتى، وأنى بيجماليون بالنسبة لها (هذه حقيقة، يا سيدتى، ولكن الأولى لا) ورحلنا نحن ـ الاثنين ـ كاتمين ضحكاتنا وتاركين تاثيتو فى موقف لا يحسد عليه.

كانت المسرحية مسلية. ولكن هذا لا يدل على شىء، يا صديقتى المميزة، غير أن تاثيتو هو شيطان سخيف وأن الصلع علامة، بالرغم من أنها ثانوية، على الرجولة. على أية حال، ها قد ملكت الدليل على تواضعه الكاذب. ويا ليت الحظ يحالفنى المرة القادمة!.

ـ ١٧ ـ

الجنرال ثيثيرو آروثا

إلى الجنرال موندراجون بون بيرتراب

اسمع سيادتك يا جنرالى، وصديقى والأعلى منى (ولكنك لست أعلى أبداً من السيد الرئيس، الرئيس الأوحد لقواتنا المسلحة)، اسمع سيادتك أنى أشم رائحة جرزان ميتة و قط حبيس. نفهم أنا وأنت أنه أحياناً لا سبيل آخر سوى استغلال القوة. أرسى تدخل الجيش فى سان لويس بوتوسى ضد المضربين الذين يحيون حياة الساموراى ضد اليابانيين أنه يجب احترام الاستثمار الأجنبى هناك، وأنه لولا انخفاض الأجور هنا لن يلتفتوا إلى المكسيك، تاركين إيانا صفر اليدين. أهنئك على نظافة وسرعة العملية، يا جنرالى. على أية حال، ما أجمل أن أدلة القوة الوطنية هذه كانت من نصيبك. فأنت تعلم، يا جنرالى، كان هناك اختلاف بين المسئولين المؤهلين من معاهد عليا، كسيادتك، ونحن من صعدنا من القاع، مثلى. لن يقلل أحدنا من الآخر. فقد رأيت، سيادتك، جاء جنرالى فيليبى آنخيليس متخرجاً فى أكاديمية سان سير الفرنسية على رفاقه فى الجيش الفيدرالى عام ١٩١٤ولكن، يا جنرال، كان بانشو بيا(*) هارباً من حظيرة، وقاتلاً لمغتصب شقيقته، لصًا سريعًا، وسارق غنم وكل هذه الأشياء، وذات يوم يعثر على بغيته، يسلح جيشاً ريفياً من ٨٠ ألف رجل، أغلبهم فلاحون، ثم ينضم إليه بعد ذلك ملاك الحظائر فى الشمال، وتجار، وحتى كتاب

(*) اسمه الحقيقى دوروتيو آرانجو آرامبولا (١٨٧٨م ـ ١٩٢٣م) لُقب بروبين هود المكسيك، وقاد عدة ثورات ضد الإقطاعيين (المترجمة).

ومفكرين. ويفعل بنا كما فعل آنخيليس، ما عدا أن بانشو لم يرتد قط أى أكاديمية فرنسية كما لا يعرف القراءة والكتابة. ولكنه طحن الجيش الفيدرالى هو أيضًا. أود أن أقول لك، يا جنرالى، إنه لا أنا أحسد سيادتك ولا أنت ينبغى أن تحتقرنى، اتفقنا؟ نحن ..كيف تقال؟ مكملان لبعضنا، كالملح والليمون عند تناول التيكيلا، أليس كذلك؟ تنتصر سيادتك فى المعارك القومية الكبرى وأنا فى المناوشات المحلية الصغيرة. قضيت سيادتك على إضرابات عمال السيارات فى حين لم يسمحوا لى بالدخول وتهشيم هؤلاء التافهين حتى الموت بالمدينة الجامعية. ما معنى أنه لا يمكن انتهاك السيادة. ولكن، ألم ينتهكها هؤلاء المتوحشون الذين دمروا المعامل وتبولوا على مقعد العميد؟ أنت قل لى، يا سيدى، ما حظى فى مدينة يسودها عدم الأمان، والخطف السريع، و الابتزاز، والسرقة، والقتل... ولكنك تعلم سيادتك المشكلة. وصلت وقررت تطهير الشرطة. أطارد ألفًا أو ألفين من رجال الشرطة الفاسدين. على ماذا حصلت؟ زودت العصابات الإجرامية بألف أو ألفى رجل. ينتقل الشرطى المطرود فوراً إلى عصابات الاختطاف، وتهريب المخدرات والسطو. ماذا أفعل. اختار ألفين آخرين من الشباب، النظيفين، المثاليين. لم يتبق لى، وأنت شاهد على هذا. هل ترى سوء حظى، متى أراه يتحسن؟ فسد رجالى خلال العام، لأن راتبى ذو خمسة آلاف بيزو لا يضاهى هدية صغيرة تساوى خمسة ملايين يمنحها تاجر مخدرات معروف جيداً مرة واحدة لواحد من كبار رجالى. لا تنقصنى الإرادة، يا جنرالى. أنا من هؤلاء الذين يفضلون قتل ألف برىء عن تركهم لواحد مذنب يفر منهم. هل تذكر، فقد تكلمنا عن الرجل المجهول، لأنى لم أتأهل مثل كانتينفلاس(*) ، ولم أسر فى دوريات على قدمى فى الشوارع ولم أغو الخادمات لأحصل على الفول فى مطبخى مجاناً (ومع ذلك دعنى أقول لك، فلكى نقترب من بعض علينا أن نتشارك مزحة: نغسل القطط أولاً، ثم نأخذها ونرسلها إلى بيوت الدعارة كجائزة).

(*) شخصية كوميدية أداها الممثل المكسيكى الكوميدى ماريو مورينو ريس (١٩١١م - ١٩٩٣م) (المترجمة).

لا، ما أود أن أذكرك به أن تأهيلى يأتى من محاربة العصابات، والمنشقين، وجماعات المتمردين الذين ملئوا المكسيك دوماً منذ وعيت، يوماً فى موريلوس، وآخر فى تشيباس، وثالث فى جيريرو، وهكذا دواليك.... ماذا تعلمت، يا سيدى الجنرال؟ حقيقة ـ كما يقولون ـ واضحة كالشمس: إن الليل يساوى مليونًا من المجندين. ولذا أمقت الألغاز. مثل الليل فى المثل. فى الظلمة تتشكل جيوش خفية والتى ذات يوم، بدون الحاجة أن نثبت أى يوم، سوف تدمرنا وتجعلنا نقتل أمهاتنا المحترمات أنفسهن. ومع ذلك يتمتع الواحد فى حرب العصابات بميزة عدم اتباع أية قاعدة؛ لأن العدو لا يحترم أى قانون. ياه، يا جنرالى، ليس هناك وسيلة أفضل ليحبك فريقك من أن تسمح له بالسرقة وتنسبها إلى العدو. الخروج للقتل من أجل الطعام، قل لى إن كان هناك شىء آخر أشد إقناعاً بالنسبة لجندى مكسيكى، سردينى مسكين حليق من هؤلاء الذين يشكلون ذخيرتنا الحية فى ظل افتقارنا لزنوج مثل الولايات المتحدة، ولكن قل لى، سيادتك الذى ارتدت أكاديمية ألمانية. كم هو لذيذ الشعور بإصدار أوامر من بعيد كسيادتك، يا جنرالى، بواسطة حاسب آلى كما يقولون، مع العلم بأن كل عدو هو حصن يجب مهاجمته عسكرياً، باكتشاف زاويته الضعيفة، وكسر الخطوط، وترهيب ساكنيه، فالشعب يؤيد دوماً التمرد الناجح. هل تعتقد سيادتك أنى لا أشعر بالحنين. أو ما يسمونه الاشتياق، لعهدى كقائد أمامى، مع أعداء متطلبين، وصعبى المراس، ويعشقون التحدى؟ والآن أنا هنا سيادتك، يا جنرالى، أهرع، فى مكائد صبيانية، لأفض الاجتماعات، يا جنرال آروثا، ولأطلق الجرزان فى ساحات الاستاد، وأفرغ حقائب البول من الشرفات.... أنا الذى أحلم كل يوم باستراحتنا الريفية ذات الكلاب النابحة إلى النجوم، والجثث المعلقة على الأعمدة وصفيرنا بأفواهنا المفتوحة على اتساعها. والآن، بغتةً، يا جنرالى، أرصد فرصة وأقولها لك بإخلاص، لأن تنفيذها مهمتك، ولكنى أعتقد أن المعلومات سوف تصل لى. وإن كان الأمر هكذا، ليس أمامنا سبيل آخر سوى حشد القوى، يا سيدى

الجنرال. ثمة أشياء نشعر بها على جلودنا، وأخرى نراها بأعيننا، وأخرى تنبض فقط داخل قلوبنا. ولكن باختصار، هناك سر، يا سيدى الجنرال. سر محفوظ جيداً فى قلعة سان خوان دى أولوا. نعم، فى مدخل ميناء بيراكروث. لمَ أظن هذا؟ قاله لى عصفور. أو إن شئت سيادتك، عصفورة. عصفورة عطوف وهى ليست ملكى وحسب، وإنما كما تقول هى، هى القفص الجميل حيث يغرد عصفورى. أولوا، قفص، قلعة، سجن. ما علاقة هذا بالمواضيع الأخرى التى تشغلنا، إن الرئيس لا لون له، وإن الأمريكان يهددوننا ويعزلوننا، وأن ماذا سيحدث للرئيس الحالى، وماذا عن الطلبة، والفلاحين، وعمال المصانع...؟

ثمة آلاف الخيوط فى هذا النسيج، يا سيدى الجنرال، ومع ذلك يكرر علىَ حدسى كجندى قديم: أولوا، أولوا، ماذا يجرى فى أولوا؟؟

- ١٨ -

بيرنال إيريرا

إلى ماريا ديل روساريو جالبان

عدت لتوى من زيارة الرئيس السابق ثيسار ليون. للوهلة الأولى لم أتعرف عليه. الشاب ذو الشعر الأسود المموج تحول الآن إلى كهل بشعر أبيض مموج. إنها هذه الموجات للشاب الفاتن القديم التى أتذكرها وليست هيئة ثيسار ليون الجسدية وإنما صورته السياسية والأخلاقية. إنها مثل الأغنية القديمة: أمواج البحيرة: بعضها يأتى والآخر يذهب، كما تقول الأغنية، بعضها يتجه إلى سايولا والأخرى إلى ثابولتان[١]. المسألة هى: أين تبقى سايولا فى ذهن ثيسار ليون وأين ثابولتان؟

سوف أعيد عليك محادثتنا الوجيزة، إلى جانب استنتاجاتى، لأن ليون كان، ولا يزال، صديقك. أنت أسديته النصح التى ضمن له الشعبية المبدئية. اطلق سراح السجناء السياسيين، يا سيدى الرئيس. ارع المفكرين. أحضر كافة المراسم الوطنية والثقافية. ضع السترة الجمهورية الخاصة بـ"بينيتو خواريث"[٢]. غيّر القيادات النقابية. وجوه جديدة. التغيير علامة على التجديد المعنوى (نحن نعلم أنه عكس هذا بالضبط: فالموظف الجديد لديه طموحات أكثر من موظف قديم لبى احتياجاته ويصير الجديد، بالتالى، أكثر نهماً من القديم). تعاون مع الأمريكان فى كل شىء، إلا فى

---

(١) مدينة بولاية خاليسكو الجنوبية بالمكسيك (المترجمة).

(٢) أول رئيس للمكسيك عام ١٨٥٨م وتولى الرئاسة لخمس فترات وقاوم الاحتلال الفرنسى وبذل جهوداً لتحديث البلاد (المترجمة).

قضية كوبا. كانت كوبا وستظل ورقة الشجر بالنسبة لاستقلالنا. نحن ندين لكوبا أننا لسنا الهدف الرئيسى لحملات ومكائد وعنف الولايات المتحدة تجاه أمريكا اللاتينية أحياناً. الولايات المتحدة هى الكابتن آهاب وهو يصطاد موبى ديك[1]، والذى لا غنى عنه لإرضاء الهاجس الأمريكى لفهم العالم بمفاهيم مانيكيانية[2]. يصاب الأمريكان بالجنون إن لم يعرفوا من هو الخيّر ومن هو الشرير. كانت المكسيك هى الشرير فى الفيلم طوال قرن ونصف، حتى ظهر فيدل كاسترو المبارك وأصبح مانع الصواعق بالنسبة إلينا. جعل ثيسار ليون الأمريكان يفهمون أن للمشكلة بعداً آخر أكثر تعقيداً من فيلم رعاة البقر هذا. تصبح فيه المكسيك الصديق الأشد إخلاصاً للولايات المتحدة فى أمريكا اللاتينية، ولكن لن يحدث هذا إلا إذا حافظت على علاقة طيبة مع كاسترو بهدف أن تحافظ بدورها على قنوات الاتصال مفتوحة (وهذا يأتى فى المرتبة الأولى) والانتقال فى كوبا بعد موت كاسترو. وهذه "هى القضية الثانية" التى فشلنا فيها جميعاً. وهاهو لا يزال "الزعيم"، بعد أن بلغ الثالثة والتسعين ورأيت فى أخبار الكريسماس فى الجرائد أنه افتتح متنزه سييرا مايسترا.

حسناً، ليس لأنك قد ابتدعتِ السياسة تجاه كوبا والولايات المتحدة، يا صديقتى الحبيبة، لأنك تكونين هكذا قد اخترعت لمياه الفاترة. ببساطة فإنك زرعتيها، بوسائلك الإغرائية المعتادة، فى رأس الرئيس الشاب آنذاك ثيسار ليون، والذى وصل إلى الرئاسة وهو مغرم بالأمريكان، بعد أن تلقى تعليمه فى برينستون[3] وجامعة التكنولوجيا فى ماساشوسيتس، والذى كان عليه أن يتولى الأسباب الدفاعية للسياسة الخارجية للمكسيك، السلحفاة التى تنام بجوار الفيل.

---

(١) رواية الكاتب الأمريكى هيلمان ميلفايل (المترجمة).

(٢) نسبة للفيلسوف الفارسى مانى الذى ظهر فى القرن الثالث الميلادى، وانشق عن المسيحية وأسس المذهب المانوى مدعيًا أنه آخر من أوحى إليهم من البشر(المترجمة).

(٣) جامعة شيرة بولاية نيوجيرسى الأمريكية (المترجمة).

آه وذكرتيه أن رئيس داخل فى نظام الحزب الثورى المؤسسى الذى بُعث بعد أربعة عشر عاماً ينبغى أن يهدد أقارب وأصدقاء الرئيس الخارج لكى يحصل على تأييد الرأى العام ومصداقية الأمل فى فجر جديد.

ثيسار ليون. لم نأت على ذكره طوال هذه السنوات، منذ أن فاز فى انتخابات عام ٢٠٠٦ قررنا أنه ليس بشخص.

ما حدث أنه عاد، بعد أن فتح له الرئيس تيران ذراعيه، وعندما قلت له:

ـ احذر، أيها الرئيس. ثيسار ليون هو مثل العقرب الشهير الذى طلب من الضفدع: " احملنى على كتفيك إلى الضفة الأخرى من النهر. وأقسم إنى لن ألدغك" ومع ذلك، لدغه.

ـ أنا أعرف هذا. "إنها فى طبيعتى"- ابتسم الرئيس- ولكن فى هذه الحالة، هو الضفدع وأنا العقرب.

ـ وماذا تريد وقتها، لدغه أو العبور إلى الضفة الأخرى؟

ـ سوف أقرر هذا فى حينه. عليك بالصبر.

أذكر لك، يا حبيبتى الصديقة، هذه السوابق لكى تتفهمى، نقاشى أمس مع ثيسار ليون.

بدأ بأغنيته المعتادة عن "الحقارة".

ـ لقد تعلمت أشياء كثيرة فى المنفى. أرغب أن أكون عاملاً لتحقيق التوافق. يقترب موعد خلافة الرئيس لورينثيو تيران وسوف تعقد الانتخابات وسط صعوبات جادة.

وأخذ يحصيها، أنتِ وأنا نعرفها،وكذلك الطلبة والفلاحون والعمال والأمريكان. ومن الناحية العملية، قدم نفسه كوسيط فى كل قضية. وتحدث عن مؤيديه داخل الحزب الثورى المؤسسى المنقسم القديم، فى جزء كبير بسبب غطرسته المتشددة والمتسلطة تجاه انتهاء فترة رئاسته

التى استمرت ستة أعوام. وعرض مثله اللاتينى (يبدو أنه أمضى وقته فى أوروبا يقرأ الكلاسيكيات):

تظاهرت بالغباء، وطلبت منه أن يترجمه:

ـ فرق تنتصر، قالها متباهياً.

إذًا نعم، قلت فى داخلى، تنتصر بعد أن تفرق، أيها النذل. احتفظت بالتعليق حينئذٍ. كان يرغب أن أسمعه مثلما أسمع أغنية فرقعت وحازت على النجاح منذ عشرين عاماً. وأعاد علىّ أنه يرغب أن يكون أفضل رئيس سابق، جيمى كارتر المكسيكى، ألا ينعى حظه أبداً، وأن يتصرف كما لو أنه لم يقابل ولو إهانة واحدة ضده. ثم تلا: لقد عاد وهو متعطش لسلطة كالغريق الذى أمضى أعواماً يطفو فى بحر الظلمات تحيطه المياه بدون أن يستطيع أن يشرب قطرة.

وقال إنه يحب أن يكون عاملاً لتحقيق الوحدة والتعاون داخل ما تبقى من الحزب الثورى المؤسسى القديم والمنقسم. وتلا أنه يرغب فى امتلاك الحزب، وبنائه اعتماداً على وعود من القواعد المتعاونة القديمة، والتى تقلصت اليوم ولكنها لا تزال نابضة، وتحويل القوى المحلية ـ المبعثرة اليوم ـ والتى استفادت من ديمقراطيتنا للأسف ـ إلى وحدة معارضة لنقفز على الحكم.

وقال الوقح جداً إنه سيكون الوصلة بين الرئاسة وبرلماننا الصعب السيطرة عليه، لأنه لا يوجد أغلبية فى سان لاثارو ومبادرات الجيش متعثرة أو يتم حفظها.

عرضت، بكلمة واحدة، التعاون من أجل تخطى هذه العقبات والوصول بطريق ممهد إلى الانتخابات الرئاسية.

أخذ ينظر إلىَّ بدون أن يتفوه بكلمة واحدة. ليس ضرورة أن أقول لك إن هذا لم يفقده رباطة جأشه. ولمعت عيناه الضيقتان التى تخصان صبيًا وقحًا وقال على مهل:

إيريرا ....كل ما فات...لم يحدث.

نظرت إليه بحدة:

ـ سيدى الرئيس ـ قلتها بلياقة فرضتها الحالة ـ عندما كنت لا يضاهيك أى شخص لم تضمر بغضاء لأى شخص. والآن وأنت تشبه آخرين. من تكره؟

جاوبنى الماكر جداً:

ـ المسألة أيها السيد الوزير هى . من يشبهك أنت؟

اضطررت أن أضحك إزاء ذكائه الذى لا يتفتت أبداً، ولكن الضحكة تجمدت على شفتى عندما توقفت عيناه الضيقتان عن اللمعان وقال لى بهذه اللهجة القوية والتهديدية أنه مادام أفزع معاونوه وأعداءه على السواء أثناء حكمه.

ـ إن أردت نصيحتى، لا تتدخل أبداً فى قضية مورو.

أظن أنه توقع، إلا إن كان قد أصبح غبياً أو مطمئناً جداً، والحالتان سواء، رد فعلى، تفهمين، وهو رد فعل ضرورى أمام رجل ماكر وخطير مثله:

ـ يبدو أنك لم تفهم أن عهدك قد ولى....

ـ ماذا حدث من قبل....لم يحدث؟ ما رأيك؟

ـ لا، ببساطة فإن قانون سيادتك لم يعد القانون السائد اليوم... لم تعد المشكلات هى نفسها، ولا الحلول أيضاً، ليس، أكرر، العهد نفسه .

ـ ولكن، سيادتك وأنا، مع اختلاف مشكلاتنا وعهدينا، قد ننتهى إلى ارتكاب الشر فى حال أصبح ارتكاب الشر لازماً. أليس كذلك؟

رفع رأسه الأسدية ووجّه إلىَّ نظرة هى مزيج من التكبر والاحتقار:

ـ لا تقرب قضية مورو، أيها السيد الوزير. لا تقترب منها ولن يحدث شىء بيننا.

ـ اسكت، يا سيدى ـ كنت قد فقدت أعصابى- أعرف حقيقة القضية، ولكنى لا أكترث أن أحمل الأمر إلى الشرطة.

إذاً فلنر إن كانت الشرطة تؤدى دورها بكفاءة، وإن من سيتورط هو أنت.

نهضت واقفاً بعنف وقلت له بخشونة:

أنت لست سوى حلم ضائع.

لا، ابتسم لى وهو يقودنى إلى الباب والتفت نـاظراً إلىَّ قبل أن أخرج ـ إطلاقاً أنا كابوس حى.

خبطت بقبضة يدى على جبهتى بعدما أغلق ثيسار ليون الباب خلفه. كان لا ينبغى أن أفقد هدوئى أمام هذا الثعبان.

إلى أين، يا صديقتى الحبيبة، تتجه أمواج البحيرة.

ـ ١٩ ـ

نيكولاس بالديبيا

إلى ماريا دل روساريو جاليان

لك كل الحق، يا سيدتى، فى أن تلومينى على تباطئى. دعينى أثق فى المثل الإيطالى الشهير، باعتبار إيطاليا مصدر الحكمة كلها، وكل المكر السياسى أيضاً، وربما ذات يوم تمنحيننى شهرة كاتب إيطالى آخر أكثر شهرة من مؤلف الأمثال وتتعرفين فىَّ، يا سيدتى، ليس على طفل مدلل لثرائه وإنما، على نيكولاس آخر، غير ميكافيللى المسمى باسمه، والذى لن يعتمد للأبد على الثروة، التى (وبمن تفكرين، سيدتى؟) متغير وغير ثابت وقليل التفكير.

على أية حال، تظنين أن قضائى على غطرسة تاثيتو دى لا كانال بتحويل دوريتا الرائعة والمقهورة من رئيسها ومن أمها إلى امرأة كاملة، لا قيمة له.

لقد واصلت الخطة، يا حبيبتى ماريا ديل روساريو. جهزت أمس، على سبيل المثال، ١٤ فبراير، عيد الحب، عيد العشاق (ولا أحد يعلم لماذا؟) دعوة للحب فى المكتب. اخترت قاعة إيميليانو ثاباتا؛ لأن المكسيك تقتل أبطالها أولاً ثم تشيد لهم التماثيل. بدا لى أنها المكان المناسب لدعوة كل العاملين فى قصر الرئاسة. أنت تعرفين، أن لا أحد يراهم لأنه لا ينبغى أن يراهم أحد. ولقد ذكرت إليك السكرتيرات اللواتى يعانين هذه الأيام من الضجر بدون هواتف أو حواسب أو فاكسات، واضطررن للعودة إلى آلات "ريمينتجون" القديمة التى كانت تعلوها الأتربة فى الأرشيفات.

الأرشيفات؟؟؟ من رأى قط هذه الأرشيفات؟ لا يعمل فى هذه الأرشيفات ولا شاب واحد، هل لاحظتِ ذلك؟ ـ والتى تحوى وثائق المحاضر الرئاسية بعناية وإخلاص تستحق عليها ميدالية؟ هى غير مرئية وسط غير مرئيين أنفسهم، يعيش هؤلاء الأرشيفيون فى كهوف من الأوراق حافظةً كل ما يجب أن يظل سراً منسياً.

دعيت عمال الحدائق والحجّاب والسائقين والطباخات والخادمات والغسالات. عهدت إلى المخلصة بينيلوبى، لم أر قط سيدة تستحق اسمها مثلها، بتجهيز المكان ووضع الأضواء وتزيين كل شىء بقلوب وتوزيع الأشرطة الملونة الملفوفة وتنظيم البوفيه....

كانت البهجة تعم المكان إلى أن قام السيد المحترم تاثيتو دى لا كانال بدخول استعراضى وحل على الحفل هدوء جنائزى. وهو الأمر الذى أسعد مدير مكتب الرئيس. الذى كان مرتدياً زى الحفلات وهو عبارة أنه خلع رابطة عنقه وفتح الثلاثة أزرار الأولى فى قميصه لغرض آخر غير أن يكون مظهره غير رسمى، يا ماريا ديل روساريو جالبان. كان يرغب أن يرينا جميعاً صدره. الأصلع كالبطيخة، كان يرغب أن نشاهد غزارة الشعر الرائعة فى هيئته الذكورية ـ كأنه يقول: يستطيع طرزان أن يتأرجح من نهد لنهد. حسناً جداً. ولكن من تتخيلين من حمله معه معلقاً فى رقبته ومتشابكاً مع شعره الغزير؟ حجراً على هيئة تمثال، يا صديقتى الحبيبة، ومن كان يبتسم لنا من هذا التمثال؟

أنتِ ولا أحد غيرك، يا سيدة ماريا ديل روساريو جالبان. قال إنها عذراء جوادالوبى. لا يا سيدتى. أنتِ كنتِ أيقونة بين ثديى تاثيتو المغطيين بالشعر. لا أحد غيرا ماذا حدث؟ أن السيد تاثيتو كان على وشك الإعلان أنه أكثر من مجرد من صديق حميمى للصديقة الحميمة للسيد الرئيس وأن سيادتك الهانم المميزة تتمتعين بالمزايا المشعرة للمحترم كانال.

خذيه إن شئتِ. واكتفى بإخبارك، منفذاً بالحرف الواحد (أو من قلب الضباب الذى يخفيه السيد المحترم خلف صدره المزغب) تعليمات سيدتى

الجميلة، ومكر المذكور أعلاه المتلصص على عريك اللذيذ والفريد، يا سيدتى، والمستعرض حالياً لحب لن ـ لقبحه ـ يتجاوب معه. مظهر وهيئة واحتقار تاثيتو دى لا كانال تجاه موظفيه أدى إلى صمت فورى والشعور بأن مفرشاً مبللاً قد سقط على كافة المدعوين.

انسحب بدون أن يقول شيئاً، وهنأنى على مبادرتى "الهزلية" وبدون رغبة منه، وكرد فعل على حضوره الكئيب، تسبب فى بهجة هائلة بمجرد انصرافه. هناك أشخاص هكذا. أمرت بتقديم المشروبات الباردة وبعد وقت قليل فاضت البهجة التى حدثتك عنها على نحو خطير، كما لو أن المجاميع كانت على وشك الجنون. تمشيت بين الحضور أشجعهم وأحثهم على البهجة، إلى أن وصلت إلى ما يمكن أن نسميه مجلس الأرشفيين.

منذ متى يعمل هناك الأكبر سناً؟ منذ لوبيث ماتيوس؟. ومنذ متى يعمل الشاب الأصغر سناً؟ منذ لوبيث بورتييو؟ هل تحبان عملكما؟ أليس ذلك؟ تحتاجان إلى نظام شديد من أجل متابعة سير الموضوعات والأجندات والشخصيات. هل تقرءان ما تحفظانه؟ نظرات فارغة. لا. قط. يتلقون الأوراق، ويكفى ختم مكتب الرئاسة والتاريخ والموضوع مكتوب بأعلى الورقة على اليمين ثم يضعانها فى ملف الموضوع. أليس هناك موضوعات يكتب عليها "سرى" أو "شخصى" أو شىء من هذا القبيل؟ طبعاً يوجد. هل يتذكر أى منكما أى موضوع كان يوصف بهذه الصفات؟ لا، يقتصرون فقط على حفظه.

وقالت لى عيناهما: شىء من اثنين: إما إنهما شعرا بالضجر أو إنهما لا يفهمان. كما أن الوقت يكفى بالكاد لحفظ الأوراق التى تمر عليهما كل يوم. ولا شىء آخر.

هل من حقى أن أستشيركما؟

لم أنطق هذا السؤال لأنى ميزت فى هذين الأرشيفين، يا صديقتى الحبيبة، شعوراً بأنهم نقابة. نقابة الأوراق القديمة، والدهاليز المظلمة، والساعات الطويلة، المضجرة والثابتة، والإجازات القصيرة القليلة الأجر، والعائلات المشوشة والوجوه الشاحبة.

اخترت واحداً منفرداً. والذى قال إنه حفظ فترة لوبيث بورتييو. والذى لم يتخل حتى فى الحفل عن سترة الموظف المكسيكى القديم: قبعة مائلة للخضرة على جمجمة مجعدة تحمى نظرة لا تحوى فضولاً أو شكوكاً. وياقة منشاة ومعلقة بالقميص بزر أبيض بلاستيك. وصدارى مفكوك الأزرار وأساور على الكمين لإخفاء التفاوت بين طول الذراع وطول كم القميص.

ـ عائلتى من خاليسكو ـ قلت له كاذباً، بدون أن يصدر عنه أى رد فعل.

وواصلت: ونحن أقارب عائلة جالبيث إى جاييو.

لمعت نظرته.

ـ إنه أحب وزير إلى نفسى، قال بفرح حقيقى.

ـ هو نفسه، ابتسمت.

ـ يا له من رجل! متزوج من سيدة حقيقية. هل تصدق، يا سيد بالديبيا، لم ينسيا قط عيد ميلاد أحد منا، ولم يحرمونا من هداياهما وابتساماتهما قط... ياللفرق!!

ـ يفرقان عن تاثيتو دى لا كانال؟

ـ لم أقل هذا ـ ووضع الرجل العجوز يده على فمه، أنا لم...

عانقته بقوة.

ـ تخل عن حذرك. يا سيد...؟

كاستولو ماجون، فى خدمتك. أعمل فى الأرشيف منذ ١٩٨٢ . كانت الأيام مختلفة، يا سيد بالديبيا؟

ـ نعم. التذكر هو الحياة. أنا مهتم جداً بأرشيفنا.

ـ حقاً؟

ـ حقاً، يا سيد كاستولو.

ـ إذًا أنا تحت أمرك، متى ترغب انزل إلى أسفل. مرحباً بك. ولكنى أحذرك أن الأوراق كثيرة جداً، والتاريخ طويل، وأنا نفسى أتوه فى هذه الدهاليز الوعرة.

لم أقل له: إنى أعرف ما أبحث عنه. وألا يقلق.

ـ ٢٠ ـ

خابيير ثاراجوثا "سينيكا"

إلى الرئيس لورينثو تيران

يمر الوقت، يا سيدى الرئيس، وسيادتك لا تتفضل باستشارتى، فى السنة الثالثة من حكومتك، ماذا ينبغى أن أفعل "سينيكا"؟ تخيل أن أعود لألف ليلة وليلة، يا سيدى الرئيس، وأذكرك بمثال هارون الرشيد، والذى عند حلول المساء يخرج من قصره مرتدياً أسمالاً وينخرط بين الناس ويستمع لما يقال فى الواقع، وليس لما يجعله محاسيبه يعرفه.هل تعرف يا سيدى الرئيس؟ المكسيك هى بلد الحتمية الديناميكية. سيادتك تجاهر بإيمانك المبالغ بالمجتمع المدنى والحرية الشعبية. ونصيحتى بعد تفكير طويل هى: ضع حدوداً. إذا تركنا مواطنينا يتحركون بدون إرشاد، سوف تتحول الحرية بعد فترة إلى ضجة، ولن يصبح اسم الديناميكية الحرة إرادة وإنما حتمية.

هذه البلد تعانى من حالات عدم رضا كثيرة دفنت مع الوقت، قرون طويلة من الفقر، والظلم، والأحلام المطمورة.

إن لم يكن هناك مجرى سياسى، ولا يوجد سوى حرية غير مقيدة، سوف يتدفق الينبوع الذى تحت الأرض نحو السطح، متحولاً إلى سيل ويجرف كل شىء. أعرف أن سيادتك تثق فى أمرين. من جهة أن الشعب سوف يعرف أن يقدر الحريات التى تمنحها له. ومن جهة أخرى أن القوة موجودة فى جيش محترف (بون بيرتراب) وشرطة متوحشة(آروثا) واللذان

سيتوليان كبح حكام الولايات الفاسدين، الذين بدلاً من أن ينقرضوا مع الديمقراطية، ازدهروا مع الحريات.

لا يكفى، يا سيدى الرئيس. ينقص شىء ما. وهل تعرف ماذا ينقص؟ ينقص سيادتك. ينقص أن يراك الناس. أنت تتحول، مثل كثيرين من أسلافك، إلى المنعزل الكبير فى قصر الرئاسة، والشبح الذى يشغل كرسى النسر. قم برد فعل، أتوسل إليك. لا يزال هناك وقت. لا تعط انطباعاً أنك لعبة فى أيدى قوى ليست تحت السيطرة. كف عن النظر إلى الأفق كمدعى الرؤى فى أيام الأعياد ـ يوم الاستقلال، رسالة العمل الجديد، الخامس من مايو ـ دقق فى وجوه الناس، كف عن النظر من أجل الناس، وإنما دعهم يرونك تتصرف، سيادتك وليس أتباعك . وأن يملأ صوتك، يا سيدى الرئيس، الميدان وليصل إلى كل ركن فى الدولة. تحيا السياسة فى الفراغ حيث يصل صوت الرئيس. هل جربت سيادتك حدود صوتك ؟ هل قست الحدود بين الفعل وعدم الفعل؟ على الرئيس أن يتواجد من أجل المواطنين. إن لم يفعل، يسحبون عنه التكريم المنتظر. الرب الممتدح يمكن أن يتحول إلى شيطان رجيم فى اليوم التالى.

أخرج إلى الشارع، يا سيدى الرئيس. اطلق أفكارك قبل إن تنفلت منك. إن لم يكن لديك أفكار، كن ببساطة بوقاً لأفكار الآخرين. احترس، يا سيدى الرئيس. لا أرى سوى كسالى ومغفلين ومتملقين فى مكاتبك. هل تعتقد أنهم ينفعون، أو أنهم يخدمونك؟ أدخل سيادتك فى الفصل الثانى من فترة رئاستك. انظر إلى الوراء وهنئ نفسك على أننا اليوم بلد أكثر حرية وديمقراطية. حسناً جداً. ولكن انظر أمامك بتبصر حيث تقترب نهاية الأعوام الستة: مأساة الخلافة الرئاسية. سيادتك لم تعين خليفتك بعد . ليس لك غطاء. نعم لديك أثيرون ومفضلون وأطفال مدللون. فى كل إدارة وهكذا يحسب دعم الرئيس. داخل الأحزاب. داخل الإدارة . وداخل نفسك. دون أن يحسب الرأى العام.

ولكن احذر جيداً، يا سيدى الرئيس. إن جرؤت على الإشارة إلى الشعور العام بسلبيتك، فسوف أذكر أيضا الحضور الواضح والهادئ

والملموس. كما سأحذرك أيضًا من قيادة قوية جداً، والتى بدلاً من أن تدعم الحرية الديمقراطية، تخنقها. خضع هايدجر للنازية فى ألمانيا مطالباً بسلطة الأرض والدم فوق حرية التعبير. ومنح احتراماً أكاديمياً للموت عن طريق العنف. قائد ينظم طاقتنا ويجبرنا ـ أتلو من الذاكرة ما قاله الفيلسوف ـ على "السلبية الشهوانية للطاعة الكاملة". من يؤكد لك اليوم أن المكسيكيين، المتعبين من ديمقراطية تختلط بالسلبية، لن يختاروا قيادة متسلطة تمنح على الأقل شعوراً بالأمن والاتجاه؟

هذا هو الاتجاه الآخر. لا تقع فيه. قس وقيم تواجدك بين الناس. ولكن ـ أعود إلى الطرف الأول ـ ألا يقال عن لورينثيو تيران ما قاله جورج بيرنانوس عن فرنسا المنهزمة على يد أدولف هتلر:

اغتصب الوطن على أيدى صعاليك بينما كان نائماً.

ياه، يا حبيبى، وصديقى الرائع، والذى يميزنى بثقته فى. مهما تفعل، أعتبر أن رئاسة الجمهورية هى حوض سمك مصنوع من الزجاج المكبر .... ومهما تفعل، افعله جيداً. لأنك لو فشلت، لن تصبح سيادتك أسوأ رئيس ديمقراطى، وإنما الأخير.

ـ ٢١ ـ

الرئيس السابق ثيسار ليون

إلى تاثيتو دى لا كانال

يا لك من رجل لكل الظروف، يا صديقى العجوز والمميز. كانت العقيدة قديماً أن السياسى المكسيكى لا يترك شيئاً مكتوباً. انظر أيها الغبى إلى ماذا أوصلتنا كبرياؤنا المنسابة والمتحزبة ـ أو دعنى أقول سيادتنا المتكبرة ـ أو دعنا لا نلعب بالكلمات فأنا أعرفك جيداً أو أنت تعرفنى جيداً أيضاً. أدعونى أغسطس وأنا سأدعوكَ كاليجولا(*)، إلا أن الأخير عيّن خليفةً له، جواده، وفى حالتك أنت فإن الجواد هو أنت إن وصلت إلى المكانة التى ترغب فيها.

دعنى أسخر منك، يا كاليجولا التافه، الخائن المقرف. فكر فى أنه من يستطيع أن يقودك إلى كرسى النسر، ولكنى سأقودك وأنت تشعر بالحقارة، لأنك تدين لى ليس بالمعروف وحسب وإنما بحياتك نفسها. هل تتذكر ما قلته لك ذات يوم حينما كنت فى حاشيتى أيها الخادم المتملق؟ لا تحلم بمؤامرة، فسوف يقضى عليها بمجرد التفكير فيها.

صدقنى أنى فكرت فيك كثيراً أثناء هذه السنوات من ابتعادى، يا كاليجولا. فإن قيصرك أغسطس لن ينساك، طالما أعرض نفسى للكتابة حيث لم تتبق لنا وسيلة أخرى. ولا توجد تليفونات أو فاكسات أو إيميلات

(*) إمبراطور رومانى أشهر طاغية فى التاريخ الإنسانى اشتهر بساديته ووحشيته وتولى حكم روما فى الفترة من ٣٧ إلى ٤١م (المترجمة).

أو كمبيوترات أو شبكة أو أقمار صناعية؟ ولذا سأخبرك بما يجرى. يحدث ما لم يكن فى الحسبان. المجهول والرقيق. فقد اتفق على وضع علامات علينا جميعاً كل من الجنرال موندراجون بون بيرتراب والجنرال ثيسيرو آروثا، المختلفين فى كل شأن آخر،. ولا تسأل كيف فعلا ذلك وحققاه. يقولون عن موندراجون إنه يتمتع دوماً بعقلية تساوى ملايين، تخيل، أيها الأبله، العقل الخالص لجامعة التكنولوجيا فى ماساشوسيتس فى سيليكون بايى(*) والمركز الوطنى للبحث العلمى فى باريس.

هل تعلم ما ابتكراه لتعويض النقص الذى كان لدينا؟

دبوس، أيها السيد المبجل السائل لعابه، دبوس صغير كان يسجل كل أصواتنا وينقلها إلى سنترال المخابرات بمكتب موندراجون. كان العقرب الكبير يسرب إلى آروثا ما يراه ملائماً. ما حدث أن كافة المحادثات مسجلة عن طريق دبوس ميكروفون كنا نحمله فى مكان ما، بدون أن نعرف أين. ولكن ليس فى الثياب، فأنا تحققت من أنه عند دخولى الحمام لا يغطى صوت الدش على صوتى وأنا أدندن. ربما اعتقدوا أنى أنشد أغانى مشفرة وأنا أغسل جسمى بالصابون.

" لا تحكى لى أكثر.....دعنى أتخيل...."

أو

" بيراكروث، الركن الذى تعشش فيه أمواج البحر ....."

يمكن لأية أغنية أن تحمل معانى سياسية. ولكن هذا ليس مربط الفرس. المهم أننا لا نعرف فى أية ساعة ومتى وأين (أو للأسوأ فى أية منطقة)، زرع موندراجون بون بيرتراب فينا جميعا، بعلمه الألمانى الدقيق، (وليس مسألة حظ)، فى الحواجب أم الركب أو فى الأذن نفسها أو فى ضرس أو فى المؤخرة ببساطة ـ إبرة دقيقة غير مرئية تنقل إليه محادثتنا.

(*) الجزء الجنوبى من منطقة خليج سان فرانسيسكو بولاية كاليفورنيا الشمالية بالولايات المتحدة الأمريكية.

هيا إلى كتابة الرسائل. لم يعد أمامنا وسيلة أخرى. الأمل؟ والتى بمجرد قراءتها نمزقها. دهاء؟ أن نكتب عكس ما نفكر فيه أو نقوم به. ولكن لأنك معيوب، يا كاليجولا، ستفهم أن كل معلومة مزيفة مكتوبة يجب أن تنفذ بالحرف الواحد. ابتكرها وزير دفاعنا الذكى والألمانى جداً لكى لا تبقى أمامنا وسيلة أخرى سوى تبادل الرسائل وقول الحقيقة.

قد نستعين بأسماء مستعارة على الأقل، كما يفعل خابيير ثاراجوثا منذ مدة طويلة، والمعروف لدى الجميع بـ"سينيكا". حسناً هل يناسبك؟ أنا "أغسطس" وأنتَ "كاليجولا". ودعنى أقول لك، أيها الوقح المسكين، لا تصدق قيصر إن كنت جواداً. سأدخل فى الموضوع: لقد أصبحت ذا نفوذ معى، فى ظلى، دفنتنى غصباً عنى وأعطيت الأمر المحزن:

لا تسبوه حتى لا يحصل على هذه الميزة. لا تعاودوا على ذكره.

هدوء فى الليل! تنام العضلات! ولكن الطموح لا يهدأ أليس كذلك أيها الغبى؟ هل تعرف ما معنى كلمة mole فى قاموس الجاسوسية؟ هى كلمة إنجليزية لها مرادفات عدة. معناها: حسنة مشعرة. أو آكل الحشرات ذو أعين وأذنين صغيرتين، وأرجل كالسيوف لحفر أنفاقه تحت الأرض. أو الحاجز الذى يحمى من جمع الجماهير. أو الرسو فى مكان آمن. أو اللحم الطرى والدامى فى الرحم. وأخيراً هو الجاسوس الذى يخترق منظمة للعدو، وهو يظهر الإخلاص والصبر لفترة طويلة وفى النهاية يخون من استضافوه لصالح من عينوه (آه، طبعاً، وتعنى أيضاً الطبق الشهى جداً بالمطبخ المكسيكى، كما تعنى سفك دماء الخصم عن طريق الضرب، حيث يقولون نخلع الـ mole .

حسناً، أنا أعينك جاسوسى الشخصى(*)، فى المكان الذى تعرفه. لتعرف كم أنا سخىٌ معك أيها الصرصار التافه. إن فزت، تفوز معى. وإن خسرت، تفوز مع أعدائى. أفضل صفقة سياسية لم تعرض على أحد من

(*) my mole بالإنجليزية فى الأصل (المترجمة).

قبل منذ رودول هس(*)، وبدلاً من أن يعدموه شنقاً، حكموا عليه بالحبس المؤبد. طاوعنى. تعرف أن جلد الإنسان يتغير كل ستة أعوام. نحن أفاعى ونعرف ذلك.

فكر يا كاليجولا وقرر تغيير جلدتك قبل أن يسلخوها من عليك. يُعرض المسلخون فى متحف الأنثربولوجى فى خيبى توتيك. يجب تغيير الولاءات والزوجات كل ستة أعوام (أو الحبيبة كما فى حالتك)، أو القناعات. جهز نفسك، يا صديقى الوفى. استعد. بدون أن تتوهم:

أنا اليوم فى سرير المنهزم.

السيئ أنه إن وصلت إلى هذا السرير، سوف تنام تحت المرتبة. لأنى سأكون فوقك. ولا تشك فى ذلك.

ملحوظة: كم أكره فترة الستة أعوام!!!! إنها تشبه شرائح الحلوى التى لا تستطيع التوقف عن تناولها عندما تنفتح شهيتك. وأحذرك، أن يخطر لك أن تتهمنى أمام رئيسك. فإن خنادقى معه ليست محفورة وحسب وإنما نتشاركها معاً. هو رجل طيب. ساذج. لا تملأ رأسه بحكايات عنى. سوف يعتبرك متآمراً و متطفلاً. وتنتهى نواياك إلى النفاية.

ـ أنت لست سوى حلم ضائع.

ـ لا، ابتسم لى وهو يقودنى إلى الباب والتفت ناظرًا إلىَّ قبل أن أخرج ـ إطلاقًا أنا كابوس حى.

خبطت بقبضة يدى على جبهتى بعدما أغلق ثيسار ليون الباب خلفه. كان لا ينبغى أن أفقد هدوئى أمام هذا الثعبان.

إلى أين، يا صديقتى الحبيبة، تتجه أمواج البحيرة.

(*) نائب هتلر فى الحزب النازى (المترجمة).

- ٢٢ -

آندينو آلماثان

إلى "لا بيبا" آلماثان

بيبونا، حبى الملتاع، تبعدنا ظروف الوطن الاستثنائية ، ولكن تتقارب أرواحنا أكثر من ذى قبل.... كان البعد يقربنى دوماً إليكِ، يا حبيبتى، لأننا عندما ننفصل نتشوق إلى بعضنا البعض، بقوة أكبر ؟ هل يحدث معك نفس الشىء، يا حبيبتى؟ أنت فى ميريدا، وأنا فى العاصمة. أنتِ فى مدينة جميلة ولطيفة وهادئة. وأنا فى مدينة مركزية مختنقة، تعج بالضجيج، فظة، وضارة بالصحة. أنتِ يحيطك الناس الظرفاء، والودودون والبسطاء. وأنا مختنق داخل السيارة التى توصلنى من المنزل إلى المكتب وتأخذنى للعودةِ كل يوم فى المساء المتأخر، بدون أى عزاء، حتى أيام قليلة، سوى مكالمتنا الهاتفية عندما تدق الثانية عشرة. والآن اختفى ذلك أيضاً. هرب منى صوتك العذب، على أن أتخيله، واقتصر على الكتابة. وأنا هنا محاط كل يوم بالأعداء وهدف للهجمات والرسوم الساخرة فى الجرائد ("آندينو، ارحل من الحكومة")، والمكائد والمؤامرات فى دهاليز البيروقراطية.

يناقض قناع التكنوقراطى البارد والفعال الذى ينبغى أن أضعه كل صباح طبيعتى الحقيقية. قبل ذلك كنت ألجأ للمرآة لعمل بروفة لوجه التكنوقراطى الذى لا يتبدل. لم أعد فى حاجة إليها حالياً، يا بيبونتى. تحول القناع إلى وجه، صارم، متصل الحاجبين، بشفتين مزمومتين وفم

يشم العطن وحاجبين على شكل ثمانية. وعينان، يا حبيبتى، إن لم تكن تطفحان كراهية فإنهما تطفحان برودًا، واحتقارًا ولامبالاة....لقد تعلمت أن أتكلم على الطريقة الإنجليزية، بدون أدوات نحو أو سياقات.

- بالضبط.

- فى الخدمة.

- لاشىء.

- حذراً.

- رائع.

- أخذنا الحذر.

-انتباه.

أقول هذا واصمت. تعوق نظراتى الاسترسال فى الحديث، سواء كان ظريفاً أو مزعجاً أو مخلصاً او مخطئاً. كل ما يقوله الآخرون يمثل خطراً بالنسبة لى. خطر التناقض، لا قدر الله. أو خطر الإقناع، وهو أكثر الأخطار سوءاً.

امنح منى ما يتنظرونه منى. خبرتى التقنية. معرفتى بالأسواق الدولية. ومعاييرى للاقتصاد الضخم. شغفى بسعر العملة مقارنةً بالعملات الأخرى، واحتياطى العملة، وتسديد الديون الخارجية وإجمالى الديون الداخلية والعجز التجارى والدعم الأوروبى والأمريكى، واقترابى المجبر عليه من البنوك المركزية فى واشنطن وبرلين ولندن ومدريد.

ولكنى لا أمنح ما أرغب فى منحه وهو إنسانيتى. سوف تسخرين منى يا خوسيفينا، بقهقهاتك الصاخبة التى يطلق عليها الحاسدون "شعبية"، كما لو أن حيويتك، التى تجذبنى بشدة، هى بصورة أو بأخرى "شعبية"؟ وأن قدرتك على البهجة وإطلاق النكات والسخرية هى أيضاً "شعبية"؟ إن كانت هذه هى "شعبيتك"، فكم أفتقد إليها؟ كم تحيينى نكاتك الشهوانية؟ وإيماءتك البذيئة، كل ما يثير إخلاصى لأنه لدى ـ وأقولها أمامك، يا

حبيبتى، عاهرتى فى المنزل، لا حاجة لى لأجرى سعياً وراء "العجائز" مثل زملائى البلهاء فى الحكومة، فلدى "عجوزتى" سيئة السمعة، والهائجة، المستعدة لكافة الأوضاع والمتع، هى عندى فى بيتى.

كم أفتقدك، يا بيبونتى؟ دافئة وحنونة، ولكن زوجة مخلصة وأم عطوف. وأشعر بالأمان لأن "تاءاتى" الثلاثة، تيرى و تاليتا وتوتو، معك. توائمى الثلاثة اللواتى وصلن إلى العالم فى ترتيب دقيق، منح ضوءاً بهيًّا وعذرياً لولاداتك المتوالية والتى فى الحقيقة كانت متتابعة، صحيح قولى لى، هل يتذكر أحد ترتيب ولادة الطفلات الثلاثة؟ يبدو كما لو أن، ملائكى الثلاثة، قد نزلن، من السماء معًا لمباركة علاقتنا، يا خوسيفينتس، زواج سعيد بصورة فريدة، بالرغم من البعد والنمائم .أوقات سعادة. عرس، مثل فتياتى الثلاثة، أقيم فى الجنة.

هل تذكرين حفل العرس؟

هل تذكرين منزل لوس لاجارتوس الذى تم تزيينه من أجل زفافنا؟ هل تذكرين العشرات من طيور الفلامنكو ذات اللون الوردى؟ هل تذكرين الوليمة على الجزيرة من محار وبيض موتولينيو، والدجاج بصلصة الإسكاباتشى والجبن المحشو؟ هل تذكرين دفء الليلة، تسليمنا لبعضنا البعض بعشق، وتلهف والدتك فى الغرفة المجاورة فى فندق جارافون مترقبة أن تطلبى المساعدة إن شعرتُ بالألم ـ آى آى آى ـ أو أن تنشدى النشيد الوطنى الفرنسى إن شئتِ ـ آى آى آى، انهضوا يا أبناء الوطن(*)! حسناً، بيبونا حبيبتى! لقد تركتينى أحتل سجنك الضيق، أجمل شىء أن حمامة آندينو قد أعجبتكِ.

حسناً، ترين أنى معكِ أفرغ همومى، وأعود لأكون آندينو الماثان الذى أحببته منذ اثنتى عشرة سنة، وتزوجتِ به منذ أحد عشر عاماً ورزقتِ منه بطفلة من الطفلات الثلاثة منذ عشر سنوات. وفى الحال أعود إلى هيئتى المعتادة والمجبر عليها كوزير للمالية، وأنغمس تماماً فى عالم الاقتصاد،

(*) ay, ay, ay allons enfants de la patrie بالفرنسية فى الأصل (المترجمة).

متنكراً فى قناع الإحصاءات، وأخلق شخصية خارجية لأدارى هواجسى الداخلية[1] والتى هى أنت، يا حبيبتى السمينة المعشوقة.

أستيقظ غداً ، أنا لم أعد ملكك، يا خوسيفينا.

أسترق السمع لما يقولونه عنى:

-عندما يدخل آندينو إلى مكتب، تنخفض الحرارة.

- دخل السيد الوزير. فليقف الجميع.

-احذرا فإن للسيد الوزير رأيين. الأول رأيه هو شخصيًا، والثانى أنك مخطئ.

روحى تحتضر، يا بيبا. ولكنى توليت هذا الالتزام وأدين بالوفاء به للسيد الرئيس وللبلد ولنفسى. إن لم أكن أتولى حقيبة المالية، لحادت السفينة عن مسارها. أنا قبطان لا غنى عنه. صاحب نشيد الحزام والحزم لا غير. وتفادى التضخم. ورفع الضرائب. وخفض الرواتب. وتثبيت الأسعار. أنا الرجل الثلجى. وبما أنى يوكاكتانى[2] استوائى، فلقد تحولت من بخيل يقيم فى الجبال إلى بخيل الميزانيات والكلمات.

وبما أنى اقترحت عدم قول أى شىء، بيبا حبيبتى. كل مرة أفتح فيها فمى لمعاقبة الكونجرس، لا أُفزع سوى المستثمرين. فالأفضل أن أصمت. وألا أقول شيئاً لأنه لا ليس لدى شىء أقوله ولذا اكتسبت سمعتى بأنى حكيم. أنظر إلى كافة الأشياء ببرود حيادى، ولكنى لا أفهم شيئاً. حسناً. يجب أن يلعب هذا الدور المؤسف شخص ما. استغنيت عن ثلاثة من نواب الوزراء كثيرى اللغط. الذى قال:

ـ إن الفقر فى المكسيك أسطورة.

والذى قال:

ـ إن لم يوافقوا لنا على قانون الضرائب فسوف ننهار مثل الأرجنتين.

(١) Sos vos بالفرنسية فى الأصل (المترجمة).

(٢) ينتمى لمدينة يوكاكتان التى شيدت أثناء حضارة المايا (المترجمة).

والذى قال:

ـ إن الفقراء يتمتعون بفضيلة التعقل.

وظفونى من أجل استئصال المرض من النظام. أنا "فليت" الحكومة. قاتل الحشرات.

وحياتى، يا حبيبتى، تجف يوماً بعد يوم، وكانت لتخرج من جسدى إن لم تكونى أنت وأطفالى الثلاثة اللواتى تبدأ أسماؤهن بحرف التاء، تيرى وتاليتا وتوتو. أرسلى لى صورة حديثة لكن جميعاً. تنسين أن تفعلِ ذلك منذ فترة. وأنا لا أنسى ولو لدقيقة «آ» حبيبك.

ملحوظة: أُرسل لك الخطاب مع صديقى الطيب وزميلى تاثيتو دى لا كانال من أجل مزيد من الأمان. يقولون إنه علينا أن نعيش فى الحكومة كما لو أننا موتى. وتاثيتو هو الاستثناء. بفضله أدخل وأخرج من مكتب الرئيس بدون عوائق. هو رجل ماهر وله مستقبل ويتكيف إن رأى ذلك ضروريًا، وقاسى إن استلزم الأمر. ثق فيه. آ آ

ـ ٢٣ ـ

الجنرال ثيثيرو آروثا
إلى الجنرال موندراجون بون بيتراب

جنرالى، سيادتك وأنا على اتصال دائم وحميم. وأؤكد لك أنى دائمًا ما شهدت بتفوقك لتولى أهم المناصب العليا، ومن بعد كل شخص، ومن بعد سيادتك وبعدى، تفوق رئيس الجمهورية. القائد بالفطرة للقوات المسلحة. إذًا حسناً، يا جنرالى، بالصراحة التى عهدتنى بها أحذرك أن هذا البلد المسروق ينفلت منا. عجباً، علينا أن نشعر بالفخر بأن سبعين مليون مكسيكى أعمارهم عشرون عاماً أو أقل. بلد أطفال. هل سمعتهم؟ كيف تعتقد أن هؤلاء الشباب يرون المومياوات التى تحكمهم، أى الخمسين مليونًا الآخرين؟

كم عمرك؟ خمسون أو اثنان وخمسون؟ أربعة وستون أو خمسة وستون؟ حسناً فإن السجلات فى قريتى المفقودة بولاية إيدالجو لا يوثق فيها- هذا إن كانت ولاية إيدالجو نفسها موجودة، لأنها اختراع لفصل مدينة مكسيكو عن الولايات الخطرة والمنافسة مثل ميتشواكان وخاليسكو.عجباً، فإن الأوروجواى التى فى المكسيك فقيرة وبدون أى سجلات. وفى النهاية، يا جنرالى، فأنت وأنا فى زهرة الشباب كما تقول جدتى. ولكن الثروات تجمدت كما يقول الشباب عنا. هم يبحثون عن قائدهم الشاب. شاب مثلما كان ماديرو وكاييس وأوبريجون وبيبيا وثاباتا بإطلاقهم الثورة: وكلهم أقل من ثلاثين عاماً.

ابحث بدقة، يا سيدى الوزير. أين قائدنا الشاب هذا؟ كم عمر المداهن تاثيتو دى لا كانال؟ اثنان وخمسون مثل سيادتك؟ ومنافسك بيرنال إيريرا، يزيد عن الخمسين بقليل أو عن الأربعين بكثير، أليس كذلك؟ هل تعتقد أن الشبيبة يثقون بكم؟ هل تظن أن ملايين الشباب الذين نراهم يركبون الموتوسيكلات ماركة هارلى دافيدسون خارج "سيتى ليجواس"، هل تعتقد أن هؤلاء الشبان نصف العراة الذين يرقصون الليل بكامله فى الديسكوهات، أو أن هؤلاء الدى جى الذين يطيرون من لوس أنجلوس إلى مكسيكو إلى هونولولو بخمسة وعشرين ألف دولار من أجل برمجة سى دى واحد فقط، هل تعتقد أن أبناء أصحاب الملايين المتسلسلة التى يتوارثونها من عام ١٩٤١ يثقون فى أى واحد منا؟

أقول لك ما تقوله النخبة فى الصحف، يا سيدى الجنرال؟ ولكن ماذا تقول لى عن الشاب الذى ينتمى للطبقة الوسطى، والذى يرى كل ستة أعوام عائلته بلا سيارة أو منزل أو حتى غسالة وغير قادرين على دفع المصروف. كما رأى الطلبة وهم غير قادرين على تحصيل العلم، لأن الجامعات العامة مشغولة بالإضرابات والجامعات الخاصة تود لو تقتلع عيناً من وجوههم؟

انظر إليهم، يا سيدى الجنرال، يرغبون أن يصبحوا مهندسين أو محامين ماهرين، انظر إليهم، يديرون سيارات أجرة ويوزعون البيتزا، ويقيمون فى السينما، ويشعرون بالحقارة؛ لأنهم يجب أن يكونوا شيئاً آخر وأنت تفسد هنا، أيها الجبان. والفتيات اللواتى يرغبن أن يصبحن ربات بيوت من الطبقة الوسطى ويعملن على الآلة الكاتبة وبائعات فى المتاجر وخادمات إن وافقن أو فى بيوت الدعارة. ودعنى لا أقص عليك حكايات الفتيات فى مصانع الحياكة اللواتى يحلمن بأن يطلب يد الجميلات جدا منهن أحد الأمريكان، وتنكسر الماكينة أو ينتهى مطافهن فى الصين، حيث يتلقى العامل أجراً أقل عشر مرات من العامل فى المكسيك وإلى الشارع للشحاذة أو العودة إلى الوطن وأكل الصبار، أو يكتفين بالمكوث فى المنازل

وهم يحملن أطفالهن فى حجرهن إلى جانب آلاف الشبان الراغبين فى عبور الحدود، والحصول على الجنسية الأمريكية، والعمل فى الجانب الآخر بالرغم من تعرضهم للغرق فى النهر أو الاختناق داخل شاحنات الدجاج أو الموت من العطش فى الصحراء أو التصفية بالرصاص على يد دورية الحدود الأمريكية التى تتركهم هناك.

قل لى، يا جنرالى، إلى مَنْ يتطلع شبابنا السبعون مليونًا؟ إلى من؟ خذ وقتك فى التفكير، جنرالى، خذ الوقت الكافى.

ولكن تذكر أنه فى هذه المواضيع يمر الوقت سريعاً.

ـ ٢٤ ـ

نيكولاس بالديبيا

إلى ماريا ديل روساريو جالبان

حسناً، يا سيدتى الجميلة والمتطلبة، لقد حذرتنى منذ اليوم الأول أن كل شىء بالنسبة لك هو سياسة، بالرغم من أن الظنون قد راودتنى حين دعوتنى ليلة أمس لرؤيتك تتعرين من الغابة التى تحيط بمنزلك. ومما زاد الطين بلة، أن السيد تاثيتو دى لا كانال قد سبقنى (بعلم وصبر سيدتى الجميلة). هل هذه سياسة أيضاً أو بصراحة أكثر جنس؟ ياه يا سيدتى ماريا ديل روساريو، ما الأسرار الأخرى التى تخفينها ولا علاقة لها بالسياسة؟ ، وإنما بمنطقة "القلب الذى له عقله الخاص" أوأن العقل (أو السياسة) لا يفهمان.

حسناً تخيلى أنى تلقيت درساً آخر، لا أعلم إن كان سياسياً، وإنما أعرف أنه إنسانى. لأنه. هل يوجد فى بلدنا سياسة بدون ما نطلق عليه نحن مقاومة؟ كما أخبرتك ذات يوم، فلقد تقربت جداً من أحد موظفى الأرشيف بالمكتب الرئاسى، العجوز الذى وصفته لك من قبل. وكان لطيفاً أنه دعانى إلى منزله. حسناً لم يكن منزلاً، وإنما شقة، شقة بالطابق الثالث ذات سطح فى "بايخو" بالقرب من نصب "لاراثا"(*).

دخلت من محل أسماك غير متوقع أنشئ لاستغلال المساحة بين الباب والسلم وإن شئت أن أصف لك المبنى، لن أستطيع. إنه مكان، يا

(*) نصب مكون من هرم على قمته نسر يلتهم أفعى ومجموعة تماثيل أخرى أنجزها المهندس المعمارى لويس ليلو دى لاريا. (المترجمة).

سيدتى، يطير من الذاكرة بعد رؤيته فوراً. هكذا ثمة أفعال وأشخاص وأماكن مهما حاول الواحد منا تذكرها لا تعود إلى الذاكرة...طبعاً، فإن الواحد منا يقول كم هو محزن، فأنا لا أذكر، حتى نكتشف أن ما تبقى فى الذاكرة لم يكن مكاناً ليس به شىء يذكر، وإنما مجموعة الأشخاص الذين لا يمكن نسيانهم، ولا يمكن نسيانهم، يا سيدتى، لأنهم لا يظهرون سوى فى عقل واحد بعيد عنهم، وليس لديهم سوى أعين من ينظر نحوهم.

هل تفهميننى؟ بالنسبة لى كان نوعاً من الاكتشاف، بالتحديد لأنهم لم يطلبوا منى شيئاً ومع ذلك أشعر أنى مندهش ومنجذب من توسلات الذين لم يطلبوا منى شيئاً. وما هذه التوسلات؟ يدعى موظف الأرشيف كاستولو ماجون ولديه قريب من بعيد انضم إلى الشقيقين الثائرين ريكاردو وخيسوس فلوريس ماجون، الفوضويين اللذين، أثناء دكتاتورية، بوريفيو دياث، أضعفا قلعة سان خوان دى أولوا المقابلة لميناء بيراكروث والتى رأيتها من بعيد فى اليوم الذى أرسلتينى فيه لزيارة "عجوز المقهى". حسناً فإن السيد كاستولو سوف يكمل عامه السبعين، ويعمل فى الأرشيف منذ رئاسة لوبيث بورتييو، عندما كان فى العشرين من عمره، وتزوج مؤخراً؛ لأنه استغرق وقتاً فى جمع النقود اللازمة للزواج وفى العثور على امرأة تعجبه والتى تعمل هى أيضاً فى جمع النقود.

للسيد كاستولو هذه النظرة الروتينية والمرهقة لموظف الأرشيف، وكما أخبرتك، لم يستغن أيضاً عن الصدارى الأخضر والأسورتين على الكمين ليبدو بيروقراطيًا كوميديًا صغيرًا. الأرشيفات هى أماكن مظلمة، لا أعرف إن كان السبب أن الأوراق قد تذبل ولا تقرأ أن طالعتها الشمس، ولا أعرف لماذا تنسى الأوراق فى مقابرها المعدنية الرمادية وملفاتها الصفراء. لا أعرف إن كان لطرد المواضيع المرحة منها، يا روحى وسيدتى. إن كان السيد كاستولو هو شبح الأرشيف. كما كان جاستون لاروا(*) يعيش فى المتاهات السفلية لأوبرا باريس، يعيش السيد كاستولو ماجون فى الأرض أسفل القصر الرئاسى.

(*) كاتب فرنسى (المترجمة).

وجهه رمادى اللون، وإن لم يكن مرهقاً، فهو خنوع، أما أصابعه، يا ماريا ديل روساريو، فهى ذات مهارة مذهلة، وأنتِ ترينهم يتفقدون أقسام الأرشيف، بسرعة، ودقة متناهية... فى هذه اللحظة يتفاعل عمره مع إحباطه الشخصى وهيئته المرهقة ليصبح السيد كاستولو كالعالم الكيميائى فى السجل الرسمى. يعرف أين يجد كل شىء، خاصةً، مكان الأشياء التى يجب ألا تكون موجودة، والتى أصدروا له أوامر بإتلافها، وكاستولو قام بحفظها، ليس مخالفةً للأوامر، وإنما لأنه لم يفكر فى الأمر فقام بحفظ ما لا يجب حفظه، وفقاً للنظام المكسيكى اللامركزى: غير المعتمد على أسماء الأشخاص (مثال: جالبان، ماريا ديل روساريو أو إيريرا بيرنال) أو الإدارات (مكتب الرئيس، الكونجرس) وإنما اعتماداً على التقارير.

تقارير سرية، يا سيدتى. ماذا تعتقدين أنى واجد فى أرشيف لوس بينوس؟ تحت اسمى بالديبيا، نيكولاس، تحت منصبى، مدير مكتب الرئيس، ومساعده؟ ولكن لا، يا حبيبتى ماريا ديل روساريو. أنا موجود تحت مسمى المدرسة الوطنية للإدارة فى باريس. أى المدرسة ذات الكفاءة التى تخرجت فيها. هل فهمتِ! بالنسبة لمتاهة الوحدة هذه فإن هذا أروع شىء! لأن هذا ما تتعرف عليه الأصابع الرقيقة لهاتين اليدين التى تصلحان لعازف بيانو أكثر عمى من إيبوليتو إيل دى سانتا، والخاصة بصديقنا موظف الأرشيف السيد كاستولو ماجون. وإن قلت إن حالته الاقتصادية لا تتناسب مع مهاراته الحرفية يعتبر تكراراً. يتلقى كاستولو مرتباً متواضعاً، خمسمائة دولار فى الشهر، تبعاً للمرتب الحالى، والتى تكفى بالكاد الاعتناء بالسالفين البيضاوين على خديه وطلب استعارة الجسر اللاصق الذى يمر فوق رأسه من اليسار إلى اليمين لإخفاء الصلع. (لماذا؟ وأمام من؟؟ قولى لى سيدتى لأنك تعرفين جيداً بشأن الغرور الإنسانى، خاصةً لدى المحرومين والمحتقرين أمثالى، خفيف الظل الفقير). ما يحدث أن السيد كاستولو لا يزال يستخدم اللاصق "المصنوع فى المنزل" والذى انتهت موضته منذ مائة عام وأعتقد أن هذه هى وسيلة التدليل

الوحيدة بالنسبة له فى حمامه الصغير بعد أن أحاطت به احتياجات عائلته، من كريمات وأدوات تجميل وقبعات استحمام للسيدة سيرافينا، والابنة آراسيلى والابن ريكاردو خيسوس، والذى سمى هكذا تكريماً لأبطال قلعة أولوا المذكورين سلفاً، الشقيقانْ فلوريس ماجون.

كان على السيد كاستولو أن يكون نحيفاً كما تنبئ هيئته العظمية، إلا أنه لديه انتفاخ البطن الخاص بمن يأكل إفطار اللوبيا والفلفل واللحم طوال حياته، هذا إلى جانب البيرة أحياناً. أما السيدة سيرافينا فهى معجزة، يا ماريا ديل روساريو جالبان. تسهم فى اقتصاد البيت بعملها كحلوانية. تملك المطبخ. ولا يدخل المطبخ، الذى يعد أكبر مكان فى الشقة، سواها.

تقول لى ـ لذا اخترنا هذه الشقة.

وهناك فى المطبخ كل شىء، ابتداء من المائدة الطويلة التى أضحت تغطيها طبقة طبيعية من الدقيق، إلى فرن الحلويات. تصنع عليها السيدة سيرافينا المارينجى تورتات العرائس المتعددة الأدوار والمشروبات منذ خمسة عشر عاماً، وتحمل أجرها الكبير الذى يصل إلى الألف إلى البيت، والذى قد يصل إلى ألفين إن لم ىكن عليها أن تنفق على "الخامات الأساسية"، كما تقول هى باعتزاز، وهى تمسح يديها جيداً فى "المريلة". تخيلى آندريا بالما[1] وهى فى السبعين من عمرها. سيدة الميناء هذه الرشيقة، والشاحبة والتى تبيع حبها إلى "الرجال الذين يأتون من البحر"، ولكنها ليست رشيقة جداً مثلها، كما أنه لا يبدو عليها الشحوب أو التعب وهى تتحرك، ولكن يبدو عليها فى أعماق عينيها، فى نظرتها المعتمة التى تشبه نظرة زوجها، والكئيبة مثل الغيم غير المتوقع فى عز الظهر.

هى كما يقول الأمريكان[2] سيدة عملية هذه هى السيدة سيرافينا، هل تعلمين يا سيدتى، أنها لا تشتكى قط ولا تأخذ ولو دقيقة واحدة من

(١) ممثلة أمريكية تميزت بجمالها الفائق (١٩٠٢ ـ ١٩٧٨م) (المترجمة).

(٢) Business - like بالإنجليزية فى الأصل (المترجمة).

الراحة، فيما عدا عينيها اللتين تتلفهان على شيء لم يحدث قط. سوف أكرر هذا. وأشدد عليه. على أنه شيء لم يحدث قط. إنها ليست نظرة وعد لم يكتمل التى تمنحها عينا سيدة البيت وحسب وإنما هى نظرة البيت بأكمله. الحنين، أو الحلم المفقود، ما كان يمكن أن يكون....

املئى، يا سيدتى، هذه النظرة بخيالك، حاميتى العظيمة، لأنى لم أرها قط فى عينيك، كما لو أنك تحظين بكل شيء ـ كل شيء ماعدا مملكة الطموح الآتية ـ عينا السيدة سيرافينا لا طموح لديهما. أراها وهى تعمل فى مطبخها ولكن ما أراه ليس طموحاً، وإنما مجرد رغبة بسيطة ونقية فى الحياة. وهناك السيد كاستولو يقرأ فى الجريدة فى الصالة الصغيرة. والتليفزيون مفتوح، ويقول لى متعجباً. يوجد التليفزيون فى المكسيك حتى فى أفقر الأحياء، وفى المدن المفقودة. ويقول إنه كبر وهو يقرأ الجريدة وأنه لن يستبدل عاداته البطيئة كموظف فى الأرشيف بنشرات الأخبار التليفزيونية الموجزة. على الرغم من أنه هذه الأيام، بدون وجود إشارات القمر الصناعى على إيريال التليفزيون، فلن يرى شيئاً، حتى إن رغب.....

كله من أجل الرب. أو الأفضل، من أجل الابنة المزعجة ذات العشرين ربيعاً، آراثيلى، والتى يتضخم كرشها فى سريرها وهى تقرأ مجلة "أهلا" وتحلم، كما أعتقد، بأن تصبح شارلوت أميرة موناكو أو شيئًا من هذا القبيل، ثم تقضى ساعات بعد ذلك وهى تتجمل من أجل خطيب يأتى فى سيارته المتحولة لاصطحابها فى الساعة التاسعة للخروج لتناول العشاء والرقص فى أحد الديسكوهات. هى ليست شقية، تقول عنها أمها، هى شابة ولها كل الحق فى الاستمتاع وتعود دوماً وهى محملة بكيس البلاستيك الممتلئ ببقايا العشاء فى المطاعم التى يحملها إليها هوجو باترون، خطيبها اليوكاكتانى والذى يعمل وكيلاً لشركة سياحة نادرة النشاط هذه الأيام بعد توقف الحواسب الآلية وبعد أن أضحى الأمريكان يتشككون فى السفر إلى المكسيك. ولكن تمتلئ غرفة آراثيلى ببوسترات

الكاريبى والبحر المتوسط وباريس وفينيسيا، التى أهداها لها هوجو. وهو شاب نيته حسنة، كما تقول السيدة سيرافينا، ولكنه قديم الطراز، لأنه لا يدع الطفلة تعمل. ويرغب فى جمع المال الكافى لشراء الشقة ولرحلة شهر عسل مجانية، ثم بعد ذلك ألا تعمل خطيبته التى سوف تصبح زوجته أبداً. وأنا أرى أنه يرى أن عدم العمل مرادف للعذرية.

وأحياناً ما تخلع سيرافينا "المريلة" وتأمر الطفلة المدللة بالخروج من حجرتها وتوزيع الحلوى عندما لا يرسل زبائنها سائقيهم لأخذها. ويجب أن ترى إيماءات الطفلة وقتها. ولدت لتكون أميرة، ورأسها مليئة بالأوهام (وسوف أخبرك بصراحة تامة) حتى أنها تتعارك معى وأنا فى زيارتهم. نعم أنا عريس "لقطة" أكثر من هوجو باترون، ولكنها حين ترانى أتكلم تكبح نفسها كليةً، وأنا أشدد على لكنتى كمحترف مثقف متخرج فى باريس، وأكرر كلمة بعد أخرى بالفرنسية وأرى فى وجهها الرقيق كلون القمر خليطًا من الضجر والاحترام والبعد والذى يعبر وجهها كما لو أننى "سحابة القدر السوداء"، أو كأنى ظاهرة نزلت من السحاب وتزور سكان العالم المتواضعين ـ وهى من بينهم بدون أى أفق آخر سوى وكيل السفريات هوجو باترون ورحلة شهر العسل إلى ميامى.

ثمة غرفتان صغيرتان فى الشقة. إحداها للزوجين والأخرى لآرائيلى. وهنا فى السطح، الذى كان بمثابة برج حمام حقيقى حيث يرعى ويدلل هذه الطيور مذكراً إياى بمارلون براندو وإيفا مارى سان فى الأسطح الفقيرة فى ميناء نيويورك، يعيش فى شبه كوخ خشبى الابن ريكاردو، وهو شاب غير عادى. أقولها لك، يا ماريا ديل روساريو، أنه نوع من(*) القناص الجيد. (اسمحى لى ببعض السخرية فى المساء: لا وسيلة أخرى لدى لأقضى على الحقد الذى تبثينه فى).

أولا هو غير عادى بسبب هيئته الجسدية. ابن جذاب، فى السادسة والعشرين . رشيق جداً بدون أن يكون نحيفًا، بعضلات قاسية ولكنها

(*) head hunter بالإنجليزية فى الأصل (المترجمة).

رقيقة. أطول منى ـ حوالى ١,٧٩ ورأسه مثل هذه الرءوس الموجودة فى متاحف إيطاليا: رقيقة فى كافة تفاصيلها، شفتان رقيقتان، وأنف حادة، ووجنتان عاليتان وعينان متسعتان وجبهة عريضة وشعر أسود مرسل على الكتفين.

هل أصف شخصاً يثير الرغبة؟ أعتقد بإخلاص، أنه نعم يثير. يا سيدتى الجميلة والمراوغة، التى طالما منحت وتمنح رفاهية قصوى لرغباتها، هل تفهميننى. هذا الشاب رائع للغاية حتى أن لا أحد ـ رجلاً أم سيدة ـ لا يستطيع إلا أن يرغب فيه. بنطلون الجينز الضيق للغاية، وملابس البحر القصيرة، والقدمان الحافيتان، عندما خرج وهو متفاجئ ليرى من أنا، شرحت له وهو منهمك فى إلقاء الحبوب. يعرف أنى ساعدت والده وهو يقدر ذلك. ينظر نحوى مباشرةً بشىء من السخرية والشك ويقول لى:

لا أذهب إلى الجامعة لأنها مغلقة منذ عامين.

ثم رمى الحبوب إلى الحمام.

هل تدفع لى مصاريف الجامعة الخاصة؟

كانت نظرته المعتمة ذكية للغاية حتى أنى كنت لا أحتاج للسؤال التالى.

مضيعة للوقت أن تخرج للعمل لوظيفة بائسة، من تلك التى تنهك الواحد منا وتصيبه بالملل الخالص....

وتقضى للأبد على طموح وموهبة الفرد- أنهيت عبارته ونظر نحوى بإعجاب مستهزئ.

وكانت نظرته تقول كل شىء.

أنا شاب يهتم، يا سيد بالديبيا.

ياه، يا سيدتى، إن مللت منى ذات يوم، فهاك مرشحك التالى، جالاتيا الذكر، لتهدئة ولعك بأن تكونى بيجماليون، يا سيدتى الجميلة.

اسمه خيسوس ريكاردو ماجون

فى السادسة والعشرين من عمره.

يقيم فى برج حمام بائس فى كالثادا كويتالهواك.

ـ ٢٥ ـ

آندينو آلماثان

إلى الرئيس لورينثو تيران

سيدى الرئيس لا أنت ولا أنا نسهو عن المشكلات التى تضرب البلاد. والتى لبعضها أسماء تقنية: مثل التحكم فى التضخم، وجذب الاستثمارات، وزيادة فرص العمل بدون زيادة الرواتب. ولبعضها الآخر طبيعة دولية والتى تقتصر، بصورة حتمية وأحادية على جوارنا للولايات المتحدة الأمريكية. وبعضها الآخر ذو طبيعة اجتماعية محلية: الطلبة والفلاحون والعمال. وأخيراً، بعضها ذو صبغة سياسية وهو خليفة الرئيس بعد أقل من ثلاثة أعوام.

اضع أمامك، بالصراحة التى منحتها إياى، الخطابات فوق المائدة. فقد صنعت لنفسك شهرة حل المشكلات بتجنبها. وهذا يرجع، وأنا أعرف ذلك، لثقتك فى المجتمع المدنى وقرارات المحاكم ودولة القانون، عامةً. وتخليت عن سطوة الجيش التقليدية.

وأنا فى المقابل أتمتع بشهرة سيئة مضاعفة. يقولون عنى إنى أيوب الحكومة. فلدى صبر لانهائى، ولكن هذه الميزة هى عيبى. فإن سلبيتى كبيرة لدرجة أن المنتقدين لى يقولون إن الفعل الوحيد الذى يجب أن أقوم به هو الاستقالة. أهز كتفى وأقول لك، يا سيدى الرئيس، إنى الفرد الوحيد فى حكومتك الذى أعطى خدوده الأربعة لأعدائه. أنا مانع الصواعق عن سيادتك. وتبدو استراتيجيتى أنها على الأقل متناقضة. هل

اكتشفت سيادتك من جانب أنى من يخترع المشكلات التى يتوجب على سيادتك حلها. ومن بينها، تحويل المعارضة إلى حليفنا المقرب. وكلما اختلقت المشكلات أكثر كلما صرخوا فى وجهى أكثر، بالتأكيد. ولكن تزداد الميزانية التى يمنحونها إلى أكثر. لعبة برلمانية لا تخطئ، خاصةً، عندما لا تتمتع بالغالبية فى البرلمان، كما هى حالتك.

يعارض الجميع مبادرتك الضريبية، وهى المبادرات نفسها التى أقدمها مع علمى بأنها سوف ترفض فى أحسن الأحوال وأحتفظ بالمبادرات التى سيتم التصديق عليها؛ لأن الكونجرس لا يرغب أن يبدو بأنه مؤلف من مجموعة من خامدى الهمم، والجهلاء والأعداء للإصلاح الضريبى. و ترى سيدى. فها نحن نواصل بدون تمرير ضريبة القيمة المضافة على الأدوية والأغذية ـ التى اقترحناها، ولكن فإن الكونجرس هو من يعزز النظام الضرائبى التدريجى والمتوزع ـ الذى لم نطلبه لعدم إغضاب الأغنياء، ولكن كنا نريده فعلاً من أجل إصلاح النظام المالى.

أقول لك هذا كله، يا سيدى الرئيس، لأذكرك بما نعرفه. فأنت وأنا نشكل فريقاً جيداً. المعارضة هى خير حليف لنا. فكلما ازدادت صرخاتهم لنا لأسباب بعينها، ازدادت الميزانية التى يمنحونها لنا لأسباب أخرى. أن النقيض هو الذى ينجح: لا نرغب فيما نقدمه ونصبو إلى ما لا نريده.

نحن نشكل جزءاً من أكثر المناطق بؤساً وغباءً، من الناحية الاقتصادية، فى العالم: أمريكا اللاتينية. تكمن أهمية أمريكا اللاتينية فى أنها لا تمتلك اقتصادات صحية. نحن مهمون لأننا نخلق المشكلات للآخرين. لقد قلت لك عدة مرات. نحن لسنا، كما يعتقد أحد الشعبويين المنتشرين والساهرين، أو ضحايا صندوق النقد الدولى أو عبيد العالم الأول. وإنما على النقيض. فهم ضحايانا نحن. ونستخرج منهم، بفضل أخطائنا ونقاط ضعفنا، القوة الوحيدة فى أمريكا اللاتينية، والتى هى عبارة عن التأجيل.

تأجيل بعد تأجيل. للديون. تقييم العملة. ولتعويم العملة. وللخدمات العامة. وللتعليم. وللصحة. ولتأهيل الأيدى العاملة. نؤجل كل شىء لأننا

نكتفى أن نكون مشكلة ليتم "إنقاذنا" فى كل مرة ونواصل تأجيل المشكلات والحلول إلا أن يتجمد الجحيم نفسه.

ماذا تريد أن أقول لك، يا سيدى الرئيس؟ فقلد نجحت استراتيجيتنا. تجعلنا نستمر فى الطفو، برأس يكاد يرفع رأسه فى الماء. ومن هنا يأتى تحذيرى. اجمع سيدى كافة المشكلات وفكر بهدوء. هل سنستفيد من قطع علاقتنا هذه؟ هل الحقيقة هى أننا لن نستفيد؟ ومن هنا يأتى تحذيرى وأسباب كتابتى لهذه السطور.

سيدى الرئيس إن رئيس الشرطة الفيدرالية ثيثيرو آروثا يسبب لنا إزعاجاً خطيراً. لحسن الحظ أنه لم يعد أعصاب وزير الدفاع (الذى تجمعنى به علاقة طيبة والذى عرفنى عليه)، ولكن لا تنقصه الرغبة (والحجة). أحصى سيادتك المشكلات: إضرابات الطلبة، والعمال، والفلاحين، والعدوان الأجنبى، والفقر الوبائى، التى نعرفها جميعاً. وظهر حالياً عامل جديد. فراغات السلطة. أشدد، يا سيدى الرئيس، فراغات السلطة. غياب السلطة فى أمكنة عدة. العمال المكسيكيون الذين لا يستطيعون دخول الولايات المتحدة يعسكرون فى الولايات الشمالية وبعد عودتهم يصبحون فاقدى الهمة وشاعرين بالضيق فى جواناخواتو وبويبلا وأواساكا(*). أو العمال الجواتيماليون الذين يتسللون عبر الحدود الجنوبية غير المحمية والطامحون فى فرص عمل غير موجودة ينتزعونها من المكسيكيين. وتجارة المخدرات التى تجوب البلاد من شمالها إلى جنوبها ومن شرقها إلى غربها، عبر حدودها وسواحلها، بدون أى عوائق، ولكنها تتميز بقوى بعينها: قوة حكام الولايات الجديدة، المتحالف بعضهم مع تجار المخدرات (نارسيسو"تشيكو" ديلجادو فى كاليفورنيا السفلى، خوسيه دى لاباث كينتيرو فى تاواملیباس) وآخرون مستقلون ولذا تزداد الخشية منهم (فيليكس إلياس كابيثاس فى سونورا)، وآخرون أكثر ارتباطاً بحركات البطالة والفقر وعدم الرضا (رودلفو روكى مالدونادو فى سان لويس

(*) ولايتان مكسيكيتان (المترجمة).

بوتوسى، وبيدالس "اليد القوية" فى تاباسكو، والذى يتباهى بأنهم إن قتلوه سيحل محله "أولاده التسع الأشرار") والسيد على الحدود البرية والبحرية وملك التهريب، سيلبيستري باردو.

حركات البطالة، والفقر، وعدم الرضا..وطموح الجنرالات. كم يبلغ متوسط أعمارنا فى حكومتك، يا سيدى الرئيس، تيران؟ خمسين، أو ستين عاماً؟ نحن عجائز ومومياوات فى بلد بها ستين مليون رجل وامرأة تحت سن العشرين عاماً. هم الجموع التى يرغب حكام الولايات فى حشدها وثيثيرو آروثا يعلم هذا. يعلم هذا ويرغب فى تنظيمه لخلق الفوضى والاستيلاء على الحكم قبل بدء الحملات الانتخابية بعد عام.

ماذا نريد؟ الحالة الراهنة بشتى عيوبها، ولكن بنظام وبلا دماء. وماذا يريد حكام الولايات؟ الصيد فى المياه العكرة. دولة بلا قانون سوى قوانينهم، مقسمةً مثل الأرجنتين، فأنت ترى سيدى، كانت الجمهورية موحدة ذات يوم والآن أصبحت مجموعة مؤسفة من الجمهوريات "المستقلة". كوردوبا، سان لويس، لاريوخا، كاتاماركا، خوخوى، سانتياجو ديل إيستيرو، لكل منها "خطيبها" المحلى، وحاكمها المسيطر وعملتها الورقية الخاصة عديمة القيمة. يقول "سينيكا" إن الثقافة ستحميها دوماً. ثيسار آيرا هو أول أرجنتينى يحصل على جائزة نوبل للآداب.

هل نرغب فى هذا للمكسيك؟ هل اطلعت على استراتيجية ثيثيرو. أولاً، كسر النظام القائم. ثانياً، التقسيم. ثالثاً، الوحدة القائمة بالمجهود العسكرى. وفى هذه اللحظة سينضم المخلص جداً والمنشق المحترف موندراجون بون بيرتراب، باسم الوطن، إلى النظام العسكرى.

أما كيف عرفت هذا كله؟ وهل هى مجرد استنتاجات أو تخمينات من ناحيتى؟ لا، يا سيدى الرئيس. أعذر صراحتى، ولكن ولائى مع سيادتك. لقد عرفت هذا كله من فم وزير الدفاع موندراجون بون بيرتراب بنفسه. ولماذا أطلعنى عليه؟ كى أخبر سيادتك. هل طلب منى مباشرةً؟ لا. ولكنه كان يخمن هذا. ولماذا لم يخبر سيادتك مباشرةً؟

مع السيد الرئيس أنا لا أعطى افتراضات وإنما تأكيدات فقط.

ولماذا أخبرنى؟ لأحذرك مما يجرى. يظل بون بيرتراب بهذه الخطة إلى جانبكيا سيدى - ولكنه أيضاً إلى جانب المتمردين، فى حال انتصارهم. هى لعبة مزدوجة شهيرة فى الحياة السياسية. ولكن هذا لا يقلل من خطورة وحقيقة الوضع. سيدى الرئيس، نحن نسير كالأعمى التائه الذين ينادونه من الأرصفة لكى يحترس من السيارات التى تتجه نحوه من جميع الاتجاهات. هل ستكون أعمى، يا سيدى، وأصم أيضاً؟

ـ ٢٦ ـ

"لا بيبا" آلماثان

إلى تاثيتو دى لاكانال

حبيبتى، لا تتخلى عن تعقلك، هل تعلم؟. هاهى الساعة الثانية عشرة ولم ينم أعداؤنا. الوقت ينفد منا. كانت جدتى، التى يتغمدها الله فى رحمته، تقول دوماً:

لكى تهزم الشيطان عليك بأن تكون بيلزيبوب [١].

علينا أنا وأنت أن نكون شياطين أكثر من الشيطان نفسه. تطلع إلى فوق. إن رغبت فى الفوز بالسماء، عليك أن تنظر نحو الله. عليك أن تحذر كتائب الماندينج[٢] التى تحيط بك. فإن رئيسك لا يمتلك سوى شهرته. و"ب أ" متحالف مع لوكريثيا بورخيا هذه التى تعيش فى لاس لوماس[٣]، العاهرة "م ر". افتح عينيك، يا حبيبتى. لقد وضع الاثنان فى مكتبك "ن ب" ولكنى دومًا لا أثق فى الأبرياء. أنهم وقحون يتظاهرون بأنهم قديسون لخداع الرب ودخول الفردوس. وأنت وأنا نطبق قانون هيرودس[٤]: إما أن تقتِل أو تُقتَل.

تزيد عودة المتوحش السابق الأمور تعقيداً، لأنه لا يعتنى سوى بلعبته وأنت وأنا نفتقر "البلى"[٥] لمنافسته، يا حبيبى الجميل الرائع. هناك فى

(١) أمير الشياطين فى الإنجيل (المترجمة).
(٢) قبائل إفريقية فى مالى وغينيا والسنغال (المترجمة).
(٣) حى للأثرياء بمدينة مكسيكو (المترجمة).
(٤) هيرودس الكبير، آخر ملوك اليهود من ٧٤ ـ ٤ ق م (المترجمة).
(٥) لعبة أطفال (المترجمة).

بيراكروث يلعب العجوز بغموض الدمينو ومن يعرف متى سيشرع فى وجهينا "الدش"(*). يا إلهى كم تحيطنا قوى الأعداء الخالصة. أفضل شىء أننا لسنا فى حاجة إلى جهد كبير لترتيب قضية سب وقذف جيدة. تقول عنك عاهرة لاس لوماس إنك قد تقتل والدتك نفسها لتصل إلى السلطة. حبيبى القديس: أنا على يقين بأنك لن تفعل شيئًا كهذا أبداً. الأفضل إن تقتل والدة عدوك.

إذًا فلنراجع فوضى "نظامنا". وأولها الرئيس، الذى لا غنى عنه. ماذا يدور فى رأس الرئيس؟ ما خطته؟ وماذا يعرف، ماذا لايعرف؟ ماذا يحسب؟ وماذا يتوقع؟ ومن يحب؟ ومن يكره؟ لا أحد لم يتساءل حول هذه الأمور اليوم بأكمله، من داخل وخارج الحكومة، ولذا لن ألح عليك. كيف يبدو لك الرئيس؟ ولا تجيبنى. ولكن تذكر أن الأمر ليس بهذا الغموض. فالرئيس لا يستطيع الاختباء.

لا ترد علىَّ. الأحسن أن تسأل نفسك فى الخفاء. وسر بحذر. أنت قريب منه أكثر من أى شخص آخر فى الحكومة ونحن نعلم أن حكومة الرئيس مثل سلطة الفواكه. لمن تمنح ثقتك، يا حبيبى. للكريز أم للعنب؟ فهناك يجب ألا تفشى أسراراً وعلينا بالحذر. حمداً لله أن الأرشيف الذى صنعته فى قصر الرئاسة أو الرب نفسه أو موظف الأرشيف العجوز ماجون هذا لا يفهمون أو يعلمون بماذا تسميه، خاصةً أين تحفظ الأوراق وماهية هذه الأوراق التى دُمرت بأوامر منك. اختراعك ـ أو اختراعنا، إن كنت تريد أن تكون كريماً مع أبلهك المفضل ـ هو أن ندمر الأوراق التى تكشفنا، ولكننا لم ندمرها فقد نحتاجها وقدرنا فى حال تحدث شركاؤنا وتكون هناك أم لا وثائق تكذبهم.

ولكن الخطر قائم هناك، يا حبيبى لا يزال، فلا تقلل من حذرك أبدًا. أنت تعرف بما يفكر الرئيس عندما يشعر بأن وزيراً لم يعد مفيداً بالنسبة له. فإنه لا يقول:

لم يعد مفيدًا.

(*) فيشة الدومينو ذات رقمى ستة المزدوج (المترجمة).

لا ـ ولكنه يقول:

لقد خانني.

والآن ألق نظرة على المشكوك بأمرهم دومًا ـ من خصمك اللدود؟ نحن نعرف بالتأكيد. الوزير "ب أ" ـ الآن قل لي، لماذا يخشونه؟ أنه في نظري رجل بلا جاذبية جنسية[1] وبالتالي فلا فرصة لديه لأن يكون مرشحًا كاريزمياً ـ وهل مع ذلك لديه فرصة أن يصل للعرش؟ إنه نسر بحق. يشير إليه الجميع على أنه مرشح أكيد وهو يتظاهر.

ـ لا أعرف لما يقولون هذا............

فليكافئنا الرب، إن كنت أنت وأنا نعرف لماذا: لأنه يشعر بأنه وحيد ولأن اللبؤة السياسية "م ر" تغذي هذه الفكرة لديه. أما أنا فهناك فكرة أخرى تأكل دماغي. كيف نخبره بأن هذه العجوز تخدعه وتجعله يعتقد بأنه المفضل لدى الرئيس لخلافته؟ لن نخبره بذلك. أنه في حاجة للطمة شديدة ليفهم هذا ـ ولكننا نحن ـ اليوكاكتانيين ـ خبراء في التربية، كما تعرف، ولذا فلقد تسللنا أنت وأنا بهدف أن تبدو هذه الحيلة بصورة سلبية أمام "ب أ" وأتباعه. وأن يقول الناس.

لقد جعله الرئيس مرشحاً لخلافته ليتخلص من أحد السياسيين غير المرغوب فيهم.

لحسن الحظ ثمة نقاط قوة في صالحنا، وطموحات مبعثرة، أيها الرائع الجميل، تجعلنا نصطاد أنت وأنا في النهر المضطرب. المضطرب بسبب صيادين متناقضين مثل المستأسد السابق، والرئيس الأسبق في بيراكروث، والمغفل الذي يترأس الكونجرس (ليته يسمعني)، والساذج "ن ب" وحتى "م ر" نفسها، والتي ما تنفك تقضي نهارها في إسداء النصائح المتحذلقة حتى أنهم سيقولون لها يوماً نفس ما تذيعه هي كتحذير بوجهها الذي يشبه الشريرة كرويلا دي فيل[2]

(١) بالإنجليزية في الأصل (المترجمة).

(٢) شخصية في فيلم والت ديزني ١٠١ دالماشن (المترجمة).

تعودين تقنعينني، يا سيدتي. مهما فعلت، فسوف يلقون باللوم عليك. ويجب أن تمليِ من هذه النصائح.

احذر منها. ولا تظهر لها كم نحتقرها خاصةً أنك متعاطف معها؛ لأنها ليست جميلة مثلي أو لأنك تفضلني عنها. إياك أن تذكر هذا التفضيل وإن كنت تهزر. واعرف، يا حبيبي، أنها تحتقرك وتشفق عليك وأنها ستموت من الفرح لو تجاوبت معها.

وفيما يتعلق بموضوعنا نحن، يا حبيبي "ت". لا تنس ولو للحظة واحدة أننا البشر لدينا عيوب ومزايا ويستطيع أعداؤنا استغلال الاثنين. انظر نحوي، يا حبيبي. ألم تلاحظ أني لا أنظر نحو يدي أبداً؟ هل تعرف لماذ؟ لأني عرفت منذ باكورة شبابي أني لو نظرت تجاه أحد أصابعي، سوف يعتقد الرجال دوماً أني أريد خاتماً.او الأسوأ، أني فقدته أثناء فعل فاضح. وإن فقدت خاتمًا، يمكن أن أخسر أي شيء: ثروة، زوج، عذريتي، اليانصيب!

ولذا تراني دوماً أرتدي قفازات، حتى في هذا الحر الحارق في ميريدا. وأيضًا كي لا تلمس أصابعي جلدًا آخر غير جلدك، يا حبيبي الرائع والجميل. رجال آخرون في حياتي، سوف تعاتبني، من حين لآخر أليس كذلك؟ انظر يا حبيبي، ويمكن أنك قد خمنت هذا . إني هدف لنظرات الرغبة ليس أكثر.

- ٢٧ -

الجنرال ثيثيرو آروثا

إلى الجنرال موندراجون بون بيرتراب

سيدى الجنرال، أن الأمور تشتعل وحانت لحظة الفعل. وهذا بالإجماع، أتوسل إليك، كفردى مشاه شقيقين كما نحن، يا سيدى الجنرال. انظر لما يجرى. إن السياسة الديمقراطية الشهيرة لرئيسنا تتسرب منها المياه كزورق صغير أثناء إعصار فى الخليج. ثق فى الشعب والمجتمع المدنى بأن ينظم نفسه ويحل مشاكله بنفسه، وأمنح الشعب الحرية وسوف ينضم للنقابات والتعاونيات وجمعيات الأحياء، اللعنة. ولكن، لا، سيدى الجنرال. اسحب السلطة واصنع فراغاً خالصًا. هذا البلد لم يحكم نفسه قط. هى عديمة الخبرة. ولا تعرف الطريق. طالما احتاجت يدًا من حديد، وسلطة مركزية تمنع الفوضى ولا تسمح بحدوث أى فراغ. ولكن انظر فإن فراغات السلطة فى البلد يملؤها حكام الولايات، الذين يتربصون هناك مثل نمور جاهزة للقنص.

قد يكون أهالى مثل أهالى ساهواريبا، الضائعة فى الصحراء، حيث يقوم حاكم ولاية مثل فيليكس إلياس كابيثاس بالتحكم فى السلطة الفعلية فى سونورا ويمارسها متخفيًا بالبعد والجهل محتكرًا إنتاج المناجم ومسيطراً على استخراج وتصدير النحاس كما يشاء.

ويمكن لولاية بأكملها مثل سان لويس بوتوسى، أن يضمن أحد حكام الولايات وهو رودولفو روكى مالدونادو للمستثمرين اليابانيين النظام والأمن لاستعمال سان لويس كمحطة لإغراق الولايات المتحدة بالتكنولوجيا

عبر اتفاقية التجارة الحرة. ستقول سيادتك إن إيريرا قد أمر بهذا الوضع فى سان لويس بوتوسى، ولكن من حمل النصر (أو الين أو ما يدفعه هؤلاء الكاميكاز الصفر) هو حاكم مالدونادو. ولذا دع الناس تعتقد أن من فرض النظام هو السيد وزير الداخلية، ولكن الآسيين بأعينهم التى تشبه أعين فو مانشو[1] يعرفون أفضل ولكنهم لا يقولون شيئًا.

وإذا تحدثنا عن محور تامبيكو ـ ماتاموراس، يا سيدى الجنرال، حيث تدخل المخدرات المهربة مثل آداليتا[2]، إن كان عبر البحر فهى داخل السفن الحربية ، إن كان براً فهى داخل القطارات العسكرية.. ومن يأمر بهذا؟ الرئيس، سيادتك، الوزير إيريرا؟؟ لا وإنما المهربون فقط، الدون سيلبيسترى باردو، وحاكم الولاية خوسيه دى لاباث كينتيرو تحت إمرته. يسيطر على تهريب النساء فى قطاع تيخوانا ـ مكسيكالى وولاية كاليفورنيا السفلى بأكملها الشيخ دون نارسيسو"تشيتشو" ديلجادو، ويتظاهر بأنه مدافع عن الحيتان ويعيش على استغلال الفتيات، إن استطعت الشرح مع معذرتى عن لغتى الإيحائية.

هل ترغب فى أن أواصل؟ هل أحكى لك شيئاً لا تعرفه؟ هل أقول لك إننا فقدنا السيطرة على ناحيتى الحدود، يا سيدى الوزير، الشمالية بتهريب المخدرات وتجار الرقيق الأبيض وذئاب الهجرة، والحدود الجنوبية بالسياحة الأوروبية الثورية التى ورثت أقنعة التنكر الخاصة بالراحل (المفقود) ماركو بولو، لتأسيس المجتمع الاشتراكى فى ولاية تشايباس، والانهماك فى بيع المشغولات البسيطة (أقنعة الجبال، والجلابيب التقليدية، والبنادق الخشبية، ومذكرات ماركو المذكور نفسه، والعوازل الطبية ذات العلامة المسجلة "الانتصاب"، وقبعات الثوار من أنصار ثاباتا[3]، وأيقونة عذراء جوادآلوبى، للسياح الشيوعيين والعاديين من

---

(١) شخصية خيالية ظهرت للمرة الأولى فى أعمال الكاتب الإنجليزى ساكس رومير أثناء النصف الأول من القرن العشرين وأصبحت رمزًا للنشر (المترجمة).

(٢) اسم المرأة المحاربة فى الأغانى الشعبية المكسيكية وباقى العبارة يشير إلى أغنية شعبية شهيرة (المترجمة).

(٣) إيميليانو ثاباتا: ثورى مكسيكى (١٩١٩ ـ ١٨٧٩) (المترجمة).

ناشدى العواطف القوية، مع تكريسها لفتح معبر "إنسانى" أمام الهنود الجواتيماليين الفارين من التعذيب والقتل والحرق فى قراهم على أيدى الرجال البيض فى جواتيمالا الرديئة. لمَ لا يتعلم منا البيض الجواتيماليون ويعملون سريعاً على الاختلاط حتى لا يبقى هناك هندى خالص؟ أما الجنوب الشرقى فهو تحت سيطرة الشؤم التاباسكى "اليد القوية" بيداليس.

يا لها من خدعة، يا سيدى الجنرال!!! هل سنسمح أن يستمر كل هذا فى إضعافنا. أو سنتخذ فعلاً أخيراً، نحن ـ الاثنين ـ أنت وأنا لإنقاذ الشعب من خلال فعل تطهيرى تقوم به القوات المسلحة، الدرع الأخير للوطنية المكسيكية؟ هل سننتظر حتى انتهاء عملية انتخابية طويلة تستغرق ثلاثة أعوام؟ هل سننتظر حتى يصل هذان المقربان والوقحان من أمثال دى لا كانال وبيرنال إيريرا إلى قصر "لوس بينوس" لخداعنا؟ أو سنقف لنرى طريقة تبديل السيد الرئيس لورينثيو تيران، المعرض لسخرية الصحافة والرأى العام كمتكاسل تلتصق الوسادة بمؤخرته؟ هل سنقف، سيدى الجنرال، لنرى طريقة أن يكون لدينا رئيس ذو يد حديدية وشخصية قوية، يُرجع النظام لهذا البلد اللعين.

أنا أعرف أن سيادتك لا تحب كتابة الخطابات أو البطاقات حتى فى وقت الكريسماس. ولكنى انتظر منك أية إشارة، ياسيدى الوزير والجنرال وصديقى. إشارة ليس إلا. فأنا الماح فى فهم مغزى الإشارات...............

ـ ٢٨ ـ

دولسى دى لا جارثيا

إلى توماس موكتيثوما مورو

توماس، أود أن ألقى نفسى لأبكى فوق قبرك. ولكنى أعلم أنه قبر فارغ. هاهو شاهد القبر موجود. وعليه اسمك. كما يوجد تاريخ ميلادك ووفاتك.

توماس موكتيثوما مورو

١٩٧٣ ـ ٢٠١٢

ولكنك غير موجود. ثمة قبران، أحدهما فوق الآخر. صندوق بطابقين وتمثال شمعى على صورتك يسيل فوق نفسك ولا شىء فى الطابق السفلى. لا شىء، يا حبيبى، ما عدا درع النسر والأفعى الصغيرة التى كنت تحضرها دوماً فى بطانة سترتك والراقدة فى ركن من تابوتك المزيف، لا أعرف إن كان نتيجة لجهل من دفنوك، أم لأنك نفسك قد تركتها هناك، كإشارة على وجودك، ووسيلة لتخبرنى:

جميلتى، أنا هنا، ابحثى عنى.

ليس لدى سوى القليل لأواصل الأمل، يا حبيبى، مجرد درع منسى! وتابوت فارغ! وهيئة جسدك الشمعية التى تسيل حتى تنتهى إلى بقعة من الحياة الزائفة.

"الحياة الزائفة" تعلمتها منك. كنت تقولها عن السياسة. ولكن ألمى ووحشتى اليوم ليسا زائفين، يا توماس.

لا يرغب أحد فى مساعدتى. لست موجودة. أنا كنت موجودة لأجلك وحسب، لأنك أحببتنى هكذا، وأنا تقبلت هذا بامتنان.

رشوت حارس المقابر ليدعنى افتح القبر. كنت قد قلت لى:

يمكن شراء أى شىء فى المكسيك. كيف نقضى على هذه اللعنة؟

منذ أن قتلوك، لم ير أحد رفاتك. يقولون إن الرصاصة التى اخترقت دماغك قد شوهتك. أين احترام الأموات!!! إذًا، أين الجرح فى تمثالك الشمعى فى التابوت الأول، ليس به أى جرح، ولماذا تبدو رأسك ـ رغم أنها تنصهر ـ كما لو أنها لم تمس. احترموا الأموات!.

لم آكن أعرف من أنت. ولم تكن تعرف من أنا. أحببنا بعضنا بدون أن نعرف بعضنا البعض أو نسأل عن أى شىء. لم يكن اتفاقًا. لم نحك شيئًا قط. كان لقاؤنا غامضاً إلى حد ما. جمعنا الغموض والآن على الغموض أن يجمعنا معًا.

لم أكن أعرف جسدى، حتى علمتنى أن أحبه وأتعرف عليه؛ لأنك أحببته وكنت تستكشفه مرة تلو الأخرى، فتكشفه لى أنا نفسى....

ـ عيناك تغير لونهما مع نور النهار وتصبحان الضوء الوحيد أثناء الليل.... طرف أذنك لا يحتاج إلى قرط، يداك النظيفتان والرقيقتان لا تحتاج أى جواهر....فمك رطب دوماً مثل النبع....ومهبلك هو الجرح الذى لا يتألم لكى أتمكن من جرحه ثانية بدون أى عقاب....إن لم يكن لديك شعر فى عانتك، يا حبيبتى ماريا، كنت لأرسمه لكِ. أصعد وأنا أتلمس بطنكِ كما لو أنها السهل العارى، الذى أرغب أن يدفنونى بداخله.....نهداك قلقان، يضطربان ويهدئان عند الاهتمام بهما..... خذى وخذى وخذى حينما أداعب ردفيك القويين، والجامدين، والكبيرين كما لو كانا لتعويض نحافة خصرك وأغرق وجهى دومًا فى شعرك الأسود، يا حبيبتى، يقربنى هذا الشلال الأسود للطبيعة الحقة التى هى مشهد جسدك. الطبيعية الوحيدة التى لا أستطيع أن أحيا بدونها.. وإن مت، أود

أن يلفوا رأسى بشعرك لكى أتنفسك حتى يوم نهاية العالم، يا حبيبتى، وامرأتى، وصديقتى....

لا أذكر ولو لقاءً واحداً بيننا لم تجعلنى فيه أشعر أنى فى هذه اللحظة أكتشف ما كنت أجهل إلى وقتها. حق جسدى.

ـ عظمة جسدك، دولسى.

جسدك الحقيقى ليس فى القبر. لا أعرف إلى من أتوجه. فأنا لا أحد، يا حبيبى. الخطيبة السرية لتوماس موكتيثوما مورو. لا أحد. خفية. تخيل وحشتى، يا حبيبى، وحيرتى ، حين لم أجدك داخل قبرك، وعدت لأصبح من جديد، بصورة غامضة، الغريبة التى رأيتها لأول مرة منذ تسعة أعوام، والتى نظرت إليها بنفس اللهفة التى نظرت بها إليك.

يظل هذا الشعور فى روحى، يا حبيبى. لقد تقابلنا بدون أن يعرف كل منا الآخر. أنت حبى المجهول، وأنا خطيبتك غير المعروفة...لأننا كنا قد أصبحنا عاشقين، ليس قبل أن نتعارف، وإنما حين تعارفنا، من بعيد، فى معرض بمتحف ماركو دى مونتيرى، مسيرة حياة خوسيه لويس كويباس(*) عالم من الشخصيات المتلاشية والألوان غير المرئية تقريباً، كما لو أن كويباس بدلاً من أن يرسم، "كان يحتل الهواء"، كما قلت لى عندما أتيت إلى جوارى، كيف أنسى كلماتك الأولى عندما اقتربت منى:

ـ كويباس يحتل الهواء.....

لم أفهم بدقة، ولكنى عرفت، نعم، اكتشفت أنك وحدك تمتلك نظرتين لا غنى عنهما، إحداهما للفن والأخرى للمرأة. قلت لى لحظتها:

ـ أنا امرأة- وابتسمت.

وسرعان ما واصلت.

ـ أنا امرأة ـ وتوقفت عن الابتسام.

(*) رسام مكسيكى ١٩٢٤م. اشتهر فى خمسينيات القرن الماضى بحركته لتجديد الفن ومقاطعة التأكيد السائد. (المترجمة).

ثم عاودنى الشعور بالفرح.

ـ أنا المرأة.

لم ترفع عينيك عنى، بدهاء أو وقاحة أو رغبة أو حنان، لا أعرف. ونظرت إلى عينيك شديدتى السواد، والعميقتين كصخرتين بقيتا للأبد فى عمق البحر والآن تقدمهما إلى طفلة لاهية على الشاطئ.

ـ أنا امرأتك.

وأنت تضحك لتشعرنى بالحميمية.

ـ كل مرة نلتقى فيها، أشعر بمفاجأة لقائك فى المرة الأولى، كما لو أن شيئاً لم يحدث بيننا.

ونظرت إلىَّ بهذا الحنان التى تمتلكه من أجلى فى عمق عينيك، والآن، وانا أنظر فى المرآة أحاول استرجاعه فى عينىَّ.

صرت امرأة بين ذراعيك. عندما رأيتك فى هذه الليلة فى المتحف، لم يكن لديك اسم. لم أعرف بما أناديك.

ـ نادينى "إيسلا".(*)

ضحكت ـ هذا ليس اسمًا. إنه مكان.

هززت رأسك بخصلاتها الملفوفة والسميكة والتى تدعو إلى المداعبة-

ـ وأنتِ يوتوبيا.

توقفت عن الابتسام. وتساءلت.

ـ إنه مكان غير موجود.

وأصبحت جاداً.

ـ إنه المكان الذى يجب أن يكون.

أفزعتنى بجديتك وغضبك هذين، وبشفتيك المزمومتين.

(*) بالإسبانية تعنى جزيرة. (المترجمة).

يوتوبيا، لم أسمع هذه الكلمة من قبل. إلامَ اندهاشى؟ كان كل شىء معك يحدث للمرة الأولى، الكلمات، والأشياء، والأفكار، والجنس، والحب... لماذا اخترت من بين كل هذا الحشد بمتحف ماركو، صبية ذات تسعة عشر ربيعًا بدون خبرة، ومن عائلة متواضعة، ولا تعمل، وشرهة للثقافة، وليست قبيحة جداً ولكنها ليست أيضاً جميلة جداً. ماذا رأيت فىَّ؟ الرفيقة المثالية للذهاب إلى هذه الجزيرة السعيدة فى خيالك؟ وأنا مثل الجزيرة، هل كنت شيئًا يُكتشف ويتحول، ويؤمن به؟

وضعت فى يدى رواية مكسيكية من القرن الماضى، كتبها آرماندو آيالا آنجيانو، وقلت لى:

أفضل رواية لكِ ولى وللجميع.

قرأت بصوت عالٍ المكتوب على الغلاف:

ـ الرغبة فى الإيمان.

الرغبة فى الإيمان، دعوتنى لهذا، يا حبيبى، للتمتع بالإيمان، وقد قلت لك ذلك للبلد بأكملها من منصة عالية للغاية لم تستطع يداى الوصول إلى يدك:

ـ علينا أن نؤمن. علينا أن نرجع للمكسيك الأمل.

عندما رأيت صورتك فى كافة الجرائد، ونشرات الأخبار. كنت تسمى حينئذ "الخفى". كنت تعيش فى الظل منتظراً أن تطلع للشمس يوماً ما. حينئذ عرفت بطريقة رهيبة، وجريحة أنقذتها الحقيقة، أنك ستصبح ملكى أكثر من أى وقت وأنك ستكون ملكى بالكامل، لأنى رأيت فى الصورة مع زوجتك وأطفالك الثلاثة، ولماذا تقبلت الصمت، والسر، أن أكون لا أحد فى حياتك العامة وكل شىء فى حياتك الخاصة.

توماس، حبيبى، أنت تعرف أنى لم أشتك قط، فهمت كيف تجرى الأمور، ولم أطلب منك شيئاً قط، ولم أكتف بالسعادة بل تمتعت بحبنا السرى جداً، بعيدًا عن المنابر، والصور، والخطب، استمتعت بأسرارك لأنى

عرفت أنك لا تصرح بها إلا لى، ربما لم أفهم جيدًا ما كنت تحكيه، فأنا لا أفهم فى السياسة، ولكنك كنت المرشح، رغبت فى فعل شىء أفضل بسيط للبلد، وهو عودة الثقة والأمل للناس، الثقة والأمل كانت أكثر كلمتين ترددهما.

عاشقان سريان. يا لها من سعادة. لا أبادلها بأى شىء. لم أحسب شيئًا. ولم أقل لنفسى.

ـ سوف أطلب منه أن يختار بينى وبين عائلته.

لم يخطر هذا فى بالى قط، يا توماس، لأنى عرفت أن نكون عاشقين فى السر كان أجمل شىء فى العالم، وأنه لم يكن لديك عائلة أو أطفال، كنت أحببتك بنفس القدر أيضًا، أو بقول آخر، إنى سوف أحبك بنفس القدر حتى مع وجود عائلتك والسياسة. لم يزد وضعك ومسئوليتك سوى حبى الهائل نحوك، واستمتاعى بأنك ملكى، ومالك جسدى، وأنا أملك جسدك، وأثق فى هذا كإيمانى بالرب، أنت وأنا عاريان ومتحدان بدون الحاجة إلى شرح أى شىء، كل شىء ممتع ولا يحتاج لتفسير مادام جسدك داخل جسدى.

والآن تحول ما كان فرحى إلى معاناة، معاناتى الرهيبة والعميقة، توماس. لا أعرف إلى من أذهب. و السيدة ماريا ديل روساريو التى كانت قريبة منك فى الحملة، هذه المرأة التى دوماً ما جعلتها تصعد إلى ما تسميه قطارك، لا ترد على خطاباتى. هل فهمت. لا تعرف من أنا. قد أكون كاذبة أو محتالة أو باحثة عن الشهرة...وعندما أريد أن أتوجه إلى شخص غيرها، يوقفنى ظلك ويطالبنى بالحذر والرزانة، كما لو أنك تقول لى من المكان الذى توجد به،

ـ حبيبتى، دع الأمور فى سلام. لا تضربى المياه. أقول لك من أجل مصلحتك. لا أريد أن يحدث ضرر لك بسببى.

هل لى حق، يا حبيبى، للكتابة إليك، لترك رسالة حب وأمل على قبرك المزيف؟ هل لى أن أطلب من الرب أن يتدخل وأن يكشف لك الحقيقة لأن لا أحد يرغب فى إخبارى بشىء؟

أينما كنت، فكر مراراً أن الرب يسمعنا. خذ هذا فى حسابك وسترى أن الإجابة هى:

- أبداً، لا يحصل.

ثم يخطر على بالى هرطقة، يا توماس، وأكررها هنا وأنا راكعة على ركبتى أمام قبرك.

ـ إذاً، كم مرة يأتى الدور علينا لإنقاذ الرب؟

لأننى وصلت، مادياً، إلى أقصى حد فى مقاومتى. لن أتخاذل، حبيبى. ولن أقول لنفسى:

توماس مات. اخضعى.

أمضى الليلة ساهرة وأقول لنفسى.

ـ إن لم يكن لدى أحد آخر سوى الرب ليسمع أسئلتى وإن ظل الرب ساكتاً. ماذا علىَّ لكى أستفز الرب؟

توماس، يا حبيبى. أعد لى الحياة. أنت صنعتنى. كنت واحدة أخرى قبل أن أعرفك. ربما لم أكن أحداً قبلك. أصبحت امرأة بين ذراعيك. والآن وأنت لم تعد معى، أتحمل الدموع لأنى لو بكيت، أعلم أن شيئاً أسوأ سيحدث لى. فإن البكاء يعطى إشارة للحزن بأنه ليس كافياً. وأحياناً أعتقد أنه لم تزل معاناتى بعد غير كافية.

أليس هناك مكان للراحة؟

أحبك، أحبك، وأذكرك فى كل وقت.

أسمع الأغانى الشعبية فى الكافيتريات(فالراديو والتليفزيون لا يعملان، وتباع الجرائد بكثرة) وأذكر حبنا فى هذه الأغانى العذبة جداً.

لا تسألنى

دعنى أتخيل

أن الماضى لم يعد موجوداً

وأننا ولدنا

فى اللحظة

التى تعارفنا فيها....

ولكن الموسيقى تتلاشى عندما أعبر سور المقابر وأقرأ المكتوب على المدخل:

أيها الزائر: هنا تبدأ الحياة الأبدية وعظمة الدنيا ما هى إلا تراب حقير.

ـ ٢٩ ـ

تاشيتو دى لاكانال

إلى الرئيس لورينثو تيران

سيدى الرئيس، أبارك الأزمة التى تسبب فيها رد فعل غير محسوب من جارتنا فى الشمال، لأنها تمنحنى الفرصة لأترك تأكيداً مكتوبًا على مشاعر الإخلاص تجاه سيادتك. أثنى على قرارك بوضع المبادئ الأساسية فوق أية مسألة عابرة. أعرف أنه بالنسبة لسيادتك أن كل مبدأ يجب أن يكون أخلاقياً. ولا يمكن أن يكون غير ذلك. يكفينى أن أشاهد يديك، يا سيدى الرئيس، لأعرف أنها تصنع المعجزات. وأنك تتمتع بحاسة سادسة يفتقر إليها غالبية هؤلاء الفنانين. جعلك حدسك تفهم أنى موجود هنا لحمايتك وعدم السماح بأن يقترب منك أحد يمكن أن يزعجك. وأجرؤ أن أقول: ألا يقترب منك أى شخص إلا ويشعر بوجودك أنه أقل منك؟ سيادتك تعلم أنى أطيع أوامرك قبل أن تعطيها. وأضيف إلى هذه الميزة ما يلى. أن الكتمان هو أحد أسرار حياتى. أى، أنه يمكن أن تمنحنى ثقتك كاملةً. أشعر أنى أدين لك بكل شىء وسوف يكون ضرراً لسيادتك أن أنسبه لنفسى. أؤكد على موقفى بأنه، فى الظروف التى على الأبواب- الخلافة الرئاسية عام ٢٠٢٤ لدى يقين أنه كما هناك معارضون يرغبون فى موالاة معارضتهم لأنهم يرهبون ممارسة السلطة، هناك أيضاً إناس ـ مثلى ـ قريبون من السلطة، ولكنهم لا يطمحون قط فى الوصول إلى السلطة، ولذا أستطيع تبادل الحديث معك بقناعة لا تبغى مصلحة، يا سيدى الرئيس.

فلتكن لديك نظرة السيد الإمبريالى الذى يتعاطى مع ملكيته. ولا تقل إن الآخرين "إناس طيبون". فلا حق معك إن فعلت. هذا البلد يركع أمام السلطة باحترام، ولكنه لا يقبل الطيبة، خاصةً البساطة الشديدة لدى شخصية السيد الرئيس. نحترم الإمبراطور، وموكتيثوما [1] وممثل الملك الإسبانى والدكتاتور الجدير بالاحترام والحائز على أوسمة من العالم، مثل بورفيريو دياث[2]. وبالتأكيد أيضًا رجل القانون والشرعية، والمدافع عن الوطن والمبجل فى الأمريكتين، دون بينيتو خواريث. هل هناك شخص أكثر جدية منه؟ هل معروف عن خواريث أنه ألقى بأية نكتة؟ أليس يسميه التاريخ "خواريث البارد"؟ ولكن أليس خواريث هو مؤلف العباة الصرامة:

للصديق، العدل واللطف. وللأعداء، القانون.

بهذا أود أن أقول إن الجدية ليست مرادفًا للغرور الإمبريالى، وإنما للجدية الجمهورية، ولكنها مكللةً ببريق ملكى. بلى، إن كنا دومًا جمهورية متوارثة، وملكية من ستة أعوام ولذا نحافظ دومًا على العزة وصعوبة الوصول إلى التاج الرئاسى، وفيما يتعلق ببعض أفراد الحكومة الذين يتباهون بحقهم فى التقرب منك ويظهرون ثقتهم المفرطة فى سيادتك أجرؤ أن أقول لسيادتك، لا تتحدث مع الأقل منك شأنًا. ضعهم دائماً فى مكانهم، سيدى الرئيس. لا تصغ إلى نصائح تسعى إلى تحقيق مصالح ـ حيث لا توجد نصائح لا تبغى مكسبًا إن كانت تُسدى لرئيس الأمة.

سيدى الرئيس: أنا أعمل من أجلك. لست مختلفاً عن أغلبية مواطنينا. فكل مكسيكى صالح يعمل من أجل سيادتك. لأنه إن كان الرئيس طيبًا، تصبح المكسيك بكاملها طيبة. اسمح لى أن أقول إنه فى هذه الساعة السياسية التى تعيشها البلد، ثمة ثمانية أحزاب صغيرة. وهناك سيادتك.

---

(١) رابع إمبراطور فى الإمبراطورية الأزتيكية (المترجمة).

(٢) رئيس مكسيكى (١٨٣٠م ـ ١٩١٤م) (المترجمة).

يمكن القضاء على سلطة الأحزاب الديمقراطية الصغيرة هذه بملعقة واحدة، هى ملعقة الرئيس وهنيئًا له، تبعاً للبرنامج الذى تقترحه سيادتك، أحيانًا لهؤلاء وأحياناً لهؤلاء. شدد على هذه الرسالة، سيدى الرئيس، فى هذا الوقت التى تقترب فيه الانتخابات الرئاسية. لا يعرف المكسيكيون أن يحكموا أنفسهم. التاريخ نفسه أثبت هذا. وسترى كيف يتلقون رسالتك بالسلطة الشديدة هذه بعرفان وارتياح. أو أقول لك إنهم سيتلقونها بروح ديمقراطية. ليست هناك دكتاتورية ناعمة [1] لا تنحدر لتصبح دكتاتورية خالصة. والأفضل أن تبدأ بدكتاتورية تخففها لتصبح دكتاتورية ناعمة فيما بعد.

اعذر صراحتى فى هذا الشأن، إنها صراحة حارس مرماك، أنا أعرف هذا وأفهمه وأقوم بها بتواضع. سيادتك لك حق الحرية المطلقة التى خولها لك تنصيبك كرئيس. ولكن؟ ولكن ماذا يقال عن مدير مكتب الرئيس ـ وهو المنصب الذى يشرفنى ـ إن لم يتحدث لسيادتك بصراحة؟ وفى مزحة تاريخية، أنا لست الوزير الذى سأله الجنرال والرئيس والقائد الأعلى بلوتاركو إلياس كاييس[2] قائلاً:

كم الساعة الآن؟

فرد:

كما تشاء سيادتك، يا سيدى الرئيس.

أنا رجل معتاد على فعل أشياء قد تضرنى.

اسمح لى بالاستئذان.

---

(١) مصطلح سياسى ظهر للمرة الأولى فى إسبانيا عام ١٩٣٠م على أيدى جنرالات المجلس العسكرى للإشارة إلى تخفيف الإجراءات العسكرية التى اتخذت. (المترجمة).

(٢) رئيس مكسيكى ١٩٢٤م ـ ١٩٢٨م (المترجمة).

ـ ٣٠ ـ

نيكولاس بالديبيا

إلى ماريا ديل روساريو جاليان

سيدتى الجميلة، لقد حكيت لك عن بينيلوبى، السكرتيرة التى تعمل فى مكتب تاثيتو دى لاكانال. تدعى بينيلوبى كاساس ولقد وصفتها لك بأنها امرأة كالسفينة. فهى تنطلق كعابرة محيطات فى أعلى البحار، لتراقب عمل مكتب أمانة الرئيس، وتشجع الفتيات (حيث يغرق المكتب فى فقدان الرغبة ورائحة تاثيتو العفنة)، بأن تكون محطة لأسرارهم ومصدرًا لنصحهم وأحيانًا منديلاً لدموعهم. ولأن بينيلوبى تملك حجراً هائلاً مثل نهديها اللذين يصلحان ملجأ مثل حجم الراية. وجه بنى، موسوم ببثور طفولية تحاول السيدة بينيلوبى أن تخفيها، ولكن بدون حرص بقليل من المكياج الهادئ. وشفتان مطليتان، فإن ربتنا الأزتيكية الرائعة عليها أن تستيقظ فى الرابعة فجراً لحشو الضفيرتين بالشرائط، وهذين البرجين المتأرجحين اللذين يتوجانها، وشلال "القصة" الذى يخفى جبهتها الصغيرة المسطحة والضيقة.

إن كنت أحكى لكى، فإنه لأعاود التأكيد على صورة القوة الخاصة بآلهتنا كواتليكى(*) البيروقراطية ولكى تتخيلى سيادتك دهشتى أمس، عندما وجدتها ساكنة وهى غارقة فى الدموع وتبلل ببكائها المنديل المجفف الموضوع فى المكان المناسب أسفل وجهها المكتئب:

(*) إلهة مكسيكية فى الحضارة الأزتيكية وتعرف أنها والدة جميع الآلهة (المترجمة).

ماذا بك، سيدة بينيلوبى؟

لم أفلح فى إسكات بكائها. رفعت يدى ببضعة مناديل أخرى فقالت حينئذ:

لا الأوراق المالية سيد بالديبيا، ولا العملات الأرجنتينية وأوراق التواليت والأسهم ـ لا تساوى شيئاً. إنها أقل من ورق التواليت!

ثم أعطتنى قبضة المناديل. إنها أسهم الشركة المكسيكية للطاقة، والتى أعلنت صباح أمس إفلاسها، مخلفة فى بؤس آلاف المساهمين البسطاء الذين وضعوا ثقتهم فى خصخصة الشركة الوطنية أيام الرئيس ثيسار ليون، محتذين النموذج، الذى كان بمثابة الورقة التى غطت العورة لدى فيدل كاسترو، حين سمح للشركات الأجنبية الخاصة بالاستثمار فى الطاقة وأخرس كافة أفواه الوطنيين المكسيكيين المزعجين.

إذًا، أعلنت الشركة الوطنية للطاقة إفلاسها، وصار كافة المساهمين فيها فى الشارع. ولكن المستثمرين بها قد ربحوا الملايين بالتكتم على الإفلاس الوشيك وباعوا أسهمهم المرجعية حينما كانت تساوى ذهباً.

أحكى لك سيدتى ما تعرفينه لأصل إلى ما لا تعرفينه، سيدتى.

سوف أسرد عليك خطوة بخطوة.

عندما هيكلت الشركة المكسيكية للطاقة كشركة خاصة أيام ثيسار ليون، وكما هو طبيعى طرح مديروها أسهمها للبيع مثل الأسهم التى حصلت عليها السيدة بينيلوبى، ولكنهم استخدموا فى الوقت نفسه لجذب الاستثمارات فى الشركات القوية (شركات التأمين والبنوك والصناعات والتجارة) تأكيداتهم بمنحهم معلومات سرية بهدف مضاعفة استثماراتهم الأولية ـ على الأقل ـ فى غضون أشهر. ولذا تحولت الشركة المكسيكية للطاقة إلى شركة مزدوجة. واحدة هى الشركة العامة المفتوحة أمام صغار المساهمين. والثانية شركة سرية محفوظة للمستثمرين الكبار.

ولم يكن صغار المساهمين، مثل السيدة بينيلوبى، لا يعرفون طريقًا إلى هذه الشركة المميزة وحسب، وإنما كانوا يجهلون وجودها أصلاً.

كيف عرفت هذا كله؟ بفضل موظف الأرشيف لدينا السيد كاستولو ماجون. عائماً فى نهر دموع السيدة بينيلوبى، سألت كاستولو عن أرشيف الشركة الوطنية للطاقة.

قال لى العجوز:

أى واحد منها.

حيرنى سؤاله.

فسألته:

كم عددها؟

إنها ثلاثة، ملفات رسمية، وسرية، والقمح المطحون(*) .

القمح المطحون؟

التى أمرونى بإتلافها. أى الممزقة.

ولمَ لم تفعل؟

سيدى المحترم، أنا أحترم الوثائق.

نظرت إليه بلامبالاة، وتركته يتكلم.

هل تعرف يا سيدى أن السيد بينيتو خواريث، حين فر من جيش الاحتلال الفرنسى، ذهب من العاصمة إلى الحدود الشمالية ومعه ثلاث عربات تجرها الخيول محملة بأوراق الجمهورية الرسمية .

نعم، يا كاستولو، أعرف هذا. ولكن ما علاقة هذا بالموضوع؟

ابتسم العجوز زهواً.

الورق الذى يصل إلى يدى، يا سيدى المحترم، ورق لا يختفى.

ونفخ صدره، مشدداً.

(*) Shredded wheat بالإنجليزية فى الأصل (المترجمة).

الوثيقة فى يدى هى أمر مقدس. ولا تضيع أبداً، أؤكد لك هذا.

وهل السادة هناك بأعلى على علم بإخلاصك هذا؟

ليس إخلاصًا لأحد، يا سيد نيكولاس. إنه واجب من أجل الأمة والتاريخ.

وكيف تصنف الوثائق المشهورة؟ التى يرغبون فى تواجدها من أجل الاطلاع عليها من حين لآخر تحت اسم "المكسيكية للطاقة". والسرية تحت عنوان "نماذج الخصخصة"، أما التى حفظها السيد كاستولو فلا عنوان لها إطلاقاً، غير حبوب الإفطار هذه "القمح المطحون".

قضيت ليلة مضطربة، يا ماريا ديل روساريو. وأنا أعيد تأسيس الحركات الملتوية لمديرى الشركة المكسيكية للطاقة. وسوف أقص عليك ملخصاً. كان المديرون يحتفظون بالمعلومات السرية للمستثمرين الكبار ويمنعونها عن المساهمين الصغار. فمثلاً يطلعون المستثمرين الكبار على أن الشركة تمتلك مائة شركة فى الخفاء بهدف التكتيم على الأرباح والتهرب من دفع ضرائب على الأرباح. الشركة المكسيكية للطاقة هى ساتر، "برافان" لشبكة من المستثمرين من محققى الأرباح الطائلة.

وهذه العمليات لا تظهر فى مؤشرات الشركة التى تعلن كل ثلاثة أشهر. فالشركة المكسيكية لا تسمح سوى لنخبة المستثمرين القليلة والمتميزة بالاطلاع على الأرباح، ولا تسمح بذلك لمجموعة المساهمين كبيرة العدد والجاهلة. بمعنى أن المزايا الرئيسية بالشركة ينتفع بها البعض أما الباقى فلا.

واسم اللعبة هنا هو السرية. ولكن المديرين يلعبون على ثلاثة: يخدعون المستثمرين والمساهمين على السواء، لتحقيق الاستفادة لأنفسهم. ويحاولون إخفاء صراع المصالح. إن استثمرت بصورة قانونية فى الشركة المكسيكية، يمكن لأموالك أن تنتهى إلى شركة تمنع الاستثمار العلنى أو تتبع سيطرة الدولة. وهذا لا يعلمه لا المساهمون الصغار ولا المستثمرون

الكبار. يكتفى الأولون بأرباح هزيلة والثانون بأرباحهم الطائلة. ولكن مديرى الشركة المكسيكية للطاقة قد يكونون مستخدمين لدى الشركة وشركاء رئيسيين بها. يتركون ١٠٪ من الأرباح للمساهمين كلهم ويحتفظون بـ ٩٠٪ لأنفسهم .

كيف؟ بزيادة أعداد الشركات المزدوجة.

على سبيل المثال، فالشركة الفرعية "أ" التابعة للشركة المكسيكية للطاقة هى فى الحقيقة جزء من الشركة الفرعية "ب"، ولكن المديرين يوهمون بأنهما شركتان منفصلتان. وحين تخفض شركة "أ" أرباحها بادعاء اتفاقات خاسرة مع الشركة الفرعية "ب" ـ والتى كما قلنا ـ هى محض قناع لشركة "أ" يحتفظ مديرو شركة "أ" بالأرباح الفعلية ويحملون المساهمين بالخسائر الوهمية لشركة "ب" على أنها خسائر لشركة "أ". أى أن "أ" ليست شريك "ب" المتضرر. هى تضاهى "ب" ولكنها تجعل من "ب" المتسببة فى خسارتها. وتبقى الأرباح للمديرين والمستثمرين. وتُحمل الخسائر على المساهمين مثل السيدة بينيلوبى.

ولكن ما حدث أن هؤلاء الماكرين شطحوا بعيداً، يا ماريا ديل روساريو. فلقد ابتدعوا الشركة "ج" لجذب الاستثمارات وتقديم القروض للشركة "أ". وتتعهد شركة "أ" بطرح مزيد من الأسهم إن انخفضت استثمارات "ج" للحفاظ على قوتها. ثم تستثمر شركة "ب" الملايين فى شركة "ج" والتى، بدورها" تستثمر فى شركة "أ".

وهنا سبب الكارثة والخطأ. ترغم شركة "أ" شركة "ب" على شراء أسهم بسعر ثابت فى غضون ستة أشهر لحماية نفسها من انخفاض وشيك لقيمة الأسهم فى البورصة. ولكن تتقدم "ب" وتشترى والسعر منخفض، وتحقق الملايين. وتحمى "أ" نفسها ببيع الأسهم إلى "ج". ولكن حين تنخفض الأسهم هذه، تنقل "أ" أسهمها إلى "ج" للبقاء على الشركة. وبالتالى تبدأ "أ" فى طرح المزيد والمزيد من الأسهم حتى تتلاشى قيمتها فى أيدى المساهمين من أمثال السيدة بينيلوبى.

وهنا يكون المستثمرون قد حققوا أرباحهم وحصدوا المليارات على حساب المساهمين. ولديهم حرية إعلان إفلاسهم بعد أن حصلوا على أرباح خيالية حيث من الملائم إنهاء هذه اللعبة وبدء واحدة جديدة قبل السقوط فى الأفخاخ التى نصبوها بأنفسهم.

الحكاية مثل الثعلب الذى يعرف كل الأفخاخ التى وضعها الصيادون له ولكنه يجهل مكان الفخ الذى وضعه لحماية نفسه من الصيادين.

هل تعرفين يا ماريا ديل روساريو أن إحدى مزايا البيروقراطية مثل بيروقراطيتنا هى أن موظفى الأرشيف لا يتغيرون لأن أحداً لا يفكر فيهم. إنهم جنود منسيون أو يتم التضحية بهم فى الميدان الكبير. وتعلم الأفيال سريعة الحركةِ أن الجنود يجهلون قيمة أنفسهم. ولا يعرفون قيمة ما يحفزونه. عزيزتى ماريا ديل روساريو: لقد قرر موظف الأرشيف المتواضع السيد دون كاستولو للتو مسألة خلافة الرئيس فى المكسيك.

سيد كاستولو. من أين جاءت هذه الأوراق؟

لقد سلمها لى السيد تاثيتو دى لاكانال بنفسه.

هل طلب منك التكتم على الأمر؟

لا، لأنه يعلم رصانتى التامة. ولكنه قال لى ذات مرة.

دمر هذه الأوراق. لا أهمية لها. سوف نغرق فى أكوام الأوراق التى لا أهمية لها.

ومرر السيد كاستولو يده على جسر الشعر المستعار ليخفى صلعه. وكنت على وشك أن أقول:

كان يستطيع تدميرها بنفسه.

تذكرت نيكسون من جديد. يجب الحفاظ على كل الشهادات، بما فيها الخاصة بالجريمة لسببين: الأهمية التاريخية التى يصبغها رجال السياسة على كافة أفعالهم. وتحدى القانون لأننا محصنون. وربما أيضًا لخوف

غامض من أن يتم اكتشاف مثل الموظف الذى دمر الوثائق. والمذنب يكون كاستولو البائس.

ولكنى دهشت حين سلمنى السيد كاستولو الحزمة التى تحوى الجريمة، كانت الأوراق تحمل توقيع "دى لا كانال" بخط تاثيتو نفسه. فتساءلت، يا صديقتى الحبيبة.

منذ متى يوقع مجرم على أوراق إدانته فى قضية غش كبرى؟

ـ ٣١ ـ

ماريا ديل روساريو جاليان
إلى نيكولاس بالديبيا

معلوماتك، يا صديقى الحبيب، لا تقدر بثمن. تشعرنى بالرغبة فى الخروج إلى شرفة القصر، وقرع أجراس الاستقلال وإعلان الحقيقة. فالوقت ذو قيمة فى السياسة. وأكثر من ذلك، فإن إتقان السياسة هو القدرة على تقدير الوقت. القول سهل. لكن الأكثر صعوبة هو مصالحة الذكاء على العاطفة بهدف الوفاء بالواجبات.

الواجب الذى فرضناه على أنفسنا هو منع تاثيتو دى لا كانال من الوصول إلى الرئاسة. وأخيراً، بفضلك، أصبحت الأوراق فى أيدينا. دعنا نكف عن سباب تاثيتو. فالشتائم سرعان ما تنسى. ولنغذى الكراهية. فالضيق يتمدد. والإحباط غير مقبول؛ لأنه يسبب بدون قصد الفوضى التى بدورها تؤدى إلى أفعال لاعقلانية وتحمى المغامرات السياسية الخطرة وغير المتوقعة. دعنا نتصرف فى ضوء مبادئ. لقد عانت بلادنا الفقيرة من فوضى وبائية. وعانت من الجوع وفقدان الأمل الدائمين تقريباً. المكسيك: جروح كثيرة ووقت قليل لتضميدها.

يقول صديقنا بيرنال إيريرا:

سوف نعالج كل هذه المساوئ إن خلقنا دولة قانون وزاولناها.

هنا مربط الفرس. لقد انتهك تاثيتو دى لا كانال القانون علانيةً. فأنت تعرفه. لقد عملت معه. وتعرف أنه رجل قاسٍ ووضيع. ربما لا تعرف

إلى الآن أن أكثر الرجال قسوة هو أكثرهم افتقاداً للأمان. فهم قاسون لأنهم يخشون ألا يكونوا موجودين. تمنحهم القسوة صك الهوية. وهى أسهل الطرق. فالحب ومساعدة الآخرين والاعتناء باحتياجاتهم هو الذى يتطلب، يا صديقى الحبيب، الوقت والعاطفة، وقليل من الناس يمتلكونهما. وأعترف بأننى أنا نفسى أحياناً ما أفتقر إليهما حتى أنى أوبخ نفسى:

الصبر، يا امرأة، اهدئى.

ولكن لا تترك مسألة القضاء على تاثيتو للحظ. فالحظ لا يعتنى سوى بنفسه ما علينا أنت وأنا وبيرنال إيريرا أن نتحكم فى الحظ بالإرادة والتى نسيطر عليها بالأفعال المحسوبة جيداً. وتذكر أن العواطف هى صور عفوية للسلوك. دع تاثيتو يثق فى الحظ ويتصرف بعفوية. السياسى الكفء يحول كل شىء إلى ميزة. أضف حادث لقائك مع موظف الأرشيف بغض النظر عن اسمه، ووجود الوثائق التى لم تتعرض للتدمير، والتوقيع المذهل (أعترف بذلك) لتاثيتو، وتواجدك فى مكتب تاثيتو، وصداقتنا وعلاقتى الوطيدة مع بيرنال إيريرا والأجندة السياسية التى حطت على رءوسنا بدون استئذان.

اجمع هذا كله، يا نيكولاس بالديبيا، وقدر الوقت. أنت تملك سراً اقتسمته معى، مؤكداً أكثر على الثقة التى أمتلكها والتى، أحياناً، تبدو أنك تشك بها، أو على الأقل، أنها لا تخصنى. لا يهم. فإن الأسرار هى أحد أشد الأعداء السياسيين فتكاً. انظر إلى المكسيك، وإلى كولومبيا، وإلى أوروبا والولايات المتحدة. اغتيالات، تجارة متعثرة، تهريب مخدرات، معلومات سرية. كل ما يجمع الأعداء. والآن لدينا ثروة أن السر يجمع ثلاثة أصدقاء. أنت لا تتخيل، يا نيكولاس، المرات، حينما كنت ما زلت صغيرة، وثقت فيها فى تعقل الأصدقاء الذين كنت أعتبرهم أمناء، ولكنى لم أستيقظ سوى من حلمى الساذج على حقيقة الخيانة وإفشاء السر. لقد أعدت إلىّ الثقة والصداقة.

بيرنال، أنت وأنا، يجمعنا سر واحد.

وفى مقابلنا، هناك الآخرون، كما فى توزيع الأدوار فى المسرحيات. الذى يخدع ويخفى عواطفه: تاثيتو دى لاكانال. والأقل منه فى استعراضه هذا: آندينو الماثان. والذى ينهى عمله بحرفية: باتريثيو بالالفوكس، والذى لا يرغب سوى فى الثراء: فيليبى آجيرى. والذى يثرثر عن عيوبه ولا يخفى طموحاته: ثيثيرو آروثا. والجندى المحترف المبهم والذى ربما يلعب لعبة فرق: موندراجون بون بيرتراب. وأكثرهم خطورة، الذى يجمع الضحايا كما يجمع الأيقونات الأخرى: الرئيس السابق ثيسار ليون.

وأنت وأنا وبيرنال إيريرا.

ورئيس لا يرغب سوى فى أن يطويه التاريخ.

فلنساعده.

نعم فإن الوسط غض وبائس. ولكن لأنه ليس أمامنا واقع آخر، فإن هذا الوسط قوى النفوذ. ولتتحرك بداخله ـ والعودة إلى نقطة البداية خاصتى ـ تتمتع الأسرار بأهمية خاصة. فأحياناً تكون المعلومات التى تمنحها والتى تتلقاها أكثر فائدة لعدوك من صديقك. وحينئذ تكتشف أنه كان ينبغى ألا يتعدى مرحلة السر. وأحياناً ما تكون خطايا السذاجة. حيث يحن قلبك عندما تتعامل مع الحقراء، السكرتيرة الحقيرة، وموظفة الاستقبال المخدوعة، وموظف الاستقبال الضائعة آماله... تذكر أننا لم نولد للعيش مع الفقراء أو مثلهم. علينا احترام الفقراء ... ولكن من بعيد.

وأنصحك بهذا بجدية. لا تكن مخلصاً مع فقير أبداً. ستتلقى فى المقابل الاحتقار المتكافئ الذى لا يغفره أى سياسى. لا تسمح، أن يعاملوك، تعويضاً لقلبك الطيب، معاملة الند بالند. فأنت لست مماثلاً لهؤلاء المنحطين. لست كذلك. احسب. وناور. إن لم تتصرف بحذق، أو كشف أو بددت اتفاقنا، سوف نخسر وتخسر أنت. وهناك ينتهى مستقبلك. وتصيبنى بالإحباط.

تذكر ما وعدتك به. اصبر. واحسب.

ـ ٣٢ ـ

ماريا ديل روساريو

إلى بيرنال إيريرا

حبيبى، لقد أفادنا صغيرى نيكولاس بالديبيا جيداً. لقد وقع الذئب فى الفخ ولم يكتشف بعد. أصبح تاثيتو لنا. ولكنه قد يفلت منا إن لم نتعجل. لاحظ اللوحة السياسية التى شرع فى رسمها. يسعى ثيسار ليون الشرير إلى إقناع رئيس البرلمان، أونيسمو كانابال، أن البلد فى الوقت المناسب لتغيير الدستور وتعديل خلافة الرئيس فى حال وفاته أو عجزه. ويقصد أنه عوضاً عن الرئيس المؤقت فى حال ترك الرئيس منصبه خلال العامين الأولين (وهى المرحلة التى تجاوزها الرئيس تيران) أو الرئيس البديل فى حال خلو المنصب أثناء الأربعة أعوام الأخيرة من فترة الستة أعوام (وهى حالة الرئيس الحالى)، واللتان تخضعان إلى هوى تصويت غرفتى الكونجرس، يصبح رئيس الكونجرس أتوماتيكياً (فى هذه الحالة، أونيسمو كانابال) هو من ينتقل لممارسة مهام الرئيس التنفيذى.

ماذا يريد الرئيس السابق ثيسار ليون؟ فهو نفسه لا يتمتع بإمكانية الانتخاب الشعبى (يقول أعداؤه إنه لم يتمتع بها قط). وهو يمقت تاثيتو دى لاكانال. ويخشاك ويبغضك. هو جحش يمكن التحكم به خلال الفترة الانتقالية. ولكن انتقالية إلى أين؟ أنا أعتقد أن ثيسار ليون يعلم شيئاً لا نعرفه أنت ولا أنا. فهو يملك سراً. فهو سياسى بفطرته، لا شك فى هذا. السيئ أنه مثل الشمع الطرى. يتشكل بكافة الأشكال ويتكيف مع كافة

المستجدات والاحتياجات. واعرف، يا بيرنال، أنها حرب أسرار. أنت وأنا (وبالضرورة بالديبيا) لدينا سر تعتمد عليه هزيمة تاثيتو ونجاحك الشخصى. ولكننا لو كشفناه قبل الآوان، سوف يجهز تاثيتو دفاعه المسبق. فهو قادر على إرسالك للقتال. وماذا ستكسب، يا بيرنال، أو ماذا ستخسر فى حال تكلمت أم لم تتكلم؟ إنها مسألة وقت. سوف تكسب لو تكلمت فى الوقت المناسب. وستخسر لو تكلمت قبل الآوان. أعتقد أنه لدى الحل. وسوف أتصل بك فى خلال يومين. ملحوظة: من عدم التعقل أن أرسل إليك الحكايات والمعلومات من حصنى هذا. فى هذه المسألة على عدم الظهور إلا لو اقتضى الأمر. ويجب ألا تثار حولك أى شكوك؟

- ٣٣ -

نيكولاس بالديبيا

إلى ماريا ديل روساريو جالبان

أقدر لك خطابك، يا سيدتى. وأتساءل إن لم تحن إلى الآن ساعة مكافأتى. فلقد أثبت حبى لك. ولقد طلبتِ منى أن أكون جديراً، لا بحبك، وإنما بسرك. هل يفضى شىء إلى آخر؟ أحياناً، تجبريننى على التساؤل إن كان الانفصال فى الحب يوحد أكثر من التواجد. وأعزى نفسى مفكراً أن الحب له أشكال عدة ويقدم تحديات شتى مثل كافة المشاعر الأخرى التى يمكن التحقق منها فى العالم. سيدتى: أنا أقبل أى شىء منك عدا التجاهل. وبالتالى، أتساءل إن كنت أستحق الآن جائزتى: أن أحادثك بدون كلفة.

ـ ٣٤ ـ

ماريا ديل روساريو جالبان

إلى نيكولاس بالدبيا

هل ترغب فى المكافأة، يا بطلى غير الصبور؟ لقد تأثر بيرنال إيريرا جداً ببطولاتك. كما أنه يعتقد أنه من الضار بل الخطر أن تواصل العمل فى مكتب تاثيتو دى لاكانال. وتحدث مع السيد الرئيس. وتم تعيينك نائبًا لوزير الداخلية، الرجل الثانى إلى جانب بيرنال إيريرا.

أكرر لك. اصبر. واحسب. واعترف بالجميل.

ـ ٣٥ ـ

نيكولاس بالديبيا

إلى خيسوس ريكاردو ماجون

أود أن أخبرك أن الساعات التى اختلسها من المكتب لأثرثر معك هى أفضل ساعات يومى. ومن حسن الحظ فإن العمل يتوقف من الساعة الثالثة إلى السادسة فى الوزارات العامة فى المكسيك. ليس هناك موظف يحترم نفسه لا يأكل فى مطعم فاخر. أو فى مطعم خاص، إن أمكن. ومعه الهاتف المحمول دوماً ليجيب على المكالمات بأساريره المتجعدة وموافقاته الخطيرة. يا لها من طريقة هز الرأس بالموافقة بدون خلع العنق!! وطبعاً. الآن بدون وسائل الاتصالات، فإن هذا أصبح مستحيلاً. وحينئذ ينضم التابع الذى يظهر ويحذره:

سيدى، لك رسالة مهمة على الباب.

وبالطبع ليس ثمة أية رسائل. وباختصار، يتبادل السيد المتميز بضع كلمات مع بائعينا الأبديين لورق اليانصيب.

أقول لم تعد هناك رسائل اليوم ولا أمس أيضاً. كانت المكالمات عبر الهاتف المحمول مسرحاً معدًا جيداً للتعبير عن غطرسة السلطة. أقدم لك هذا كله لأنى، مثلك، ليس لدى أى أمل فى طبقتنا السياسية(*) مثلك، لقد سئمت أن يدعونى حتى الكناسين بـ"السيد المحترم". لقد فاض بى الكيل من "السادة المحترمين" المكسيكيين. ويضحكنى أن بينيلوبى، سكرتيرة

(*) Plus ca change,oui بالفرنسية فى الأصل (المترجمة).

مكتبى، أن يدعوها من يصل إليها، نتيجة للاحترام الزائف وعدم الملاءمة المزعجة "سيدتى المحترمة".

وعندئذ، وبعد أن تعرفت عليك، وعلى أفكارك، ومشاركتك فى الكثير منها، لمَ أدعوكِ للتعاون معى فى مكتب الرئيس، فى قلب ثمرة الخروشوف نفسه؟

لن أخبرك مرة أخرى بصوت حى، لأنى عندما دعيتك منذ عدة أسابيع، هاجمتنى بشراسة، وقفزت فوقى، وطوقت ظهرى بذراعيك، وعرفت مدى قوتك الشابة الوحشية، وعرقك المتوغل كذكر وتملكنى الخوف منك، يا خيسوس ريكاردو. لا أعرف إن كان اطلاعك على هذا يسعدك أم يخيفك؟ لا يهم. لقد شممت رائحة عرقك الشاب. أعمانى ذيل حصانك الخاص بمتمرد بالغ وقلت لك:

إلى متى تعتقد أن الشباب يدوم؟ تعرف أن عجوزاً بذيل حصان طويل يستدعى السخرية والشقاء من الآخرين؟ ألم تر هؤلاء "الجيبسى" العجائز وهم يجرون تمردهم البائس فى أحياء الطبقة الوسطى حيث يتوجهون يبحثون عن قديس فرانيسيكو آخر لا وجود له كما كان فى الستينيات، وهم ملفوفون فى عقودهم ذات الحبال الملونة ويسحبون أحذيتهم البالية نحو السوق؟

كان على التوارة أن يضيف إلى سفر الجامعة أنه ليس هناك وقت للولادة ووقت للممات وحسب وإنما هناك أيضاً وقت للتمرد ووقت للتحفظ... هل قرأت تنهيدتى الأخيرة للويس بونويل؟ أوصيكَ بها. يؤمن هذا الفنان السينمائى العظيم ـ من العشرة الكبار ـ مثلك بفوضويته، ولكنه اتخذها على أنها فكرة رائعة. فليطير اللوفر! فكرة رائعة! وممارسة عقيمة.

ما زلت تعتقد أن الفكرة والممارسة المتمردتين لا ينفصلان عن بعضهما. وأن الأفكار تظل عقيمة إلى أن نحملها لأرض الواقع. فلنكن

واقعيين، ونطلب المستحيل، كما كان يقول متمردو مايو ٦٨ فى باريس قبل أن يتحولوا إلى أصحاب شركات ومهن ووزراء فى الدولة....

تخيفنى ، يا خيسوس ريكاردو. ليس هناك فوضوى واع إلا وينتهى حتماً إلى إرهابى. هذا لا مفر منه. اقترح عليك أن تراجع كافة النظريات التى استعرضتها معى خلال أمسياتنا "السقراطية" فى شرفتك المطلة على أقبح المدن، مدينة الرمال، العاصمة الضبابية للمكسيك، وأكبر مزبلة فى العالم، ذات المشهد الرمادى المهجور: هواء رمادى وأسمنت رمادى وناس رمادية... مملكة الوفرة.. عاصمة التنمية.

مبدأك نبيل. وبطلك هو باكونين، وفى النهاية ما هو إلا أرستقراطى روسى كان ينتظر، فى كل مرة يدخل فيها بيته، أن يجد شيئاً استثنائياً. ... من شرفتك، التى يحيط بها الحمام، تؤمن بشدة أن المجتمع المثالى هو الذى لا حكومة له ولا قوانين ولا عقوبات.

وما سيكون لديكَ حينئذٍ؟ ـ أسألك باهتمام وبتعاطف حقيقيين.

وتجاوبنى بذكاء:

شئون الإدارة والواجبات وإصلاح الأمور.

وكيف ستقصر هذا المجتمع على نفسك بدون سلطات ملموسة، كيف ستدير الأمور وتقوم بالالتزامات والإصلاحات، أقولها بنغمة صوت لا تستطيع أن تحكم عليها إلا بأنها عاطفية.

بإلغاء الملكية ـ تفزعنى، كما لو أنها افتتاحية جريدة أو شعار أو راية أو صفعة.

ترجع ملكية الفائض بكل الحق إلى الذين لا يملكون شيئاً ـ أقولها بدون تفاخر، أعتقد أن هذا هو ما تفضله فى، أنى، مباشر، وأحب أن أكون أميناً معك، ودوماً....

بالضبط، نيكولاس. إن وزعت الثروة بالتساوى ومنحت لكل واحد ما يخصه، تحل المساواة ويسود السلام.

أراقب عينيك الكثيفتين والمثارتين. وأشك فى أنك ترغب فى السلام. ربما فى المساواة، نعم. ولكن ليس فى السلام.

ثم أكرر عليك: ومن سيدير الأمور؟

الجميع. كل واحد سيحكم نفسه. مجتمع متحد.

وهل يمكن أن يصبح هكذا مجتمعًا ناشئًا نتيجة العنف والجريمة؟ – يقول لك نيكولاس بالديبيا محاميك الشيطانى.

لا جريمة إن خلقت مجتمعاً بدون جريمة، جمهورية المتساوين.

وكيف أفوت هذه المناسبة بدون أن أطلق لك شعاراً عظيماً؟

" نقطع بدون رحمة رقاب المستبدين والصفوة والمليونيرات المزدهرين وكل البشر عديمى الأخلاق الذين يمكن أن يعترضوا على سعادتنا المشتركة".

وتتعجب أنت بمرح: أنت يا نيكولاس مستودع للشعارات.

إنها جزء من سفسطتى فى الشرفات، يا صديقى الشاب.

كم جميل أنك أهديتنى ابتسامة.

حسن [١]، شكراً لك أنك ذكرت بطلى جراكو بابوف[٢]. فلقد وفرت علىَ الجهد.

وأقول لك إنك ابتسمت، أنت دوماً الذى تتمتع بوقار شبابى، يا حبيبى خيسوس ريكاردو ماجون.

اطلعنى على ما يحدث، يا ماجون. هل ولد الفوضويون فى القرن التاسع عشر ليعارضوا الماكينات الصناعية. وما تعارض أنت؟ الكمبيوترات؟ ألم يقم ماركوس بثروته المصغرة عبر الإنترنت؟.

(١) Oky بالإنجليزية فى الأصل (المترجمة).

(٢) أحد رواد الكفاح الاجتماعى وثورى فرنسى شارك فى الثورة الفرنسية وأسس حركة «مؤامرة المتساوين» (المترجمة).

وهذه المرة لم تتمالك نفسك وانفجرت فى الضحك.

هل أعيرك حمامى يا نيكولاس. فلم يعد أمامى ساعى آخر.

طبعاً. علىَّ أن أكون ساعيًا لنفسى، وأحضر خطاباتى بنفسى وألا أتلقى أى خطاب منك، كما لو أنك سياسى من الحزب الثورى المؤسسى : لا تترك شيئاً مكتوباً.

واستجوبتك متلهفًا بنظراتى قبل أن أقول لك:

وهل تعرف ماذا سأرسل مع حمامك؟ جاوبت متحمساً بنفس السرعة التى سألتك بها: بأنه ليس هناك فوضوى لا ينتهى إرهابياً. وأن رفض السلطة وآمال الألفية هى أشياء جميلة إن لم تخضع لتجربة الفعل.

أضاء وجهك، يا معتنق نظرية الألفية.

لا تنكر جمال التمرد- قلت منسحباً إلى جديتك المعهودة.

بيد أن النتائج ستكون مخيفة؟ جاوبتك بهذا السيف اللسانى الذى ترغمنى على استخدامه فى حواراتنا.

هل تبدو لك المساواة مخيفة؟ قلت بدون أية إشارة عن المزاج الجيد.

- لا. ولكنى أذكرك وحسب أن مشكلة المساواة الكبرى ليست هى التغلب على غطرسة الأثرياء، وإنما التغلب على أنانية الفقراء.

تعرف أنى أحبك؟ تغضب بدون فظاظة. تجتر غضبك داخلك. ولذا تبدو لى أكثر خطورة من لو انفجرت بعنف ظاهرى سواء كان شفهياً أو جسدياً.

ترمقنى وأنت تعرف أنى أعرف. أفهمك. وإن كنت أكرر عليك حواراتنا فلأننى أشاركك، بالرغم من اختلاف سياستنا، الإيمان بالكلمة.

هل تعرف ما أعظم المحاورات الأفلاطونية التى تأسس عليها الخطاب الإنسانى بأكمله فى الغرب المتحرر من التسلط فى الشرق؟ هى التى تصورناها أنت وأنا أثناء كلامنا فى شرفة بمكسيكو فى العام ٢٠٢٠.

الدويتو سقراط ـ أفلاطون حوّلنا من اثنين من المحدثين إلى رفيقين بمكان وزمن كان حدوثهما مستحيلاً ـ بدون الكلام. بدون هذا المكان وهذا الوقت اللذين تقاسمناهما، لم نكن لنعرف شيئاً أحدنا عن الآخر. بل أكثر من ذلك، كنا سنجهل وجودنا ذاته. ولأصبحنا بعيدين الواحد عن الآخر، كسفينتين تمران أثناء الليل، أوعابرى سبيل فى درب الصم العريض.

ما الذى يجمع بين هذا المكان والزمان اللذين يخصننا، يا خيسوس ريكاردو.

الكلمة، الكلمة التى تقربنا فى لحظة وتفرقنا فى أخرى، الكلمة الصديقة أو العدوة التى فى النهاية تتحول إلى معنى مستقل عن التى قيلت. وهذه الهشاشة العابرة هى التى تحثنا، يا صديقى الشاب والحبيب فى هذه الشرفة مع براز الحمام والتلوث الذى لا مفر منه، على نطق الكلمة التالية، مع علمنا بأنها سوف تفر منا أيضاً لتنضم إلى العقل الكبير للعالم الذى يحيط بنا.

لا تكفوا عن الكلام. لا تتفوهوا بالكلمة الأخيرة أبداً.

يقول أفلاطون إن الكتابة مثل الجريمة التى يرتكبها الأب؛ لأنها تستمر تحمل المعنى بعد غياب المتحدث. وطالما كنت أنا الذى يكتب لك، ستصبح حينئذ مثل الجريمة التى يرتكبها الشقيق. وفقط فى اليوم الذى أشك فيه من بعيد إن لم يكن هذا مستحيلاً– أنك تكتب لى، سوف تحدث جريمة الأب. جريمة الأب: تسع سنوات وحسب هى الفارق بيننا. وأنا ألعب دور مفستوفيليس [1] الذى يعرض على فاوست الشاب التقدم فى السن. والنضج.

هل قرأت فيدريك الرائعة للكاتب جومبروفيتز[2]، الرواية البولندية العظيمة التى ظهرت القرن الماضى؟ بالنسبة للبطل كان النضج يعنى

(١) اسم من أسماء الشيطان (المترجمة).

(٢) كاتب بولندى والرواية من علامات الرواية الحديثة ظهرت أثناء الحرب العالمية الثانية والتى يتحول بطلها من شاب ناضج فى الثلاثين إلى مراهق (المترجمة).

الفساد. حيث نقتل تفضيلات الطفولة بتحولنا إلى بالغين. ونقتل الشاب الذى لا يعوض بإفساده بالنضج. ولكن حتماً لا نبقى بمفردنا فى مرحلة الشباب، وإنما ننتهى إلى أن نخلق شخصاً آخر معرضين أنفسنا هكذا لخطر أن نخلق لأنفسنا من الخارج ، تشوهات، غير حقيقية. " أن تكون رجلاً يعنى ألا تكون نفسك أبداً" إن كنت ترغب أن ترى علاقتنا هكذا، فأنا موافق. وكف عن إفساد نفسك ولو قليلاً.

وتقول لى ـ أن تكون فاسداً ولو قليلاً مثلما أن تكون عذراء نصف نصف.

وأنا أقول لك وأكرر:

ليس بوسعك أن ترفض ما تجهله. اخضع أفكارك الذاتية للحكم. ليس ثمة دليل آخر على النبل العقلى الذى تنشره. أنت لست مديناً لأحد. تعال واعمل معى فى مكتب الرئيس. وسوف تتعرف على "أحشاء الوحش" كما قال خوسيه مارتى الذى يعيش فى الولايات المتحدة. ليس هناك سبب لتضحى بأفكارك. كما سترى أن كانت ستقاوم أم لا. لا عليك سوى أن تضحى بهيئتك. فلا تستطيع أن تعمل فى قصر لوس بينوس بذيل الحصان الذى يشبه طرزان هذا. عليك بقص شعرك. كما لا يمكنك الذهاب بجينزك الأزرق. ولا أبالغ فى هذا. كما يجب ألا تظهر بمظهر المنتمى للطبقة الوسطى المتكلف مثل هوجو باترون، خطيب شقيقتك التافه. وليصبح شقيقك آرمانى. وسوف أتولى أنا هذه المهمة. اتخذ قرارك، يا وريث اليوتوبيا. فلتجعلنى حاميك. دعنى أنقذك من لغة عاجزة، والتى تتحول، نتيجة لليأس، إلى فعل إجرامى.

أطلب هذا منك كدليل مزدوج.

أولاً: كدليل على أفكارك. ستكون أيديولوجياً جباناً إن لم تخضعها للتحدى أمام من ينكرها.

ثانياً: كدليل على صداقتى. والتى تتحول يوماً بعد يوم إلى حب. أنا أحبك وأرغبك، وأنت تعرف هذا، لشخصك. ولأنى أرى نفسى أيضاً فيك.

ليست نفس الصورة وإنما صورة شبيهة ومنفصلة. أعترف بأن حبى لك يماثل حبى لذاتى. حبى للذات التى أرغب أن أكونها. أنا أحب النساء. أحبهن بنفس القوة التى أحبك بها. ولكنى لا أرى نفسى فيهن. العجيب أنى أرى فى النساء دائماً ما لا يشبهنى. أرى شخصاً آخر واندهش. لذا فأنا أعبدهن. وأقع مرة تلو الأخرى فى جحيم حب النساء. حب الاختلاف. أما معك، يا خيسوس ريكاردو، فأنا أعتقد أنه بإمكانى أن أحب نفسى ذاتها كما أحب أن أكون محبوباً من نفسى.

فكر فى عرضى. هذا الباب ليس ضيقاً مثل باب التوارة.

ـ ٣٦ ـ

ماريا ديل روساريو جالبان

إلى الرئيس لورينثو تيران

ومن الأرجح أنه لدى ثيسار ليون "آس" آخر فى كمه. ولا نعرف ماهيته. وهذه هى نقطة ضعفنا. يبدو لى أن إصلاح الدستور كستائر الدخان. حيث تأتى الضربة الحقيقية من جانب آخر. هل حضرتك مطمئن. ولكن خذ احتياطك.

وقت طويل، يا سيدى الرئيس، ضاع منه كثيراً. فلتكن متأكداً أنه مادام يتبع أبله اللعبة، دون أونيسيمو، نصائح ثيسار ليون، فسوف يفزعنا هذا الأخير ويفاجئنا بأن أوراق اللعب كلها فى يده. ولكن ما هى، لا أعرف، يا سيدى الرئيس. كل ما يسع فى قلبى ورأسى أنه حان الوقت لسيادتك أن تتصرف. سابق الوقت. اجمع كل المرشحين لخلافتك على حدة، تاثيتو دى لاكانال و بيرنال إيريرا. اصدر أوامرك لكل منهما بأن يقدم استقالته ويعلن ترشيح نفسه ويبدأ حملته الانتخابية.

ليس أمامهما حل آخر غير أن يستجيبا. وإن اعترضا، استبدلهما. سوف ترى كيف يطيعانك، يا سيدى الرئيس. يقول لى حدسى الأنثوى كله بأننا بفعلنا هذا وحده سوف نفوز فى المباراة على الرئيس السابق الماكر جداً ثيسار ليون.

ماذا قلت لك دوماً، يا سيدى الرئيس؟ إن عدم اتخاذ قرارات أسوأ من ارتكاب الأخطاء. حان الوقت لتتخذ قرارك. وتذكر أنه ليست هناك

مبادئ فى السياسة. هناك ثوان فقط. والقوة من أجل اصطيادها وهى طائرة. تعبير آخر عن المكر. ولكن أى مكر. المكر الذى أبداه وزيرك للداخلية فى المناسبات الثلاثة التى ثار فيها الشعب. إما أن تعالج المشكلة وإما أن تدفنها. ما يحدث أنه لا يمكن ان تستمر المطالب بدون تلبية أو رفض. يعطى هذا انطباعاً بالضعف. وسوف تقول لى، ولك الحق، إن عدم اتخاذ قرار حيال إضراب طلاب الجامعة هو مثال لقضية مستمرة بدون حل. ولكن هذا نفسه الحل: ألا يكون هناك حل، حتى يزهق الجميع. وفى الوقت نفسه، يشعر المستثمرون بالسعادة عن سياساتهم فى حين تخف حدة غضب العمال نتيجة لحاجتهم إلى لقمة العيش. وفى المقابل إنك لو منحت نصراً بلا معنى للمزارعين ستعد هزيمة لحكام الولايات الذين يعتمدون على قطعة اللحم هذه، عبيد الأراضى الزراعية. حسناً جداً. والآن حان دور الدليل السياسى الصارم، يا سيدى الرئيس.

من سيخلفك فى انتخابات عام ٢٠٢٤؟

ما القوة التى تستند إليها؟

من سيعارضونك؟

ولا تفكر:

من سيكون أكثر إخلاصاً لى؟

سوف يخونك الجميع، يا سيدى الرئيس، بما فيهم ـ لكى تتيقن من صداقتى ـ المفضل لدىّ لخلافتك.

- ٣٧ -

من بيرنال إيريرا
إلى الرئيس لورينثو تيران

صديقى الحبيب وسيدى الرئيس، أكتب إليك فى هذه الظروف الجديدة الطارئة والتى بالنسبة لك تعد طبيعية؛ لأنك لا ترد أبداً على أية رسالة، وإنما تتلقاها وحسب. وأعتقد أن شرطك الوحيد هو ألا يطلع عليها أحد غيرك. ولهذا أكتب إليك بمنتهى الصراحة. فلن يستطيع أى من معاونيك أن يذكر شيئاً عن هذه الخطابات الموجهة لسيادتك؛ لأنه بهذه الطريقة سوف يكشف عن تهوره أمام الرئيس، ويصبح، بالتالى، غير جدير بثقتك.

أخبرك بهذا حتى لا تعجب بشدة بصراحتى وإخلاصى. دعنى، يا حبيبى، أكون مرآتك. أنت تعلم ما يقولونه عنك. السلطة تجعل أكثر الرجال قبحاً جميلاً. ولكن لدينا جميعاً مرآة السلطة الداخلية حيث نرى أنفسنا خامدين ومرهقين و محتارين. وعندما ندع هذه المرآة الداخلية تخرج إلى الخارج ويراها الجميع نتعرض لخطر أن يفكروا : فقدان همة، إرهاق، حيرة، خوف أو الأسوأ من هذا بقليل:

هذا ما يرغبه الرئيس أن يظهر كوسيلة للبقاء على المقعد. هو رئيس ميت يحكم بدون بذل أى مجهود.

عليك أن تمنع، كما أقول لك دائماً، أن تطلع شكوك الداخلية وتصبح مرئية خارجك. ستقول إنى أحاول أن أحقق مكسباً خاصاً وأتودد إليك لكى أخلفك على كرسى النسر.

ربما هذا صحيح، يا لورينثو. قد يكون عندك حق. وليس لهذا السبب كففت عن إخبارك بالحقائق النافعة، ليس من أجل خلافتك أو الحملة الانتخابية الوشيكة، وإنما من أجل ما يزيد عن ثلاثة أعوام لا تزال باقية أمامك فى الرئاسة. على كل رئيس دولة أن يختار بين عدة طرق. تكون فى كل الأوقات فى مفترق طرق وتدافعك شتى القوى:

أذهب من هنا.

لا، الأفضل من هنا.

وليست هناك قوة أقوى من قوة الرئيس نفسه الداخلية. فمن الصعب تحديد مكانها أو تعريفها أو التحكم فيها فإنه مما لا يعد غير محتمل لأى رئيس أنه يرى كل الوجوه تتعلق نحوه كما لو أنها ترى فى وجهك مصائرها. خاصةً أعضاء حكومتك!! تظن الأغلبية، للأسف، أن الرئيس يكافئ الإخلاص أكثر من الكفاءة.

أكرر عليك: لا أرغب أن أحقق مكسباً شخصياً. ولا أعنى أننى أدافع عن منزلى(*) أعبر عن نفسى ببلاغة. اعتاد المكسيكيون أن يدينوا "النظام"،أيا كان، على كل شيء. ولا يدينون أنفسهم كأشخاص أو كمواطنين قط. لا: دوماً يكون "النظام" ورأس النظام هو السيد الرئيس. ثمة قاعدة شفهية للنظام الجيد ـ منذ الأزل، منذ أيام الاستعمار، ـ تقول من المشروع الإثراء فى السلطة لسبب واحد وبشرطين.

السبب هو، وبدون أن يقول أحد هذا، يعرف الجميع أن الفساد "يدهن" النظام، و"يلمعه" إن رغبت، ويستعيد انسيابيته وانضباطه، بدون آمال يوتوبيوية تتعلق بعدالته أو غيابها. ولكن المكسيك لم تستطع قط السيطرة على الفساد. هل تذكر عملية "الأيدى النظيفة" فى إيطاليا، وقضيتى بانيستو وماتيسا فى إسبانيا، الفساد الذى ارتبط بالمستشار كول فى ألمانيا أو بالمقربين من السيدة النقية تاتشر فى إنجلترا، وأخيراً فساد

(*) Pro domo sua باللاتينية فى الأصل (المترجمة).

التعاونيات فى الولايات المتحدة ـ قضية إنرون وبعدها قضية ورلد كومن وقضية هاليبرتون وغيرها، والتى كشفت، إن الرئيس بوش الابن ليس تائهاً وحسب وإنما دمية صامتة، لمحيطه المقرب ذى الصلة بعالم المال والبترول بلا شك....

ثم يكمن الاختلاف فى المكسيك فى أنه فى أوروبا والدول الأوروبية يتم العقاب أما فى أمريكا اللاتينية تتم المكافأة أو تجاوز الأمر. والآن سوف أعرض عليك قضية كمثال، ياحبيبى الصديق الرئيس. نفترض أن فلاناً فاسداً وتم ضبطه. هل من الملائم معاقبته أم لا؟ ما الذى تفضله، العدالة أم المهادنة؟

أنا أعرف أن النظام السياسى، مهما اختلف، عليه أن يخلق تابوهاته الخاصة لا ليحمى النخبة وحسب وإنما، الأهم، المجتمع نفسه. إن كانت هناك سياسة بلا لصوص، فمن المؤكد ألا يكون هناك مجتمع بلا أرواح شريرة. ينبغى أحياناً التغاضى أو التمويه على خطايا الدولة للدفاع، ليس عن الدولة، وإنما عن المجتمع، ضد قواه الشيطانية الخاصة.

يقولون عنك إنك منعزل جداً وأن عدم مقابلتك لأحد يجعلك تتخيل كل الفضائل فى الآخرين ـ وكل العيوب ـ لتصبح النتيجة السياسية الخالصة، والتى تعرفها، تدب الخصومة بين الموظفين الصغار، نتيجة لتفسير كل منهم الخاص للامبالاة الرئيس. فى حين تستمتع أنت، هامساً، بما تطلق عليه وحدتى الضرورية للتفكير الصافى والتصرف السليم.

يتخاصم معاونوك فيما بينهم. تخيل الفرصة العظيمة مع اقتراب خلافة الرئاسة. سوف تتيح لك الخصومة والادعاءات بين معاونيك، والتى تغذيها سلبية الرئيس، بلعب دور الحكم فى اللحظة الأخيرة.

لا تنخدع، يا لورينثو. سيدى الرئيس، تشعر البلد بسلبيتك كنقيصة. ولنكن صرحاء، لقد فقدت السيطرة. ولكن الآن، كما اقترحت عليك، يمكنك، على العكس، الفوز بالسلطة. فز بالمعركة الحتمية لخلافة الرئيس. ما يعتبره آخرون نقصاً فيك، قد يكون ميزتك: احتل القلعة بدون أن توقظ الكلاب.

اعذرنى، ولا تعير اهتماماً لسينيكا، الذى ينصحك بالسير بين الناس، كخليفة من بغداد، متنكراً فى زى شحاذ. وتذكر أنك لو فتحت نوافذ القصر، سوف تدخل شمس ساطعة ورياح قوية. تبهر الشعب ولكنها ستصيب الحكومة بزكام. واجهز أنت بحبتى الأسبرين والمضاد الحيوى.

تخلص منهم، ليس من أجلك، وإنما من أجل معاونيك غير المخلصين. إن كنت لم تعرف هذا بعد، ستعرفه قريباً.

ـ ٣٨ ـ

تاشيتو دى لا كانال

إلى ماريا ديل روساريو جالبان

سيدتى. إليك ملحوظة موجزة للغاية. كل ما يقال ويكتب ويجرى ويهمس به فى هذا البلد يمر على مكتبى. أنا الذى، مثل المصفاة، يعرف ماذا يدع وماذا يمنع من الوصول إلى مائدة الرئيس. ولقد عرفت ما تعرفينه أنتِ وعشيقك العجوز بيرنال وحبيبك الشاب بالديبيا. أسرار كثيرة وعشق كبير وتهور عسير. خذِ حذرك. لن أسمح بالعار الذى تجهزونه لى بفضل سذاجة موظف أرشيف فى قصر لوس بينوس. اخلعى قناعكِ، يا سيدتى. أو كما تقولين سيادتك، التى تلقيتِ تعليمك مع الفرنسيين. هذه هى الحرب!، تذكرى جانبك الضعيف. لستِ امرأة سياسة وحسب. فأنتِ أم. هل ترغبين أن ينكشف الأمر؟ أو الأسوأ من هذا بقليل. هل ترغبين أن يعانى الطفل؟ فكرى فى الأمر. فأنا دوماً على استعداد للتفاوض.

ـ ٣٩ ـ

ماريا ديل روساريو جالبان

إلى تاثيتو دى لاكانال

لك حق، يا تاثيتو، سأخلع القناع وأنزل الستار. أنت وبيرنال محاربان سياسيان وتستطيعان الحديث بكل وضوح. وأنا لن أفقد هدوئى كما فعلت أنت، ولكنى سوف أنتهز، ربما من أجل التطهير الضرورى، لأخبرك ببعض الحقائق.

لقد آمنت أن كل الوسائل مبررة من أجل الصعود، ولكنك لم تحسب ثمن المعركة حين لا تجدى أية وسيلة لأننا لم نعد نملك رصاصات ورصاصتك كانت السيد الرئيس.

اعتمدت على أن عبوديتك ستكون طريقك المجانى نحو كرسى النسر. شاهدتك البلد بأكملها وأنت تعامل الرئيس كما لو كان إمبراطوراً يابانياً لا يمس. ما الصورة التى تعتقد أنك سوف تقدمها، يا صديقى غير الجدير بالترشيح، للناخب؟ الكل يعرف أنك كنت تزيح المقعد للرئيس عندما يجلس ليأكل ثم تقعد وتلعق الطبق الذى يحوى فضلات الرئاسة. من لم يرك وأنت واقف خلف الرئيس كالحارس لشخصية الإمبراطور، كى لا يلمسه أحد أو لا يسمعه أحد؟ "دعوا أظافر وشعر الرئيس ينموان. وسوف أقصهم فى السر، بدون أن يشعر، وهو نائم، وسوف أحفظهم فى خزانة..."

نعم، يا تاثيتو، كجميع الأشياء التى تحفظها فى أدراجك. كالأغراض المسروقة. لقد تخصصت، يا تاثيتو، فى كشف ماضى الأشخاص المؤسف.

وأعرف يقيناً أننى كنت ضحية لجرائمك وتهددنى الآن بفعلها ثانيةً. ولكن الآن فإن ماضيك هو الذى سينكشف بالليل ويسرق النوم من عينيك. دفنت كافة الأسرار ما عدا واحداً، سرك أنت. والآن سوف يدفنك سرك المذنب وأقسم لك، يا تاثيتو، سوف أسبب لك الرعب وببعض الحظ، سوف أدفنك.

بالنسبة لى لن تبقى. أقولها لك بلغتك. فى هذه اللحظة، ما تنوى أن تفعله ضدى وضد بيرنال، سوف يرتد ضدك. أنا أعرف حقيقة سلوكك وسوف أفضحها إن لمست شعرة واحدة من رأسى. وحتى إن قطعت رأسى، سوف تنفضح الدلائل ضدك، ومعها تهمة أخرى: القتل.

هل تعرف أن هناك أناساً صغيرة وشريرة وتعرف الكثير. ولكن هناك أيضاً أناساً طيبين وعظماء تعرف ما يكفى لإسكات صوتك العقيم الذى لا يحتمل والذى يشبه صوت قس حديث العهد. هل تعرف من تشبه بصوتك وجسدك؟ بصراحة، يا تاثيتو صغيرى، فإنك تشبه الجنرال فرانسيسكو فرانكو. ولكن هذه ليست إسبانيا ولسنا فى عام ١٩٣٦ لقد وقعت فى الوهم المصطنع الذى أدار به لورينثو تيران وزراء حكومته. جعل الجميع يظنون: أنت أكفأهم. أنت وريثى الطبيعى.

هل اطلعت فى مرة على ما يدور فى رأس الرئيس؟ هل تخيلت ما يتخيله؟

يا تاثيتو البائس. هل قرأت رسائل وزراء الخارجية إلى الرئيس و هل حدست أن كل واحدة منها دليل على عدم الإخلاص ـ حتى أن الرئيس نفسه تساءل إن كان جميع معاونيه غير مخلصين ماعدا تاثيتو دى لاكانال.

يا تاثيتو المسكين. لم تكتشف قط أنك كلما نافقت الرئيس، سوف تكتسب مزيداً من الاحتقار الشعبى ـ وكلما تقل ثقة الرئيس فيك، وهو العالم بأنه فى هذا البلد يقتلك الحصان الذى تتعامل معه كإمبراطور.

يا تاثيتو المسكين. في أعماقي، لا أرغب في إيذائك. أنا لا أحبك، ببساطة. أو بمعنى آخر لا أريد سوى رؤيتك مذلولاً. ثريًا، منفيًا، ولكن مذلولاً.

سوف أؤذيك، يا تاثيتو، أقسم لك، ولن أشعر بأي ذنب لأني أحتقرك. على الرغم أنه في الحقيقة، على الواحدة منا ألا تفرط في الاحتقار. ثمة عدة محتاجين. باي! ملحوظة: تعلم كيف تسرق بصورة أفضل في المرة القادمة....

ـ ٤٠ ـ

الرئيس ثيسار ليون
إلى رئيس البرلمان أونيسيمو كانابال

أعود إلى الحمولة، يا صديقى المميز بالرغم من عدم تمييز الآخرين له، هل تـذكـر الفـتـرة التى كنت تعيش فيهـا، فى الخيـال، فى مرحـاض السياسة بفوطة على ذراعك ومادأ يدك فى انتظار الحسنات. من أخرجك من هنـاك؟ وحملك إلى الاستراحة فى مقـاعد جمعيات الحزب، ثم لتصـبح" رجل الميكروفون" فى الاجتماعات، الذى يطلب النظام، والإصغاء....

لى الشرف لتقديم السيد المحترم ثيسار ليون، المرشح للرئاسة.

ومن هناك إلى لجنة القيادة بالحزب، ثم إلى المنفى الذهبى كسفير فى لوكسمبورج، حيث لدينا الكثير من المصالح الملحة (ولا تعتقد أنى أسخر، فلا أحد يسخر من حسابات البنوك فى لوكسمبورج، أليس كذلك؟) وقمت بدور القزم الساحر الطيب للكنز الذى أنت عليه. والآن، ياللعجب، دون أونيسيمو، كيف تقدمنا من المراحيض. علينا أن نكون شاكرين، أليس كذلك؟ وأنت، لكونك، انبساطياً طيباً، شرفت بلدك الفتية، وفاضت منك الانبساطية. فأنت بسيط، أونيسمو، ويعجب الجميع بك، بلا شك، ولكن سيبقى لك الجوار السيئ لعدوك غير الخالد فى تاباكسو، أومبرتو بيداليس، المدعو " القبضة القوية". والأفضل أن يسمونه " رأس هيدرا"(*)

(*) حيوان أسطورى ذو تسعة رءوس (المترجمة).

أقطع واحدة منها تظهر له مائة غيرها. وفى هذه الحالة، فإن "رءوسه المائة" هى فى الحقيقة ما يسميها تفاخراً " أبنائى التسعة الأشرار". أى أسرة الشر. ولذا فإن تاباسكو تدهن نفسها بنفسها و"القبضة القوية" يرسم مخططاته للانتقام والطوحات من الآن وحتى عام ٣٠٠٠.

حمولات، أونيسمو" لها اسم رجل آخر قوى فى تاباسكو، الحاكم الصارم والمناهض للكنيسة توماس جاريدو كانابال، الذى كتب عنه أحد حكام الولايات بقائمتنا الطويلة وهو جونثالون سانتوس:

ـ خصيتاه مثل خصيتى الثور.

ماذا كانوا يحتاجون لمطاردة كل القساوسة فى تاباسكو، غلق كافة الكنائس وأيضاً منع زيارة القبور. لقد كان دون توماس مناهضاً للكنيسة لدرجة أنه منع أهالى تاباسكو من قول "مع حفظ الله" وأمرهم بقول "إلى اللقاء" أو" إلى وقت لاحق".

سوف أحفظ سرك، يا أونيسيمو، انتقلت من تاباسكو إلى كامبيتشى، للفرار من "القبضة القوية" و"فتيانه الأشرار التسعة"، لتصنع قاعدة سلطة خاصة (فلا يستطيع أحد ذلك مع ولاية "القبضة القوية" على تاباسكو). من أجل السخرية من خصمك بيداليس وكى لا تواجه شبح جاريدو كانابال.

نعم، يا عزيزى أونيسيمو، فررت بقدر الإمكان من المصائب التى كانت تحدق بك. ولكن السيئ أن الواحد منا لا يمكنه الاختباء من قدره لأنه يحمله فى روحه، وليس فى المكان الموجود به. وقدرك، أونيسيمو، هو أن تخدم من حماك ويحميك من الكراهية الانتقامية لشيخ تاباسكو "القبضة القوية" بيداليس. من حماك وسيحميك مجدداً: صديقك ثيسار ليون.

سوف نعرف إن كنت أعرفك أم لا. فأنت من الناحية السياسية محايد. تفضل الطاعة عن الجدال. وتفضل أن تخضع إلى السلطة الفعلية عن الأسس الحزبية. وتتمتع بميزة عظيمة، يا أونيسميو. فأنت سياسى من قبل التاريخ، وبالنسبة لك، فإن الحياة السياسية أصبحت تتابعاً لأشباح

كانت لهم أهمية سابقاً وهى اليوم ظلال فى الكهف الأفلاطونى بكاكاهوامبيلا فى ذاكرتك. كلهم من الرجال السابقين، أليس كذلك؟ وأنت تعتقد أنهم تبخروا، ولكنك ما زلت موجوداً ؛ لأن لا أحد يلاحظك ماعدا مرور بعض المتطلعين الذين تحولوا إلى أشباح. هيا، من كان مارتينيث ماناتاو، ومن هى كورونا ديل روسال، ومن جارثيا بانياجوا، ومن فلوريس مونيوث وسانشيث تابيا وروخو جوميث؟ هم أشباح، عزيزى أونيسيمو، أشباح فى السياسة المكسيكية المضحكة. مضيئون فى يوم، ومظلمون فى التالى ـ والأعمدة مطفأة للأبد.

والآن انظر جيداً. فى عينى. فأنا أرفض أن أكون شبحاً. لقد دفعت دينى مع الماضى، إن كنت ترغب فى رؤيته هكذا. منفى ومنقلب عليه ومحط للسخرية والسباب ولكنى لست مهزوماً.

لا تجعل الذعر يبدو على وجهك. فلقد عاد شبحك وسوف يسترد ديونك. أنا أراقبك، يا أونيسيمو، فأنت تشعر بأمان تام لأنك لا تزال تلعب الدور نفسه وتعاود الخطوط نفسها، بدون أن تدرك أن المسرح قد تغير وكاتب المسرحية أيضاً. فنحن فى مسرح جديد وأنا أرغب أن أكون النجم ثانيةً. وأنت، يا صديقى الحبيب، ستكون من يرجع اسمى إلى المظلة الوطنية.

الانتخاب للمرة الثانية؟ عبارة ملعونة على مسرحنا السياسى، ولكنها لم تعد بهذا القدر من اللعنة منذ تعديل دستور ٥٩ واستعادة روح دستور ١٩١٧ :الذى يسمح بانتخاب نواب مجلسى النواب والشيوخ لمرة ثانية، مما سمح لك، البقاء لمدة عشرة أعوام فى المجلس. حسناً والآن جاء الدور عليك للاطلاع على الأمر الجلل: قبول انتخاب الرئيس للمرة الثانية: وتعديل فقرة ٨٣ الحقيرة وتفتح أمامى طريق العودة.

ستقول إن تعديل الدستور يتطلب وقتاً؟ أعرف هذا جيداً، ولذا علينا البدء الآن فوراً، قبل ما يقرب من ثلاثة أعوام من الانتخابات المقبلة. تشاور بفطنة مع القوى الحية، وشيوخ القبائل، وحكام الولايات،

والمشرعين، ورجال الأعمال، والقادة العماليين، والفلاحين، والمثقفين. وكما انتهيتم من تحديث حال مشرعى القانون، علينا أيضاً أن نحدث نظام خلافة الرئيس. فليحيا الانتخاب لمرة ثانية.

لا تعتقد أنى أمضى وقتى فى حل الكلمات المتقاطعة. ها قد تكلمت مع إلهك نيميسيس [١] بيداليس "القبضة القوية" (وليس مع أبنائه التسعة الأشرار) و تعاطف مع فكرتى. يتطلع إلى البعيد، لأنه رب أسرة. ولكن علىَ أن أعترف بأن بيداليس[٢]رجل نفسه. لا يحب أن يحمله أحد معروفاً وأخشى ـ للعجب ـ أن يرغب فىَّ أو يعرف كيف يستغلنى أكثر من استغلالى له.

وأنت ـ فى المقابل ـ يا صلصالى الحبيب. تستطيع وينبغى أن تفعل ما أرغب، لأنك تدين بكل شىء لى. تمتع بميزة سياسية تتيح لك الخلود، يا أونيسيمو. فأنت قبيح ولكن لا يميزك أحد. فأنت قبيح بالجملة، سمين، وضيق الكتفين، وقصير القامة. ولست مؤخرة حتى. قد يظنك الناس سائق شاحنة أو كما كنت من قبل عندما تعرفت عليك: شاب المبولة. وكنت غير مرئى لذا فلم تكن خطراً، وليس لأنك خطير تعرف كيف تهدئ وتدير جماعات الشباب الخطرة. وهناك أناس أكثر خطراً من مشرعى القوانين الصاخبين؟

ياه، يا أونيسيمو. هيا نعمل معًا. تذكر أنك تستطيع التظاهر أنك تخدم الرئيس الحالى واضعًا قواعد تبدو لى غير مفيدة بالمرة. لا تكمن مشكلة خلافة الرئيس فى مَنْ وإنما فى كيف. طمئن الرئيس الخارج، لورينثيو تيران، بأنك ستحمى ملكيته وميزاته وعائلته. وهذا يكفى. فالأمان من ذهب. أو بقول آخر، لا يقدر بثمن. كلنا نحلم بهذا الأمل. فليحلم به أيضاً الرئيس الحالى ومريدوه.

هل تعرف شيئاً عن مائدة الانتقام فى هذه الأعوام الثلاثة؟ ومن سيفلت منها؟ الوقح تاثيتو، بصوان متنقل يحوى جثثًا؟ القديس آندينو،

(١) إلهة العدل والانتقام عند الإغريق (المترجمة).

(٢) is his own man بالإنجليزية فى الأصل (المترجمة).

بزوجته التى تخونه طوال اليوم مع أى "سوستة" بنطلون تمر بجانبها؟ أو الطاهرة ماريا ديل روساريو، الباردة مثل قطعة الجليد، ولكنها مثل جبل الجليد ثلاثة أرباعه غارق تحت المياه ولا يظهر منه سوى جزء ضئيل من حقيقته ولا شيء من أسراره؟ المحترم والممتلئ بالطاقة ، والتى غرامياته مع السيدة سالفة الذكر ليست سوى غطاء لسر آخر أكبر لن يلبث ان ينكشف؟ العجوز والرئيس الأسبق والجالس على مقهى بيراكروث، والحارس لسر آخر يحفظه ولا يطلع عليه أيًا كان، أم هو الجوكر الغامض لكل هذه اللعبة؟ أم نيكولاس بالديبيا التى لم تنبت لحيته بعد، والذى يصعد بجهد وبفضل من ماريا ديل روساريو إلى السكرتارية الفرعية للرئيس، والذى فى طريقه الحتمى، ليصبح الوزير المتولى مهمة الوزارة بعد تنحى تيران لترشيح نفسه للرئاسة.

ليس هناك واحد فقط، يا أونيسيمو. أقولها لك، لن يتم التضحية به. وإليك ثلاث قواعد لتسلك سلوكاً جيداً.

أولاً، اقتل عدوك السياسى وابكِ عليه طوال شهر.

ثانياً، إن كنت ستصبح عشماوى، تأكد أن أحداً لا يراك.

ثالثاً، حاذر من شبح عدوك السياسى الذى قتلته.

أو يا أونيسيمو، أيها الأمى غير المناسب، اقرا عملاً يدعى ماكبث وانتظر دوماً اليوم الذى تسير فيه غابة جرائمك نحو قلعة قوتك.

ولا تستبعد أبداً الحظ، الحظ الغادر. لقد رأيت اليوم الذى ضربتنى فيه ثلاثة إضرابات فى الوقت نفسه واضطررت أن أقمعها وكانت النتيجة ثلاثة عشر قتيلاً، ولكن لم يدر أحد بهم حيث مات فى اليوم نفسه آكساياكتل بيريث، المدعو "سلطان التشاتشاتشا"، أحد رواد الموسيقى الشعبية فى هذا العصر، وذهب الجميع ليسهروا عليه فى قاعة "جران ليون" للرقص ثم إلى قبر المعبود ولم يذكر أحد القتلى المجهولين. والذين كانوا جزءاً من ثروتى.

أكتب إليك يا أونيسيمو، بدون خفايا أو ظنون. أعرف أنك روح الفطنة نفسها، ببساطة لأن لا أحد يصدق كلامك وتستطيع أن تختفى فى الصمت براحتك. ظل هناك وستجدنى معك.

ملحوظة: لا تشغل بالك بالاحتفاظ بهذه الرسالة. فبمجرد انتهائك من قراءتها سوف تحترق كيميائياً. ولا تستطيع نسخها أو إظهارها لأى شخص، أيها اللعين. ألم تشاهد سلسلة أفلام "مهمة مستحيلة"؟ ثمة دروس من الماضى تنفع فى حاضرنا غير المتوقع. وتساءل فقط فى هذه الأيام التعسة للجمهورية كم عدد الخطابات وأشرطة التصوير والكاسيت التى لم يتم تدميرها على أيدى متلقيها المفزوعين بمجرد قراءتها أو سماعها؟ تخيل، ولا واحد. ولا تحرق أصابعك الرقيقة مع رسالتى.

ـ ٤١ ـ

تاثيتو دى لاكانال

إلى ماريا ديل روساريو جالبان

سيدتى المحترمة جداً، هل من الممكن ابتزاز المبتزين؟ لا أرغب أن تصغر مكانتى أمام عيونك، فأنا صغير القامة لدرجة أنك لا ترينى. وأنا، فى المقابل، أنظر إلى الأعالى وإلى بعيد. أعلى وأبعد، وأجرؤ أن أقولها، سيادتكما ـ وسيادتكما هما بيرنال إيريرا، وزير الداخلية، وعشيقته وأم ولديهما، ماريا ديل روساريو جالبان، أنت. نعم.

اسمحى لى أن أذكر لك قولاً. "فى الآفاق الواسعة حول بيرشتيسجادن، معزولاً عن العالم اليومى، تنتج موهبتى المبدعة أفكاراً تهز العالم. فى هذه اللحظات، لا أشعر بأنى واحد من الفانين، تنقشع أفكارى فى العقل وتتحول إلى أفعال ذات أبعاد هائلة".

لا تظنى أنى متباهٍ أستوحى كلمات أدولف هتلر. اعتقدى كما تشائين حول الفوهرر الألمانى، ولكنه وصل إلى أعلى مكان وأبعد مكان كما توقع. كان سقوطه مريعًا، بلا شك، ولكن السقوط من الأعالى يعد انتصاراً فى حد ذاته.

بكلمات أخرى: إن تجاهلت حدود طموحى. كيف سيتعرف عليه الآخرون؟ المسألة هى معرفة استغلال الوقت – كما تقولين فى خطاباتك إلى بيرنال إيريرا التى استمتع بقراءتها، قبل نومى مباشرة، كما لو أنها أعمدة نصائح عاطفية فى جريدة. وصدقينى، يا سيدتى، فأنا أعرف

تماماً كيف أقيس أوقاتى. ولا تنسى أن قوتى تكمن فى القدرة على الاطلاع أكثر من أى أحد آخر. ولا حاجة لى لقول المزيد. فالآخرون أيضاً لديهم هذه القدرة. ولكنى أملكها قبل أى أحد. ولا تظنى أنى أخدع نفسى. فأنت وإيريرا تقولان.

تاثيتو يقدر على الاطلاع ولكنه لا يتمتع بالشعبية.

أنتما، الزوجان الشيطانيان، تنصبان لى الأفخاخ. لكنكما مسليان للغاية، بلا شك. تجهزان لى تكريماً من قبل القوى الحية ـ النقابات ورجال الأعمال ـ يمدحنى خلاله شخص قمتما بتدريبه، ثم يتبعه آخر ينتقدنى بشدة. ولا يهب أى شخص للدفاع عنى. تعتقدون أنكم بضربة واحدة أرضيتم غطرستى وأصبتم غرورى فى مقتل. ونصبتما لى الألغام.

لا. لقد زدتما قوتى. فكل احتقار أتعرض له، وكل عدم تقدير تقومان به تجاهى، يعززنى من الداخل، ويزيد من شجاعتى، ويجعلنى من حديد. هل ترغبان فى التعرف على قدرتى فى مقاومة الإساءة؟ لقد ذهبت لرؤية الرئيس السابق ثيسار ليون، والذى كنت معاونه الشاب منذ عشرة أعوام. ولقد اشتكى من المعاملة التى واجهها بعد أن ترك كرسى النسر واتهمنى بشن حملة لتشويه صورته.

قلت له ـ أنا أزعجك وحسب لأن هذا ما يريده السيد الرئيس.

إنهم لا يزعجوننى، وإنما يطاردوننى، قالها ليون السابق بنبرة قيادية، وليست نبرة شكوى.

أنا لا أفعل سوى خدمة الرئيس.

هل أمرك بهذا؟

لا، ولكنى أعرف أن أخمن فيما يفكر الرئيس.

أود أن تعرفا إيريرا وسيادتك إلى أى مدى أعرف أن أخاطر بنفسى لتعرفا أنه ليس من السهل إثارتى، كما لو أنى مراهقة رومانسية وحساسة ذات خمسة عشر ربيعاً.

ولكى تريا الحدود القصوى لاحتمالى، وأيضاً لرباطة جأشى، المتشابهين لقراراتى، سوف أحكى لكما ماذا حدث بعد ذلك.

اعتبر الرئيس تيران طريقتى فى معاملة الرئيس ليون غير مسموح بها وغير كفء.

ـ ولكنى قد فعلت هذا من أجلك سيدى الرئيس.

ـ لم أطلب هذا منك قط يا تاثيتو.

ـ أعتقد انه كان بادياً عليك.

ـ ياه، لدرجة أنك خمنت تفكيرى. وهل خمنت أنك لو كررت هذا سوف أطردك؟

لم أخمن، يا صديقاى العزيزان. عرفت أنه كان على الرئيس أن يلومننى لا أكثر، ولكنه فى الحقيقة يشعر بالسعادة لأنى فعلت ما لا يستطيع أو يعمله بشخصه، أو التصريح لى به.

صديقتى المميزة: أنا أعرف أن ألخص المخاطر. وأعرف كيف أواجه الحقارات بدون كلمات. هذه هى قوتى. هل تعتقدين أنى لا أعرف ماذا قلتِ للسيد الرئيس؟

لا يظهر تاثيتو سوى نقاط ضعفك، يا لورينثو. أنت لست فى حاجة إليه. فالرئيس الضعيف وحده هو من يحتاج إلى كبير ياوران.

ياه، كبير الياوران. المستشار الملكى الذى يمارس السلطة الحقيقية بدلاً عن الملك الضعيف أو التائه. نيكولاس بيرينوت دى جرانفيى لكارلوس الخامس و أنطونيو بيريث لفيليبى الثانى، ودوق ليرما لفيليبى الثالث، والرابع والكونت دوق أوليباريس، بعضهم أكثر حظاً من الآخر، وبعضهم يرجع من النسيان (الكاردينال)، وآخرون يخونون وينتهى بهم المطاف متنكرين فى أزياء نساء فى صفوف الأعداء (مثل بيريث، الذى لم تكن تنقصه سوى قطعة نسيج على عينه ليشبه محبوبته عوراء إيبولى)، وغيرهم غرقوا فى منافسة غير متكافئة أسوأ مع الملك نفسه (مثل ليرما)،

بينما حظى آخرون بالمكافأة على نجاحهم فى إدارة الإمبراطورية (أوليباريس).

إنها نماذج من التاريخ، يا سيدتى. ولكن منهم سوف أحذو حذوه؟ قيمة كبير الياوران عظيمة مثل حاميه، ولكنها تماثل أيضاً قيمة أعدائه. وسيادتك وبيرنال إيريرا لا تنفعاننى سواء فى الحقيقة أو فى نقطة انطلاقى.

ـ أنت لست سوى عود قصب يعتقد نفسه سيفاً، هكذا قال لى ذات مرة وزير داخليتنا المبجل.

ـ وأنت، يا سيدى، سردينة تظن نفسها حوتاً، رددت عليه.

ـ وأنا؟، تتجرئين وتسألييننى بغطرسة.

– لست سوى مجرد عود شعرية، يا سيدتى.

تذيعين بين الناس أنى مازوخى أهوى الحكى عن عذاباتى وما أتحمله فى خدمة السيد الرئيس. الحقيقة المجردة هى أنى أتمشى فى ممرات قصر الرئاسة وأنا أفكر فى هذا، معاقبة نفسى على سقطاتى، ولكنى أمدح ذاتى فى الوقت نفسه لأنه لكونى بائساً، لست حياً وحسب وإنما قادر على العيش. يقول عنى صديقكما "سينيكا".

تاثيتو قادر على غواية الشيطان.

ويهمس أثناء مرورى.

ها هو السيد فى طريقه إلى الشر.

(عبارة مأخوذة عن تاليران، كما تعرفين سيدتى التى تلقت تعليمها على أيدى الفرنسيين).

ولكنى أضع حديداً فى حذائى كى لاتحملنى الرياح العاتية. أتحمل كل شىء، يا سيدتى، لأن من يتحمل أكثر هو من يضحك فى النهاية. أستطيع، كما أخبرتينى بتهورك فى رسالتك، أن أتهاوى فى أية لحظة. ولكنى أحذر سيادتكما أنى سوف أزيحكما معى إلى الهاوية.

أنت خفاش، يا تاثيتو. لا تظهر فى النهار.

لا أجرؤ على الاعتراف أنى أعجب بالليل، يا سيدتى، عندما تتعرين والضوء مشتعل.

أصبح رقيقاً أكثر.

عجباً. فأنا حمامة وديعة.

ستكونين صقراً يتحول إلى حمامة.

عجباً . نحن نادران.

مقارناتك غير موفقة، يا ماريا ديل روساريو. أطلقى علىَّ "رجل الدعابة" أفضل .

سترين أنه من العسير الإيقاع بى. وأنى قادر على التسلل من تحت الأبواب غير الموصدة جيداً مثل بابكما أنتِ وعشيقك بيرنال إيريرا. بدون أن ننسى ابن السفاح التعيس وثمرة عشقكما والمحبوس داخل نزل للمختلين عقليًا.

ـ ٤٢ ـ

بيرنال إيريرا

إلى ماريا ديل روساريو جالبان

امرأتى، ما حل بك؟ لا أتعرف عليكِ، ولا أعرف نفسى فيكِ. لم تسمحين أن تسيطر عليكِ ضربة انتقامية؟ لم لا تتحكمين فى عاطفتك؟ لما تركتَ هرموناتك تسبق المواعيد التى اتفقنا عليها معاً، نحن ـ الاثنين ـ المرتبطين دوما، والمتناغمين طوال الوقت؟ لم نشك قط فى وفائنا لبعضنا البعض... فوحدتنا السياسية تنبع من اتحادنا الجسدى والآن أذكر كما كنا مختلفين حينما تعارفنا وعشقنا بعضنا، ولكننا دفعنا الثمن المحتوم للبدء فى أية علاقة عاطفية. كان الشك فى كل شىء من طبيعتنا السيكولوجية والسياسية. وتعارفنا. وانجذبنا لبعضنا. ولكنك شككتِ فى، كما فعلت تجاهك. حتى اكتشفنا، فى ليلة، ونحن معًا، بزجاجة "بنتروس" تشاركنا فيها أننا نحب بعضنا بالرغم من شكوك كل منا فى الآخر وبقهقهات مشتركة (هل كان النبيذ أم الرغبة أم المخاطرة، والتى بدونها لا يصير أى لقاء حسى ذى قيمة) قلنا:

شك فى كل ما حولك وسيفهم كل منا الآخر.

قلت لك إن الرجل المشهور عليه أن يشك دوماً مما يسبب لك إزعاجاً وعدم أمان، بدون أن نظهر ذلك. هذه هى القاعدة الثانية، امرأتى. الشك، الانزعاج، هما صمغ تآلفنا وهدوئنا أمام الناس. وصلنا إلى أن نصبح سياسيين محترفين لأننا لا نخنق عدم أماننا ـ أى، قدرتنا على الشك.

احتراف، وسياسة. أحزاب، شكوك. أو أننا نقوى إزعاجنا لكى نغذى درعنا للهدوء بمادة إنسانية. لدينا ابن، يا ماريا، يا ملجئى. طفل منغولى، أو كما يقال علمياً مصاب بمتلازمة داون. كان علينا أن نختار. أن نعيش معًا من أجل رعاية الطفل والتضحية بطموحنا السياسى، أو أن تحتفظى بالطفل لتتركينى حرًا ـ حراً ومداناً مرتين لإغضابك ولهجره ـ أو نفعل ما فعلنا. أن ندخله مصحة، ونزوره من آن لآخر ـ وكلما يمر الوقت تقل الزيارات ـ ونقبل ذلك، وكل مرة يقل ارتباطنا بهذا القدر الذى لا قدر له، وفى كل مرة نزداد فزعاً من هذا المخلوق الوديع، بنظرته الحنونة والمرحة، والبعيدة والمختلفة أيضاً، وأن يسلب من هذا الطفل الذى لا مستقبل له سوى الموت مبكراً، حيواتنا نفسها فى مقابل لا شىء.

كانت هذه دوافعنا وحافظنا على السر أربعة عشر عاماً. وحذرتك، يا ماريا ديل روساريو، ألا تصل حكايات هذه المصحة أبداً إلى مكتبى. فأنا مراقب نوعاً ما، ومحاصر، ويحيط بى الجواسيس الذين يخدمون أعدائى ـ وأعدائك أيضًا، لا تنسى ـ وأى هفوة قد تستغل ضدى ـ وضدك.

وهذا ما تم. ينقصنا أن نعرف من أطلع على سر هذه المصحة وتشمم الحقيقة. هل تعتقدين أنى لا أعرف؟ يقول أصدقائى إنهم أعداء تاثيتو- وأنا مضطر إلى التفكير أنهم يقولون لتاثيتو الأمر نفسه.

نحن ـ أصدقاءك ـ نبغض إيريرا. سوف نذهب معك إلى "لا جراندى".

إن التجارب التى نُخضع لها من يحوطون بنا نافعة بعض الأحيان وغير نافعة فى أحيان أخرى، ولكنها فى أغلب الأحيان بالغة الضرر لسلامنا الداخلى. سوف تصلين إلى قناعة أن الأصدقاء والأعداء قد تربطهم الصداقة فيما بينهم وينتهى بهم الأمر، رغبت أم لا ـ فى تكرار عبارة ستاندال(*) التى علمتينى إياها.

ياللصعوبة الهائلة لهذا النفاق الذى يحدث كل لحظة.

(*) يشكل ستاندال علامة بارزة فى الأدب الفرنسى ١٧٨٣م ـ ١٨٤٢م، ومن أشهر رواياته الأحمر والأسود و «دير بارم» (المترجمة).

قولى أنتِ كم عدد المرات التى تأملنا فيها معاً موضوعاً مركزياً فى الحياة السياسية:

كيفية التعامل مع العدو؟

بطقوس التهدئة؟

بهجوم صريح؟

بعنف، وقطع رأسه؟

بهزيمته أولاً ثم تكريمه بعدها مباشرةً؟

التفوق عليه بخيانة بدون أن تمسك عليك هذه النقيصة؟

مباغتته؟

التفكير دوماً، وهذه هو اتجاهى.

تحويل العدو المهزوم إلى حارس وصديق، ونصب تماثيل ولافتات له - بشرط أن يكون قد مات.

أنا مضطرب، يا ماريا ديل روساريو. تنتهك قوتك قانون العدالة السياسية. على عشماوى فى السياسة أن يكون خفياً. لقد انتهكتِ، بسبب عاطفتك الأنثوية والأمومية، قوانينك الخاصة.

لوى تاثيتو ذراعينا. أرغمنا على كشف لعبتنا، واستنكار ألاعيبه فى لجنة (ميكسين). علينا أن نفكر فى فرصة هجومنا أكثر من أى وقت مضى. يعرف تاثيتو أننا نعرف لأنك، صديقتى عديمة الصبر، جعلتيه يعرف، بدون أن تقدرى العواقب. لحست عسل النصر قبل الآوان. خطأ بدائى. وجاوب تاثيتو بمهارة على قاعدتنا الخاصة:

فى السياسة لا تعلن أبداً، وإنما افعل.

هل تعرفين، يا امرأتى، أنى رجل يحمل منصة قضاة داخل رأسه. يكون القاضى نحن أحياناً وهم أحياناً أخرى. واليوم يقرر هذا القاضى مصيرنا والآن القاضى هو أنا وأنت والذى يقول لى:

ائتمنت هذه السيدة على سر يعتمد عليه هزيمة خصمى ونجاحى الشخصى. وإن كشفته امرأتى، سيأمرنا خصمى بإدانتنا نحن الاثنين.

وهذا ما فعله عن طريق الصحافة، كاشفاً عن وجود ابننا المعوق. لخصى الأمر وحاولى فهمه، أنا الذى على وشك الترشح للرئاسة، وأنتِ محترفة السياسة الأكثر شهرة فى البلد، اقتصرنا على كوننا والدين لا رحمة لديهما، وملطخى السمعة وبدون مشاعر، وحشين قاسيين..

تنفسى فى سلام، يا ماريا ديل روساريو.

اتصل الرئيس بنفسه بالخمسة أو الستة الكبار فى مجال الإعلام وقال لهم:

ـ لم تخطئوا. هذا الابن ولدى. وهو ثمرة علاقة قديمة مع السيدة جالبان. انظروا فى المرآة وقولوا إن لم يكن لدى واحد منكم سر حب فى ماضيه. أنكروا الخبر. لم أطلب منك معروفاً شخصياً من قبل. وإن فعلتم هذه المرة، فهذا لأنه يخص سيدة. كما يخص أيضاً منصبى نفسه.

– لكن يا سيدى الرئيس، إن كان من سرب الخبر هو مدير مكتبك، المحامى دى لاكانال.

– مدير مكتبى السابق. استقال دى لاكانال مساء اليوم من منصبه.

– ياه سيدى الرئيس، فقد استقال وزير الداخلية بيرنال إيريرا للتو من منصبه.

– نعم، أيها السادة. ترك تاثيتو دى لاكانال وبيرنال إيريرا مهامهما الرسمية للانغماس بكل وقتهما وجهدهما فى حملتهما كمرشحين للرئاسة. وأنا أشكر الاثنين على خدماتهما العظيمة التى قدماها للبلد ولى شخصياً. أعتقد أن هذا الخبر أكثر أهمية من الغوص فى حياتى الشخصية.

– لك سيدى الرئيس كل الحق.

– وأكرر أرغب فى الاعتراف بتقدير وكفاءة معاونىّ الاثنين اللذين

تركا منصبهما وأنهما كانا أهلاً للثقة وأثبتا لى ولاءهما فى كل لحظة. فهذا هو خبر الساعة.

- اعتمد على فطنتنا المطلقة. لقد مات الخبر.

- شكرًا، أيها السادة.

ولذا تصرفى بكل برود، يا ماريا ديل روساريو. واعرفى من رئيسنا وترقبى بدء حملة تاثيتو لإذاعة الفضيحة. استريحى عدة لحظات وتذكرى اليوم الذى اخترنا فيه إخفاء الطفل:

لا. إن اعترفت بمصائبى سوف أفتقد الاحترام. وربما أفقد الحب.

وأنا جاوبتك.

لا تعاقبين نفسك على سعادتك. وتذكرى أننا اليوم فى هذه المكانة لأننا لم ندع مشاعرنا تتحكم فينا.

ملحوظة: سوف يسلم لكِ هذا الشريط الشاب خيسوس ريكاردو ماجون بنفسه. دخل المكتب كمعاون لمدلك نائب الوزير نيكولاس بالديبيا، الذى منحه ثقته الكاملة. وبمجرد أن تسمعى الشريط، دمريه، كما أثق أنك دمرتى كل مراسلاتنا السابقة عير الأشرطة، يا ماريا ديل روساريو، لا تجعلينى أشك فيكِ كبدايتنا.

ملحوظة: لقد انتهيت من غدائى فى المكتب مع رئيس تحرير "إن كونترا" رينالدو رانجيل. اعتقدت أن الرئيس قد استدعى شخصياً كبار الصحافة والتليفزيون. وقال لى رانجيل إن الاجتماع كان غريباً للغاية. استخدمت خلاله باب (أو ستار) كوسيلة للاتصال. لم يدع الرئيس الحضور يرونه. دار الحديث من خلال ستار مقفولة، ولكن بما أن الجميع يعرف صوت لورينثيو تيران وكان الحوار مرسلاً ، لم يرتاب أحد فى أن المتحدث هو الرئيس. وعلى أية حال (وحتى فى حالة الشك) كان من المناسب للجميع الاستجابة للمطلب الرئاسى... ولكن ثمة لغزًا. أكرر لكِ،

دمـرى الـشـريط. وأكـرر لكِ، تـذكـرى من أنتِ، ومن نـحن. ولا تـدعى هـرموناتك تتحكم فيكِ، ولا تخونى قواعدك الخاصة (بصورة غير مباشرة). وليتحكم البرود فى غضبك.

ـ ٤٣ ـ

النائب أونيسيمو كانابال
إلى النائبة باولينا تارديجرادا

صديقتى المميزة والمخلصة، الآن تعرفين ما هى طريقة ما حدث. أعتقد أنها تسمى علمياً "محاكاة" وهى مثل السحالى، والتى تغير لونها لتندمج فى المشهد ولا تُرى. أو تتخذ لون الحجر إن كانت فوقه أو لون قشرة الشجر إن كانت فوقها. لأنى، يا حبيبتى باولينا، فى مفترق الطرق. طرق غير ممهدة ولا مأهولة، موحلة تماماً، أو كما يقال بئر الوساخة.

لن أحكى ما تعرفينه سلفاً. أو الأفضل أن أكرره لكى تصبح الصورة أمامك كاملةً أو كما يقول المديرون" بالحرف الواحد".

الأحزاب متشرذمة. حزب الرئيس نفسه "العمل الوطنى" انقسم إلى جناح يمينى متطرف ودينى، ووسط ديمقراطى و يسارى ناقد يؤمن بنظرية التحرير. وانقسم الحزب الثورى المؤسسى إلى ثمانية أحزاب. الديناصورات التى لا تفعل سوى العجز فى المتحف السياسى الوطنى. التكنوقراطيون الليبراليون الجدد الذين يحافظون على لهب إلهة الاقتصاد الهائل مشتعلة. والوطنيون الذين يرون فى مطالب سيادة البلاد السبب فى أن تكون عضواً فى الحزب الثورى المؤسسى . والشعبويون الذين يوعدون بكل شىء ولا ينفذون شيئاً. إلى جانب الطوائف الزراعية والنقابات والبيروقراطية التابعة للتعاونيات الكاردينية(*) المتهالكة.

(*) نسبة إلى الرئيس المكسيكى لإثارو كارديناس ديل ريو (١٩٣٤ ـ ١٩٤٠) أول من طبق الإصلاح الزراعى فى المكسيك (المترجمة).

ركزى فقط. بدلاً من السحق من ما يسمى الحزب الثورى المؤسسى الذى لا يقهر، الآن ثمة ثمانية أحزاب صغيرة تنشد الوحدة الضائعة.

واليسار والخضر الذين يحملون لون الدولار، والاشتراكيون الديمقراطيون الذين يتبعون النموذج الأوروبى، والكاردياليون الجدد الذين يرغبون فى العودة إلى عام ١٩٣٨والماركسيون اللينينيون والماركسيون التروتسكيون، إلى جانب من يطلبون قراءة كتابات الشاب ماركس لإعلان أن "الماركسية هى الإنسانية".

ولا أنسى جماعات سكان البلاد الأصليين من الهنود الحمر ولا المجهولين من ناحيتى: الفوضوية والسيناركية.

وأنت تعرفين طريقتى فى إدارة هذا السيرك فى الكونجرس بأن أتخفى وأتصنع هيئة الأبله وأدور بينهم. وألا يعيرنى أحد انتباهه.

أنا أحفظ عن ظهر قلب خطة الرئيس ووزير المالية آنديتو آلماثان. فى بادئ الأمر يقدمان الإجراءات التى يثقان أن الكونجرس سوف يرفضها قطعاً؛ لأنها تمس الشعور العام أو القومى ويمكن أن تدان باعتبارها قوانين ليبرالية جديدة، أو يمينية أو مناهضة للقومية: مثل الضرائب على الأدوية والأطعمة والخصخصة وضرائب الكتب... لكى لا يبدوا كقطيع من الكسالى (كنت أستخدم لفظًا آخر لو لم تكونى امرأة) ويصدق الكونجرس بإرادته على هذه القوانين التى لم تقدمها الحكومة كى لا تغضب الأثرياء. أو ضرائب متزايدة أو ضرائب على إيجار العقارات وعلى الأرباح. هل تعرفين ما المصدر الحقيقى لدخل الحكومة، ليست الضرائب المفروضة على كتب إيزابيل آلليندى- التى تقرئينها بشراهة.

وهكذا نتحكم أنا وأنتِ فى الكونجرس العصى على السيطرة. وتحولت إلى قاعدة وأنت حليفتى بامتياز لأنك امرأة، ولأنك متقشفة بدرجة مبالغة (اعذرينى، فأنت تفضلين أن تخرجى وأنت مرتدية كالراهبات، وأنا لا أنقدك فى هذا) ولأنك من إيدلاجو، الولاية الخيالية لأنه لا أحد يذكر أنها موجودة.

والآن، يا سيدتى الزاهدة والخيالية، أحتاجك أكثر من أى وقت مضى لتنظيم الفوضى التشريعية ولمواجهة الضغوط الجاثمة فوقنا.

أولها تهديد القيام بثورة مسلحة . بحوزتى مؤشرات كافية (ولا تسألينى أكثر، دعينى أتخيل) بأن ثيثيرو آروثا يبحث مزعجاً عن السلطات الرسمية وحكام الولايات والجنرال بون بيلتران نفسه، أو كما يلفظ اسمه لأنى لا أعرف كيفية كتابته إن لم يكن مكتوباً أمامى وأنا غير بارع فى اللغات الأجنبية. وأقول لكِ، يا باولينا، أن آروثا يرغب فى إعلان أن الرئيس لورينثيو غير مؤهل "لسبب خطير" كما تنص الفقرة ٨٦ بالدستور. وبما أن غالبية الكونجرس يحكمون على الرئيس تيران بأنه غير مؤهل، فقد يثمر هذا الإجراء. ولا يبقى ساعتها إلا أن يقرر الكونجرس من سيتولى منصب الرئيس البديل لاستكمال فترة الستة أعوام الخاصة بتيران.

ليس عندى فكرة عمن فى ذهن ثيثيرو وحلفائه؟ تخيلى، يا باولينا، أن حكام الولايات والسيد وزير الدفاع باسمه الصعب الألمانى العصى على النطق فى الحقيقة يرافقان الجنرال آروثا فى محاولته لعمل انقلاب عسكرى، حيث يقتصر هدفه على ذلك.

وآخر يهمس لى فى مؤخرة قفاى الرئيس السابق ثيسار ليون، وهو رجل مخادع. كما أنه يناور كى يعلن الكونجرس الرئيس تيران غير مؤهل، ولكنه يتكتم عمن يجب أن يحل محله مؤقتاً، ويختتم فترة رئاسته ويدعو إلى انتخابات تمهيدية لتعديل الفقرة ٨٢ لإقرار الموافقة على إعادة انتخاب الرئيس قبل انتخابات ٢٠٢٤ أو ربما إعادة انتخاب ثيسار ليون نفسه.

احذرى، يا باولينا، فإن الرئيس السابق هو كلب ماكر يعرف كل شىء ويدفعه طموح بلا رحمة. حاولى أن تعرفى شيئاً، إن سمح بذلك، من الرئيس الأسبق العجوز الذى يعيش على لعب الدومينو فى مقهى الميناء. لا تحاولى أبداً، إغراء ثيسار ليون، لأنه لا يدع نفسه ينخدع سوى بفظاعات

الوهم، بالرغم من أنه مهتاج دوماً حتى أنك قد تبدين له ملكة جمال ولاية إيدالجو. مع كل احترامى، يا باولينا.

والآن نعود للعجوز المقيم فى بيراكروث، كان أقصى ما أخرجته منه حتى يومنا، ولكنى أكثر عناداً من البغل (صارماً مع أعدائى و محافظًا على أصدقائى) هو،

يقول العجوز: هناك رئيس شرعى فى المكسيك.

- بالطبع، لورينثيو تيران، أجاوبه.

- لا، واحد غيره، فى حال تنحى تيران أو موته.

- يتنحى، يموت؟ عما تتحدث، يا سيدى الرئيس السابق.

- أكلمك عن الشرعية اللعينة، يا سيدى النائب.

-إلى متى؟

-حتى الآن، وليس أكثر من هذا، يا أونيسيمو.

تعرفين أن العجوز خليط من المومياء وأبى الهول. حتى أنه بما أنى لا أستخرج منه سوى ألغاز، أستشير بوجه قديس برىء بعض وزراء الدولة ويؤكدون لى الشىء نفسه، إلى جانب صعوباتهم.

يقول لى إيريرا وزير الداخلية: الدستور صريح. فى حال غيابه خلال الأربعة أعوام الأخيرة ـ كما هى الحالة هنا- يعين الكونجرس رئيساً بديلاً يُنهى الفترة ويدعو إلى انتخابات. هذا هو القانون وهو أوضح من الماء.

يعلق لى تاثيتو دى لاكانال: هل من الممكن تغيير الدستور واستحداث منصب نائب الرئيس. ولكن هذا يتطلب موافقة ثلثى نواب الكونجرس الحاضرين وموافقة غالبية المحاكم التشريعية فى الدولة. كم يستغرق هذا كله.

يحك صلعته ويرد علة نفسه.

عاما، اثنين، ثلاثة. أمر لا يذكر بالنسبة للوضع الحالى.

يسألنى سفير الولايات المتحدة، كوتون ماديسون: لما ليس لديكم نائب رئيس مثلما يحدث عندنا؟

كما رأيت، لما قتلوا كينيدى، تولى جونسون؛ لما تنحى نيكسون، صعد فورد. لا مشكلة.

أحاول أن أشرح له أنه خلال القرن التاسع عشر، حين كان لدينا نواب للرئيس، تكرس أشباه الرجال هؤلاء إلى تقويض وهدم الرئيس الموجود، بدءاً من تمرد نيكولاس برابو على جوادالوبى بيكتوريا فى ١٨٧٢ و سانتا آنا "قائد ثيمبوآالا الخالد" كما يقول نشيدنا الوطنى، الذى انقلب على نائبه للرئيس، باليتنين جوميث فارياس، بالرغم من أن سانت آنا الوغد كان قادراً على شن انقلاب بنفسه، مثل مقلده الشؤم هوجو شافيز منذ عشرين عاماً.

باستطاعتى عمل قائمة لنواب الرؤساء الخائنين. آناستاسيو بوستامينتى على بيسنتى جيريرو، تحوى القائمة جنرالات فضلوا الاستيلاء على السلطة عن الدفاع عن البلد ضد المحتل الأجنبى، كما حدث مع الخائن باريديس آريياجا خلال الحرب مع الأمريكان. حكاية مخزية، ولكن يجب أخذها فى الاعتبار، يا صديقتى الفطنة، لكى نجمع كافة الأوراق فى أيدينا ولكى لا يهاجمونا أثناء نومنا فى القيلولة، كما فعل الأمريكان مع سانتا آنا نفسه فى معركة سان خاثينتو، وأدت إلى خسارتنا تكساس.

ما ينقصنا هو التعرف على آراء حكام الولايات مثل كابيثاس فى سونورا و ديلجادو فى كاليفورنيا السفلى، ومالدونادو فى سان لويس وبيداليس القهار فى تاباسكو. ولكنهم سيحكون لك الأكاذيب.

مشكلتنا هى بناء المصانع ، وليس نسج المؤامرات. سيقول لك كابيثاس

يكفينا مشكلة المياه فى ريو كالورادو وأنشطة المخدرات فى تيخوانا- يقول لك ديلجادو فى كاليفورنيا السفلى.

لا يعنينى هنا سوى حماية الاستثمارات الأجنبية- مالدونادو فى سان لويس بوتوسى.

هنا لا يرتفع سوى صوت خنازيرى- بيداليس فى تاباسكو.

يقولون ويعيدون... أكاذيب، ليس إلا. ولكنهم لن يحاولوا (مع اعتذارى) إغراءك. ونحن سنقوم بفهم هذه الأكاذيب بالمقلوب لنصل إلى الحقيقة. ولكن يكون هناك مجال للإغراء، أولاً لأنك توحين بالاحترام الزائد أكثر من بطلة الاستقلال دونسا خوسيفا أورتيث دومينجيث، وثانيًا، (أكرر) لأنك من إيدالجو، ولا تظهر هذه الولاية على الرادار السياسى فى المكسيك.

أطلعينى على المستجدات، يا حبيبتى وصديقتى المحترمة.

ـ ٤٤ ـ

نيكولاس بالديبيا

إلى ماريا ديل روساريو جالبان

أعود لأنك طلبت منى ذلك. أعود إلى بيراكروث. أعود إلى الميدان المركزى فى الميناء. وإلى مقهى باروكيا. أعود للقاء العجوز.

الظاهرة الشهيرة أنك رأيت المشهد من قبل. الببغاء على كتف العجوز. ولكن العجوز هذه المرة بدون "البابيون". وصداريه. ذات لون موجع ورطب وخانق، تحت مظلته لحمايته من السحب السوداء التى تنبئ بعاصفة لا تتفجر كى تنظف الكآبة البائسة لهذه المدينة الاستوائية. ولكن العجوز لا يزال هناك، بفنجان القهوة قبالته وقطع الدومينو التى يرسم بها شكلاً متناسقاً لدرع عاجى على المائدة.

أعتقد أنه كان نائم القيلولة. ولكنى أخطأت. بمجرد أن وقفت أمامه، فتح عيناً. عين واحدة حمراء. والأخرى ظلت مغلقة. بينما صرخ الببغاء:

انتخابات فعالة!

لا لإعادة الانتخاب!

فتح العجوز عينه الأخرى ونظر إلىَّ بكآبة. لم يخف طريقته فى النظر إلىَّ. لم يدر إخفاءها. كان يرغب أن أعرف أنه يعرف. كان يرغب أن يعرف أنى لست أول من زاره فى شهر يناير. كان يرغب أن أعرف أنه يعرف أنى نائب الوزير المسئول عن مكتب وزير الداخلية، وبعد استقالة بيرنال إيريرا،

المرشح للرئاسة. كان يرغب أن أعرف أنى الآن أضحيت رئيساً لسياسة البلد الداخلية.

ومع ذلك، أعود للقاء شخصية تتصرف كما لو أن شيئاً لم يحدث فى المكسيك منذ عام ١٩٥٠ يتصرف ويتكلم، كما لو أننا نعيش فى الماضى. وكما لو أن لهيب الثورة لم ينطفئ. وكما لو أن بانشو بيبيا لم ينزل بعد من حصانه. وكما لو أن كل الجنرالات أصبحوا يركبون الكاديلاك. أو كما لو (كما كان يقال منذ نصف قرن) أن الثورة المكسيكية لم تندلع فى لاس لوماس دى تشابولتيك.

لم أتاخر فى اكتشاف أن العجوز يشعر بشبابى السياسى ـ وزير الداخلية فى الخامسة والثلاثين من عمره ـ ولكنه ود أن يحذرنى بجاتوباردية(*) بيراكروثية بألا أتوهم تغييرات جذرية، وتحولات للتحديث وأى شىء من هذا القبيل. هناك مركب كيميائى دائم، صخرة أم، لا فى السياسة المكسيكية وحدها وإنما فى السياسة القصيرة الأجل.

لأى دافع (تحالف فرانكفونى سرى مع سيادتك، أو باستلهام العالم الذى تشاركنا فيه دراستنا أو باستخدام لغة غير مطروقة تسمح لنا باتصالات غامضة؟) لذا استخدم تركيبات لغوية فرنسية والتى لا شك لن تكون أكثر غموضاً من التعبيرات الجذرية المحلية لعجوز المقهى.

أي أنه بهذه الطريقة سينتهى التحول نحو الديمقراطية الذى يصيحون به؟، يقول لى بدون أن يحرك أية عضلة فى وجهه الذى يشبه المومياء.

بأية طريقة، يا سيدى الرئيس؟

آه، تكسرت الابتسامة على وجهه كقناع رملى. نسيت أن تعليمك فرنسى. سيدى الرئيس، "مسيو بريزيدان".

(*) مصطلح سياسى يعود إلى رواية بعنوان جاتوباردوا للإيطالى جويسبى توماسو دى لامبيدوسا ويعنى تغيير كل شىء كى لا يتغير شىء (المترجمة).

توقف ليتناول رشفة من قهوته.

تخيل أنى أحياناً، كى لا أتوقف عن تعليم نفسى لأن التعليم- كما يقولون- لا ينتهى، أجلس وألعب الدومينو فى هذا الميدان مع مثقفين مكسيكيين تلقوا تعليمهم فى ألمانيا. هنا يأتى لرؤيتى دون تشيما بيريث جاى، على سبيل المثال. وأقول له دوماً:

- حدثنى بالألمانية، بالرغم أنى لا أعرف منها حرفًا واحداً. تستهوينى الأحرف التى تنطق من الحلق. لها طابع سلطوى. كما تجعلنى أشعر بأنى فيلسوف

وفى آخر مرة كان بيريث جاى هنا قال ما يلى:

عندما فتح دستور فايمار الطريق نحو الديمقراطية للمرة الأولى فى ألمانيا عام ١٩١٩عقب قرون من الاستبداد، وقف الألمان على العتبة، بجفونهم الخالية من الشعر، كفلاحين مدعوين إلى القصر....

ألا تظنى، يا سيدتى، أن العجوز كان يستخدم المحاكاة فى كلماته. حافظ على نظرته المعتمة والنافذة.

اسمح لى أن أقول إن الشىء نفسه حدث معنا فى المكسيك. لقد عشنا بأعيننا الخالية من الشعر، لا نعرف ماذا نفعل بالديمقراطية. من أيام الأزتيكيين إلى الحزب الثورى المؤسسى ، ولم نلعب بهذه الكرة قط.

من قبل، أود أن أقول أيام سيادتك، كانت الأمور تجرى بصورة أفضل؟

كان الناس يشعرون بالهدوء أكثر. وكانت ثمة قواعد معروفة للجميع. وكان كل شىء متوقعاً. وحرم الشعب من مشقة اتخاذ القرارات التى تخصه وغير الموثوق فى صحتها. اخترعت نظام "الظرف المغلق"، كان يكفى، مثلاً أن يتلقى حاكم أو نائب أو رئيس بلدية هذا الخطاب الذى يحوى تعليمات موقعة منى، ليفعل ما أقول.

توقف وبدا أنه يستعد كقرصان للهجوم على سفينة لا إنديا المحملة بالذهب الإسبانى.

يقترحون ترشيح فلان. وكان الباقى بالنسبة لنا تفاصيل تافهة. يحظى المرشح الذى أوصى به فى الظرف المغلق بدعم عام. من شيخ القبيلة الذى لا يقهر. ومن الحاكم المتمرد. ومن النائب المستقل المتغطرس.

لعق أسنانه غير المتساوية.

ثم يتم القضاء عليهم وإقصاؤهم للأبد من السياسة. وإن تجرأ أحد على معارضتى أذكره " لقد استمتعت كثيرًا فى قاعات القصر. والآن ابحث عن الحفرة التى خرجت منها. أنصحك من أجل صحتك".

هل من الجائز إطلاق هذه التهديدات المفزعة بكل هذه الطيبة؟ من الواضح أنه لدى العجوز فإن الهدوء واليد من حديد يتماشيان معاً. درس تعلمته، يا ماريا ديل روساريو.

عدل العجوز طاقم أسنانه المستعار.

أظرف مغلقة، صناديق اقتراع ممتلئة سلفاً، وكل الوسائل الكيميائية للفوز مقدماً فى الانتخابات بأصوات مضاعفة أو ثلاثة أضعاف أى أصوات أكثر للحزب الثورى المؤسسى من أعداد الناخبين فى القوائم، خلاف الناخبين، الذين نستحضرهم من المقابر وخلاف سرقة الصناديق الانتخابية وتدمير الصناديق المعادية. هل فهمت الحال. ولكن كل شىء، يا سيد بالديبيا، كان تحت السيادة المتحكمة للرئيس الموجود فى السلطة من كرسى النسر لخليفته المعين:

ـ ستصبح رئيساً.

صرخ الببغاء: أعارض الحفاظ على القوانين.... قاطع المحادثة كى يلتفت إليه العجوز بعطف (الببغاء متعدد الألوان، الأخضر، والأصفر، والأحمر، والأزرق) الواقف على كتف القرصان السياسى.

قال العجوز بوقار: قوانين الجمهورية.

كتبتها؟

لا تكتبها، أيها الوزير بالديبيا. فكر في كيف كانت الأمور مريحة. كانت القواعد غير المكتوبة للاستبداد واضحة. يكفي أن تشعر بضوضاء عدم التيقن الحالي. كيف لا أشعر بحنين إلى الماضي الهادئ لدكتاتوريتنا الناعمة؟

قاطع نفسه، ملتقطاً احتمالية منحى الكلمة بسبابته المشهورة بصرامة نحوى.

رذائلنا هي فضائل في الواقع. مع ذلك، فلنقل، إني خضعت للتغيير. عرفت دوماً أن النظام في طريقه للانتهاء في يوم ما، ولكن يظل السؤال بلا جواب. ماذا سيحل محله؟

قلت بيأس: كانت الأوقات الماضية أفضل.

نعم، مع أن بعض الساسة كانوا بلهاء.

إذًا مَن فيهم كان حكيماً؟

ليس مَن، يا صديقي، وإنما قل كيف؟

إذًا، كيف؟

كل من يقتل برغوثاً بطريقته، يا بالديبيا. إن الطموحات العالية إما أن تفشل أو يكون ثمنها غاليًا. هناك من وصلوا إلى الرئاسة معتقدين أن المكسيك تدين لهم بهذا التفضل وتركوها معتقدين أن البلد لا تستحقهم وأنهم لذلك يستحقون الرجوع إلى السلطة مرة أخرى.

هل تفكر في واحد بعينه؟

أفكر في مثالي الجدي. أنا لم أفعل شيئاً للوصول إلى كرسي النسر، وكانت تلك قوتي. وصلت بدون التزام أو عرفان لأحد.

وصلت بالتصفية؟ تجرؤت على سؤاله في منحى غير لائق للحديث.

لم يهتم للتلميح: وصلت كالمسيح، قالها بدون أن يتحرك، متجمداً بصورة مبالغة، كأيقونة. كم نبيًا أو شبه قديس لم يمش طليقاً في جوديا إلى جوار ابن العذراء؟

ولكن هذه ليست القاعدة، يا سيدى الرئيس.

اغلق فمك! كل رئيس يخلق واقعه، ولكن كما أن عدم إعادة انتخابه يجبره على الانسحاب، يتلاشى الواقع الحقيقى وتحل محله الأسطورة التاريخية.

بدا كما لو كان يتجرع مرارة. وتحولت جفونه إلى اللون الأخضر.

ماذ يحدث؟ رئيس سابق لم تعد له سلطة ولكنه محاط ببلاط من المتملقين. لم يعد عليه أن يخدع الشعب. والآن يخدعه المقربون منه. يعرضون عليه إغراء المقاومة. يسكرونه ليعتقد أنه لا مثيل له، نابليون أو دزرائيلى فى جعبة واحدة..

إلى أين تذهب بشال مانيلا...؟

بدأ الببغاء يغنى ومنحه العجوز صفعة ألقت الطائر المسكين فى الأرض.

حوت وفيل. ما حدث أن الرجل المسكين يعامل معاونيه كما كان يعامل أعداءه. لا يستحق معاونوه مجهود تدميرهم. طاقة تستهلك لا ضرورة لها.

أطلق تنهيدة لم يجرؤ الببغاء على التعليق عليها.

الأفضل أن أكون وحيداً ومحترماً، مع أنهم يعتقدون أنى مت منذ فترة.

وقفة ذات مغزى، كما يقول الإنجليز.

انظر إلى هنا وأنا أتناول القهوة وألعب الدومينو. تجنبت المصير التعس لكل الرؤساء المنتهية ولايتهم. وفررت من الدائرة القاتلة. وهل تعرف لماذا، يا بالديبيا؟ لأنى لم أصل للرئاسة معتقداً أنى أدخل السرير مع تمثالى نفسه.

ابتسم حين حط الببغاء المعاقب ثانيةً على كتفه.

أنا لا أدعى. هذه هى الحقيقة.

سيدى الرئيس، لقد اشتهرت لأنك اتخذت من الصمت درعًا لك، كنت تجاوب بلا كلام، وعملت من الإيماءات الصامتة وسيلة اتصال سياسية وجعلت من الإجابة الإيحائية فناً، ومن تحكم العيون إنجيلاً.

نظرت فى عينيه.

لا أريد أن أضيع وقتًا، يا سيدى الرئيس. أتيت لترشدنى فى المتاهة الحالية لخلافة الرئيس.

هل لمحت حناناً متلهفاً فى نظرته؟ هل يقدر اهتمامى، واحترامى وإنصاتى؟ هل هذه النظرة تقول لى:

لقد عرفت كل أنواع البؤس والكوارث. وأنا الوحيد الذى خرجت من قصر الرئاسة دون أن أفقد الأمل...لأنى لم أملكه قط؟

قال لى: لم أفقد الأمل لأنى لم أملكه قط...، بصوت جهورى يثير الفزع، كأنه صدى مرعب لفكرتى. وفى هذه اللحظة، مرت كلماته أمام عينى مثل البرق، ياماريا ديل روساريو.

ستصبح رئيساً، يا نيكولاس بالدييا.

شعرت بالغثيان، كما لو أنى على حافة جبل عال، وأرى نفسى منعكساً فى مرآة مثل عجوز المقهى. هل ينتهى بى المطاف جالساً فى مقهى فى بيراكروث، ألعب دومينو مع ببغاء ثرثار ولا يطاق على كتف صدارىّ؟

جعلنى المنظر أشعر بالبرد الشديد وسط جو خليج المكسيك الخانق، أعادنى العجوز للواقع.

هل تعتقد أنى لا أعرف منذ أول الأمر مع مَنْ ستتعامل لتصل للرئاسة؟ ويحك، يا سيد بالدييا، لا يشفى الأحدب إلا عندما يموت وفى السياسة ثمة كتائب من الحدب لن يشفوا، وحتى إن ماتوا لن تستقيم ظهورهم.

حككت ظهرى منزعجاً. لم أستطع أن أتجنب نغمة الصوت الوقورة والمعتمة والمميتة للعجوز.

واصل: بالنسبة لى، على السياسة أن يكون كالطيار اليابانى، بحوزته مسدس وبدون مظلة هبوط.

صدرت منه إشارة غير معتادة كأبطال السينما، قلدها من فيلم قديم جداً لتايرون باور.

وبين جبهة كوازيميدو(*) والكاميكاز، اخترت أن أكون الثعلب. ينسبون كل الإبداعات للمقنع.

هل تنهد؟ مسكت ذراعى المقعد بيدى. خمن العجوز وقال لى بصوت متعاطف:

لا تشعر بالملل. لم ألفظ تنهيدتى الأخيرة؟ كم مرة أعلنوا موتى!!!

سبقت وغامرت:

لم تمت بدون أن أعرف أولاً، يا سيدى الرئيس.

تعرف ماذا؟ قال الببغاء، كما لو أنه مدرب على هذا السؤال. اضطررت أن أضحك.

عن السر الذى لم يبح به.

لم يرتعد. هل كان ينتظر هذا أم لا، لم يغير سؤالى من هدوئه.

قال أخيراً: لا أحد عليه أن يعرف كل شىء، هذا مضر بالصحة.

أو بقول أفضل، لا أحد يقدر أن يعرف كل شىء؟

يا لك من نبيل، يا بالديبيا. كن حكيماً. المسألة ليست قدرة وإنما واجب.

أى أننا نقترب من ساعة الصفر. أتوسل إليك، كشاب كنته فى يوم ما، ألا ترسلنى عائداً إلى مكسيكو ويداى خاويتان.

(*) بطل رواية فيكتور هوجو: احدب نوتردام (المترجمة).

لم أكن شاباً قط، جاوبنى بغصة مرارة. كان علىَّ أن أعانى وأتعلم كثيراً قبل أن أصير رئيساً. وإن لم يحدث، كنت سأعانى وأتعلم خلال رئاستى، إنما على حساب البلد.

ونظر إلىَّ باحتقار صريح.

ماذا تظن؟

وتوقف برهة.

من الضرورى أن تخسر كثيرًا لتصبح شيئاً قبل وبعد ممارسة السلطة.

ولكن أحيانًا من يخسر بعد كل هذه الأسرار، والمؤامرات بالقصر والطموح الشخصى، ليس صاحب السلطة، وإنما الشعب. وهذه كارثة. قلت بنغمة محترمة.

الكوارث جيدة. ثم لعق لسانه مثل قط أليس فى بلاد العجائب. تقوى عزيمة الشعب.

وأيضاً؟ ـ قلت منزعجاً.

نظر إلىَّ العجوز بخليط من الشفقة والتعاطف ونفاد الصبر.

اسمع، يعتقد الجميع أن بمقدورهم حبسى فى مقر العجائز. لا يقدرون مكرى. كنت سأصبح بلاقيمة بدون هذا المكر. تركت الكلمات الساذجة لببغائى. ولذا أنت هنا، لأنى أعرف شيئاً يرغب الجميع فى معرفته كما أنه بإمكانى أن أصبح المفتاح الرئيسى لخلافة الرئيس.

ضيق حدقتى عينيه كشيطان، يا ماريا ديل روساريو.

ـ هل تظن إنى سأخلع ملابسى لكى يلقونى فى القمامة؟ هل أنت ساذج أم ماذا؟

ـ أنا أحترمك، يا سيدى الرئيس.

ـ كما قلنا. أواصل حياتى بفم مغلق.

ـ صدقنى لن تقلل صراحتك من احترامى.

ضحك.

ـ هذا لأنى بارع، أيها الرفيق بالديبيا. أؤمن بقانون المكافأة السياسية. ما أمنحه بيد، أنتزعه باليد الأخرى. إن منحتك ما تريد، عما أحصل فى المقابل؟

تساءلت، متضايقاً ـ تعنى ماذا تتوقع منى؟

جاوب منطلقًا كالسهم: أو ممن أرسلوك إلى هنا؟

ـ حاميتى، همهمت، فور أن أدركت غبائى.

ـ توقف العجوز عن الضحك ولكنه واصل الابتسام.

ـ لا تؤمن أبدًا بما هو صعب. آمن بالممكن وحسب.

انتهزت الفرصة ـ ولكنك لا تعرض على المستحيل ولا الممكن. لا تقدم شيئاً.

عجباً، وماذا عن قولى لك إن المكسيك فى حاجة إلى أمل؟ صنع آمالاً مطلقة ووقائع نسبية؟ شحذ الخيال؟

ظننت أنك تخدعنى.

هل رأيت؟ ومع ذلك أنا أقول لك الحقيقة نفسها. وسوف أمنحك أيضاً مفتاحاً سرياً، ولكن إن رغبت فى فهمه بصدق.

تهدينى مجرد حجر صغير. أريد الصخرة بأكملها، يا سيدى الرئيس.

حجر صغير ملقى فى الماء يصنع دوائر صغيرة، وهذه الدوائر تصنع الأمواج الكبيرة.

وقفة. تنهيدة. استسلام.

وفى النهاية، جميع الأمواج سواء.

استرد فى لحظة قوته كالأمواج كما لو أن خليج المكسيك كان بأكمله موجة هائلة. وربما كان في هذه الأمسية هكذا. من النظرة الأولى،

استدعى العجوز الغزاة الذين اجتاحوا المكسيك عبر بيراكروث. وكان ما يميز هذه الحشود، هو انسحابهم، حاملين معهم جزءاً من الأرض، ربما الجزء الذى قد استهلكته الأرض نفسها، ولم تعد ترغبه أو تحتاج إليه. ماذا كانت تيارات خليج المكسيك تحمل معها؟ كل شىء، فكرت، إن سمح العجوز بهذا. ولكن هيهات، إن كانت صرامته تمنع البحر نفسه من التموج.

مزحة المؤامرة منتشرة فى المكسيك بكاملها، ولا أحد رأسه تعلو فوق الهواء الذى يتنفسه ـ قال، لأول مرة، بنبرة خيالية (خيال متناقض وغير مبرر)، وهو يشخص ببصره نحو رصيف الميناء والقلعة والبحر...

هواء ملوث، يا سيدى.

سأقول لك شيئاً ـ مستعيداً نبرته المعتادة - كى نتنفس كما نشاء ولكى نخنق المزحات ونقضى على المؤامرات، نحن فى حاجة إلى إعادة الأمل للبلد.

ثانية؟- سألت خانعاً.

أتحدث عن رمز ـ وقد اكتسب صوته نبرة سلطوية- خادع أو خاسر أو حتى فاسد، لن تفلح بلادنا إلا إن عثرت على رمز يعيد إليها آمالها.

لم نفعل شيئاً أكثر من تجديد الأمل كل ستة أعوام لكى نخسره فوراً. هل لديك مفتاح الأمل الدائم؟

الآن صمت وفكر مدة طويلة. تجنبت النظر نحوه، لحسن الأدب لا غير. أدركت أن النسور لم تعد تحلق فوق أولوا. تساءلت إن كنت قد لاحظت هذا عندما أتيت فى يناير لرؤية العجوز للمرة الأولى. كان الشعور بأن النسور لم تعد تحلق فى السماء كان تكراراً، لشىء رأيته من قبل والآن، وكما لو أن الحياة صارت حلماً، كنت آراه للمرة الأولى، كأنى حلمت به من قبل. أو كان الأمر حدث بالعكس؟ رأيته أمس لأحلم به اليوم؟

ـ هذه كانت قطة أرجلها مكسورة ـ قاطعنا الببغاء.

ـ الرمز الذى يمنحنا آمالاً جديدة.

ـ مرة أخرى؟

ـ والآن صمت. جسرت أن أتكلم نيابةً عنه.

ـ قلتها لتوك، كل ما فى المكسيك يطلب رمزاً. هل لديك؟

أكد برأسه نصف المشيبة، أضافت الخطوط العريضة فى جبهته نبلاً عظيماً على قسماته. رفع نظرته.

ألم تتساءل لماذا لم تعد تحلق النسور فوق أولوا؟

والآن حان دورى لأنفى بدون كلمات، بحركة أخرى من رأسى.

كان لدى وزير قاس وغير حكيم. أعدته إلى النظام ثانية بأن قلت له: احذر. إنهم يوجهون إليك التهم.

أية تهم؟

بأنك تتجول وتقول الحقيقة.

صمت، ياماريا ديل روساريو.

أعتقد أنى فهمت، يا ماريا ديل روساريو.

– الآن، لم يحن الوقت؟

– ما الرسالة التى أحملها إلى العاصمة؟

– عندما تعوى الذئاب، أعوى معهم.

لن يصدقوا أنك هرة.

ـ هل تود أن أحكيها لك مرة أخرى؟– همس الببغاء.

ـ شكرًا، يا سيدى الرئيس. هل هذا كل ما فى الأمر؟

ـ لا. ثمة شىء آخر. ولكنه يخصك وحدك، يا بالديبيا.

ـ أنى أصغى.

ـ معاناتى الوحيدة هى أنى أعرف كل الحكايات، ولكنى لم أعرف التاريخ كله.

شخص ينظره إلى الوراء نحو سان خوان دى أولوا.

ـ سوف أدعوك، يا صغيرى، حين تحين اللحظة.

أشعة الشمس غابت عن جفنيه المعتمين.

ـ وإلى هذا الحين، أقدم لك عنوان رواية تكتبها.

انتظرت إلى أن قال.

ـ ذو قناع الصبار.

ـ ٤٥ ـ

الجنرال ثيثيرو آروثا

إلى الجنرال موندراجون بون بيرتراب

سيدى الجنرال، إن كان هناك مَن يحترم الترتيب الطبقى، فهو أنا، خادمك المخلص ثيثيرو آروثا. اغفر لى إلحاحى. أرسل لك هذه المرة مع مساعدى الأمين "الماوسر" بصوتى المسجل لكى تسمع على الطبيعة صراحتى وانزعاجى. ثمة شىء يحدث وهذه هى فرصة الفعل لكى يحدث ما نرغب فيه سيادتك وأنا. الشىء الوحيد الذى لن نسمح به أبداً هو فراغ السلطة. ولكننا نسير نحو هذه الهوة بصورة مستقيمة. اسأل نفسك. منذ متى ونحن لم نر الرئيس فى محفل عام؟ سأخبرك، فأنا لدى القصة. منذ بداية يناير، حين تلا تقريره وتسبب فى إثارة الأمريكان. ثلاثة أشهر بدون أن نرى وجه المدعو رئيس الأمة! إن لم يكن هذا فراغ السلطة المعروف، فما نوع هذه الفجوة؟ فجوة، فجوات، كل ما فى الحياة عبارة عن فجوات، الخروج من الفجوة، أو السقوط فيها، أو التغوط بداخلها .سأكون، يا جنرالى، مخلصاً معك. إن لم نتصرف الآن، سوف يوقعون بنا. أتطلع إلى الموقف بحيرة. أدرسه بعيداً عن كونى تابعك المخلص ثيثيرو آروثا. ماذا يجرى؟ اكتشفت متأخراً، يا جنرالى، حقيقتى؟ اعذر صراحتى. أقول لك هذه الرسالة وأنا عائد من المكان الذى خرجت منه، إلى "النادى" يا سيدى الجنرال، لأنهم يتندرون علينا نحن رجال الجيش بأننا لا نكسب المعارك سوى فى السرير والنادى. هل تذكر هذا الرجل جونثالث بيدريرو من تاباسكو والذى كان يسخر منا بما يسمونها الحقيقة اللاذعة؟ ألم يقل

جونثالث أن مليون شخص توفوا أثناء الثورة المكسيكية، ولكنهم لم يموتوا فى ميدان المعركة وإنما فى النادى وهم يتبادلون الطلقات فيما بينهم؟ هذا من أجل أن تعرف من أنا، من أين أتيت، وما أنا قادر عليه. أذكرك لتتأكد من شيء واحد: يمكنك أن تحملنى مسئولية أعمال العنف. ثروتى هى الموتى. أنا لا أحتفظ بشيء، يا سيدى الجنرال، أعرف مع من تتعامل ولا تنخدع كالزوج فى أغنية... " لمن هذا المسدس، لمن هذه الساعة، لمن هذا الحصان الذى يصهل فى الحظيرة؟" .... سامحنى على صوتى. عندما أشرب، تنتابنى رغبة فى الغناء... أعرف من هو حليفك. قلت لك ذات مرة إنى مشتاق إلى العنف الحقيقى.... وليس هذه المهام كتفريق التجمعات بإطلاق الفئران والنبول من الشرفات. دعنى أقدم لك أوراق اعتمادى، لتطمئن. بما أنى أشغل منصب قائد منطقة فى عدة ولايات بالدولة، يا سيدى الجنرال، فلقد قضيت علَى المتمردين والمتذمرين بضربة عبقرية. قضيت عليهم بوضع بنذرين فى الأكواب أثناء ما سموه نصراً انتخابيًا. هكذا لم يعد لديهم ما يحتفلون به. اختفى مرشح المعارضة فى جوادالاخارا بهدوء فى حفرة المترو. حفرة رائعة، يا سيدى الجنرال. أو دعنى أقول مقابراً.... أما بالنسبة للطلبة المتمردين فقد محوتهم بحبسهم فى معمل ملىء بالأرانب المصابة. ومع الجوع، لا مكان للهو، يا سيدى الجنرال... أما متمردو تشاپياس فقد أمرت بإطلاق الرصاص عليهم فى مغسلة توكوستولا جوتييرث، لكى تلفت دماؤهم الملوثة للملاءات الانتباه أكثر... وحين رغبت يوكاتان فى الانفصال لثانى مرة عن الفيدرالية، وبدعم شعبى ورسمى، قضيت على الطبقة الإدارية بأكملها (ولا تسألنى إلى أين انتهى مصيرهم)، ثم دعوت الشعب إلى زيارة مكاتب الحكومة الخالية. لم تعد هناك ولا روح واحدة.

أمرتهم ـ اشغلوا المكاتب. اجلسوا لتعملوا، ألم تروا أن الآخرين لن يعودوا مطلقاً؟

وفى تمرد من تمردات ثوار زاباتيستا غير معلومة العدد، وهذه المرة فى جيريرو، أمرت القوات بأن ترسم الصلبان على كل منزلين من بين

ثلاثة فى شيلبانثيجو، مع لافتة مكتوب عليها " هنا توفى الجميع لمعارضتهم الجنرال ثيثيرو آروثا والحكومة".

هل تعلم، يا سيدى، هذا كله؟ ربما نعم وربما لا. لا يهم. وحيث إن الكحول يجعلنى صادقاً، عليك أن تتأكد ممن تتعامل يا سيدى، ولتعلم أنى لن أغشك، يمكنك الاعتماد علىَّ فى أعمال مثل مغسلة توكوستولا جوتييرث تلك، وأنت تحافظ على قفازيك الأبيضين، اللذين لن أسمح لمخلوق بأن يلطخهما... (صمت طويل، تبعته صرخة ماريانشى) هاى هاى هاى، هنا ثيثيرو آروثا، الجنرال القادر على تقديم قطعة الخراء على أنها كراميل لأعدائه. أعدائى؟ يالهم من أوغاد؟ (اشطب هذا، يا ماوسر، فالجنرال بومبون رجل فاضل وقد نزعجه بهذه الألفاظ... تعلم أن تميز أيها المساعد ماوسر، بين الأفظاظ من أمثالك وأمثالى وبين أناس رقيقين مثل الجنرال بومبون).

قال لى كبير أساقفة أومانتالا ذات مرة ـ اغفر لأعدائك.

قلت له بجدية ــ لا أستطيع. لم يتبق منهم أحد. قتلتهم جميعاً.

هل رأيت مجموعة صورى لمن أطلقت عليهم الرصاص، يا سيدى الجنرال؟ منها واحدة أعلقها فوق سريرى. صورة حازت على شهرة. إنها لقائد متمرد قبل لحظة من الإجهاز عليه. يرتدى قبعة رعاة بقرة. وسيجار فى فمه. واضعاً إصبعى الإبهام فى خصره. وهو يمد إحدى ساقيه. وابتسامته عريضة. يترقب الموت بابتسامة رائعة. أرغب أن أموت فى هذه الحالة، يا جنرالى، وها أنا قد أسرفت فى الشراب سأقولها لك كرفيق روحى وزميل سلاح، هكذا يرغب أن يموت ثيثيرو آروثا، أموت مبتسماً أمام فرقة من الخائنين والتافهين الأوغاد... (صمت طويل أثناء التسجيل). آه، يا سيدى الجنرال، انظر إلىّ كم هو بائس مصيرى، متى سآراه يتحسن؟ يعتمد على سيادتك. أعط الأمر وأنا أنفذه. انظر كم سهلاً. تلقى مسئولية الجرائم على الشرطة ويبقى الجيش فى منأى عن كل ذنب. أقسم لك إنه فى مقدورى تنفيذ الأوامر التى فى حدود واجبى. ليس من الغريب أنهم

يقولون عنى إنى فظ. فأنا لا أصدقاء لدى. بما فيهم أنت، يا سيدى الجنرال. أنا أطيعك. وأنت رئيسى. ولكنك لست صديقى. لا يلائمك هذا. أؤكد لك. أن تُصبح صديقى يشبه أن تصاب بمرض يهدد صحتك. . وفى المقابل، يمكنك أن تعتمد على إخلاصى ومعرفتى بالأرض التى أطأها. اعتمد على دعم من يحسبون لهم حساباً. حكام الولايات ممن يمارسون السلطة الفعلية فى غياب سلطة رئيسنا الديمقراطى الواثق من أن المجتمع يحكم نفسه بنفسه. وكيف لا. فى الأول يندلع الجحيم. لا يفهم المكسيكيون سوى الأيدى القاسية. كابيثاس فى سونورا. كينتيورو فى تاماوليباس. ديلجادو فى كاليفورنيا السفلى. مالدونادو فى سان لويس. جميعهم فاض بهم الكيل من حكومتنا البغيضة ومستعدون للانضمام إلينا... ولم أشر إلى الرجل من تاباسكو، لأنه لا يمكن معرفة رد فعله أبداً. فى يوم يمنح تأكيداته بالولاء وفى اليوم التالى يخون كلمته الممنوحة. لترى أنى لا أخفى عنك أية حقيقة، يا سيدى الجنرال. وفيما يتعلق بالمرشحين الآخرين المتراصين من أجل خلافة الرئيس، سترى كيف يظهر لهم الغول وهم يرون تقدم القوات الحية مع قوات الجيش قبالتهم ليستولوا على السلطة تحت مسمى أمن الأمة. بالنسبة للرئيس السابق ثيسار ليون أعددت له جنازة شعبية. لا، لن أقتله، لا نعلن عن الجرائم، بل نرتكبها. سأعد للمتآمر ثيسار ليون جنازة تمر من أمام نافذته فى وسط النهار. لنر إن كان يفهم التلميح أم لا. وسندع بيرنأل إيريرا يتحرك. فهو دوبلير الرئيس تيران ولا يرغب أحد فى فصل ثان من هذه المهزلة. أما تاثيتو دى لا كانال، فلا علاج له سوى أن يختفى، يا سيدى الجنرال. فهذا الحقير بحوزته أسرار تضر الجميع. والصبى، بالديبيا، الذى وصل إلى وزارة الداخلية، فهو لم يزل غضاً، ظهر شعر إبطه للتو. وسوف أتولى إدارته لمصلحته الشخصية. أما المجادلة ماريا ديل روساريو جالبان، أعددت لها مفاجأة. سأجعل هذه العاهرة تتمتع بأن يقتحم عشرون من رجالى منزلها، ويحطمون محتوياته ثم يستلقون فوقها الواحد تلو الآخر على مهل. ماذا ينقص، يا سيدى

الجنرال؟ نعم. وزير المالية. سترى سيدى أنه مرشحنا للحكومة المؤقتة - ولكنها مؤقتة فعلاً، لأنه لن يبقى سوى يومين على كرسى النسر لكى ليقدم السلطة للقوات المسلحة، أو للمجلس العسكرى، يا سيدى الجنرال، الذى تترأسه سيادتك مع تأييدى الوطنى لنعيد النظام إلى البلد، وجعل الناس تشعر بأمان، ونعيد عقوبة الإعدام، وقطع أيدى السارقين، والأعضاء الحميمية للمغتصبين، والسيقان للمهاجمين، والأعين للمختطفين، لأن القضية الأساسية، هى عدم الأمان، والجريمة، وهذه هو دافع الوطنية الشعبية التى تحركك وتحركنى، أمن الشعب، وليس الطموح الشخصى، ولذا سنحظى بتأييد كافة طوائف الشعب. رُفعت الحصانة. لا لحوادث السطو. لا للاختطاف. لا لعمليات القتل ـ ما عدا ما نراها سيادتك وأنا لا غنى عنها. النظام ثم النظام ثم النظام. ورغبتى... هى أن يكف الموت الطبيعى عن الوجود... (صوت يحتضر ويتحشرج) سيدى الجنرال، فى هذه الأوقات تدعى الحكمة سذاجة. سوسوسوس، فأنا مواطن مكسيكى نقى فبالنسبة لى كافة الليالى هى ليلة ١٥ سبتمبر. (حشرجة) لا تأخذ انطباعًا رديئاً عنى لأنى صريح. وجاوبنى. علينا التحرك سريعاً. مشينا معاً طريقاً طويلاً. وسأعتبر صمتك تحالفاً واتفاقاً. هسه، لا يدخل الذباب هذا الفم.. لا تدخل سوى التكيلا الجيدة، يا رفيقى... العذر، وسيدى الجنرال، لا تجعلنى أفكر أن سيادتك أخذت انطباعاً سيئاً عن مشروعنا. ولا تجعلنى أشعر أنى مثل الصبار، الذى لا ينظرون إليه إلا إذا طرح زهوراً... هل تعلم شيئاً، هل قتلت ذات مرة؟ بعد القتل لأول مرة، تصبح المرات بعدها أسهل.. ههههههه

ـ ٤٦ ـ

نيكولاس بالديبيا

إلى خيسوس ريكاردو ماجون

حبيبى، هذه الرسالة غير موقعة ولكنك تعلم من أرسلها ولمن تذهب. الذهاب، فعل جميل. يصرّف فى كافة الصور المتخيلة... سوف أخرج هذا المساء من الميناء وأنتظرك فى فندق موكامبو. لا تندهش. فهو كمدينة على الخليج. فندق له مائة عام من الوحدة لا يزوره سوى الأشباح من فترة ازدهاره، التى كانت فى الأربعينيات. تخيل. منذ ثمانية عقود. لديه ميزة بأنه متاهة خالصة. ندخل ونخرج بلا وجهة. تصل إلى غرفتك فى مغامرة لذيذة، إن كنت تنتظرنى هناك. حجزت غرفتين منفصلتين ولا أقوى على الانتظار الذى يفصلنى عن جسدك بلون القرفة، الشبيه بتمثال حى فى إقليم المدارس، الغض بالغابات والأزهار والسواد والشمس والمخابئ والسافانا.

لست فى حاجة أن أكرر لك أنى أحب المرأة بذات الكثافة، لأنى أرى وأرغب فيها فيما هو ليس عندى. ولكنى أحبك أنت، بدون تناقض مع طبيعتى الجنسية المزدوجة، لأنى أرى نفسى فيك. وأرى فى المرأة الآخر، وأشعر بالشغف أيضاً. وفيك أرى نفسى وتؤجج الكآبة عاطفتى. نعم، نحن رجال، نحن شباب، ولكنى هجرت الشباب قبلك وأعتقد أنه بعشقك سوف أترك فيك شبابى قبل أن أخسره. فأنت مخزن عنفوانى، يا حبيبى. أحبك كما يقول سان خوان دى لاكروث كما ينبغى أن نحب، مردداً بلا خفر كلمة الروعة.

هيا، بهذه الطريقة، عن طريق ممارسة الحب كما قلنا، لنصل إلى رؤية نفسينا فى روعتك، وأن نتماثل فى هذه الروعة، نرى بعضنا ونغوص فى روعتك، بتملكنا لروعتك ذاتها؛ حتى، إن نظر أحدنا إلى الآخر، يرى كل واحد الروعة فى الآخر، أذوب فى روعتك، وبالتالى، أراك فى روعتك، وترانى فى روعتك، وهكذا أبدو أنا أنت فى روعتك، وتبدو أنت أنا فى روعتك، وتصير روعتى روعتك، وروعتك روعتى؛ وهكذا أصير أنا أنت فى روعتك، وأنت أنا فى روعتك، لأن روعتك ذاتها تصير روعتى؛ وهكذا يرى كلا منا الآخر فى روعتك".

أنت لست مرآة نارسيس. أنت المسبح حيث نسبح عاريين نحن ـ الاثنين ـ أنت مكواتى. وأنت جرحى الرقيق. لم أحب سوى إنسان واحد فى حياتى، هو أنت.

ملحوظة: لا تغامر فى بحر موكامبو. ثمة حيتان كثيرة فى الساحل والشباك المقامة على بعد أمتار من الشاطئ مليئة بالثقوب. قد تفزعك! وتذكر أن أجمل ما فى الحيتان أنها لا تكف عن الحركة. إن توقف، يرى قاع البحر ويموت. هل يحلم الحوت أثناء الحركة؟ ياله من لغز جميل، يا حبيبى. لا تمش وحسب على الشاطئ. ليس هناك رمال. كله طين. انتظرنى بقدمين نظيفتين. وألقى بالرسالة إلى الحيتان. إن ابتلعوها، فقد تعلموا شيئاً. سيتعلمون أن يعشقوا. هل تعلم أنهم لا يتصلون جنسياً سوى مرة واحدة فى حيواتها الحزينة؟

ـ ٤٧ ـ

خابيير ثاراجوثا "سينيكا"

إلى الرئيس لورينثيو تيران

راجعت، بأسى شديد، يا سيدى الرئيس، أجندة علاقتنا وأدركت أنى كنت الذبابة التى انتقدت ثباتك. ملك جالس على عرشه بدون أن يتحرك، معتقداً أنه بهذه الصورة يحافظ على سلامة المملكة. إن حرك رأسه نحو اليسار، ينبئ بالحرب والموت. وإن حركها نحو اليمين، ينبئ بالحرية والرخاء، المنشودين بالرغم من مثاليتهما.

والآن وأنت راقد فى السرير، كما رأيتك للتو، وكما سمحت لى سيادتك أن أراك، مرهقاً، يا صديقى، الآن فقط أنت صديقى، وصديقى الحبيب، رجل صادق وأمين، رئيس مدفوع بحب شعبه، والآن وأنا أراك تحتضر أفهم بصورة أفضل أن الرئيس لا يفعل قط أو يُفعل به. هو نتاج الأمل الوطنى ـ أو الوهم الجماعى. قلت لك ذات مرة، مجد أقل، حرية أكبر.

يا له من أمر مفزع، وياالقسوة السياسة، لأنك عندما تمشى فلن تمضى سوى أيام قليلة وتفقد مجدك ونفقد نحن حريتنا! يا سيدى الرئيس، دع قرار خلافتك غير محسوم. ماذا يمكن أن نفعل لكى يكون الرئيس الجديد شبيهاً ـ بسيادتك، سياسيًا ـ ذا أخلاق مثل بيرنال إيريرا، وليس مكاراً مثل دى لاكانال؟

كم تبدو لى توصياتى الأولى لك، يا حبيبى الرئيس، فى منتهى التفاهة والكآبة والسخافة.

ـ استمتع بعد تولى الرئاسة بهذه الهبة. فشهر العسل قصير. تقل قيمة الصكوك الديمقراطية بين عشية وضحاها.

يتمثل أول شرط لممارسة السلطة، يا سيدى الرئيس، فى تجاهل مهابة المنصب.

النظام الرئاسى كالنظام الشمسى. سيادتك الشمس ووزراء الدولة هم الكواكب. ولكن لا أنت إله ولا هم ملائكة.

قلت لك وقتها: السياسة هى فن الممكن. ورسم المتوقع. وتخطيط القدر.

يالرئيسى المسكين! المتورط خلال ثلاثة أعوام فى نفعية إيريرا وعبودية تاثيتو ومثالية "سينيكا"! ماذا أقول لك الآن لو أن هذا هو أول يوم تجلس فيه على كرسى النسر؟ سوف أكرر، ليس من أجل القضاء عليها، وإنما من أجل معرفة انتهازها أو تجنبها، الخصائص الأكثر تبطناً لدكتاتوريتنا الناعمة التقليدية:

سلبية الرئيس لا يجب أن تخشى، وإنما نشاطه.

ومع سيادتك حدث العكس. أثارت سلبيتك شكوكاً أكثر من نشاطك. ربما تشعر اليوم بإغراء كبير تجاه السلطة. أن تصير القائد الذى ينظم طاقاتنا الوطنية ويخضعنا لسلبية مرضية لنظام طاعة شمولى.

ما أسهل هذا.

ما أريحه.

ولكنه الأشد خطورة. ولقد جنبتنا، سيادتك، هذا الخطر يا حبيبى، وحبيبى جداً سيدى الرئيس. قلت لى ذات يوم:

يظنون أنهم يخدعوننى بقراءتهم لى تقارير مطولة. يعتقدون أنى أعانى من الكسل، كما لو أن بعوضة تسى تسى قرصتنى. أقرأ بالليل وأعرف كل شىء. خدعتهم. وأرقد فى الليل مطمئناً.

نعم، ولكن الصورة السلبية التى تركتها سيادتك قد يساء فهمها حاليًا؛ قد يطالب الشعب برئيس فاعل؛ لأن السلطة قد تغير وجهها من يوم لآخر (فكر فى التقلبات الرئاسية فى القرن الماضى، من ماديرو إلى فوكس) لأن الشعب يتغذى على التضاد والتناقض وحتى المعارضة ذاتها.

شكراً، يا صديقى الحبيب، ويا سيدى الرئيس، لورينثيو تيران، لسماحك لى أن أدخل غرفتك وأراك راقداً، محاطاً بالممرضات، والأطباء، والمحاليل، والمسكنات. شكراً على منحك إياى فرصة رؤية حياتك كاملة.

لا أدرى إن كنا سنرى بعضنا مرة أخرى. وأعرف ألا أحد آخر سوى بعوضتك المخلصة "سينيكا"، قد سمحت له بدخول هذه القاعة حيث تنتهى السلطة للأبد.

وداعاً، يا سيدى الرئيس....

ـ ٤٨ ـ

النائبة باولينا تارديجرادا
إلى النائب أونيسيمو كانابال

يحمل هذه الرسالة إليك شخصياً خيسوس ريكاردو ماجون، شاب معاون لوزير الداخلية الجديد، نيكولاس بالديبيا. أضحك. وأنا أراك أحمر كالبنجر؛ لأنى أفشيت أسراراً إلى موظف حكومة، مهما كانت قلة شأنه. أنت وأنا، يا أونيسيمو، بإصرارنا وموهبتنا السياسية نجحنا فى تنظيم كونجرسنا المتشرذم وخلق عقبات أمام الحكومة... أنت وأنا، يا أونيسيمو، بقليل من المادة الرمادية نجحنا أن نستغل القوة المشوشة لبيروقراطية الأحزاب لجعل حياة الرئيس لورينثيو تيران لا تطاق.

طلبت منى الرصانة. ولبيت، يا أونيسيمو، بالإضافة إلى هدية. والوسيط هى الرسالة، كما كان يقال منذ نصف قرن. وأن يكون ماجون، معاون بالديبيا، هو الوسيط، فهذه هى الرسالة بالنسبة لك.

ما هذا؟. الملعب خاوٍ أمامنا لنتصرف. سوف أدخل مباشرة فى لب الموضوع. أجرى ثيثيرو آروثا قراءة خاطئة لوضع البلاد الداخلى. آروثا هو رذيلة من الماضى، عاصر العصور السحيقة. ويؤمن أنه إن ظهرت المشكلات، فإنها تقتضى أيادى حازمة وهى الأيادى التى لا يملكها سوى الجيش. أنجز مخططاً فانتازياً فى عقله: وهو حشد كافة حكام الولايات للقيام بانقلاب عسكرى ولكى يملأ (أين تعلم هذا؟) "فراغ السلطة" الذى أوجدته سلبية الرئيس لورينثيو تيران.

لقد تحدثت مع الجميع ومع كل واحد من هذه القوى المحلية والقوى الحية وسوف أطلعك قريباً عما اكتشفته. إنهم سعداء بسلبية الرئيس. وهم بها سعداء لأنها مريحة لهم. قل لى أنت لم لا يكونون سعداء بغياب السلطة المركزية وفعلهم ما يحلو لهم؟ قل لى إن كان كابيثاس فى سونورا لا يعيش سعيداً لأنه يحكم ولايته بدون تدخل السلطة المركزية، و"تشيكو" ديلجادو فى تيخوانا يتاجر فى الهجرة غير الشرعية وسلطات الهجرة الأمريكية التى تطاردهم ـ إلى أن يدفع لهم ديلجادو الرشاوى ـ باللعار، دون أونيسيمو يا روحى، كما لو أنهم أفسدوا القوات النظامية فى الولايات المتحدة! ألم تر أنى نفسى قد خجلت؟ ألم أقل لك دوماً إن الأمريكان بقادرين على مضاعفة أية رذيلة مكسيكية مع دفع الآلاف وإخفائها مع دفع الملايين؟

حسناً، اغفر لى مزحتى من حين لآخر، يا سيدى النائب، فسيادتك تعاملنى كما لو أنى راهبة... حسناً، والآن جادة مرة أخرى، قل لى إن كان روكى مالدونادو غير سعيد فى سان لويس؛ لأن المستثمرين اليابانيين يعاملونه مباشرةً، ويوقعون العقود فى معبد الجارجاليوتى الغامض التابع لحاكم الولاية جونثالو إن سانتوس المتوفى، ولأنه يجمع ثروة لم يحلم بها هذا الثورى الشجاع نفسه، بفضل اللجنة المتلاعبة التى يحملها مالدونادو معه بدون تدخلات الحكومة الفيدرالية.

قل لى إن كان سيلبيسترى باردو زعيم الزعماء يرغب فى حكومة متطفلة تهز أرجاء إمبراطوريته للمخدرات فى المكسيك. لن أقول أكثر من ذلك. هذا وحسب. ليس ثمة حاكم واحد أو مهرب مخدرات يرغب فى حكومة عسكرية يحظى فيها الجنرال ثيثيرو آروثا بنصيب الأسد ساعة تقسيم الكعكة. جنرالنا أبله أو مجنون أو وقح خالص. أخطأ فى حساباته بصورة بائسة. سيبقى لوحده فى مظاهرته.

(*) el capo di tutti capi بالإيطالية فى الأصل (المترجمة).

والآن سترى لما هو من المهم أن تعرف الحكومة هذا وأن يكون المبعوث هو المتباهى بجماله خيسوس ريكاردو ماجون، ذو الوجه الملائكى الذى لا يقاوم؟

اضحك، يا أونيسيمو، ولكن إليك الآن إشارتى المريرة. الوحيد الذى سيفلت منا لمكره وطموحه هو الرجل القوى فى تاباسكو. أومبرتو بيداليس، المدعو "ذو القبضة الحديدية". فهو يرغب نفسه فى الجلوس على كرسى النسر. ولكن بما أن الفريسة تهرب منه كل مرة، لكنه يثق أنه، آجلاً أو عاجلاً، فإن أحد أبنائه الأشرار، كما يدعوهم بلطف، سوف يجلس يوماً على كرسى النسر ويطالب بإرثه المشروع - بالنسبة له - ليصبح الرئيس.

وبالنسبة للمرشح الذى نريده أنت وأنا يا أونيسيمو، سنخبره أن يظل هادئاً وألا ينشغل ـ ولكن قليلاً أيضاً، إلا بالتاباسكى الشرير. أما الآخرون فمادام مصالحهم لم تمس، سيلبون ما نريد- وهو ألا يقوموا بإضرابات وألا يعترضوا التجارة.

وماذا أعنى بنحن، يا صديقى المميز؟ وبماذا نريد؟ حسنًا نرغب فى أن نكون عاملاً حاسماً فى اختيار خليفة الرئيس عام ٢٠٢٤ لا أكثر. أحصى الرءوس، يا أونيسيمو. على غير ما هو متوقع، فلن نحمل هم آروثا للأسباب التى شرحتها من قبل وهو أفضل نتاج للمهمة التى، لحسن الحظ، وثقت فى لإتمامها.

أما ثيسار ليون فليس لديه فرصة فورية لإعادة ترشيح نفسه. يجب أن يتغير الدستور، ويحتاج فترة أطول من صيام الأربعين نفسه. ألم أقل لك إن الأمور ستحتاج وقتاً غير معلوم؟

أمام الكونجرس ثلاث مهمات. أولها، تمرير القوانين. والأخرى، إعاقة تمريرها. ولكن أهم هذه المهام هو التأكد من أنها ستأخذ وقتاً غير معلوم، وأنها لن تحظى بحل نهائى، وأن تظل الأجندة مليئة بالقضايا المعلقة...

وإن لم يحدث، يا صديقى الحبيب، فماذا نفعل هنا أنت وأنا؟ كيف نبرر هذه الفرص المتوالية، إن لم يكن بتمديد كافة المواضيع؟

احترس. ولا تقم بتأسيس جماعة ١٥ مارس.

انظر ماذا زرعت فى، يا أونيسيمو. ليس من الصدفة أنك كنت وزيراً للزراعة فى نظام ثيسار ليون. ولكن الأفضل أن نؤسس جماعة "كاليندادا جرييجا".[١]

أواصل قائمتى. لا ترتدى قناع المعجب. لا يناسبك.

لن ينجح آندينو آلماثان ببساطة مع الشعب. أما سالبو لوبيث بورتييو، فلم يصل قط وزير للمالية إلى الرئاسة. هذا هو حال بطل المسلسلات التليفزيونية العاطفية هذا. أمضى ستة أعوام وهو يقول لا لكل من طلب منه نقوداً. أى أن مهنته كانت أنه مكروه وما يريده الناخب هو الحب، وإن كان لفترة ثم يتلاشى بعدها.

يتبقى بعدئذ مرشحان جادان. بيرنال إيريرا وتاثيتو دى لاكانال.

ولا تفزع إن قلت لك:

اقضِ على تاثيتو.

فعل نيكولاس بالديبيا خيراً عندما أرسل لى، عن طريق الشاب ماجون، النسخ التى تثبت سلوك تاثيتو الإجرامى فى لجنة "ميكسين". كيف فلت منه موظف ماكر مثل رجل الأرشيف الذى كان يحفظ كل هذه الأدلة المشينة، لا أعرف حتى الآن. أما ماجون، ابن موظف الأرشيف، يقول إن والده لا يسمح أبداً بتدمير أية ورقة. ربما. ولكن لماذا سمح تاثيتو أن تصل هذه الوثائق إلى موظف الأرشيف بدلاً من آلة تمزيق الأوراق؟ يطرأ لى أحياناً أن أسبر هذه الأنفاق الموحلة لغطرسة السلطة[٢] يا أونيسيمو (هذه الكلمة قد شرحتها لك مرتين ولن أكرر معناها)، والتى دفعت الرئيس

(١) Las Calendad griegas باللاتينية فى الأصل (المترجمة).

(٢) Hubris باليونانية فى الأصل (المترجمة).

نيكسون ـ على سبيل المثال، بالاحتفاظ بدافع الغيرة بكافة الأشرطة التى تصوره كمجرم فظ حتى أنه طرد فى النهاية من البيت الأبيض... على أى مستوى، يا أونيسيمو، سوف تعثر على حكام يحتفظون بأفلام عن مذابحهم، وقادة فى الجيش أمروا بتصوير عمليات الإبادة بالرصاص التى أمروا بها، ومعذبون يتلهون بمشاهدة أشرطة جرائمهم الوحشية... ولكان تاثيتو أكثر رقة وحكمة، إن حال دون بقاء هذه الوثائق فى تاريخه؟ لا أعتقد. ولنعود إلى خير مثال، نيكسون، كان لديه أرشيف منفصل(*). "ملفات البيت الأبيض" حيث تقبع الشهادات عن وقاحتهم وجرائمهم، ولكنه جاهز لإخراجه فوراً من البيت إن خسر الانتخابات.

ولكن مع تاثيتو، ثمة هرة محبوسة. فلقد نسخ بنفسه الوثائق. ومن السهل تزييف النسخ. وأتساءل، من سلم الوثائق إلى موظف الأرشيف دون كاستولو ماجون؟ لا أظن أنه دى لا كانال. وإن استنتجنا أنه قال له:

دون كاستولو. لا تحفظ هذه الوثائق.

نكون قد حللنا اللغز.

أكرر عليك. اقض على تاثيتو، ولدى ماريا ديل ورساريو أصول هذه الوثائق المدينة، وتشارك وليدها نيكولاس بالديبيا، التى رفعته، السر، وتشاركه مع بيرنال إيريرا ولاشك، عشيقها السابق والمرشح لكرسى النسر.

وأكرر عليك أن نيكولاس بالديبيا فعل خيرًا حين أرسل لى، عن طريق الشاب ماجون، النسخ التى تثبت نشاط تاثيتو الإجرامى فى لجنة "ميكسين". وأكرر، كيف فلت منه موظف داهية يحتفظ بمثل هذه الأدلة المشينة؟ لا أعرف. ولكن عند قراءتها، أفهم لم عجّل الرئيس تيران فى إقالة تاثيتو.

وإقالة إيريرا أيضاً. ويظل هذا الأخير المدلل المعروف. أطلعنى ماجون على أن المؤامرة التى حاكها تاثيتو ضد إيريرا وماريا ديل روساريو أجهضها الرئيس بنفسه، مما يشير عرضاً على أنه المفضل لديه.

(*) The whito house Files بالإنجليزية فى الأصل (المترجمة).

هذه هى الصورة المرئية. والآن حسناً، يا أونيسيمو، تحوى الصورة الحقيقية كل هذه الاحتمالات، وإنما لن يكون الموضوع الخفى، كما اعتقدنا جميعاً، قضية "مرشح الرئاسة"، وإنما قضية "الرئيس المؤقت" فى حال تنحى أو غياب الرئيس الحالى.

أتخيل وجهك. اخفِ دهشتك. ولا تصدق مكائد ثيسار ليون أو تهديدات ثيثيرو آروثا من أجل تنحى الرئيس. هنا أمر آخر. ثمة هرة حبيسة. أخبرنى ماجون الشاب، وهو موظف يحظى بثقة وزير الداخلية بالديبيا على أنه (بالديبيا) قال لماجون إن "سينيكا" وهو المفضل لدى الرئيس، قد نجح أن يرى الرئيس فى حالة من الضعف الجسدى المؤثر.

كيف عرف بالديبيا؟ لأن سينيكا حكى لماريا ديل روساريو، التى يحبها فى السر، وهى حكته لبالديبيا، الذى ترعاه إيفا بيرون هذه التى هى السيدة ماريا ديل روساريو. وهأنت ترى، يا أونيسيمو. الكل يتجسسون فيما بينهم، ويختلسون الوثائق من بعضهم البعض وأعتقد أنهم يتجسسون حتى على أنفسهم فى الخفاء.

ولذا نتأكد أن الأسرار فى السياسة مفضوحة وأن الفضائح هى الأسرار. فكر فى لغز فى كل ما تعرفه، يا أونيسيمو، وانس الأسرار: فهى أوعية فارغة. وهى تلاهى.

الأفضل أن ندور ـ لمرات كثيرة ـ كل ما نعرفه.

فهنا يكمن اللغز.

ـ ٤٩ ـ

ماريا ديل روساريو جالبان

إلى بيرنال إيريرا

مات الرئيس لورينثيو تيران. كما لو أننا فقدنا أباً طيباً، يا بيرنال. لقد عشت منذ شبابى مع الصورة البغيضة لأبى المستبد الفاسد. وأحياناً ما يسيطر على كوابيسى. استيقظ صارخةً.

اغرب عن وجهى! اختفى! فأنت أكثر فظاعة وأنت ميت منك وأنت حى.

حين مات فرانكو، لم يكف خوان جويتيسولو المناهض لفرانكو طوال حياته (والذى يبلغ اليوم تسعة وثمانين عاماً ويعيش بلا وجهة معينة فى كستبان مدينة مراكش) من ترتيل صلاة المتوفى على زوج الأب الذى حكم الإسبان طوال أربعين عاماً.

وعلى النقيض، فإن لورينثيو تيران كان راعياً طيباً. وربما طيباً أكثر من اللازم. أدعوه "أباً" ولكنه كان ابننا فى الحقيقة، أنت وأنا، يا بيرنال. نحن صنعناه. أقنعناه أن يهجر أعماله فى كواأويلا وأن يترشح كرئيس للمجتمع المدنى إزاء كارثة بيروقراطية أحزابنا، والتى لا ينجو منها ولا حزب سياسى واحد فى المكسيك، كما لو أنهم ثمانية أطفال أشقياء محبوسون فى الغرفة نفسها ومصابون بالحصباء.

وعلى النقيض، فإن لورينثيو تيران، نظيف، بلا وعود، رجل أعمال.. ومع ذلك اتخذنا قرارنا. فلن نناور. سنتخلص له ونحترم تنصيبه وحكمه.

سنخدمه. ونشير عليه. ولن نعامله كدمية ماريونيت. هل فعلنا شراً؟ هل وجب علينا أن نمارس عليه ضغوطاً أشد صرامة؟ كان علينا أن نصير أكثر من مستشارين ـ كحالتى ـ أو منفذين مخلصين ـ كحالتك؟ هل أدرك الرئيس أن كافة أفعال السلطة يرجع فيها الفضل إليك: الإضرابات، الطلبة، الفلاحون؟ كنت أنت من يتصرف. قدمتها كأمور واقعة للرئيس. لأن لورينثيو تيران، ذا البأس فى حملته، قرر أن يصير نوعاً من القديس الزاهد فى الحكم. متسلقًا على عامود ليخدم الرب منفرداً وترك المجتمع يحكم نفسه بنفسه.

كان علينا أن نتصرف باسمه أنت وأنا. كانت هذه هى وسيلة إخلاصنا له. لم نكن نناوره. كنا نحترم حكمه. ولكننا نملأ الفراغ من أجل مصلحته. كيف لم ننتبه، وفعلنا ما فى وسعنا. أنت، فى وزارة الداخلية. كنت تستطيع الكثير من هناك. ولكن ليس كل شيء. أظن أنه كان هناك يوتوبى تائه فى قلب الرئيس تيران. ولم يعره انتباهاً، ملحقاً الضرر بنا، "سينيكا"، مستفزاً الرد الوحشى من قبل الأمريكان. والذى كان متوقعاً.

تحدد دورى بفعل كونى أنثى. وكلما تقدمنا أكثر يظل متفشياً فى مجتمعنا قانون عرفى واحد. مغفرة كل خطايا الرجل. أما المرأة فلا.

أخمن أنك تبتسم، يا بيرنال. أنت طيب. وكريم. لم تعاتبنى على تهورى وشجارى مع تاثيتو دى لاكانال سوى مرة واحدة. لك حق. سيطرت الهرمونات علىَّ. وأطلب منك الغفران ثانيةً. فلم أخرق معاهدتنا السياسية وحسب. تهور وتهور ومزيد من التهور. أسوأ ما فى السلطة أنها تمنحك شعوراً لا مفر منه بأنك محصن. فالواحدة تفقد رصانتها بسبب عادة السلطة نفسها.

أقسم إنى لن أكرر هذا الخطأ مرة أخرى. ولذا أرد عليك كتابةً، لكى تتأكد هذه المرة، على اقتراحك أمس أثناء جنازة الرئيس، ونحن راكعان جنباً إلى جنب فى كاتدرائية ميتروبوليتانا.

تفكر، مثلى، فى مستقبلك. مع موت الرئيس، فلن تبكر الأجندات السياسية فى مواعيدها. وإنما ستتغير. انظر إلى تقلب الأمور فى

السياسة! لها انحناءات والتواءات وشلالات وأطوال وعروض وتيارات مباغتة وجنادل وقوة أكثر من التى على طول مجرى نهر الأمازون! حين قلت لنيكولاس بالديبيا،

ستصبح رئيساً للمكسيك.

كنت أخدعه. واعتقدت أنه إما واحدة من اثنين. إما أن يأخذه كتحدٍ شهوانى، ووعد جنسى مؤجل، نزوة حقيقية من امرأة:

تعال إلى صدرى، أيها الشاب... كن رئيساً لسريرى. ألم تفطن؟ فإن سريرى هو كرسى المكسيك الفعلى. يا جحش.

أو يقبل الحافز للطموح. لم ينخدع. كنت أعمل لحسابك. ولكن السياسة هى " ما يعمله المرء بهدف أن يخفى حقيقته وجهله". وكان نيكولاس بالديبيا ذكياً للحد، ومخاطرًا وجميلاً لكى يفهم أن هذا العرض. إما أن يقبله كله أو لاشىء.

وحدث أنه قبل الأمر برمته. سيصبح رئيساً بديلاً. لا تتطلع إلىَّ بهذا الشكل، يا حبيبى. دعنى أحتفظ بسر وراء آخر. فلا يمكن إنكار هذا الحق على أية امرأة. هل رأيت بأية سهولة نستخرج الأسرار من الرجال؟ بداية من "إن لم تخبرنى، سوف أغضب" حتى "أحتفظ بأسرارك، فلن ترانى بعد الآن"، أن كنت تعلم يا بيرنال بعلاقتى الحميمة مع لورينثيو تيران فى وقت من حياته. كان هو من حمى ابننا التعس البائس. رغبت أن أصبغ عليه شكرى بلا تحفظات. كانت مجرد أسابيع من الحب أمضيتها معه حين سافرت إلى الولايات المتحدة. وتقابلنا فى هيوستن. أطلعنى على الأشعة. كنت أعرف دوماً يا بيرنال أن الرئيس سوف يموت. ولكنى لا أعرف متى أو كيف. كان علينا أن نتجهز. فعلتها من أجلك، يا حبيبى. إن عاش الرئيس حتى انتخابات ٢٠٢٤ أو ما بعدها، سوف يحمى بالديبيا ظهرنا فى لوس بينوس. وإن مات لورينثيو تيران على كرسى النسر، من أكثر انقياداً من بالديبيا، صناعتنا، ليكون رئيساً مؤقتاً أو فى حالته بديلاً وليجهز هكذا لانتخابك؟ كانت هذه هى حساباتى. نعم " السياسة هى ما يفعله

المرء بهدف إخفاء حقيقته وجهله". مع بالديبيا سنخرج منتصرين من الناحيتين. من مكاتب الرئيس إلى نائب وزير الداخلية إلى الوزير القائم بالوزارة اليوم. اغفر لى خيانتى. فلنتقاسم نجاحنا. على الكونجرس أن يعين رئيساً بديلاً. ولدينا رجلنا. بالديبيا. أعددناه للمنصب. وهو سوف يأمر بإجراء الانتخابات فى يوليو ٢٠٢٤ وأنت مرشح المواطنين مجدداً. من يختار رئيس المكسيك؟ من سيكون منافسك؟ تاثيتو قد قضى عليه. آندينو لا وزن له. لا أحد فى "مجلس الوزراء العظيم" له وزن.

ثمة إغراءات: رجال الجيش. وثمة لغز أولوا ومغتصبها، "عجوز المقهى" والذى لا تستطيع معه أن تعذبه أو تقتله لكى يتفوه بشىء. سوف يحمل السر معه إلى القبر. وتعذيب عجوز قد يؤدى إلى مقتله أو يعتبر وحشية غير شريفة. وتأتى هذه المرأة المزعجة دى لا جارثيا، التى تكتب خطابات العشق إلى المرشح الميت توماس موكتيثوما مورو.

وللتلخيص عليك أن تجد منافساً يا بيرنال. لقد رأيت المرة الأخيرة التى كان لدينا فيها رئيس منتخب بدون منافس، لوبيث بورتييو، وما حدث لنا. التهمت الغطرسة الذكاء. وتخطت الهيمنة حدود التعقل.

من سيكون خصمك فى ٢٠٢٤، يا بيرنال؟

هذا هو ما ينبغى أن يشغلنا، وليست أغنياتك المجنونة التى تتحدث عن الحب بين العجائز؛ لأن عندك اثنين وخمسين وأنا تسعة وأربعين. وأنت تهمس لى فى الكاتدرائية وسط الصلوات الجنائزية،

ماريا ديل روساريو، لقد أجلنا زفافنا أكثر من ربع قرن. ونعلم الأسباب. والآن فكرى فى مدى أهمية أن يكون المرشح متزوجاً.

كان الرئيس تيران أعزب.

ولكنه تمتع بسمعة الراهب. ولم يلومه أحد على شىء. ولكن مرتين متتاليتين، يا ماريا ديل روساريو، اعرفى، أنهم سيقولون عنى إنى شاذ.

واريت ابتسامتى خلف الإيشارب الأسود.

ـ فتش عن غيرى.

ـ ولكنى لم أحب غيرك.

اغفر لى. لم أرغب أن أحطم حبات المسبحة التى كانت فى يدى. ولكنها أصدرت صريراً مفزعاً.

ـ نتحدث لاحقاً.

ـ لا، الآن.

انظر إلى صف الحاضرين، تعال. سوف نتحدث بصوت خفيض.

ماذا قلت لك يا بيرنال، ونحن متجاورون فى الصف البطىء المتجه نحو المذبح. ماذا أخبرتك؟ سوف أؤكدها ثانيةً.

كل الرجال يخشون المرأة القادرة على التفكير والفعل بمفردها. وكل الرجال يخشون المرأة القوية والقادرة على الدفاع عن نفسها. أفضل أن أتصرف بمفردى ولا أثير الرعب لدى زوجى. أقولها لمصلحتك. ولذلك لم أتزوجك ونحن شابان. فلن تعطف علىَّ أبداً، قد تطلب من رجل أن يهجر أصدقاءه؟ أو مطعمه أو عاداته؟ أنا نفسى لن أقبل هذا. لماذا أرغم رجلاً أن يكون مثلما لا أود أن أكون. دعنى أكون نفسى وحدها. وتذكر أنى ابنة لأب مرهوب وأنى أشعر بأنى قادرة على الفعل فى السياسة كما كان هو فى إدارة الأعمال. أبرر لنفسى، يا بيرنال، قائلةً إنه كان يتمتع بقدرة على الشر- أكبر من قدرته على عمل الأموال، صنع الأموال ـ أما أنا يلهمنى الخير العام بصورة تؤلمنى إن رغبت. ولكن أمعن النظر وفكر أن لدى عيباً خطيراً. لا أعرف أن أكون زوجة جيدة. لا أعرف المشاركة، والضحك وتخفيف الأحزان. لا أعرف سوى تدبير المكائد، افعلها بأناقة تشرف حلفائى. ربما لا أعرف أن أحب رجلاً. ولكن صديقًا، مثلك، نعم أعرف أن أحترمه...

تلقينا جثمان المسيح، ونحن راكعان جنباً إلى جنب أمام المذبح الكبير ومن يدى أسقف المكسيك بيلابو كاردينال مونجويا.

وبعد انتهاء الطقس، دعوتنى إلى الصعود فى سيارتك. كنت تقودها بنفسك وقلت لى إنى لن أحل مشكلتك. فمن الضرورى أن توجد سيدة أولى فى قصر لوس بينوس. وعلى الرئيس أن يقول،

ـ لى حياتى الخاصة.

أجبرتنى على الضحك:

ـ جميعنا له الحق فى حياة خاصة. بشرط أن ندفع ثمنها. إن تزوجتك، لن نملك ما ندفع به ثمن تعاستنا.

ـ أنت الوحيدة التى تقول لى أموراً تريحنى بعيداً عن السياسة. هل تفهميننى؟

ـ وأنت الوحيد بالنسبة لى أيضاً. فلندع الأمر كما هو. زواجنا سيكون كذبة.

ـ أليست السياسة هكذا؟

ـ نعم، لذا تقتضى وقتاً طويلاً.

ـ ماذا تعنين؟

ـ إن الكذب مع النجاح يستلزم قتاً أطول ورعاية من التى توفرهما لنا الحياة. ينبغى التفرغ الكامل لزرع الأكذوبة. وهو بدقة ما تمليه السياسة.

ـ هل ما زالت لديك طاقة؟

انظر فى مرآة السيارة، يا بيرنال. انظر لنا نحن ـ الاثنين ـ هل تعتقد أننا نحن أنفسنا منذ عشرين عاماً؟ بماذا تخبرك المرآة، يا بيرنال؟

بدا لى صوتك كئيباً جداً، يا حبيبى.

لا شىء يعود كما كان.

قلعة تشابولتيك التى صارت قلعة الروك، تتأرجح من ضجيج حفلات الإحسان الكثيرة والتى يقولون عنها إنهم رأوا الأشباح القلقة لماكسيميليانو وكارلوتا، مع حراسه الأطفال الأبطال، وسط معجبى العجوز ميك جاجر، والذى أتى إلى هنا ليحتفل بأعوامه الثمانين وكما كل الهيبز مسدلى الشعور والعجائز، بدا وكأنه عجوز تبحث عن حبوب ضد تشنج الجسد.

وأخيراً لوس بينوس، المقر والمكتب الرئاسى والذى يستقبل مواجهات رؤساء الدول الأجنبية والسفراء و"القوات الحية". من يستقبلها؟ ببساطة، رئيس الكونجرس، أونيسيمو كانابال، ورئيس المحكمة العليا، خابيير وايمر ثامبرانو، ووزير الداخلية، نيكولاس بالديبيا. لن يجرى انتخاب الرئيس البديل إلا بعد انتهاء الطقوس الأليمة لتكريم لورينثيو تيران وعودة الوفود الأجنبية ـ بالرغم من أن الرئيس الكوبى كاسترو قد أعلن عن نيته فى عقد جولة فى تشاپياس "مع الإعلان عن كشف خطير".

وها نحن أنت وأنا نقف فى الصف. فليس لدينا تمثيل رسمى. نبجل اعتدال القوى الثلاثة. وأنا أبحث بدون جدوى عن السيدة، يا بيرنال.

لأن الرئيس لورينثيو تيران نعم كان لديه امرأة فى لوس بينوس. سيدة خفية. هناك، ظهرت عند باب قاعة لوبيث ماتيوس وهى تبكى. بمنديل فى فمها. متماسكة. وتنهنه. مربعة كصندوق قوى. عطوفة. متألمة.

هى بينيلوبى كاساس.

تبكى ولكنها تطلعت بحنان نحو نيكولاس بالديبيا.

تعرف أنه سيصير رئيساً. وتتقبله. فهو حاميها.

أبصرت المشهد معك، يا بيرنال، وأكرر عليك. يغزنى شيطان السياسة فى قلبى. ما أطيب أننا لم نتزوج. فلقد استطعت أن أمنح هكذا السياسة الجزء المظلم من شخصيتى، الجزء الذى ورثته عن أبى، بدون أن أجرحك.

"نيكولاس بالديبيا، سأجعلك رئيساً".

أما ما لم أخبره به هو أننى كنت أعرف المرض القاتل الذى يعانى منه الرئيس لورينثيو تيران.

ـ ٥٠ ـ

خابيير ثاراجوثا

إلى ماريا ديل روساريو جالبان

مات لورينثيو تيران. مات السيد الرئيس. ولم نزل أحياء أنت وأنا، يا ماريا ديل روساريو؟ لن أورطك معى فى سفينة الفايكنج خاصتى: سفينة تتصاعد منها ألسنة اللهب ولا تقوى أشرعتها المحترقة على تحمل ليلة الموت. لا. أقوم مع صديقتى بعمل مراجعة ضرورية والتى ربما تكون عتاباً حارقاً.

هل كان لورينثيو تيران عظيماً؟ هل كان فى استطاعته ولكنه لم يفعل؟ أو كان مجرد ما كان ـ دوماً ـ رجلاً دمث الخلق، ذا نية طيبة، لا يتمتع بذكاء حقيقى؟ لن تدخل فترة رئاسته التاريخ. ترك تيران الأمور تحدث لأن هذه كانت عقيدته الديمقراطية. ولكن لم يحدث ما كان يرغب فيه أن يحدث. انظرى إلى المشهد. فراغ فى السلطة، حكام ولايات متجذرون، مكائد فى القصر عصية على السيطرة... ولم يحكم المجتمع المدنى نفسه فى جو من التسامح والاحترام والمبادرة الأخلاقية. وتأكد لك يا ماريا ديل روساريو ولى ولبيرنال إيريرا أكثر من أى أحد آخر موت رجل شريف، ذى خلق. ولكنى أسألك، هل يمكن لشخص عن طريق قوته، إن لم يكن سلبياً، أن يغير الحقائق بكلماته؟ إن الكلمات التى تحبها الحضارة هى القانون، والأمن، والديمقراطية، والتقدم ـ صارت معتمة، ومثيرة للضيق، ومزيفة، هنا فى المكسيك وفى كل هذه المنطقة الأشد ألمًا، أمريكا اللاتينية.

ماذا بوسعه أن يفعل شخص مثلى، المدعو "سينيكا"، سوى اقتراح مثاليات مفرطة، لأن الطوباوية ذاتها فى هيمنتها على السياسة؟ فى مقابل سياسة الواقع، اقتراحات سياسة الواقع متطرفة أيضاً. كان أملى أنه بين طرفين، تسقط عملة الفضيلة، كما يقال الفضيلة فى الوسط .

بهذه الفلسفة قبلت مكاناً، قريباً من كرسى النسر، عرضه علىَّ السيد الرئيس تيران. صدقت أن الحياة ربما تكون متدنية ولكن الفكرة عالية. قدمت نفسى هادئاً وواثقاً من أن نصائحى لن تقبل كاملةً، ولكن سيتردد صدى أخلاقى على الأقل دوماً، بالرغم من عقمه، فى سمع الرئيس. نعم، أنا طوباوى. سأموت وأنا أحلم أنه يجب أن يحكم المجتمع أناس مثقفون، وطيبون، وأصحاب ذوق. وبما أن هذا لن يتحقق، أليس من الأفضل أن أحمل قناعتى إلى القبر، حيث لا يعارضها أو يعوقها شىء؟

نشدت الفضيلة لممارسة الحرية بصورة أفضل.

آمنت بوطن للجميع يعانق كل كائن حى، بدون تفرقة للجنس، أو العنصر، أو الدين أو العقيدة.

كلفنى الأمر كثيراً، ولكنى سعيت، يا ماريا ديل روساريو، أن أمد حبى إلى حاملى الشرور، مع اعتبارهم، كما "سينيكا" الحقيقى المولود فى قرطبة، مجرد "مرضى عاطفيين".

ولكنى ملت نحو الفلسفة الرواقية التى تشدنى: تجاه كافة الاعتداءات التى تحدث فى العالم، لا تسمح أن يغزوك شىء، ما عدا روحك ذاتها.

أود أن تتفهمى، يا ماريا ديل روساريو، رسالة الوداع هذه من صديقك خابيير ثاراجوثا المدعو "سينيكا". وأرغب أن تعرفى أن مصدر هدوئى هو يأسى. أو ربما لا تزال لدى رغبة. ولكن ما فقدته هو الأمل. ستقولين إنه كان علىَّ أن آخذ فى حسبانى الوقائع التى يواجهها الرئيس والتفكير فى نماذجى المثالية ـ حكومة شفافة وعادلة- كعقاب بالكاد، ومناداته بالاحتماء بالذات الداخلية أوقات العواصف. وخضوعى لبلهاء المثالية. أنت

نفسك، يا ماريا ديل روساريو، ظننتى أن وجودى له طائل، مثل الملح ربما الذى ينسى إن كان الطبيخ لذيذاً، ولكنه لا غنى عنه عندما يسأل الآكل:

أين الملحة؟

ممالح الموائد العامرة بأصناف الطعام المتبلة جيداً. كم مرة سمعت فيها نصائحى؟ لماذا خدعت نفسى باعتقادى أن أفكارى ذات قيمة؟ ألم أعرف أن قوة المفكر السياسية لا يشعر بها سوى خارج السلطة، مع أنها بالكاد ذات ضغط نسبى فى جهة المعارضة، ولكنها فى السلطة ليست نسبية حتى؟ بل بلا جدوى.

أو ربما تتغوط فى طرف، وفى الطرف الآخر تبتلع فضلاتك. الحياة كلها بؤس.

أرى السنوات الثلاثة التى أمضيتها فى حجرات السلطة ولا أرى سوى البؤس والشعور بالقرف. نعم، رأيت الرئيس وهو يعانى من التفكير. كنت أقول له أحياناً.

لا تفرط فى التفكير. فأنا هنا لذلك.

وحين أفعل، يكون قد أنقذه آخر. تاثيتو من الشر. وإيريرا من الخير. وأنا الحلوى للمواساة.

فعلاً، يا سينيكا. كان هناك سبيل آخر، سوف أسلكه المرة القادمة.

ثم ابتسم، حسناً، ويبتسم لى:

ـ أيها اللعين، لا تسلب النوم من عينىَّ.

كان ينبغى أن يبعدوا عنه المداهنين والديماجوجيين ومدبرى المكائد فى القصر الرئاسى المحتوم.

ماريا ديل روساريو، هذا هو صديقك خابيير ثاراجوثا "سينيكا"، من كان الرئيس ينصت إليه بحماس ولكن بلا اقتناع.

هؤلاء الوقحون الباقون يعتقدون أن النجاح كفيل للسعادة. لا يفقهون ما ينتظرهم. أخذوا يقصوننا، ويشككون بنا. لم يبقنى فى منصبى سوى

عطف الرئيس. كنت ثقيل الظل. قلت كل ما ينبغى أن أقوله، مهما كانت فظاظته.

ـ لا شىء يمكن أن يقنعنى أن الحكمة تكمن فى الاستقصاء، يا آنديني.

ـ قد تنام فى السرير نفسه وتحلم أحلاماً مختلفة، أيها المحترم إيريرا.

ـ ضع إكليل الغار، يا سيدى الرئيس السابق ليون، كى لا يصيبك مكروه.

ـ جبنك كالرائحة الكريهة التى تتركها وراءك، يا تاثيتو.

ـ وأنت تقولين لى يا ماريا ديل روساريو:

سينيكا، لا تتجرع السم لتروى عطشك. الأمر لا يستحق.

لا يستحق، يا صديقتى الحبيبة؟ هل تظنين أنى سأموت لأن العالم خذلنى؟ هل تعتقدين أن كونى مثالاً بلا قناعات لن يتبقى أمامى سبيل غير الموت؟ هل تعتقدين أنى سأخون الحكمة الرواقية بتجميد عواطف الروح، والحرية، والطبيعة؟ قول لى ساعتها، أليس الموت واحدًا من عواطف الروح؟ وإن كان نهاية محتومة، لم لا نسرع إليها بإرادتنا كى لا نخضع لها بدون إرادتنا؟

لا، لقد اختبرت قناعاتى وأعرف أن التعاسة هى ثمن الذكاء. لا شىء يتفق مع عقولنا.عشت طويلاً بجوار الشمس، وبما أنى رجل ثلجى، سأذوب مع انطفاء النجم. رأيتِ ما أشعر به منذ أن مات صديقى الحميم لورينثيو تيران. أنا مثل هرة: لا أفهم انعكاسى فى المرآة. أسعى لتذكر اسمى ويجهدنى الأمر. علىَّ أن أنساه، فقد فقدته للأبد، أنا أعرف. أشعر أنه لا شىء يستحق، ولا شىء سيرضينى. أنا ضحية السبات. هل هذا دليل على رقى الأخلاق؟ هل يشعر الكلب بالملل؟ الوقح وحده الذى لا يشك. والأبله وحده هو من لا يعانى.

عند موت الرئيس، تطلعت فى مرآة روحى ورأيت صورة مهتزة ومرتعشة. كان هذا تموج مشاعرى نفسها. كان تأرجح روحى بين الحياة والموت. وكان الصورة النقية لرغبتى البديلة فى الاثنين معاً.

كان الفراغ الشاسع لحبى، تجويف ما بين الحياة والموت. حبى لك، يا ماريا ديل روساريو. ورغبتى فى امتلاكك، التى لم أعبر عنها قط، صامتاً، وسجيناً فى أحلامى. والتى لم تكتشفيها أيضاً، كما أنا متيقن.

وكان فى النهاية اليقين التام ألا شىء له وجود حقيقى سوى حياتى الداخلية نفسها. قلعة ذاتى المحصنة. حريتى فى استعراض إن كانت هذه الذات ستظل فى العالم أو ستهجره.

ماذا تعنى كل الشكوك فى الحياة الخارجية مقابل هذا اليقين؟ كانت تعنى ـ أو تعنى ـ يا ماريا ديل روساريو ـ أن العقلانية لا تستطيع أن تفرض نفسها فى المكسيك. كانت تعنى ـ ولا تزال ـ أننا سنواصل مرة تلو الأخرة قتل الدجاجة التى تبيض ذهبًا - بعد أن نسرق البيض- تعنى أنه منذ عام ألف وثمانمائة قال هومبولدوت الحقيقة:

المكسيك هى شحاذ يجلس فوق جبل من الذهب.

يعنى أننا لا نعرف الجانى سوى فى الروايات البوليسية فقط. وفى المكسيك، على العكس، نعرف الجانى مسبقاً. والضحية هى البلد دوماً. ياه، يا صديقتى. لا تعيرى اهتماماً للمنقذين الديماجوجيين، هؤلاء المهاتما بورباجاندى. ولكن احذرى من هؤلاء القامعين مثيرى الضحك.

أنصتى إلى كتيبة اليائسين.

أنصتى إلى الشائعات فى مدينة مكسيكو هذه والتى تكشف كل سر. اكتبيه. لن يصدقك أحد.

اصمتى. سيعرفه الجميع.

نعم، يا صديقتى القريبة جداً. لو كنت سياسياً، كنت سأخون الجميع. حمداً لله أنى مفكر وأدرك أن السياسيين يخونوننى.

نعم، يا سيدتى الجميلة والمثقفة، لا شىء ذو قيمة عدا حميميتنا، وذواتنا الصامتة. لا تكررى ما أقول. لن يفهموك.

أمشى قائلاً لنفسى إننا نشبه أحلامنا. ولا شىء يماثل حقيقتنا غير مثاليتنا. لا شىء آخر أمامنا. ترين، يا سيدتى؟ لا يجرؤ على كشف هذا سوى المنتحر. لا ليست كلماتى الأخيرة. لا أبغى أن يكتبوا على شاهد قبرى.

هنا يرقد خابيير ثاراجوثا

المدعو "سينيكا" ١٩٨٢ ـ ٢٠٢٠.

فى مكسيكو، كل الأفكار مخالفة للقوانين.

أخبرك، خفيةً، أنه لا سر هناك بعد الموت. لا يعرف الميت أننا أحياء. قبل أن نولد وبعد أن نموت، نعيش، فى النهاية، عوالمنا الخاصة غير الملموسة.

قرارى للوداع، يا ماريا ديل روساريو، هو أبسط بكثير.

ـ سأرحل قبل أن تغيب سماء مكسيكو للأبد.

وألوم نفسى على رحيلى حانقاً، متخلياً عن هدوئى.

أرحل وأنا حانق لأنى تركت السياسة تخدعنى. اكتشفت أن فن السياسة هو الشكل المتدنى من كافة الفنون.

أرحل حانقاً؛ لأنى فشلت فى إقناع الرئيس أن رئيس الدولة لا يمكن أن يشعر بالألم وحده دون الجميع وأكثر من الوقت نفسه.

أرحل حانقاً لأنى أخفقت فى ردع جنون السياسة طوال ستة أعوام من الرئاسة، جنون الهيمنة على تاريخ المكسيك بأكمله وإعادة خلقه كل ستة أعوام. يا للجنون!

أرحل حانقاً؛ لأنى المذنب فى أن الرئيس كان يعيرنى انتباهه عندما أسديه نصيحة. الذنب ذنبى، لا ذنبك.

أرحل حانقاً، لأن عقلى ومنطقى لم يتغلبا على البروباجاندا، غذاء المتعصبين.

أرحل حانقاً، لأنى لم أتعلم قط أن أزرع الماجوى.

أرحل حانقاً، لأنى بدأت غاضباً بشدة وانتهيت منزعجاً.

أرحل حانقاً، لأنى ألقيت خطبتى عن الأخلاق من فوق قمة جبل رملى.

أرحل حانقاً؛ لأنى لم أقدر يوماً عن أن أقول لك أحبك.

أرحل حانقاً؛ لأنى لا أغبط سوى الموتى.

ـ ٥١ ـ

نيكولاس بالديبيا

إلى خيسوس ريكاردو ماجون

حبيبى، لا يمكننى الثقة بأحد غيرك أعرف ما عاقبة المعلومات التى سربتها لماريا ديل روساريو، التى كانت مراسلتى المعتادة من قبل.... ولكن اليوم لا أعرف. تتشابك خيوط شتى. وتحاك دسائس كثيرة. هل ينبغى أن أبقى صامتاً؟ سأكون أكثر أمناً، ولكنى أخشى أن أحمل السر معى إلى القبر. هل أثق بك لهذه الدرجة. منذ رأيتك لأول مرة على سطح منزلك وحملتك للعمل معى، وعاطفتى تنمو تجاهك. عثرت أخيراً على توأم لروحى، رجل قرأ الكتب نفسها وله طريقة تفكيرى نفسها. أشعر بك قريباً منى وأرغب أن أحافظ عليك هكذا.

لذا فسرى هو سرك، ولكن أنت وأنا الشىء نفسه.

أحذرك من أن اطلاعك على ما أعرفه خطير، بالنسبة لى ولمن ينصت لى. دمر الشريط فور أن تسمعه. يحمله إليك أبوك، دون كاستولو، كى نبقى جميعاً تحت حماية الرصانة.

عدت إلى الميناء لأتحدث مع عجوز المقهى كما طُلب منى. كان هناك كما هى عادته، مرتدياً حلته "البليزر"، والـ "بيبون" والببغاء على كتفه، وقطع الدومينو على المائدة، والجرسون يقدم القهوة بألعابه البهلوانية.

اجلس، يا بالديبيا.

وفى الحال أدرك ـ بناء على إشاراتى ـ أعين بها دهشة لم أدارها جيداً، ورأسى تدور نحو اليمين ونحو اليسار، ويداى مفتوحتان لأتوسل إليه ـ أنى أود اجتماعاً خاصاً، وليس فى ميدان عام فى بيراكروث.

اجلس، يا بالديبيا. عندما تجرى الأمور فى العلن، لا تثير الشكوك. الأسرار هى التى تثير حاسة الشم لدى الذئاب. هنا فى المقهى لا أنت ولا أنا نستدعى انتباه أحد. انظر، عادت النسور لتحلق فوق قلعة أولوا. هذا ما يسترعى الانتباه أكثر من لقاء على قهوة بينى وبينك..

لم أتفوه بكلمة. لم أسأل. كنت أعلم أن العجوز سيتكلم. كان من الممكن التكهن من نظرته أن كل ما سوف يحدث قد حدث من قبل. وعيت هذه الحقيقة وأحسست ببرودة تسرى فى عمودى الفقرى. كان العجوز فاتناً، بلا شك، وكان يعرف، باخيسوس ريكاردو، كافة التغيرات البسيطة ولكن الحاسمة للزمان والمكان فى حيواتنا. كان هذا هو درسه العميق من حياة بهذا الطول. المكان والزمان. كيف نقرؤهما، ونعيشهما ونحدد أنفسنا فى كل منهما. وهل يعجباننا أم لا، ينتمى المكان إلى نظام الأشياء الموجودة والزمن إلى نظام ما يحدث. وما يجمع بينهما هو أن الاثنين، المكان والزمن، يؤثران على ما هو كائن وما هو محتمل أيضاً، ما يمكن أن يحدث. هما ـ فى حد ذاتهما ـ مفهومان خياليان. يتعين تحديد موقع وساعة كى يصبح للمكان والزمان مضمون.

ألم تكتب هذا سوزان سونتاج منذ سنوات بعيدة؟ يوجد الزمن لكى تحدث الأشياء لى. ويوجد المكان لكى لا تحدث الأشياء كلها لى فى الوقت نفسه.

فى الحياة السياسية، وبصورة صارمة، هل نستطيع الجزم بأن المصادفة والتوالى والتكرار تنتمى إلى الحياة اليومية، فى حين تنتمى كثافة وتتابع واستجابة الزمن الشخصى، الداخلى، الخاص بك وبى، يا حبيبى، إلى الروح؟

حسناً، أنت تعى الفرح الذى أشعر به لأنى وجدت رفيقاً على نفس دربى. مع من غيرك يمكن أن أتحدث عن مثل هذه الأمور؟ مع من غيرك يمكننى أن أفهم نفسى عندما أقول إن الزمن الذى نعيشه ليس مجرد خيال أو فكرة وحسب، وإنما وسيلة مثمرة لتمثيل الحياة، وأن السياسة هى إحدى الوسائل لإضفاء الوجود على الزمن.

أرغب فى الاعتقاد أن العجوز قرأ أفكارى. ليس بالمعنى الحرفى، ولكن بفضل حدس له اسم آخر لديه، مكر أو قد يكون شراً.

على أية حال، هذا ما قاله لى:

ـ أكثر ما يقال علىَّ هو أنى أعرف كل الحكايات، ولكنى لن أعرف التاريخ كله أبداً.

جرؤت أن أقاطعه: ولا أنا.

لا أحد ـ بلا شك ـ أكد برأسه الأشيب، والمصفف بعناية.

لم أرغب فى إضافة المزيد. كان يحمل عصا المايسترو.

واصل ـ كما تقاس ملاعق السكر فى القهوة، على الواحد أن يعرف ما يحكى ومتى يحكى ولمن يحكى.

ويحمل سره معه إلى القبر؟

لا أدرى لم وجد هذا طريفًا وأبرز لى أسنانه. لمرة واحدة، أرى إنساناً فى هذه الأنياب.

بسبب الألم أحياناً أو الكتمان أحياناً أخرى أو بسبب الكبرياء فى معظم الوقت ـ قال ـ كم من الأسرار التى لم نكشف عنها قط ولم نلم أنفسنا إلا ونحن موتى؟ إن قلت هذا فى الوقت المناسب، كانت الأمور اختلفت؟ وبغتة، حتى وقت أفضل؟

لم أكن سأتعجل الكلمات من العجوز. كنت قد فكرت فى الحفاظ على مسافة رسمية، ومحترمة، تثير فضوله أكثر من فضولى لمعرفة سره. لأن الأمر يتعلق بسر باخيسوس ريكاردو. إن جمعت زياراتى إلى مقهى

بيراكروث، يمكنك أن تفكر أنى أتيت لأن ماريا ديل روساريو طلبت منى ذلك كجزء من تأهيلى السياسى، ولكنى فهمت تدريجياً أن العجوز فى الحقيقة يحتفظ بسر ويترقب اللحظة التى يخرجه إلى النور. ستكون صدفة أو نزوة أو حظاً فى البداية. ولكن فى النهاية ستصير قدراً، وضرورة.

الآن أنا وزير الداخلية فى اللحظة التى يكون قد مات فيها الرئيس ويستعد الكونجرس لتعيين الرئيس البديل لاستكمال ما تبقى من فترة رئاسة لورينثيو وعقد الانتخابات. ما كانته زياراتى لبيراكروث فى البداية- كم تبدو لى بعيدةً اليوم!- تأهيلاً سياسيًا، صار يومها مصيرى السياسى. من هو البديل. ومن هم المرشحون لعام ٢٠٢٤.

علمت حينئذ أنه مع العجوز فإن النصائح تأتى، مثل المقبلات، قبل الأطباق القوية.

هل تعلم، يا بالديبيا، إنى سئمت الحفاظ على أسرار نسيها غالبية المواطنين ولم تعد تهم أحداً. أن يأمر شقيق رئيس بقتل عشيق زوجته ثم يقتل نفسه بالسم؟ سر!!! أن تقلع عاهرة متوحشة بيد جيتار عين رئيس سابق غيور؟ سر!!! أن يتدمر رئيس سابق على أيدى شرذمة من النساء المتآمرات بعد أن تركوه وحيداً تحت الشمس فى شاطئ مهجور حتى تفحم العجوز؟ سر. طرائف من الكوميديا السياسية الوطنية... قل لى إن كانت هذه الأسرار تهم أحدًا اليوم.

رفع الببغاء الصامت بسبابته وربت على ريشه الملون:

وفى المقابل، ثمة أسرار لو كشفت من شأنها أن تغير مسار التاريخ.

أغلق فمه. وعاد الببغاء إلى مكانه فوق كتف العجوز. ولم أبدِ أية إشارة للفضول.

واصل: فى السياسة لا ينبغى أن تترك القاطرة تقود السائق. أرسلتك ماريا ديل روساريو إلى هنا لكى تتدرب. هذا ما قالته الثعلبة الماكرة. وفى

الحقيقة، أرسلتك لكى تكشف سرى. ولم تكشف شيئاً. رجعت فى كل مرة بحزمة نصائح. جوال بطاطس.

قام بفعل غير معتاد. ألقى عصاه، التى سقطت على الأرض مصدرة فرقعة. قلت لنفسى، نعم الآن، سيستدير الجميع ليتطلعوا إلينا. ولكن لم يتحرك أحد. كان اتفاق الكتمان بين العجوز ورواد المقهى غير قابل للنقض. وكان من غير المعتاد بالفعل أنه أمسك بقبضة يدى بقوة رياضى، وضغط عليها مسبباً ألماً. وددت، مما أثار تعجبى، أن أتخيله عارياً، ما شكل عضلات جسده، فى مثل عمره ينهار الجلد، ويصبح كل شىء رخواً، ولكن العجوز منحنى يدأ حديدية ذات قوة تخيلت أنها ناجمة عن الرأس والخصيتين.

هذه المرة، لا، يا بالديبيا.

ماذا يريد أن يقول؟ ولا يزال الببغاء صامتاً بصورة غامضة، كما لو أن العجوز أعطاه أقراص النيمبوتال أو لأن الببغاء يفهم متى يلعب دور المهرج لتشتيت الانتباه ومتى يتصرف كما يقول الفرنسيون ـ ألد أعداء العجوز! ـ بحكمة، الحكمة النابعة عن المعرفة الواسعة وأيضاً الخبرة العريضة، خبرة الاحتواء والتأدب.

هل تعلم أن القذر والمقدس يتقاسمان شيئاً. ولا نجرؤ على الاقتراب منه، قال وهو يتطلع إلى الببغاء وليس إلىَّ.

أعتمت الهالات حول عينيه أكثر.

هل تذكر توماس موكتيثوما مورو؟

شعرت بالإساءة نتيجة السؤال. كان مورو المرشح الفائز فى انتخابات عام ٢٠١٢، ولكنه اغتيل قبل تولى السلطة. عقدت انتخابات جديدة فى وسط اضطرابات شعبية وفى عام ٢٠١٣ تولى الحكم رئيس ائتلاف الطوارئ الذى كان لا طعم له، رئيس رمادى، منسى، مؤقت، معروف بلامبالاته، وهشاشته المتساهلة وأنه رئيس انتقالى. حكم الكونجرس خلال

هذه الفترة وكان حكماً رديئاً. بعد توحدهم على رفع رجل تافه إلى الرئاسة، عاد كبار رجال الجيش للحرب فيما بينهم. وفرض الكونجرس السياسات حسب علمه، أما الحكومة، يا إلهي! كانت تخضع بلا حول ولا قوة.

لذا بعث لورينثيو تيران الحماسة عام ٢٠١٧ عندما أوصلته حيويته وشخصيته - الأولى كانت واضحة للغاية والثانية قوية جداً ـ إلى الرئاسة فى موجة نصر وأمل، بـ ٧٥٪ من إجمالى أصوات الناخبين و الـ ٢٥٪ الباقية تفرقت بين الأحزاب الصغيرة التى ضجر ويأس منها الناخب...

توماس موكتيثوما مورو. حادث منسى. شبح سياسى آخر. موجود بالأمس، وشبح اليوم.

رجل أمين ـ علق العجوز. أنا واثق من هذا. كان يظن أنه هرقل الذى جاء لينظف حظائر السياسة المكسيكية. وقد حذرته:

من الخطر أن تكون أميناً فى هذا البلد. الأمانة تدعو للإعجاب ولكنها تتبدل فى النهاية وتصير رذيلة. عليك أن تكون مرناً إزاء الفساد. كن أميناً أنت، يا توماس، ولكن أغلق عينيك ـ كعدالة السماء ـ أمام فساد الآخرين. وتذكر، أولاً، أن الفساد يلمع النظام. وأن أغلب السياسيين والمسئولين ورجال المقاولات، إلى آخره، لن تتاح أمامهم فرصة أخرى للثراء سوى خلال أعوام الرئاسة الستة. ثم يعودون للنسيان. ولكنهم يرغبون بالتحديد فى أن ينساهم الناس كى لا يتعرضوا للاتهامات، أو للإزعاج بعد أن صاروا أغنياء. ثم تأتى بعدهم جماعة أخرى أشد وقاحة. والأسوأ هو أن تغلق الطريق أمام تجديد العصابات.

قلت لتوماس: هل يلائمك أن تحيط نفسك بالصعاليك، بعد أن سيطرت على الفاسدين. المشكلة فى ممارسة السلطة هى الرجل النقى الذى لا يفعل سوى وضع الأحجار على الطريق. فى المكسيك، ينبغى ألا يوجد سوى رجل أمين واحد، هو الرئيس، يحيطه فاسدون كثيرون، متساهلون ويتم غض الطرف عنهم، ثم يختفون من على الخريطة السياسية بعد ستة أعوام.

قلت لتوماس موكتيثوما مورو: أسوأ ما فيك أنك تريد أن تلتقى الخريطة مع الأرض. أنصت لما أنصحك به، أنت تعيش بسلام فى وسط الخريطة ودع الأرض يزرعها فلاحون فاسدون.

تنهد العجوز حتى أنى أحسست برعشة لا إرادية فى يده، التى ضغطت على يدى بقوة لا تصدق.

لم يلتفت لى، يا بالديبيا. جاهر بنواياه التطهيرية فى كل مكان. قال إنه سيحظى بتأييد شعبى هائل. فضلاً على أنه كان يتصرف باقتناع، لم أشك فى ذلك قط. كان فى طريقه للقضاء على الفساد. كان يقول إنه أوضع وسيلة لسرقة الفقراء. هذا ما كان يقوله. ينبغى أن يدخل اللصوص السجن. سيتمتع الشعب بالحماية ضد الاستغلال.

اكبح جماحك، يا توماس، قلت له. سوف يصلبونك لأنك تعلن نفسك بأنك مخلص. لا تعلن عما تنوى. افعله عندما تجلس على كرسى النسر، كالجنرال كارديناس. لا تدمر النظام. فأنت جزء منه. سواء كان حسناً أم سيئاً، فليس لدينا نظام آخر. بما ستحل بدلاً منه؟ هذه الأمور لا ترتجل فى يوم وليلة. أرض بمعاقبة بعض من كباش الفداء كعبرة فى بداية الستة أعوام من رئاستك. تصبح هذه حملتك الأخلاقيةُ ثم ارتاح فى سلام...- لم يلتفت لى. اعتبر نفسه مخلصاً. وكان يؤمن بما يقول.

أدهشنى. رسم صليباً على صدره.

من قتله، يا بالديبيا؟ توزيع هائل مثل فيلم الوصايا العشرة؟ هل تذكره؟ مهربون. حكام ولايات. رؤساء بلديات. قضاة جنائيون. رجال شرطة منحطون. رجال بنوك يخشون أن يسلبهم مورو الإعانات الحكومية. رؤساء نقابات مرعبون من أن يسقطهم مورو فى الانتخابات. وسائقو الشاحنات المستغلون للمواد الأولية. وأصحاب المطاحن المستفيدون من الفلاحين المنتجين للذرة. وأصحاب المصانع رافضو القوانين العمالية. المهووسون ممن يحولون الغابات إلى صحارى. أصحاب المزارع الجدد

الذين يخزنون المياه والطين والبذور والجرارات، بينما لم يزل الفلاح يعتمد على الثور والمحراث الخشبى.

هل كان صوت تنهيدة للعجوز أم أن الببغاء تكلم؟

قلت له، القائمة لا تنتهى. أضف المجانين الراغبين فى إنقاذ البلد بقتل الرؤساء. إلى جانب نظريات التآمر من دول أجنبية. الأمريكان الذين يخافون أن تخرج المكسيك من حظيرتهم؛ لأن مورو لم يكن سهل الانقياد. والكوبيون كعادتهم، ورجال ميامى الخائفون من أن يساند مورو كاسترو، ورجال هافانا الخائفون من أن يتسبب نبى حقوق الإنسان فى إزعاج كاسترو. حكاية لا نهاية لها.

نظر فى عينىَّ.

لم أعهد رجل سياسة اكتسب كل هذه العداوات بهذه السرعة. كان عقبة بالنسبة للجميع. حذرته من أن أعداءه كثيرون، وأنه عقبة فى طريق الجميع، وأنه فى خطر...

لم يترك يدى. ولكن عينيه لم تكن عينيه. كانت عينان معتمتين، عينا خفاش، فى قبو.

أنا أمرت بقتل توماس موكتيثوما مورو.

هل أحتاج أن أشرح لك لما يجب أن تحطم هذا الشريط ولماذا لجأت إلى الحديث معك؟

أحبك، ن

ـ ٥٢ ـ

نيكولاس بالديبيا

إلى تاثيتو دى لا كانال

سيدى: أنا أغوى التلخيص. تصلك رسالتى مع خيسوس ريكاردو ماجون، الرجل الذى يحظى بكامل ثقتى. لن أخوض فى قضايا تعرفها سيادتك سلفاً وأنا أيضاً. ببساطة، أنا أحذرك أن الوثائق التى تدينك بحوزتى وفى الحفظ والصون.

لمعرفتى بذكائك الذى لا يمكن إنكاره، ستفهم لمَ لم أنشرها. سيحرمك إعلانها من أى تطلع سياسى أعلى. أى، أن ترشيحك للرئاسة لن يكتمل فى ضوء فضيحة بهذا الحجم.

عرف السيد الرئيس تيران هذا. وعرفه خصمك وزير الداخلية السابق بيرنال إيريرا، الذى كان لى الشرف أن أحل مكانه فى هذا المكتب. كما تعرفه السيدة ماريا ديل روساريو جاليان، التى تعاملت معها سيادتك بطريقة غير نبيلة، ولكونها امرأة تتمتع بذكاء سياسى هائل، تفهم أنه من الأفضل مطالبتك، أيها السيد دى لا كانال، بالانسحاب من الحياة السياسية فى مقابل الصمت الكتوم لنا نحن من على علم بمكائدك المنكرة.

سأبقى الوثائق فى مكان موصد جيداً لسبب بسيط. تدين أشخاصاً شتى. مديرو بنوك ورؤساء شركات المفيدون أكثر للبلد بدعمهم للتنمية بدلاً من تطهيرهم بعقوبات فى سجن آلمولويا. وأخيراً، ماذا تحتسب حماقاتك فى مجلس إدارة "ميكسين" سوى عيون مياه بالنسبة لنهر

الاستثمارات الغزير، أو جداول فرعية لرءوس أموال غير ضرورية أو توفير تحتاجه البلد من أجل التقدم.

ضع شيئين فى الميزان. تقدم المكسيك فى كفة. وذنبك فى الأخرى. أيهما تفوق؟ ستقول لى إنك لست المذنب الوحيد. هل ستجر لمجرد حنقك الخالص معاونيك من ذوى النفوذ معك إلى الكارثة؟ الأفضل أن نلتزم كلنا بحسن السلوك والصمت الكتوم حيال هذا الموضوع. أظن أنه من الملائم لك أن تأخذ إجازة طويلة. أنصحك أن تكون إجازة مفتوحة. آكابولوكو[1] أجمل من آلمولويا. لن نخبر، لا أنا ولا أنت، رفاق شقاوتك بشىء. سنتركهم فى سلام، ألا تحب هذا؟ وما سأفعله أنا هو تشديد قوانين المراقبة على عمليات الشركات العامة والخاصة بهدف القضاء على الفساد وإتاحة المعلومات التفضيلية، والاطلاع على حسابات الشركات إلى جانب العقاب الرادع لـ [2] رؤساء الشركات والأعضاء المنتدبين (اعذرنى فتعليمى فرنسى) الذين يبيعون الأسهم عالية الثمن قبل أن تهبط بأسابيع، مع علمهم أن المستفدين من هذه المبالغ الطائلة يفرون فى الوقت المناسب، مثل المأسوف عليهما بوش الابن وتشينى، تاركين المستثمرين الصغار إلى مصائرهم، كالسيدة بينيلوبى كاساس التى كانت تعمل فى مكتبك؟ هل تذكرها؟ أعتقد أن مثالاً واحداً يكفى....

أقترح رفع دعوى قانونية ضد القراصنة المتواطئين، والذين بلا شك سينكرون كل شىء أمام المحاكم. أكرر عليك: سوف أحمى المساهم الصغير المخدوع؛ لأنه افتقر إلى المعلومات السرية التى يعرفها رؤساء الشركات والمحاسبون. ولكن سأتطلع إلى المستقبل، وليس للماضى. لا يدل عقاب الماضى سوى على العجز فى إدارة الحاضر وتصور المستقبل. ولن أقع فى هذا الخطأ. ولكن ملفك لا يزال مفتوحاً، يا دى لا كانال، باعتباره جريمة ينبغى ولا بد أن تخرج للعلن، لا لإدانة الماضى وإنما للحفاظ على المستقبل.

---

(١) مدينة ساحلية بولاية جيريرو مطلة على ساحل المحيط الهادئ بالمكسيك (المترجمة).

(٢) Presi dent directears generaux بالفرنسية فى الأصل (المترجمة).

بناءً على هذه المبادئ، أعرف أنى لن أشرع فى أى فعل ضدك أو ضد مساعديك المتآمرين فى الفساد. بل على العكس، إن حركت المياه بحماقة، لتفلت بجلدك، فلسوف تغرق بصحبة معاونيك أو ستشعر برضا مازوخى وأنت تنتحر مع افتراضك موت الآخرين أيضاً معك، وفى هذه الحالة، يا سيد دى لاكانال، ستدق مطرقة القانون رأسك الأعزل.

اعتبر نفسك، من الآن فصاعداً، تحت سيف داموكليس(*) خادمك المخلص.

نيكولاس بالدييبا

نائب وزير الداخلية والقائم بأعمال الوزارة

(*) شخصية أسطورية إغريقية (المترجمة).

ـ ٥٣ ـ

تاثيتو دى لا كانال

إلى آنديتو آلماثان

سيدى الوزير والصديق الوفى، أتواصل معك من قاع الوهدة التى قذفنى داخلها أعدائى السياسيون. بعضنا يكسب والبعض يخسر. والسياسة تقلب كل شىء رأساً على عقب. ربما تصير محنتى الحالية والصورة المتدنية التى التصقت بى أفضل قناع لعودتى للعمل بصورة فجائية.

يقولون كل شىء متاح فى الحرب. والأحرى أن نضيف "وفى السياسة والبيزنس". أعلم أن السيد وزير الداخلية ومرءوسى سابقاً أوصل إليك وثائق تربطنى بقضية "ميكسين". أخبرنى بنفسه أنه لن يقدمنى للعدالة لأنى سأجر معى كثيرًا من المسئولين الحاليين. زعمت أنى لم أكن أنفذ سوى تعليمات الرئيس القائم بالأعمال، ثيسار ليون. تطلع نيكولاس بالديبيا نحوى ببرود.

ـ لا ينبغى المس برئيس أو بوزير.

ـ المبادئ خدام مطيعة لسادة أشرار.

ـ هذه هو الحال، يا سيد دى لا كانال، لا تشغل بالك. من الآن فصاعداً يداك ستصبحان نظيفتين، حيث لن يكون لديك يدان.

لن أستسلم، يا سيدى الوزير آلماثان، فلا تزال تبقى لدى قدمان أضرب بهما الأرض. ذهبت إلى المسئولين الذين أوردهم بالديبيا لأذكرهم

أن مصائرنا مرتبطة. وأنى لم أقم سوى بإنجاز الأدوار التى أمر بها السيد الرئيس ثيسار ليون.

سخروا منى. سأنقل إليك بالحرف الواحد المحادثة التى دارت بينى وبين مسئول البنك الذى لعب دوراً كبيراً فى إدارة مجمع ميكسين للشركات.

قلت له: جئت أناقش معك موضوع "ميكسين".

ـ لا أدرى عما تتكلم.

ـ عن أسهم "ميكسين".

ـ لا أعلم عنها شيئاً. أليس كذلك؟

ـ عفواً؟ أعترف أنى ذهلت مع أنى اعتقدت أنى فهمت لعبته فرددت- لا. ولذا أنا هنا لأسألك.

كى أعرف.

الأفضل لك أن تظل بدون معرفة.

أصررت. لماذا؟

ـ لأنه موضوع سرى. صمت لحظة، كالصياد الذى يمرر دودة أمام السمكة، وقال أخيراً ـ الأفضل أن تدع الأمر هكذا.

ـ سر؟ سمحت لدهشتى أن تظهر ـ سر علىَّ، أنا من صنعته بتوقيعى.

لم تكن سوى أداة ـ أجابنى وهو يدارى بالكاد احتقاره لى.

ـ أداة، لمَ؟

لكى يصبح الموضوع سراً.

نظر نحوى واخترق جسدى كأنى نافذة.

ـ لا تفقد فاعليتك، يا سيد دى لا كانال.

ـ شكراً لك، مساؤك سعيد.

لم أنهزم، يا سيد الماثان. تحدثت مع واحد من عمالقة الصحافة يدين لى بأفضال كثيرة، وكان يجد باب المكتب الرئاسى مفتوحاً بفضلى أثناء حكومة الراحل لورينثيو تيران.

سأختزل الحوار.

حين طلبت منه أن يدافع عنى، على الأقل، بكتابة مقال لصالحى، وإن أمكن، بأن يبدأ حملة لإعادة الاعتبار لشخصى، قال لى بتهكم لم يفلح فى مداراته:

ـ الصحفى الجيد لا يغضب القراء بمدح أحد. يهاجم وحسب. فالثناء يشعرهم بالملل.

أعترف أنى اشتعلت غضباً، يا ندينو.

ـ سيادتك تدين لى بالكثير.

ـ قطعاً. يجب أن نشفق على المسئولين.

ـ يكفيك أن تصدر أمراً لأحد المحررين.

ـ سيد دى لا كانال، لم أفعل هذا من قبل. والمحررون عندى مستقلون.

ـ هل ترغب أن أثبت لك العكس، صحت فى وجهه – هل ترغب أن أرشو أحد صحفييك؟

توقعت أن ينظر تجاهى ببرود، ولكنه التفت نحوى، هذه المرة، بالشفقة الذى تحدث عنها للتو.

ـ سيد دى لاكانال. الصحفيون عندى أمناء. ولكنهم عاجزون.

أعلم أن ما أكتبه قد يضرنى ويشوه سمعتى أكثر. ولكن لم يتبق أمامى سوى بضع أوراق، يا سيد يلماثان.

أنا صريح معك، وتعلمت أن أحترمك. بل أنى أحترم عائلتك كلها. حالفك الحظ بأن حظيت بزوجة عاشقة، السيدة خوسيفينا، وثلاث صبايا

جميلات، تيتى، وتاليتا، وتوتو. ولكن ما لا تملكه هو حساب بنكى مكتظ. فأنت تعيش على راتبك وإرث زوجتك.

أقدم إليك عرضاً. إن فشل صفقة "ميكسين" لا يستبعد بدء صفقات أخرى مربحة. ربما كانت ثروتى السياسية فى الأرض الآن، ولكن الصفقات الجيدة هى صفقات جيدة دوماً. وأنا لم أعد فى السلطة، ولكنك لا تزال.

كما أن لا شىء غير أموال الحكومة يفى، إن رغبت، بالمبالغ المطلوبة لما يسمونها فرص الاستثمار.

هذه هى خطتى.

نعرض من خلال شركة مجهولة الفرصة أمام المستثمرين الحصول بقروض على رهونات عقارية بموافقة السلطات (أو بموافقة سيادتك، يا سيدى الوزير) مع وعود بإمكانية بيعها ثانية إلى البنوك بفوائد اثنين بالمائة بدءاً من تاريخ محدد. أى أرباح مؤكدة وهامش خسارة لا يحسب. لن يضيع لا الحيتان ولا السردين مغامرة كهذه. لأنه قبل انقضاء مهلة الاستثمارات الأولى، نحشد أنا وأنت مستثمرين جددًا ونسدد بأموالهم حصص أرباح المستثمرين الأوائل، فيشعرون بسعادة وأنهم فى نعيم.

يشعر المستثمرون الأوائل نحونا بالعرفان بفضل هذه الأرباح وبالتالى يعاوننا فى ضم شركاء جدد. ويوفر لنا الشركاء الجدد بدورهم الأموال الطازجة اللازمة لدفع حصص أرباح الشركاء السابقين.

وبهذه الطريقة، نبنى أنا وأنت هرماً اقتصادياً حقيقيًا ينمو فيه رأس مال الشركة، بسبب الاستثمارات الجديدة المنجذبة بفعل أرباح السابقين، بصورة جنونية.

وللأسف، فإن عدد المستثمرين المحتملين ليس لا نهائياً. وفى اللحظة التى لم يعد يستثمر فيها أحد فى الهرم، ينهار تماماً كقلعة ورقية.

ونكون أنا وأنت قد حققنا حصادنا بعد خصم الأرباح التى تخصنا فى كل مرحلة من مراحل الصفقة. ويتم إعلان إفلاس الشركة ونستفيد

من القوانين المنظمة للإفلاس، بعد وضع الشركة تحت تصرف الحكومة، بدلاً من تسييلها.

أى أننا لن نخسر شيئاً. بل سنربح فى كل مرحلة من العملية. بل أكثر، فلن نظهر فى العلن. سيقوم بهذا بدلاً عنا وزير الإعلام، فيليبى آجييرى، ووزير الأشغال العامة، أنطونيو بيخارنو، فهما على استعداد ليلعبا دور خيال المآتة وبما أن بالديبيا سيطاردهما بلا أى اعتبار، فهما متلهفان للانتقام ويرغبان أن يستهل الرئيس البديل فترته بفضيحة كبرى. سيحرمهما من مكاسب هذه الصفقة وعن خطر لبالديبيا أن يقاضيهما بتهمة التدليس أثناء ممارستهما للسلطة، فلا أحد يحاكم على جريمة مرتين. هى مسألة دمج للأخطاء، يا آندينو، والاستعداد بقضاء فترة وجيزة فى آلمولويا مقابل حفنة ملايين فى حسابات جران كايمان.

وفى الوقت نفسه ـ بحكمتنا المعتاد ـ نخزن أرباحنا عبر البحار، تاركين فى المكسيك المال الكافى لتأكيد الإفلاس ويصادر المبلغ الزهيد من الشركة.

يا ليتك تستقبل عرضى بلطف. ولا تنس أن تناقش الأمر مع السيدة الموقرة زوجتك. لا ينبغى أن نفعل شيئاً بدون علم السيدة خوسيفينا. فالأمر يتعلق بالرفاهية المستقبلية لسيادتك ولتيتى وتاليتا وتوتو. فلا أعتقد أن بالديبيا سوف يحتفظ بك فى حكومته الجديدة، يا سيدى الوزير. ومن الغبن أن تقف ومن معك وسط هذا الاستعراض الشعبى للثروات والأرباح لتكتفوا بالفرجة من النافذة.

وتذكر، وأنت رجل شريف، أن المبادئ ينبغى أن تخدم سادة أشرار.

معك للأبد، ت.

ـ ٥٤ ـ

من عجوز المقهى

إلى النائبة باولينا تارديجرادا.

تلميذتى المقربة وصديقتى المفضلة. أتواصل معك على عجل بيّن، ولكن مع وقفة داخلية متأنية تعهدينها فىّ. "فى التأنى السلامة" كان شعارى منذ أزهرت شجرة التين وكان فيليبو قديساً (قديس مكسيكى حقيقى، صُلب على أيدى اليابانيين المتوحشين فى القرن السابع عشر، وليس قديساً مزيفاً مثل خوان دييجو لويس دى لوس نوباليس).

والآن، تخيلى أن شجرة الصبار على وشك السقوط بعد تمام نضجها ونحن نزور الصبار الوحيد بعد أن نما أخيراً.

ياه، الصبار، يا حبيبتى باولينا، رمز الأمة لأنه إن كان النسر فى درعنا الوطنى هو من يحكم والأفعى هى التى تعانى فى منقاره الحاد، فإن الحقيقة المجردة هى أن النسر يحتاج إلى الصبار كى لا يقع فى مياه البحيرة.

أفضل أن أصير عجوزاً ماكراً ولكن جاهلاً، لأن السياسى المثقف لا يوحى بالثقة للناس العاديين وقد رأيت لم يفلح يونايتس آدلاى ستيفينسون لأنه كان مثقفاً، كانوا يسمونه "رأس البيضة"، وبيل كلينتون الذى أخفى ثقافته وفى المقابل بوش الذى تباهى بجهله. أنت تدركين أنه أثناء جلوسى هنا فى بيراكروث استعرض كراهيتى للفرنسيين، ولكنى فى الحقيقة

تربيت على قراءة الروايات الفرنسية كالناس أجمعين. دوما [1]، هوجو[2]، فيرن[3]، بالأخص دوماس وروايتان بالتحديد، رواية الرجل ذى القناع الحديدى توأم الملك الذى أرسله إلى السجن، بلا شك. العروش ينبغى ألا تصير سوى لرجل واحد (أو امرأة، المعذرة، يا باولينا) فالسلطة تقوم على الشرعية لممارستها بتسلط. نعم، الرجل ذو القناع الحديدى، والكونت دى مونت كريستو، المسجون ظلماً لسنوات طويلة فى قلعة أولوا التى عندنا فى بيراكروث...

هاهو، يا حبيبتى باولينا، صديقك الكهل، وعجوز المقهى المنسى، يقدم إليك «الرجل ذو قناع الصبار».

السجين.

يعيش فى سجن قلعة سان خوان دى أولوا.

على وجهه قناع حديدى كى لا يتعرف عليه أحد ولا هو نفسه. وأمرت بطلائه بلون شجرة الصبار الأخضر كى يكون فريداً وأصلياً.

لا مخلوق يعرف هذا. وأنا أحكيه بكتمان مشهود للسجانين، لأن حكمتى فى بيراكروث هى القانون. إن فلتت لقمة من فم هنا ينتهى بها المطاف كعشاء للحيتان. وهكذا نجحت أن أجعل دولسى دى لاجارثيا تزور السرداب الجنائزى. لأنى أصدرت أوامرى أن يتركوها. كجزء من الخطة.

حافظت على السر طوال ثمانية أعوام.

كان صبرى أطول من صبر العجائز وهن يخلطن أوراق اللعب. يقولون إن عجوزاً ماتت ذات يوم وهى لا تزال تخلط أوراق اللعب. عاش خادمك

---

(١) آلكسندر دوما (١٨٠٢م - ١٨٧٠م) كاتب وروائى فرنسى. من أشهر أعماله: الفرسان الثلاثة، والكونت دى مونت كريستو (المترجمة).

(٢) فيكتور هوجو كاتب وروائى شاعر فرنسى (١٨٢٠م - ١٨٨٥م) من أشهر أعماله الروائية: البؤساء، أحدب نوتردام (المترجمة).

(٣) چول فيرن. كاتب فرنسى (١٨٢٨م - ١٩٠٥م) له الفضل فى تأسيس ما يعرف بأدب الخيال العلمى من أشهر أعماله رحلة إلى مركز الأرض وحول العالم فى ثمانين يومًا (المترجمة).

حياته وهو يوزع الأدوار حسب أهوائه. كتوم، صامت، أنا سيد ميناء بيراكروث، فى دولة "متشظية"، كما يسميها آجيلار كامين فى مقالاته، منقسمة إلى إقطاعيات أكثر من الأرجنتين نفسها. من سينكر على قطعتى من السلطة المحلية؟ أليس بيدال بحاكم لتاباسكو و كينتيرو فى تاماوليباس وكابيساس فى سونورا، احترموا جمهوريتى الصغيرة، التى لا تمتد سوى من مصب النهر من جانب، إلى منزل إيرنان كورتيس فى الجانب الآخر، وإلى أبعد بقليل من الطريق المؤدى إلى تونونوكابان...

هنا آمر وأنهى. ومن يعترض طريقى، أعرضه فى متحف الأحياء المائية ليتفرجوا عليه وهو يحارب الحيتان... هنا لا يتقرب منى أحد، وأنا باسم وحازم وصبور. هل تعلمين أنى لم أكف قط عن تثقيف نفسى، ولكنى لست مثل المتحذلقين الذين يتباهون بما يعرفونه. كنت تقرئين لى بصوت عال، وأنت شابة حين كنت تواسينى فى وفاة زوجتى، الأمير مكيافيللى. فضيلة، حاجة، ثروة. لن أنساه أبداً. صفات الحاكم فى تاريخ المكسيك فى القرن التاسع عشر. اعتمد خواريث على الفضيلة، وسانتا آنا على الحاجة وإتوربيدى على الثروة. وفى القرن العشرين كان ماديرو فاضلاً، وكاييس المحتاج واوبريجون الثرى. هأنتِ ترين، المحتاج وحده هو من لم يمت بالاغتيال. الفضيلة، الحاجة، الثروة؟ واعتقد الجنرال كاديناس وحده وهو من جمع الثلاثة. وأنا، يا حبيبتى باولينا، استفدت من الثلاثة، واستغليت الثلاثة ولكنى لم أمتلكها. كيف أكون فاضلاً، أو محتاجاً، وثرياً، وأمضيت حياتى كلها شاكاً؟

كانوا يرددون أقوالى التصويرية عن السياسة.

ـ فى المعارك الكبرى، يأتى الأشرار بعد الأبطال.

ـ فى السياسة، تتحول الفراشة خفاشاً فى الليل.

ـ فى المكسيك، يأتى اللصوص قبل الشرفاء،

ـ فى المكسيك ، يسبق اللص الشريف ، الذى بدوره يغدو اللص

التالى- الطبقة المحمية فى السياسة المكسيكية هى طبقة المداهنين واللصوص والماكرين وأصحاب الرواتب المعطرة .

- انظر إلى الحمام وهو يحلق والصقور تأتى من خلفه .

باولينا، ثمة أوقات للقشعريرة الوطنية وأوقات أخرى للحمى الوطنية. واليوم ثمة قشعريرة حمى تهددنا. قد يفتح موت الرئيس تيران الأبواب أمام دراكولات السياسة الوطنية. يراهن آروثا على الانقلاب العسكرى. وثيسار ليون على إعادة انتخابه. إيريرا على أنه كان مفضلاً لدى الراحل تيران. أما تاثيتو ، فدعنا منه، فهو فاسد ظاهر جداً، خنوع بطبيعته وساذج حتى أنى قلت له ذات مرة،

ـ أنت جرذ يصعد إلى السفينة الغارقة.

تدعى الذكاء وأنت غبى.

أخدم السيد الرئيس."السيد الرئيس"- تجرأ أن يقولها بتهكم.

ـ ما تفعله جيداً، يا تاثيتو، هو أنك تنفذ أوامر الرئيس قبل أن ينطقها.

ـ سيدى، أنا من يطلق عليه رجل البلاط المستقل- أجابنى ابن الحقيرة.

تنهدت: لن يكون هناك عبد أفضل منك لسيد أسوأ منه.

وقفة مسلية، يا باولينا. لمعرفتى أن تاثيتو يختال معتقداً أنه يحظى بشعبية كبيرة، نظمت تكريماً "للقوات الحية" الوهمية هنا فى بيراكروث. وهناك، وقت تناول النخب، اتهمته بالوصولية. لم يهب أحد للدفاع عنه. ابتسم تاثيتو وقال ما يلى، بالرغم من غرابته لك:

ـ أنا تافه. لا تضيعوا وقتكم فى الهجوم علىَّ.

قلت بصوت عال: لا أهاجمك. أنا أضع تعريفاً لك. أنت طفيلى.

قال مبتسماً: منذ متى وعدم فعل شىء يعد جريمة؟

وبما أن جميع الحاضرين شعروا بأن التلميح يمسهم، هكذا انتهى الـ....، ما بين مزحات وأعناق.

(وقفة قصيرة فى الشريط، ضحكة سريعة للعجوز تبعتها تنهيدة)

ليس آندينو آلماثان سوى دمية فى يد زوجته الطموحة. من أخشاه هو نيكولاس بالديبيا. هو شاب ونقى وذكى ويعجبنى. أراهن عليه ولكن المسألة، يا باولينا، هل هو معنا؟ لا أعتقد. فهو شاب ونقى ومستقل. أى، طموح ولا يهتم سوى بمصلحته الشخصية. تساعده ماريا ديل روساريو. ولكن هل هو يساعد ماريا ديل روساريو؟ سوف نرى. أنا أعرف أنك لا تتعاطفين مع تنينة لاس لوماس، كما تسمينها. كونى موضوعية، وزنى العوامل، وقيسى التأثيرات المحتملة. وأخيراً رئيس الكونجرس، أونيسيمو كانابال، صلصال نقى يمكننا تشكيله معًا إن لم يسبقنا ثيسار ليون، التى تربطه به صلة قرابة.

(وقفة طويلة فى الشريط)

باولينا، قد يكون الحاكم طيباً أو شريراً، ولكنه يحتاج دوماً للشرعية. أو أن يراه الناس هكذا. سيمنح الكونجرس الشرعية لمن يتم تعيينه رئيساً بديلاً فى غضون أيام، وربما. ساعات، لقد كبرت فى السن؛ لأنى لعبت دوماً على الآماد الطويلة. لم أستسغ يوماً الرضا الفورى، كما يحدث الآن. وأعرف أن الأيام تتبدل. وتوجد أوقات للعيش وأخرى للموت، وأوقات للسلام وأخرى للحرب.... قرأتِ لى هذا منذ سنوات وتأثرت به كما لو أنى جورب تحت المطر.

أوقات السلام، أوقات الحرب. كيف نفصل بينهما، وكيف نميزهما؟ سأخبرك. منذ ثمانية أعوام قدّم توماس موكتيثوما مورو نفسه مرشحاً ببرنامج من المثالية القتالية أثار ضغائن شتى ـ وما أكثرها فى هذا البلد. كانت حكومته مستحيلة وكانوا سيهاجمونه من كل التيارات. ويشلون حركته، ولتغرق البلد فى برميل من عصير القصب. كانوا سيجمدونه كما

يتم تجميد الجليد، بدون أن تهب عليه الرياح. لأن الريح هى الضاغط والجليد هو القبر. لا غير.

كنت أنتِ، يا باولينا، من أهدانى الفكرة، أخرجت واحدة من عباراتك، استدعيت البرد.

- الوزير السرى.

وهل هناك مكان أكثر برودة، يا باولينا، أكثر رطوبة أو مقاومة للرياح، ضاغطاً ومجمداً فى الوقت نفسه، غير قبو فى قلعة سان خوان دى أولوا.

الرجل ذو قناع الصبار. رمز، يا باولينا، رمز فى عالم لا يقدر على العيش بدون رموز. القناع حديدى ولونه مطلى بلون الصبار الأخضر كى يعجب السجين المسكين. هو فى عداد الموتى منذ ثمانية أعوام. دمية شمعية تنصهر فى قبره.

توماس موكتيثوما مورو

١٩٧٣ _ ٢٠١٢

رجل ذو قناع حديدى أخضر يزبل فى سجن أولوا المعتم، لمصلحته، يا باولينا، يجب أن تفهمى هذا، مسجون لمصلحته، كى لا تحكم عليه مثاليته بالموت حقاً، لإنقاذه من رصاصة الاغتيال الحتمية، من حاكم ولاية، أو مهرب، أو لإنقاذه من سرب النسور الجاهزة لالتهامه حياً، أنا قتلته، يا باولينا، أمرت باختطافه لمصلحته، وأعلنت بنفسى، وأنا رب الأسرة، موته، للبلد الحزين، والقبض الفورى وموت القاتل، أرجنتينى مهووس يدعى مارتين كاباروس، عضو فى حزب " ديل جاناو آل ماتاديرو"، مجرد أوهام.

ونظمت مراسم الجنازة هنا فى بيراكروث. كان توماس من مواليد آلبارادو، الأرض التى تشبه الغابات المتشابكة المزهرة طوال شهر مايو، كما لو أنه تكفير عن الكلام السيئ حول أهلها. " احمل الصليب فى آلبارادو فى كل مفاجأة. حسناً، ستقولين إنى أهذى وأنى متأثر بأقوال بلدتى

الأصلية. لا، يا باولينا، كان توماس موكتيثوما ابن الولاية المدلل، ويستحق كافة صلبان آلباردو.

أخفيت بنفسى (لا تسألينى كيف ولا أين) كل من شاركوا فى مسرحية الجنازة الهزلى، مزينو الموتى الآفاقون، وصانعو الدمى الشمعية، والشهود الحتميين- كانوا قلة اثنين أو ثلاثة على الجريمة المزيفة، وفى ليلة معتمة دخل توماس موكتيثوما مورو إلى حصن أولوا بدون وجه أو هوية سوى "الرجل ذو قناع الصبار". وقضى هناك ثمانية أعوام، لا يعرف مخلوق عن وجوده، وقناعه جزء من وجهه، وملتصق بجلده.

لماذا يا صغيرتى؟ لأنتشله من مثاليته القاتلة، ومن نفسه، ومن أسراب الأعداء التى استفزها. كان بمقدورها أن تقتله. لم يمس بعض بل كل مصالحهم. هذا المثالى، النقى، المستغرق، والتلميذ الشغوف، وابنى ربما: توماس موكتيثوما مورو، مسجون ثمانية أعوام فى القلعة الحصن، ثمانية أعوام وهو يرتدى قناع الصبار، ثمانية أعوام وأنا أنتظر اللحظة التى أخرجه فيها من القبو ليعود للنور، حين لا تهدد فضائله أحداً، وليكون ضماناً، يا باولينا، للشرعية، وكالزبدة بدلاً من المسطردة على الكعكة الوطنية.

لا تمنحونا قطاً نيابةً عن الأرنب البرى، لدى المكسيك رئيسها المنتخب وفقاً للدستور.

يدعى توماس موكتيثوما مورو.

نعم هو قط محبوس، ليصير غداً نمراً يقضى على كل المدعين المجانين راغبى خلافة لورينثيو تيران اليوم.

باولينا، لدينا رئيس. هيئى الروح المعنوية داخل الكونجرس لإعادة الشرعية بتقديم الرئيس المنتخب توماس موكتيثوما مورو، بدون الحاجة إلى رئيس مؤقت أو بديل أو انتخابات جديدة. اقطعى الطريق على ثيسار ليون. حفزى الرعديد أونيسيمو كانابال. لدينا الرئيس. حانت لحظة مورو.

قتلناه منذ ثمانية أعوام. والآن مثاليته الفعالة هى الدواء للوطن بعد فقدان الإرادة البائس للرئيس الراحل لورينثيو تيران.

انظرى فى عينىَّ، يا باولينا. ترين فى نظرتى كل ما سوف يحدث. وتخيلى، لمرة واحدة، أن ما سيحدث قد حدث من قبل.

وحين تعاودين النظر إلىَّ. لا تفزعى. فوجهى مرغم على تجميد دمائه، كى يتمكن من تجميد دماء وجوه الآخرين

ـ ٥٥ ـ

"لا بيبا" آلماثان

إلى تاثيتو دى لاكانال

تصبح رئيساً للمكسيك بمساعدتى، أليس كذلك؟ نتحالف لدفع زوجى إلى الرئاسة المؤقتة لكى يجعلك بدوره تتسلق إلى كرسى النسر؟ على أن أخدع زوجى بجعله يعتقد أنى أعمل لصالحه ليصل للرئاسة؟ ثم أثق فيك وفى وقاحتك لتصل لما تريد.....

همست لى بنفسك .....: أخلاقى أدنى من ذكائى.

دعنى أسخر من غطرستك، أيها الساذج المسكين. كنت ممسحة الساسة المكسيكيين. يقولون إنك أخطأت فى اختيار مهنتك. كان عليك أن تعمل قساً لا سياسياً.

ـ أنت مخطئة فى الاثنين.

حذرنى زوجى عندما حكى لى أن وزيرالداخلية بالديبيا يعرف ألعابك القذرة واختلاسك فى "مكسين" و كان عليه اللجوء إلى آنداينو كى تقوم وزارة المالية بدورها. وما يزيد الطين بلة، تسعى إلى إفساد زوجى بلعبة مالية قذرة.

أنت قس. أنت سياسى. ولكنك ساذج أيضًا.

أو إنك فضلات وعزاؤك الوحيد أنه فى هذا البلد الوضيع تجذب الفضلات المنافقين، لأنهم كالذباب، ماذا سيقول عنك خلفاؤك. يا تاثيتو البائس؟

ـ تاثيتو دى لاكانال؟ عانى من عسر الهضم. عمته متدينة. أب كهل، ورأس أصلع، وأظافره طويلة، وكوابيس متتالية.

ـ كان قذراً؟

ـ لم أتأكد؟

كان عارياً؟

هذا لا يثبت شيئاً.

مع من كان يمارس الحب؟

آه، يا سافل، ينسبون إليك سكرتيرات، وعاملات، ولكن لا يذكرني أحد بعلاقة تربطني معك. أحذرك. أن يقول شخص ما:

كان يضاجع خوسيفينا آلماثان " لا بيبا"، كما تعلم.

ما الذى لم تفعله لتحط من قدرك من أجل أن تعلو؟ ألم أرك وأنت تتكلم فى الهاتف مع الرئيس الراحل (أيام كان لدينا هواتف، يا أيها السافل)، كنت تتكلم واقفاً وتضرب كعبيك بصوت عال فى كل مرة تؤكد فيها "أمرك يا سيدى"، ألم أرك تحتفظ برماد السجائر المستهلكة لتقتل السيد الرئيس؟ ألم تكن تقف عارياً أمام المرآة وتقول منتشياً:

لا شيء يضاهينى سوى رغباتى. فهى فريدة.

وأنا محتملة بذاءاتك، وادعاءاتك المزهوة، مانحةً إياك ثقافة يوكاتان الكلاسيكية لاستغلالك من أجل زوجى، أنا زوجة آنديتو آلماثان المخلصة حتى جعلتنى ألعق مؤخرتك، أيها التافه اللعين، انظر فى المرآة، هل تعتقد أن بوسع أية امرأة أن تحبك حقيقةً، أيها الوسيم الجميل؟ هل تظن أن امرأة أقل تحكماً منى فى نفسها لن تبول من كتم الضحك فى السرير وهى تسمعك بعد أورجازماتك المندفعة وأنت تقول، الطموح يلتهمنى، ارغب فى ترك علامتى على جدار الزمن، وليس لدى، كالأسد، سوى مخالب.

رائع، يا لك من مصطنع يا بوش الصغير! كرهت على تحملك! وكله من أجل آنديتو ومن أجل أن يصل للرئاسة، تحالفت مع خصمك الجنرال

اروثا لعمل الانقلاب. آلماثان رئيساً لا مؤقتاً وإنما لمدة ستة أعوام، بفضل إعلان آروثا، هذه هى الخطة الأصلية، وليست خطتك، أيها البائس، ضاجعت آروثا لأستغلك كمشجب، بدفعك للاعتقاد بأن هذه المؤامرة من أجلك، ولم نسخر ـ آروثا وأنا ـ منك، فجنرالى كان فحلاً، يتقن المضاجعة، وليس مثلك، أيها الدودة الفاشلة.....

قال لى الجنرال: احترسى. هو دودة. ولكن تذكرى أنه عندما تقسمين الدودة إلى نصفين، تظل تتحرك.

هل تعلم؟ أفضل ما فى الموضوع أن أحداً لايصدق أن امرأة مثلى، شهية، ومثيرة، اختارت شيطانًا بائساً مثلك ليمتعها فى السرير.

وهل تعلم أمراً آخر؟ أنا اكتب إليك بصراحة بدون أى إيحاءات لأنه لا يهمنى البتة أن تظهر هذه الرسالة. لم يتبق لك مصداقية. كل ما تقوله وتفعله يراه الناس غشاً... ومكتوب على رأسك التى تشبه البطيخة: لص وآفاق.

ملامحى آسيوية وتصرفاتى متحررة.

هذا أول ما قلته لى، أيها الأبله، كانت بطاقة تعارفك. أرغمت نفسى على كتم الضحكة. كنت على استعداد للعب بكل الأوراق. مع الجنرال ليصبح زوجى آندينو رئيساً مؤقتاً بعد عزل تيران لعدم صلاحيته ثم ليتحول دمية ويحكم آروثا بمساعدتى. أو معك، كخيار ثان، فى حال وصلت إلى الرئاسة " لجدارتك" (فكل شىء محتمل فى حياة كهذه) أو أن يعينك الكونجرس رئيساً مع دينو كرئيس مؤقت.

وإلى متى كنت ستبقى؟ للمدة التى نقررها أنا وجنرالى، لا أكثر. وإن خسرت فى أن تكون رئيساً مؤقتاً لدعم آندينو الرئيس وآروثا الحاكم الناهى من وراء كرسى النسر.

رأيت، لعبة شطرنج، أنا فيها الملكة، وآروثا الملك، وآندينو الفيل، وأنت جندى مشاه.

وداعـاً، يـا تـاثيـتـو البـائس. خـرجت من المـرحـاض وإلـيه تـعـود. وقل لنيكولاس بالديبيا أنه لا أهمية للمبادئ المثالية، وأن القنـاعات لا تفيد. قل لنا مع من أنت. فهذا هو المهم.

آه، أعطى بالديبيا أوامر بعدم استقبالك فى أى مكتب حكومى.

ـ ٥٦ ـ

دولسى دى لاجارثا

إلى عجوز المقهى

سيدى الرئيس، لا أقوى على تحمل عاطفتى وحزنى لذا أكتب إليك، ولا أعلم إن كنت سأطيق النظر فى عينيك، وأنت من سببت لى معاناة كبيرة والآن تعيد لى سعادة مستحيلة لم أحلم بها قط. دعوتنى إلى مقهى الميناء. كنت أعلم أن توماس يحترمك بشدة. وكم من مرة كرر علىّ أنك معلمه، وكأب له ـ أب ـ نصحته دوماً أن يقلل من طيبته ويزيد من صلابته.

أسوأ عدو للسلطة هو البرىء- قلت لسيادتك لتوماس واحفظ تلك الكلمات فى قلبى، كعهدى بكل ما قاله لى حبيبى- حتى الآن أنت مجرد أحد المرشحين للرئاسة. كما كان ينبغى أن تسير الأمور. والآن تود أن تصبح إصلاحياً. قف. لا تغدو فجراً فى منتصف الليل. قم بإصلاحاتك حين تصبح فعلياً على كرسى النسر، كما فعلت أنا. استفد من خبرتى.

يا ليتنى كنت أعرف أنه شجاع ولن ينفذ. يا ليتنى فهمت أن كل أصحاب النفوذ فى المكسيك يعتبرونه تهديداً لهم. ولذا قتلوه.

عشت ثمانية أعوام، كنت فى الحادية والعشرين حينئذ، والآن أنا فى التاسعة والعشرين وفى طريقى إلى الثلاثين، ما يسمونه زهرة العمر، أليس كذلك؟ ثمانية أعوام من المعاناة، يا سيدى الرئيس. ولكن كانت معاناتى هى اليقين الوحيد على الأقل. وتأتى الآن سيادتك لتغرقنى فى بئر من اليأس والمآسى الأسوأ.

نعم، إن كان توماس حياً. وسيادتك تتسم بالوقاحة لتحكى لى ما قلته بنفسك لرجلى عندما انتزعته بنفسك منى، أنت المذنب الأوحد.

توماسيتو، تخيل أنك مسجون تحظى برعاية فائقة. فكر فى أن الحياة قبيحة وخطرة، تهيمن عليها الوحشية. انظر، يا بنى. أغلق الباب على العالم لبعض الوقت وعد بعد أن تجدد شبابك. اختر الوقت. هذه الساعة ليست ساعتك. أقسم لك.

لم تواتيك الشجاعة أمس لتزور هذه الزنزانة. اكتفيت أن ترسل لتوماس رسالة مكتوبة معى. وهى معى الآن.

" رغبت فى أن أوليك الحكم. وددت أن أمنحك الفرصة لعمل الأشياء التى فشلت فيها أن النظام أيامى كان مختلفاً. اغفر لى، سامحنى ، يا توماسيتو. لم تفهمنى، لم تعرف كيف تختار الوقت. للمرة الثانية، ما فعلت، إنما فعلته لأجلك. أسديت لك نصحاً مفيداً مراراً وتكراراً واحببت أن أكون درعك لأحميك من مبادئك المثالية المتهورة. والآن حان الوقت. تطالب البلد الآن بالشرعية، والرمز، والدراما، والأمل. منذ أن بعث المسيح لم يأت بعث آخر سوى بعثك أنت، يا بنى. حشدت لك المصورين والتليفزيون والمراسلين عند خروجك من أولوا. عجباً، إنهم لا يعرفون مدى دهائى إلى الآن. اسمعنى جيداً، يا توماس:

أنت لم تسجن فى أولوا قط. تهت فى الأدغال، تعرضت للاختطاف، وشردت نتيجة للتعذيب ونبات البيوته(*) وشردت فى الأدغال الواسعة. دفنت ساحرة من كاتيماكو أظافرك وخصلات من شعرك أسفل شجرة سيبا. بقيت مسحوراً طوال ثمانية أعوام، يا توماس، ضائعاً وسط الطبيعة، باتت الأدغال جزءاً منك، وأنت لاتدرك الفارق بين نبتة الفانيليا وشجرة الفلفل، وبين التشوتى، والشوك الأبيض، والخونوتى وقصب السكر. طبيعة بيراكروث المسرفة الشاهدة على ولادتنا، يا توماسيتو، التفت حولك كعباءة ملكية، واحتوتك، وجعلتك جزءاً منها....لا تنس، يا توماسيتو، فأنت

(*) نبات من عائلة الصبار ينتشر فى وسط المكسيك (المترجمة).

مسحور. تنام جالساً لأنك لو رقدت لن تهب عليك رياح البحر. تنام وتفتح النوافذ لترطبك أمطار خليج المكسيك. وإن مت دعهم يقولون إن "الشمال" متورط فى الجريمة. صدقت نفسك، أنك مت، يا توماس. والآن تظهر لك خطيبتك دولسى لانتشالك، ولتقول لك،

عثرنا عليك فى النهائية. كنت تائهاً فى الأدغال.

ياه، يا سيدى الرئيس، فيما تفكر سيادتك، لن تصدق ما قلته لنفسى.

ترغب كل المكسيك فى رمز. حتى أنهم كان بوسعهم أن يجعلوا هندياً فاقد الذاكرة مثل خوان دييجو قديساً. لم لا يجعلون من مورو رئيساً فى اللحظة المواتية، وهى العام الحالى ٢٠٢٠ وليس عام ٢٠١٢ الذى ولى؟ معجزة، معجزة! وكما تعيش بلادى الرقيقة على المعجزات مثل اليانصيب... معجزات، وإيمان، وسرعة تصديق. هل ثمة شىء آخر له شرعية فى المكسيك؟ رئيس منتخب، ضائع فى الأدغال، وفاقد الذاكرة كقديس. يعود ثانيةً ويطالب بكرسى النسر ليس إلا. الشعور، آنسة دى لاجارثيا! الشعور الحسى. إن كنت أنت، خطيبته المقدسة، من أنقذته وأعادته إلى مكانه الذى ينتمى إليه. فهى قصة حب! حب ومعجزة، يا آنستى! من بوسعه معارضة هذا كله، إنه أتقن عمل فى حياتى كلها، يمكننى الموت بسلام الآن. لم يتبق سوى الأظرف المختومة بالشمع الأحمر، وشخص اعتمد عليه والاعيب انتخابية والطبق الطائر و الساقية وأصوات الناخبين وكل ما نظمته لأصل للرئاسة. ها قد أنجزت مهمتى السياسية: أعطيت المكسيك الرئيس الضرورى فى اللحظة الضرورية، بعثته من الموت كما فعل الإله الأب مع ابنه عيسى، أعدته إلى العالم محاطاً بسمات غامضة، ومغامرات الفرسان، مسحات الزهد، والألم، التى لا غنى عنها، والإحساس الميلودرامى، والحب المسترد.... آنسة دولسى، ألا تشعرى بتهدج صوتى، وقوتى التى استعدتها، فأنا ختمت عمل حياتى؟

بلى، يا سيدى الرئيس، أشعر به، لقد أعطتنى سيادتك المعاناة، والعار، والكراهية. وأعتقد أنك فقدت عقلك. هل أنت متخلف عقلى أم وحش عجوز يتلاعب بحيوات وعواطف الأشخاص دون إنسانية....

كان لك كل الحق أن ترسلني لرؤية توماس، هرعت بفرح ولكن كان قلبى يرتعش ويخفق بشدة، وشعرت بضيق وعدم راحة، أجهل ما ينتظرنى.

قادوا خطواتى فى تلك الأنفاق المعتمة التى تفوح منها رائحة موتى منسيين. ثبت جرذ نظره على كما لو أنه يشتهينى. كان الملح يقطر من القباء. وتصر القلعة أكملها كما لو أن وقع خطواتى يسبب لها إزعاجاً. أقول لك هذا كله لتعرف مدى البلاغة التى حلت على عقلى ولغتى، وأنا أستعد لأهم إثارة فى حياتى...

كان يضع القناع عندما دخلت الزنزانة.

ـ توماس، يا حبيبى، هذه أنا.

لحظة صمت. أطول لحظة فى حياتى، وكانت كافية لأسترجع لقائى مع توماس فى متحف مونتيرى ثم كل لحظات حبنا بعد ذلك.

ـ توماس، حبيبى، هذه أنا.

كتب على الجدار بالطباشير ما سطره آلاف المرات، حيث كانت الزنزانة مليئة بهذه الكتابات البيضاء، المتلاشية، بفعل الرطوبة....

خبز، وقت، صبر.

عانقته، تخلص منى بحركة عينيه من كتفيه. شعرت بحيرة، بعد أن مزقنى شعاع غير متوقع. ركعت وعانقت ركبتيه.

توماس، لقد عدت، هذه أنا.

نظرت إليه متوسلةً:

كان الصمت يغلفه.

داعبته وأنا راكعة. ونظرت إليه متوسلة.

انزع قناعك. دعنى آراك مرة أخرى.

ضحك، يا سيدى الرئيس. لم أسمع قهقهة كتلك فى حياتى، ولا أحب سماعها مجدداً. سلاسل فى حلقه. يضحك كما لو أنه يجر حديداً وليس

كلمات. ارتعش صوتى، كما لو أنى خطيبة للموت، عاشقة ظهرت من القبر نفسه الذى كنت أزوره طوال ثمانية أعوام، وأنا أحمل الورود، باكيةً أحياناً، ورافضةً فى أحيان أخرى أن أروى القبر بدموعى. ارتعش صوتى، كأنى عاشقة أجبرت ذات يوم على الرحيل وتغازل الموت الآن، لأن هذا الرجل الذى خدعته بقسوة، وسجنته وتلاعبت به لشرورك، نعم لشرورك، يا سيدى، لم يعد الرجل الذى عرفته.

شخص آخر ولا أعرف كيف أنادى عليه، أو أتحدث معه.

لم يرد على كلماتى. خربشت القناع بأظافرى، كنت أود أن أفتحه كأنه علبة صفيح. توقف عن الضحك، ثم خرج صوت مختنق، صوت كأنه مغطى بفروة، لم أعهده من قبل وتساءلت من أنا، ماذا أفعل هناك، كيف جسرت على التطفل إلى المكان الذى كان يخصه وحده.

وجهك.... دعنى أرى وجهك. يا توماس...

كان ينبغى ألا أكون بلهاء، ألا أرغب فى رؤية وجهه تحت القناع، لماذا لم أعتقد أنهم وضعوا القناع كى يخفوا شيئاً مريعاً، وجه وحش، رأس نسر فى جسد إنسان، عينى أفعى وفم كلب؟ هل كنت أرغب فى رؤية هذا، أنا البلهاء البائسة؟ أو أن له وجه مجنون، وأن ذقنه كثيفة الشعر حتى أنها تشوه صوته، وأن السجناء أنفسهم لا يرغبون فى رؤيته عندما ينزعون القناع لإعطائه الطعام، أو ليراقبوه ثم يعاودوا وضعه ثانيةً، لم يعد يقاوم، توقف عن المقاومة منذ قرون، واعتاد على " - الزمن، الخبز، الصبر"- وكان سيتحول إلى مجنون بالكامل إن تعرض للنور. كان لا يؤمن أن الحقيقة فى الخارج، بل كان يؤمن دوماً، وحتى الموت، أن الحقيقة هناك بالداخل، سجينة ولكنها متحررة من خداع العالم، والأكاذيب بالخارج، وتهيم فى الخارج الآمال والأحلام؟

هنا مقامى، الحقيقة، السلام، الزمن، الصبر...

قال لى هذا، وجرحنى، بدون أن يتعرف علىّ أو تظاهر بأنه لا

يعرفنى، لا أدرى، رافضاً أن يدير وجهه نحوى، وصوته مختنق بفعل الفروة كما لو أنه فى الأدغال التى اخترعتها سيادتك بقسوة، صوت حبيس وراء القناع ثم كلماته الغريبة:

أوقظوا الأموات، لأن الأحياء موتى...

لم يعرفنى. ولكنى سأقول، وأنا أعرف توماس موكتيثوما مورو أكثر من أى أحد آخر. إنه عثر على مستقره بين هذه الجدران الأربعة الجليدية، كان لا يرى البحر، أو يشعر بأمواجه، فى هذه الفجوة العميقة التى هى جزء من خليج المكسيك. بالنسبة له، كان قبو أولوا هو الحقيقة الوحيدة المعلومة والمقبولة. هذه هو عملك القاسى والملعون، سيدى العجوز.

كيف أعرف أنه هو؟

هذا الصوت لا يمكن نسيانه، بغض النظر عن التشويه الذى شعرته فيه.

كيف أعرف أنه لا يزال حياً؟

بسبب الخوف فى عينيه، التى تمكنت من رؤيتهما عبر أسياخ القناع.

بسبب الخوف فى عينيه، يا سيدى الرئيس. خوف لم أره ولا فى أبشع كوابيس حياتى، خوف من كل شىء، هل تفهم سيدى؟ خوف من الذاكرة، من الحب، من الرغبة، من الحياة، من الموت... الخوف الذى وضعته ، يا سيدى الرئيس، فليجحمك الشيطان فى أهوى حفرات الجحيم يوم موتك. ماذا تريد المرة القادمة إن لم تعرف الآن أن حياته كانت جحيماً.

كان كل شىء بلا فائدة. ضحيت سيادتك برجلى مقابل لا شىء. لن يخرج توماس موكتيثوما مورو أبداً من أولوا. لا حياً ولا ميتاً. هذه الزنزانة حفرته والحضن الأمومى المستقر له. لن يعرف مكاناً آخر.

عليك أن تشعر بالعار، أو الأسوأ لك هو أن تشعر بضياع الفرصة. وأعتقد أنه، للمرة الأولى، لن تأتى الرياح بما تشتهيه. لقد منحتنى رعباً. بل ومعاناة أيضاً.

أتوسل إليك فى شىء واحد. استمر فى رشوة حراس المقبرة إلى أن أستطيع على الأقل، وكما حدث يوماً، أن أفتح المقبرة المزيفة لتوماس موكتيثوما مورو.

ـ ٥٧ ـ

تاثيتو دي لاكانال

إلى "لابيبا" آلماثان

لا تقلقى علىَّ، يا حبيبتى. فلقد خسرت كل شىء، ماعدا الملجأ الأكثر حميمية لروحى، وهو حبى لك. لا يهمنى أن تحتقرينى، أو تشتمينى، أن تقصينى من وجهك للأبد. لا يهمنى. لقد أبت إلى أكثر المرافئ أمناً. أود أن تعرفى هذا. ليس نصراً ولا هزيمة. تتهمينني فى وجهى بالعبودية والغطرسة. وتحتقرينني وأنا أستحق هذا. كل ما اعتبرته ثروة انقلب ضدى فى لحظة وفى الوقت نفسه.

أنا كنت الشخص الذى يمكن للرئيس أن يقول له،

اقفز من النافذة، يا تاثيتو.

وكنت سأرد عليه،

بعد إذنك، يا سيدى، سأقفز من السقف.

كان لدى هاجس. هل تعلمين. فى اليوم الذى جاء فيه رئيس دولة أجنبية لزيارة الرئيس فى لوس بينوس. كنت فى انتظاره على البوابة. أعطانى المسئول الرفيع معطفه كما لوأنى الخادم. هكذا رآنى. بلا شك كنت أضع يدى خلفى ظهرى كما يفعل خدم البلاط الملكى فى إنجلترا(*)، فى كناية تأدبية، و ليس لأننى كبير خدم القصر. ولكن، لأننى كنت هكذا

(*) بالإنجليزية فى الأصل royals (المترجمة).

فى الحقيقة، تناولت معطف الزائر، وأحنيت رأسى وأشرت له أن يواصل التقدم. لم ينظر لى. بقيت ومعطف المطر لرئيس باراجواى بين يدى فيما تبتعد الشخصية وهى تهمس.

البرد شديد فى المكسيك.

كنت الخادم، قطعاً. سأعاود على نفسى السؤال الذى سألته حين دخلت لخدمة السيد الرئيس لورينثيو تيران....

وستقولين لى:

ياللسهولة! فأنت الآن لا أحد، لديك الرفاهية لتلعب دور المتواضع.

صدقينى. أو لا تصدقينى. ما الفارق. أكتب لكِ للمرة الأخيرة، يا بيبونتى. لن أفعلها ثانيةً، أقسم لكِ. وددت أن تعرفى نهايتى وحسب وتتقبلى ما تقبلته بتواضع حقيقى.

يعيش أبى منعزلاً فى منزله الصغير فى صحراء الأسود. فى منزل متواضع ولكنه لائق وهو مخبأ لائق. يمكن الوصول إليه عبر الطرق المحفورة بالمنحنيات ويرى بركان آخوسكو. والدى هرم للغاية. وأطلق عليه أ. ب ، أب قديم، مستدعياً إحدى قراءاتى، القديمة أيضاً، عندما كنت شابًا، لروايات ديكنز.

لأننى كنت شاباً ذات يوم، يا بيبا، بالرغم من أنه لا أنتِ ولا الناس تصدق هذا. كنت شاباً، ودرست، وأعددت نفسى. كان الطموح يدفعنى وشىء آخر: مصير أبى. لن أكرره عليكِ. أرايت؟ لا أود أن أصير مثله.

طوال ثلاث فترات رئاسية من ثلاثة أعوام كان أ. ب. عاملاً حاسماً فى السياسة المكسيكية. انتقل من وزارة خارجية لأخرى، كسلطة فى الظل، كعامل سياسى لصالح اللعبة الكبرى، أى، دفع وزيره إلى أن يصبح مرشح الحزب الثورى المؤسسى ومن هناك إلى الرئاسة. وبما أنه لم يوفق قط، اكتفى بثقة الفائز. كان دوماً فى الظل. دومًا كمناور سرى. لم يقدر أن يتطلع إلى الأبعد، لأنه ولد فى إيطاليا لأبوين إيطاليين، آل كانالى فى

نابوليس. ولذا كان أهلاً للثقة أيضاً. كان لطموحاته سقف مشروع. أنه لن يصبح رئيساً أبداً. ثلاث فترات رئاسية. حتى أنهم خزنوا لديه أسرار كثيرة، وهذه كانت المشكلة. أغلبها لا يمكن لأحد أن يصدق أنها حدثت، لأن الأسرار كانت ذات طبيعة متناقضة ومحيرة وما كان لازماً فى "أ" كان نقيصة فى "ب"، و ما كان فضيلة فى "ج" كان رذيلة لدى" د" ودارت الدائرة. وربما كان كل ما يعرفه والدى، ولوفرته انقلب ضده.

"أ" وجه له اللوم لأنه حافظ على السر فى حين كان من المفيد كشفه.

"ب" عاتبه لأنه لم يفهم أن كتمان أبى أنقذه، فى حين أن "ب" كان يرغب فى أن يُكشَف السر ويُستغَل كتهديد سياسى.

"ج" اضطر إلى التضحية بأبى بسبب كتمانه: ما كان يعرفه كانت جرائم دولة.

وفى المقابل عاتبه "د" على ما يفترض أنه إفشاء لبعض الأسرار.

نعم كان أ-ب. لديه عدة خيوط فى يده، وتحولت كرات الخيط، حرفياً، إلى رصاصات، كان يتحكم فى دُمى شتى وكان مسرح حياته منزلاً للقمار.

كان والدى ماهراً للغاية. خانه ذكاؤه. خانته يده. نسى أن يتطهر من القاتلين. نسى أنه لتأمين الحياة لعدوك، عليك أن تقتله أولاً. نسى الدروس المميتة لأكثر الدكتاتوريات بقاءً: خدمة أصحاب النفوذ فى الخفاء قد تكون دافعاً على المكافأة أو على العقاب. جاءت لحظة كان والدى يعرف كثيراً من الأسرار جعلت الجميع يخشونه وأصبح مشهوراً. لم ينقذه أنه كتوم. على العكس، قرروا قتله قبل أن يفتح فمه.

كيف حطموه؟ بالثناء عليه، يا بيبا. بالإغراق فى مدحه. وانتزعوه من الظلال التى كانت مستقره الطبيعى. بعرضه فى وسط الحلبات السياسية والظهور فى الإعلام. كان أبى المسكين يعانى بين تعوده على البقاء فى الظل وبين الاستمتاع بالثناء الشعبى. نسى صيحة مساعد ستالين، من فضلكما، لا تمتدحونى! لا تدفعوهم إلى إرسالى لسيبيريا...!

نعم، تلقى أ. ب. تصفيقاً حاراً، ليس من قبل العامة، فهو لا يهم، وإنما من قبل الرئيس الموجود، وهو أكثر تصفيق يثير الحسد والانتقام ضد الشخص المفضل....

والملخص: قضى وقتاً كبيراً فى التناقض بين أن يصير قنديلاً للبيت أو ظلاماً فى الشارع.

يقولون إن الشخصية العامة يجب أن تعيش فى ضيق، بدون أن تظهره. أحياناً، مع ذلك، ينبغى أن يتحول الضيق إلى فعل. كان ستالين يرهب أطباء الأسنان. فضل أن تخسر أسنانه وألا يعرض نفسه للخطر. أو ربما يظل الشخص يعتقد حتى النهاية أنه يكافئ ليس على قدرته، وإنما على إخلاصه. اسخرى منى، تذكرى انحطاطى، اتهمينى فى وجهى بالغطرسة. وأشفقى على هزيمتى. هى الفصل الثانى من انهيار أبى نفسه.

مرت أعوام بدون أن أراه. لم أتوقف قط عن إرسال النقود إليه. كان قربه يسبب لى الرهبة. فالفشل يعدى. لم أحب أن أكرر حياته. كنت فى طريقى للنجاح فيما فشل فيه. كنت فى طريقى إلى كرسى النسر. بيرنال إيريرا، ماريا ديل روساريو، أكبر عدوين لى، وأنت نفسك، الخائنة، الأعداء الصغار الذين لا ينبغى احتقارهم أبداً، الزهرات اللواتى داخل مكتبى نفسه، دوريتا ذات الجمال الملائكى، وبينيلوبى ذات البشرة المشدودة، والمهندس الحقيقى لسقوطى، نيكولاس بالديبيا، وزير الداخلية اليوم، الرجل الذى حاك المكيدة التى أضاعت منى السلطة. وهذه الأدوار اللعينة المنسوبة إلى رجل الأرشيف الوقح كاستولو ماجون، وتلك الأدوار التى صادقت عليها؛ لأن الرئيس ثيسار ليون طلبها منى، طلب كان بمثابة الأمر والعزاء فى ذات الوقت.

لا تجزع يا تاثيتو، لدى موظف أرشيف ذكى للحظة التى أغادر فيها قصر الرئاسة. أحتاجه لإنعاش ذاكرتى. سأنتقى بعناية. ولكن لا يمكننى التضحية بوثيقة واحدة من أيام رئاستى. لا يحكم الرئيس فى المكسيك

لفترة ستة أعوام وحسب. وإنما يحكم من أجل التاريخ. علينا الاحتفاظ بكل شيء. الجيد والرديء. من بوسعه، يا تاثيتو الطيب، أن يمنع الزمن من أن يعطى الحق لتجاهل القانون الذى كان لابد منه؟ ما يهم أكثر، غش المساهمين الصغار أو إنقاذ الشركات العملاقة المحركة لاقتصاد مصدر كاقتصادنا؟

ابتسم بوقاحة:

كما أن موظف الأرشيف عنده أوامر أن يلقى بأصول هذه الوثائق فى آلة تمزيق الأوراق، وتبقى معى النسخ الموثقة.

كانت ثمة حقيقة عارية فى عينيه التى تشبه عينى البعوضة. نعم، يا بيبا، هذا الرجل يشبه البعوض، له عينان تنظران فى جميع الاتجاهات فى ذات الوقت. وله قرنا استشعار طويلان برأسه. وزوجان من الأجنحة. واحد ليطير والآخر ليحافظ على توازنه. يحط على القمامة. هو بعوضة مسنة، لونها رمادى وبطنها صفراء. هذا ما يكشفه. احترسى منه. قدماه رخوتان تمكنه من الوقوف على الجدران والمشى على الأسقف. الديدان هى طعمه ووجبته المفضلة لحوم الجثث. أنتِ تكرهيننى. أنا لا أنصحك. لا تنخدعى بقوة الجنرال الوحشية المفرطة. كل الحذر مع ثيسار ليون. فهو دائماً يحمل "آس" آخر فى كم قميصه.

قلتها لبالديبيا. وأقولها لك، خاصةً الآن وأنتِ تنامين مع ذئب. إن آروثا الذئب يهاب ليون البعوضة. يخدع نفسه من يظن أن الرئيس السابق على استعداد للانسحاب. سوف يواصل شن الحرب حتى يوم مماته.

ولكن دعينى أعود إلى والدى القديم. انقلب العالم فوق رأسه، يا بيبا، مثلما يحدث معى، وأسوأ مما يحدث معى؛ لأنه لم يكن يصبو إلى كرسى النسر وكل ما أراده هو أن يواصل العمل من الظل. نعم: لأنه كان أقل طموحاً، وكانت الخسارة تؤلمه. كانت سبة لفضيلة الكتمان لديه. هل ترين؟ كان أمام ـ بفضل تواضع ـ أفق شاسع، وطويل كحياته كمستشار لا غنى

عنه، تاييران، فوشيه ، والأب جوزيف دى تريمبليه ، " كاتم السر" التقليدى إلى جانب ريشيليو. هل ترين كيف ترجع لى ذاكرتى كشاب يدرس ويعشق التاريخ كما كنت. هذا أفضل دليل على أنى كنت شخصاً آخر، يا خوسيفا، أنا آخر، هل تفهميننى؟ أشعر أن النيران تطهرنى. وفى النهاية. فإن الخفاء كان موهبة أبى. أكسبته ثقة كل أصحاب النفوذ. ولكنها جعلته ضحية مرة أخرى عندما وصل إلى معرفة كل شىء وهو لا أحد.

دخلت إلى المنزل الكائن بصحراء الأسود.

كانت الصبية التى تخدم الأب القديم ترتدى الزى المكسيكى التقليدى.

سألتها: ما اسمك؟، لأنى بالرغم أنى أسدد راتبها إلا أنى لم أرها من قبل.

جلوريا مارين، فى خدمة السيد.

ابتسمت: كالممثلة.

لا يا سيدى. أنا فعلاً الممثلة جلوريا مارين.

وبالتأكيد، كانت تشبه إحدى أكثر السيدات جمالاً وقلقاً فى السينما المكسيكية القديمة. ذات الشعر الأسود الأبنوسى، والأعين المكتئبة الحائرة ولكنها شهوانية خلف الأسلحة الحتمية للمرأة المكسيكية العزلاء.

والملامح، رائعة بوجه بيضوى قمحى اللون. وهاتان الشفتان بابتسامتهما النادرة ـ اللتان دوماً على حد الإيحاء بالمرارة. وديعتان فى مظهرهما، ومتمردتان من داخلهما.

وأبى؟

كعادته، يا سيدى. يشاهد التلفاز. ليل نهار.

مررت يدها بلا مبالاة على مريلتها فوق نهديها "المنتفخين"، ولم يكن أمامى وقت لأخبرها أن هوائى التلفاز معطل منذ يناير.

-آه. ليل نهار؟

- نعم. ينام أمامه، ويأكل أمامه، يقول إنه لا يستطيع أن يفوت ولا دقيقة واحدة مما يحصل فى التلفاز.

- مثل مسلسل الأخ الكبير التى تعرض منذ سنوات، ولكن على العكس....

- أنا لا أعلم. يقول إنهم بوسعهم قتله فى أية لحظة ويجب أن يبقى مستعداً للدفاع عن نفسه.

- من يريدون قتله؟

- حفنة من الأشرار.

- ما اسماؤهم؟

- أحدهم سوتى كوبيرا، وآخر يدعى تشولو بريما. لقد حلمت بهم، سيدى. هم فنزويليون على ما يبدو ويعيشون فى غابة اسمها كانايما.

راقبتها باندهاش يتفاقم.

حسناً. اسمك جلوريا مارين. وما اسم سيدك؟

خورخى نيجريتى.

لا، يدعى إنريكو كانالى. من أين أتيتِ باسم خورخى نيجريتى هذا، أيتها القطة التافهة؟ نيجريتى ممثل سينما، "المطرب ردىء الذوق"، بطل وسيم جداً، يتحدى الجميع، تحلم به الخادمات من أمثالك. ومات منذ مائة عام.

انفجرت جلوريا مارين فى البكاء.

ياه، يا سيدى، لا تقل هذا لسيدى. لا تقتله. هو خورخى نيجريتى. يؤمن بهذا حقيقةً. لا تفقده الوهم. الكلمة التى قد تقتله.

نظرت إلى الأرض.

اما أنا فادعونى كما تشاء.

تنهدت بثقل. ودلفت إلى الصالون الصغير، المطل على ساحة مهملة حيث تنمو الحشائش بين البلاط وشيطان وحيد يمنح الغفران. وفى مقعد أمام شاشة التلفاز كان أبى القديم يجلس. يتكلم مع نفسه، مستغرقاً. ونظرته مثبتة على الشاشة. أدخل إلى الحانة وأنظر إلى الجميع باحتقار. "معى مدفع رشاش" أصرخ وتسقط خصلة شعرى على الجبهة ويصمت الجميع، امسك أجمل فتاة من خصرها- اعذرينى يا جلوريا، لست أنتِ، فأنت لا تظهرين فى هذا الفيلم- واغنى....

أحس بوجودى، وضعت يدى على كتفه، أخذها بيده المرمرية المنمشة والباردة، كما لو أنه يشعر بالعرفان لوجودى ولكن بدون أن يفطن من أنا، غير الصورة بالريموت كنترول، كان من الواضح أنه يستعيد مشاهد جمعها بنفسه والآن أخذ خورخى نيجريتى يرقص على رقعة خشبية من بيراكروث على إيقاع النينيو آباريثيدو مع المذهلة جلوريا مارين التى ترتدى الموضة الأرستقراطية للقرن التاسع عشر، مع شال وجونلة حتى كعبيها. ونيجريتى بزى هندى، يتطلعان إلى بعضهما بشغف مستفز حتى يقوم أحد سكان الضيعة، وهو صيدى يدعى "بيتريولو"، يدفعه، وهو ممتلئ بالحقد، وصفعة لجلوريا وأبى القديم يسرع الشريط نحو الأمام لشعوره بالإثارة- شعرت بها فى قبضته ـ ليرى خورخى وهو يمنح جلوريا قبلة طويلة فى فيلم رسالة حب، متجنباً موت حبيبته فى الفيلم السابق.

أوقف أبى الصورة على القبلة، سعيداً، مستمتعاً باللحظة، ثم التفت نحوى أخيراً.

ـ شكراً لمجيئك لرؤيتى، انتظرت طويلاً ليرسلوا لى خادمى.

نظر إلىَّ وهو لا يعرفنى.

ـ من أنت؟ مينتيكيا ولا تشيكونى.

ـ تشيكونى، يا أبى؟

ـ ماذا؟

اعذرنى. أنا تشيكونى، تابعك المخلص.

ـ نعم أحب هذا. أدعوك لتناول تيكيلا مع ليمون فى ركن من الحانة، حتى نسقط من السكر، ونحلم بالنساء الخائنات وتعزينا رفيقات الروح....

غنى نيجريتى على الشاشة، وغنى أبى من مقعده، وغنيت ويد أبى فى يدى ونحن نرى مشاهد من فيلم "أرغمت على تناول هذه التونة".

النسر حيوان

مرسوم على النقود.

وليصعد على الصبار

طلب الإذن أولاً.

وفى الساحة، وبدون أن تنتبه لنا، كانت جلوريا مارين تروى أحواض الزرع وتنشد أغنيتها الخاصة.

أنا عذراء، تروى الورود.

ونقلت إلىَّ نظرة دلال.

رددتها إليها.

بوسعك أن تقولى ما تفكرين فيه، يا خوسيفينا.

يالأسفى لأن زوجك، المعروف بشرفه الزائد، قد أطلعك على خطتى لعودتى المالية، واصفاً إياى أمامك بأنى ماكر ومجرم. فلنر كيف ستجرى الأمور معك ومعه فى مياهنا السياسية المتقلبة. عرضت عليه عابرة للمحيطات. ولكنه اكتفى بقارب. كله بأمر الرب.

ولكن مهما قرأتِ أو مهما قالوا لكِ، تذكرى أنى دوماً سياسى وأن السياسة لها تقلبات كثيرة. فى السياسة، تتولى المسئولية، وتكافئين. ليس هناك حل آخر، هذه هى الحقيقة الخالصة.

لك، ت

- ٥٨ -

نيكولاس بالديبيا

إلى الرئيس السابق ثيسار ليون

سيدى الرئيس المميز والصديق الماهر: لا أحد خير منك يدرك قواعد السياسة الوطنية. يترك كل رئيس عدداً من الأقوال أقل أو أكثر شهرة والتى تصير جزءاً من الفلكلور "السياسى".

ـ فى السياسة، تبتلع الضفادع بدون أن ترمش.

ـ السياسى الفقير هو سياسى مسكين.

ـ إلى أعلى وإلى الأمام.

ـ نحن جميعاً الحل.

ـ إن يلائم الأمر الرئيس، فإنه يلائم المكسيك.

واذكرك باثنين فقط من حصادك:

للحفاظ على العادات، علينا بخرق القوانين.

الوصول إلى الرئاسة كالوصول إلى جزيرة الكنز. وبالرغم أنهم يطردونك من الجزيرة، إلا أنك لن تتوقف قط عن الاشتياق إليها. ترغب فى العودة إليها، بالرغم من أن الجميع، بما فيهم أنت نفسك، يقولون لك لا.

حسنًا، يا سيدى، ها قد جاءت لحظة مغادرة جزيرة الكنز. اتفهم عواطفك. رغبت سيادتك فى أن تصبح عاملاً للمصالحة فى لحظات توقعت أنها صعبة بالنسبة للجمهورية. قلت سيادتك علانيةً إن:

ـ إن الصراع على السلطة يدمر الشيء الوحيد الذى يضفى على السلطة معنى، وهو عمل ثروة للبلد فى ظل النظام والشرعية.

كان لا يمكننى معارضة سيادتك. أتفهم مخاوفك، يا سيدى الرئيس. تراقب سيادتك الصراع الوشيك. تخشى أن يسفر عن مظاهرات، حرب أهلية، تفتت. ترى نفسك عاملاً للوحدة والخبرة والسلطة والاستمرار.

سيدى الرئيس: أتطلع إليك وعقلى يقول لى إن السياسى الذى يمشى معتقداً أنه أفضل مما هو عليه فى الواقع، لن يعرف نفسه أبداً.

فقدان الاتجاه هذا وانعدام الوعى بالنسبة للشخص، يمكن أن يكون مادة شائقة فى علم النفس، ولكنه قاتل فى الشخصية التى نتحدث عنها وخاصةً، بالنسبة للصحة السياسية للبلد.

أتفهم ما يدور بخلدك، كلما قل الحشد فى الحلبة بمقتل بعض المصارعين، يحتمى المصارعون القدامى وراء الأسوار فى الحلبة، ولكن الثور الشجاع يرفض أن يتزحزح عن مكانه.

ـ نعم، أرغب فى القضاء على الجميع حتى لا يتبقى سوى اثنين فى الحلبة: هو وأنا.

حسناً، المسألة الآن هى تعريف من هو؟ ومن أنا؟

وكيف لا، يا سيدى الرئيس، يقول الفيلسوف التشيلى البارز مارتين هوبناهاين إن السلطة تفعل خيالها الخاص، فى حديثه عن كافكا. ومنذ نصف قرن تقريباً قال مويا بالينثيا، وبالمناسبة كان وزيراً للداخلية مثلى حالياً، أن كافكا سيعتبر فى المكسيك كاتباً للعادات.

يسلينى أننا نطلق فى المكسيك "عادات" على ما يسمى فى العالم (الجاد) "سياسة الواقع"، والتى ليست سوى السياسة التى روج لها توأمى مكيافيللى: بما أن البشر ـ بطبيعتهم ـ أشرار ولن يخلصوا لك أبداً، كن، أيها الأمير، بدورك، غير مخلص وشرير. تمثلت مهارة الأمير فى توظيفه هذه الحقيقة الشريرة لمصلحته الخاصة، ولكنه جعل الجميع يعتقدون أنه يعمل لمصلحتهم.

ويكمن موطن الضعف فى المكيافيللية، يا سيدى الرئيس، فى الاعتقاد بأن الأعداء نيام بفعل النصر ويرهبون قوة الأمير وقتها. يعتقد صاحب السلطة أنه بإغداقه الهبات سوف يمحو الإساءات.

يقول توأمى: بيخدع نفسه.

يليق للأمير أفضل أن يقطع بضربة واحدة كل رءوس أعدائه، بالتوالى، كى لا يقطع بعضها ويتعرض لخطر أن ينسى واحدة أو أخرى. "يجب ارتكاب الفظائع بضربة واحدة. فى حين تمنح الهبات الواحدة تلو الأخرى".

وهناك كان خطأك، يا سيدى الرئيس ليون. وسط شغفك المتعجل لتعزيز سلطتك الوليدة من انتخابات (للصراحة، ليست نزيهة تماماً)، أغدقت سيادتك بالهبات، والثناء، الامتيازات، وفرص البيزنس القيمة، فى ضربة واحدة. كنت تود أن تكسب حلفاء يمنحونك الشرعية، بدون اعتبار أنه بمنحك كل شىء لن تشبه حفنة الكلاب التى ترغب فى المزيد دوماً.

وهذا المزيد هو السلطة نفسها.

وعندئذ، ياسيدى الرئيس، بقيت بدون أوراق لعب بعد أن وزعتها كلها. وفى المقابل، ولأنك سعيت لإغراء الكثير من الأعداء الأقوياء، خسرت فرصة أن تقطع رءوسهم من جذورها. والنتيجة: لم يعد يحبك أصدقاؤك الذين منحتهم كل شىء، ولا أعداؤك الذين أعطيتهم القليل. وأنت نفسك تعرف.

كان صديقى منذ بضع دقائق. لم يستغرق سوى نصف ساعة ليتحول إلى عدو لى.

كن أميناً. لا تتكر. كم مرة وجهت هذه الكلمات لنفسك؟

صدقنى فأنا صاحبك وأتفهم شكواك.

فى الأمس كان الجميع يصفق لى. واليوم كلهم صامتون. فليشتمونى على الأقل! كنت بالأمس لا غنى عنى. واليوم أنا فضلات. فليطردونى على الأقل!.

ما الذى أفعله بالتحديد، يا سيدى الرئيس، الآن بترجمة عواطفك.

يسلمك هذه الرسالة مساعدى، السيد خيسوس ريكاردو ماجون. الذى يرافقك شخصياً إلى بوابة منزلك، حيث ينتظرك حارس عسكرى يليق بمكانتك، ليصطحبك إلى المطار الدولى، حيث فى انتظارك مقعد وثير فى الدرجة الأولى لخطوط كانتاس الجوية، ليحملك مباشرةً إلى أرض الكانجرو الجميلة بأستراليا. وأتوسل إليك أن تحذر من هذه الوعائيات التى تحمل صغارها فى جيب ببطنها، كى تضمن نموه الطبيعى والصحى بعد الولادة، وأخيراً سلالته.

وتفضل بقبول فائق الاحترام وأمنياتى برحلة سعيدة.

نيكولاس بالديبيا

- ٥٩ -

الجنرال موندراجون بون بيرتراب
إلى نيكولاس بالديبيا

سيدى الوزير والصديق المحترم.

كمخلص لمؤسسات الجمهورية وفى ضوء المادة ٨٩ الفصل السادس من الدستور، أسمح لنفسى أن أخبرك أنى فجر اليوم اغتلت السيد الجنرال ثيثيرو آروثا، المذنب بتهمة العصيان والسعى للقيلم بتمرد انقلابى أمام المحكمة العسكرية المختصة، التى سمحت لنفسى بانعقادها عرفياً لمواجهة موقف لا يحتمل التأجيل، مع ثقتى بأنك سوف تضفى الشرعية على أفعالى فى ظل غياب رئيس بديل بعد الاختفاء المؤسف للسيد لورينثيو تيران.

تعلم سيادتك جيداً مثلما أعلم أن ثمة مواقف تفرض على القوات العسكرية التصرف بدون تأخير، دوماً بشرط أن يهدف هذا التصرف حماية المؤسسات الجمهورية المهددة.

تأكدت النوايا الإجرامية للجنرال ثيثيرو آروثا فى مراسلات عدة وصلت إلى يدى منذ بدء الأزمة فى يناير نتيجة التهور، الذى لا أستطيع أن أفسره سوى بأنه حماس ناجم عن الإيثانول. وكقارئ، مثلى، لكلاوزفيتز ومكيافيللى، يمكننا اقتباس كلمات الألمانى والقول بأن السياسة هى مواصلة الحرب بوسائل أخرى. ومن الفلورنسى أن التنبؤ فى زمن السلم خير من المباغتة فى زمن الحرب. تم القضاء جذرياً على التهديدات الانقلابية للجنرال آروثا.

يؤسفنى أن أعلمك أنه تمت مفاجأة الجنرال فى فراش الزنا مع السيدة خوسيفينا آلماثان، زوجة السيد وزير المالية آندينو آلماثان. أسفرت محاولته التلقائية لإخراج مسدسه من أسفل الوسادة عن رد فعل طبيعى من العناصر المرسلة لاعتقاله. وللأسى، لم يغفر سيل الطلقات للسيدة آلماثان، التى سلمت جثتها لزوجها، الذى تحمل، إن لم أخطئ، مذكرة استقالته من المنصب بين يديك.

أثق أنك سوف تتفهم وتدعم، يا سيدى الوزير، قرارى بسحب الجثة الجريحة للجنرال آروثا من فراشه المذكور لنقله، وهو يحتضر، إلى الحصن العام ٢٨ بالمنطقة العسكرية بمريدا، وحمله للوقوف أمام الجدار بهدف وضع نهاية لحياته بصورة متوافقة مع جدارته العسكرية التى لا يمكن التشكيك بها. كنت أود أن أقول إنه كان مرعوباً. ولكنه لم يكن. ولكن ليس بسبب شجاعته. بل لأنه لم يقدر. لم يعد لديه مسدس لينطق بحقيقته. وكانت كلماته الأخيرة فى فراش الحب،

أنا لا يهزنى أحد.

ومستنداً على الحائط، تمكن أن يتفوه بعبارته الأخيرة:

ماذا يجرى. أليس لديكم ذكور؟

مع اعتذارى لهذا القول ومع واجبى لإطلاع الرئيس على ما جرى بدقة، أترككم مع بقائى تحت إمرتك اليوم وفى الظروف المستقبلية التى أراها فى صالحك وفى صالح الوطن.

الجنرال موندراجون بون بيرتراب.

ملحوظة: تمتلئ يوكاتان بالآبار. وآروثا قبره الماء.

-٦٠-

أونيسيمو كانابال
إلى نيكولاس بالديبيا

سيدى الرئيس،

أنفذ برضا تام واجبى الدستورى بإطلاعك، مع تقديرى للفقرة ٨٤ من الدستور السياسى للولايات المتحدة المكسيكية وفى غياب الكونجرس بالكامل . وبصفتى رئيسًا لكونجرس الأمة، دعوت اللجنة الدائمة بالمجلس بهدف متابعة تعيين الرئيس البديل لاستكمال الفترة الرئاسية الباقية للسيد لورينثيو تيران، بعد وفاته الأليمة الأسبوع قبل الماضى. وبعد اجتماع اللجنة الدائمة وبمبادرة من الكونجرس؛ حيث أنابت السيدة باولينا تارديجرادا عن إيدالجو، صوّت أعضاؤها بالإجماع لسيادتك، والذى تتولى حالياً مهام وزير الداخلية، لممارسة أول فترة رئاسية لرئيس بديل فى البلاد .

دعوت الكونجرس لجلسة استثنائية للقيام بمهام المجمع الانتخابى، وتم التصديق بالإجماع على القرار السابق، وهو ما يعنى أنه سيتم تنصيب سيادتك، يا سيد نيكولاس بالديبيا، كرئيس بديل للولايات المتحدة المكسيكية بدءاً من هذا التاريخ وحتى تغيير السلطة الدستورى فى الأول من ديسمبر عام ٢٠٢٤.

مع تهنئتى ودعوتك لتولى المنصب فى حفل مهيب يوم ٥ مايو المقبل الخامسة مساءً، انتهز الفرصة، يا سيدى الرئيس، لأشدد على بالغ

احترامى وتقديرى لسيادتكم، إلى جانب تصويتى الشخصى لنجاح إدارتكم التى ولاها لكم الوطن اليوم.

أونيسيمو كانابال،

رئيس الكونجرس

ـ ٦١ ـ

خيسوس ريكاردو ماجون

إلى نيكولاس بالدييا

نفذت المهمة، يا سيدى الرئيس. بالسلطة التى منحتها إياى، تُفتح جميع الأبواب أمامى، وحتى باب قلعة سان خوان دى أولوا، القلعة ذات الأقفال التى أرسلتنى سيادتك إليها لأنى أهل للثقة، ولأن ولائى ليس لغيرك، لأنى قبر لأسرارك وإنى إن وشيت بك أشى بنفسى.

قلت لى: يا نيكولاس: لا أحد سواك يمكنه أن يصنع لى هذا المعروف الكبير. فأنا لا أثق فى أحد غيرك.

بحزن أحسست بحزنك الخاص الذى تشى به نظرتك، كما لو أنك تقول لى:

ـ هذا آخر معروف أطلبه منك. وإن شئت، بعده، ألا نتقابل ثانيةً.

وفى المقابل جرؤت أن تقول لى:

ـ سوف تتجرع أشد الكئوس مرارة.

رمقتنى بنظرة غير متهاونة تشبه غطرسة الفلاسفة.

(قد بدأت أمقت إيماءاتك اللاواعية)

اشربه حتى الثمالة. وتكون بهذا الفعل قد توجت تأهيلك السياسى الذى وعدتك به فى برج الحمام. هل تذكر؟ نفذ وابدأ طيرانك الخاص، إن شئت. عد لتصبح فوضوياً طويل الشعر، إن شئت. فلقد أتممت التعليم(*).

(*) Paideia باللاتينية في الأصل كلمة إغريقية تعنى التعليم (المترجمة).

ولكنك قد أرسلتنى بمفردى، على الأقل، يا نيكولاس. وكان هذا عزائى الوحيد. سوف أفعل ما يطلبه منى. حين وافقت على المعاهدة مع الشيطان المتخفى فى صورة ملاك والذى هو أنت، يا نيكولاس بالديبيا، تقبلت بعمق شديد وحميمى جداً وسرى، أنه ليس بإمكانى تجنب تجربة نهائية، "تجربة الرب" التى كانوا يخضعون لها الأبطال القدامى فى الشمال، ثم أرحل فى سفينة فايكنج. بالرغم أن السفينة ستحترق كمحرقة جنائزية وأنا أصير الضحية الفدية.

كنت أمشى فى جنازة. جنازتى. لقد أخضعت وفائى للتجربة حتى حولتنى إلى قاتل. ذراعك المسلحة. ومع ذلك، تمعن فى كل الأمور، انظر إلى أية درجة أصبحنا توأم فى أسلوب الحديث، والمشى، والملبس... نحتنى بالكامل، يا نيكولاس بالديبيا، جعلتنى المرآة التى تحتاجها لتتأكد أنك شاب أيضاً، وذكى، ووسيم، ومتمرد، كنت صورتك حتى فى طريقة الكلام، والسير، ... والآن فى القتل.

ـ هل ضرورى؟ تجرؤت وسألتك، مستعيداً بعضاً من التمرد القديم الذى توليت تحطيمه بوسائل متساوية فى العاطفة والدكتاتورية.

ـ لا يمكننا العيش مع شبح.

ـ لا يمكنك ، يا نيكولاس، لا تعمم.

ـ حسناً. لا يمكننى العيش مع شبح. اجتر كلماتك مثل الثور حتى تتجشأ فى وجهى.

ـ شبح ملىء بالحياة.

جعلتنى أعتقد أنى سوف أدخل زنزانة أولوا وحدى.

ـ لن يعرف أحد. سوى أنت وأنا.

كان مفهوماً. نحتفظ أنا وأنت بأسرارنا.

كان حراس السجن يفتحون لى البوابات المعدنية الثقيلة، الواحدة تلو الأخرى، وتغلق كل منها خلفى كسيمفونية حديدية، كما فى أفلام جيمس

كاجنى القديمة الأبيض والأسود التى كنا نهوى مشاهدتها معاً فى وقت متأخر من الليل. لحن معدنى يسمع للمرة الأولى والأخيرة.

ولكنى كنت وحدى. أنا، مع اسمى نفسه، خيسوس ريكاردو ماجون، ابن موظف الأرشيف وصانعة الحلوى، الساكن الوحيد ليوتوبيا الحمام والكلمات، القارئ النهم لروسو وباكونين وآندرييف، فوضوى السحاب، وطرزان الأسطح، طويل الشعر، ولا يملك ملبساً سوى "جينز" مهترئ و"تى شيرت" بأيقونة تشى جيفارا. مبقع.

أنا، الفتى النقى الذى كان سيقضى على كل الطغاة الفاسدين، أنا الآن أمام زنزانة توماس موكتيثوما مورو فى أولوا، البطل النقى، السياسى الذى لا يمكن إفساده ولذا فهو مزعج للجميع، ولا يمكنك مسامحته. قلت لى، شبح ملىء بالحياة؟ ملىء بالحياة لدرجة أنه جعلك متآمرًا ضعيفًا طموحًا تافهًا، متسلقًا سياسيًا شعبيًا،؟ لذا خشيت مورو، للتناقض الوحشى بين شخصيتك وشخصيته؟ حتى وهو سجين كان يمثل تهديداً لك؟

قل لى حينئذ، هل فكرت فى الأمر؟ إنه فى حالة موته سيشكل تحدياً بالنسبة لشعورك بعدم الأمان، يا حبيبى؟

وكنت أنا هناك، أما باب سجن مورو، على وشك أن أصدق على كلامك.

ليس هناك فوضوى لا ينتهى به الأمر ليصير إرهابياً. وبما أنك متمكن قوى فى اللغة، فلتكافئ عليك أن تنتهى بالتحول إلى الفعل الإجرامى. وهذا ما يجب إثباته.

ـ قبلت. هى جريمة، ولكنها جريمة دولة. ألم تكن كل الأفعال الإرهابية التى قام بها الفوضويون ضد الملوك والرؤساء والأباطرة إبان ما يعرف بالعصر الجميل؟ لا تبتسم. ألم تقرا تحت نظرة الغرب لكونراد؟

ـ تمقت النساء والأطفال والثوار السخرية.

ليس لدينا حق نحن الفوضويين فى المرح. ولا حتى فى الكوميديا السوداء، يا سيدى الرئيس؟ توقفت أمام زنزانة توماس موكتيثوما مورو.

كنت فى طريقى للدخول لأقتل بمفردى رمز الشرعية والنقاء لما سببه من إزعاج كبير للجميع.

وحينئذ تنبهت للخطوات الخفيفة، كخطوات فراشة قافزة، إن وجدت، خلفى. وعندئذ استدرت فى اللحظة التى فُتح فيها باب الزنزانة وشعرت فى ظهرى بلفحة من الجحيم، كما لو أن هذا النفق الأرضى كان فى الحقيقة الدرب المؤدى للجحيم، مكان لقاء كل الشياطين، هذا النفق الأرضى بقلعة سان خوان دى أولوا، الذى يقطر سقفه ليس ماء مملحاً وحسب وإنما دماءً منسابة، دماء قديمة للغاية حتى أصبحت جزءاً من الدورة الكونية للمحيطات، دماء مختلطة لكلب مسعور وحوت مخنوق وقرصان مشنوق وفتيات ليل و أدغال شاسعة من الأعشاب البحرية والمحار الجميل المحكم الغلق بداخله اللؤلؤ، كان كل هذا يقطر على الرأس، يا نيكولاس. كان هذا كله مقبرة أولوا البحرية العميقة، ولكنى كنت أسير بداخلها وحدى، انفردت بهذه التجربة الملعونة، لن يخوضها غيرى.

لا أحد سواك وسواى يعرف ما حدث فى ليلة مايو هذه فى دهاليز قلعة أولوا.

مساء الخير، أيها الشاب. قال لى الكائن المدهن (كان حضوره يقترب كرائحة دهن لخنزير متعفن) وكان صوت تنفسه الصعب ناعساً ولذا يوحى بالتهديد، كما لو أنه نائم يمشى ولا يعرف ما يفعل.

كانت تفوح رائحة كريهة قوية من فمه، ومن جسده كله، وحتى من عينيه بغيضتى الرائحة. ومن ذراعه البذيئة المسلحة بوقاحة بكولت ٤٥ آلى يبدو كامتداد طبيعى للذراع.

كان يرتدى قفاز أسود.

وحتى فى عتمة النفق كانت عيناه التى تشبهان عينى الراكون تبرقان بجنون لا ينطفئ.

ـ هيا، ماذا تنتظر، أيها المسكين ـ وجه كلامه لى بوقاحة، واضعاً فوهة الكولت فى ضلوعى.

هممت: ظننت أنه لوحده.

لوحده. كابوريا تيكولاتويا هى التى تقعد لوحدها، كما أنها تسير للخلف. ولكننا سوف نسير نحو الأمام، أيها الصبى.

لا أريد شهوداً ـ قلت له متسلحاً بالشجاعة. اعتقدت أنى وحيد.

وأنا أيضًا. سخر منى حاكم الولاية الشهير التابسكى أومبرتو بيداليس، "اليد القوية"، كما لو أنك يا نيكولاس، لا تعرف من هو رفيقى فى الجريمة..- ولكن الرئيس المبجل الجديد مستغل جيد ويجب أن يكون لكل جريمة شاهدان. بالرغم من تورطهما هما الاثنان. ويقال هكذا، يزيح أحدهما الآخر. كما لو أن عمليات القتل مثل "البلى" لها نفس اللون والحجم، ويمكن استبدال أحدها بالأخرى- ضحك بوحشية، مخرجاً من فمه رائحة الاسترامونيو كما لو أنه يود إيقاظ الموتى.

فتح بيداليس باب الزنزانة.

كان توماس موكتيثوما مورو نائماً.

وكان "قناع الصبار" الشهير يغطى وجهه.

ـ لا يخلعه حتى وهو نائم- كان السجان السخى قد حذرنى.

كان لا يرغب أن يخمن أحد مشاعره، مفاجآته، حنانه المباغت، ولعه الظاهر، "لوحاته الداخلية"، يا نيكولاس، "جروحه الباردة"، كما قلنا ـ أنت وأنا ـ هنا فى نفس المكان فى بيراكروث يومًا ما ـ ولكن فى ظروف مختلفة.

خمن بيداليس مشاعرى. صحح كلماتى بدون أن يعرف.

لا تكن شاعرياً. أعرف ما تفكر فيه. الأفضل هكذا، وهو نائم، أليس كذلك؟ لن يدرك. شفقة أكثر، أليس كذلك؟

وتعالت قهقاته.

ـ الراهبات رحيمات، كما كان مرشدى الحاكم مثلى لتاباسكو توماس

جاريدو يقول. ولكن لديه مبنى فى " قوس الثورة"، أما أنت وأنا فلنر إن كنا سنستحق، بعد خدمة" السيدة ديمقراطية" ولو حجراً فى "قوس الانتقال".

عاد يضحك بخبث وركلت النائم توماس موكتيثوما فى ظهره. استيقظ رجل "قناع الصبار" فى نفس اللحظة، ووقف على رجليه، وهو يتطلع نحونا من خلال الشق الفظيع كأنه جرح معدنى، الشق فى مستوى عينى القناع، بدون أن نخمن بيداليس وأنا تعبيراتهما، ولكننا كنا متأكدين ـ نعم، متأكدين ـ أن مورو لم يرتعش، وأن هيئته كانت كتمثال بطل، ساكن. أو أكثر من ذلك: لا يمكن تحريكه، هادئ. تمثال، أقولها لك، تمثال يسبب الفزع لهدوئه الشديد كما لو أنه مات قبل أن يموت.

أطلق بيداليس الرصاصة.

لم يقل مورو شيئاً.

سقط واقفاً، إن أمكننى القول.

انهار بدون استغاثة.

لم يصح فى وجهينا "قتلة"

لم يتوسل "الرحمة".

لم يقل شيئاً.

ارتطم قناع الحديد بالأرض مصدراً صوتاً مكتوماً. هكذا مات توماس موكتيثوما مورو للمرة الثانية. هكذا تلاشى، يا سيدى الرئيس، شبح "بانكو"(*)، ولكن ما حدث أنه لم يشغل ماكبث المقعد الفارغ فى وليمة السلطة. ولكن بالرغم من أن كل شىء صار كما فى مسرحية شكسبير، إلا أن هذه المسرحية بيراكروثية ومكسيكية ومطعمة على طريقة سكان تاباسكو الأصليين، كما جعلنى بيداليس"اليد القوية" ألاحظ.

ابتسم وهو يقدم لى سيجارة ـ الرئيس الجديد ذكى جداً. لن تشى بى ولن أشى بك، أليس صحيحاً؟

(*) شخصية فى مسرحية ماكبث لوليم شكسبير (المترجمة).

نظر لى القبيح.

ـ لا تنس فإنه لو حدث لى شىء فإن لدى الأبناء التسعة الأشرار للانتقام لى. وأنت من لديك، أيها المسكين؟

والتفت نحو مورو الذى ينزف على الأرض.

ـ امشى. وتذكر أن هذا لم يحدث وأننا وأنت وأنا لم نحضر هنا. أنا فى بيياإرموسا للاحتفال ببلوغ ابنى الثامن السن القانونية، وأنت، يا سافل؟

أغلق باب الزنزانة وخرجنا إلى البرد الأبدى لمتاهة أولوا. وكان حديثه كذلك لا منتهى.

ـ هل تعلم من ارتكبوا الجريمة؟

نفيت برأسى، مرتبكاً.

ـ فيلبيرتو الأعور ودون تشينشو آباسكال.

ـ من؟ سألت ببلاهة. انفجر "اليد الضيقة" فى الضحك.

ـ الأعور ودون تشينشو. يرتكبان كل جرائمى. لا يراهم أحد. ولا يجدهم أحد. لأنى اخترعتهما.

توقف عن الضحك.

ـ ولا تنس. أنا لست "السيد الحاكم" وحسب. أنا المالك. وعندما أموت، وكما قلت لك، سوف يتولى أبنائى التسعة الأشرار مواصلة القتل. فنحن أسرة ولنا شعارنا. " بحجر واحد، يفوز آل بيداليس حتى بلعابهم".

ورحل تاركاً رائحة مخدر الاسترامونيو المنوم.

كان دون خيسوس ريبس إيروليس على حق حينما قال إن المكسيكى قد ينعس ولكنه لا يموت أبداً ويستيقظ حانقاً مع أقل استفزاز.

شكراً، يا سيدى الرئيس، لأنك جعلتنى آراه بعينى.

شكراً لأنك تركتنى لأصبح الشخص الذى كنته قبل معرفتك.

شكراً لأنك أوضحت لى أن الفوضوى ينتهى به المطاف إرهابياً.

شكراً لأنك جعلتنى أرى أن المتمرد العقائدى عليه أن يحمل تمرده إلى الواقع كمصير حتمى.

واحذر، يا نيكولاس بالدييبا، لأنى صرت قاتلاً الآن.

وضحيتى التالية هى أنت.

ـ ٦٢ ـ

نيكولاس بالديبيا

إلى ماريا ديل روساريو جالبان

سيدتى الجميلة، لا أود أن أبدو لجوجاً، ولكنى أعتقد أن الوعد الذى قطعتيه عندما تعرفنا ينبغى أن ينفذ الآن. أنا كما أنا وكان هذا شرطك، هل تذكرين؟

ـ نيكولاس بالديبيا: سأكون ملكك عندما تصير رئيساً للمكسيك.

أحضر إلى نافذتك لتنفيذ الوعد. أهوى دلالك. حتى أنه قبل أن تفتحى لى باب منزلك أطلب منك، للمرة الأخيرة، أن تكررى الطقس الأول؟ أحترم نزواتك. ولك الحق أن تطلبى منى ما تشائين. أتممت نبوءتك. وصلت حيث تنبأتِ، بتهور، فى يناير. أو: كما وعدتِ.

أدركت أننى لا أدين بالمنصب لماريا ديل روساريو جالبان، وإنما لسلسلة من الظروف والتى كان لا يمكن توقعها فى بداية هذا العام المشئوم (أو السعيد جداً). لا تتخيلى، أن عرفانى قد يقل. على العكس. أجيء لكِ بدون التزام، نقى وحر. فلسيادتك الفضل فى تأهيلى السياسى. أنا أفضل طالب يهرع ليقدم الجائزة لمعلمته. هل يمكننى أن أتوج فى مهدكِ تأهيلى الإيروتيكى الآن ؟

اتبع تعليماتك. أعود الليلة إلى الغابة المحيطة بدارك ومن هناك أراك تتعرين فى مواجهة النافذة المضيئة. أعطينى إشارة. اطفئى النور، واضيئى شمعة، كما فى أفلام الغموض القديمة ـ وآتى إلى "مهد المعركة، الحلبة الناعمة".

مع اشتياقي

رجلك، ن.

ـ ٦٣ ـ

ماريا ديل روساريو جالبان

إلى نيكولاس بالدييبا

حسناً، فى ليلة معتمة، يا بطل السينما المجهول... تقول لى، مجهول؟ أنت غير معروف؟ أنت، مخلوقى، وقطعة صلصالى وجالاتيا الذكر الخاص بى؟ نعم. تدين لى بالكثير. بل تدين لى بكل شىء، أقول أنا. كل شىء. ماعدا الجائزة النهائية. الجائزة الكبرى. نعم تدين بها إلى أناس أقل شأناً. لماذا؟ هل خشيتنى؟ هل خشيت أنك لو أدنت لى بكل شىء سوف تتحول إلى لا أحد؟

تعلمت الكثير، ما عدا مراوغات الثقة. إلى من تمنحها؟ لم يتبق أمامنا طريق آخر، يا نيكولاس، غير دراسة الشخصيات أكثر من الأفعال. ماذا قال جريجوريو مارانيون(*) عن تيبيريو ؟ أنه لم يكن طيباً وأن السلطة هى التى حولته ثانيةً إلى شرير. كان شريراً دائماً. ما يحدث أن أضواء السلطة قوية لدرجة أنها تكشف ما كنا عليه منذ الأزل ونخفيه فى ظلال العجز.

تكشف لنا سلطتك وسلطتى ما نحن عليه فى الحقيقة. لصان. عضوان فى عصابة. مبتزان. آكلا لحوم. مجرمان. نعرف نحن ـ الاثنين ـ جيداً أن الأكثر طموحاً هو أقل من يبالغ بمأسوية عن نفسه.

لذا احذر من الذى أقل شهرة. قلتها لك فى البداية، كى لا تنبهر بمفاخر تاثيتو دى لاكانال، أكثر رجال السياسة شفافية الذين قابلتهم.

(*) فيلسوف وعالم إسبانى ت ١٩٦٠ (المترجمة).

الشىء الوحيد الموثوق فى تاثيتو هو افتقاره للثقة بأحد. كيف يصل إلى الرئاسة رجل بسبب نفاقه اتخذ مظهر المحتاج دائماً الذى فى طريقه، لو لم ننقذه، إلى الشحاذة؟

أما "سينيكا"، المسكين، فكان معارض لتاثيتو. كان ذكاؤه يلمع بشدة. هذا ما يأسف له الإنجليز الملون فى الشخص. كان ذكياً أكثر من اللازم . يغشى الذكاء المبالغ فيه من يعيشون فى ظلام التفاهة. كان سينيكا مستفزاً بسبب ذكائه، مثلما كان تاثيتو مستفزاً لنفاقه. كان ينتقد نفسه:

مبادئى ممتازة، ولكن ممارساتى ثقيلة. لن يبق أمامى طريق آخر سوى أن أنتهى إلى أن أصير وقحاً.

لا. انتحر. ولم يتزوج قط، وهو السبيل الأكثر أمناً للانتحار.

وها هو ثيسار ليون، الرصين مع ما يناسبه، ولكنه متهور بوحشية مع من يحتقرهم. تغلبت الرصانة على التهور. وهو فى العمق عاطفى. وخارج السياسة يشعر بأنه منفى. كما لو أن الوطن كان بالنسبة له الرئاسة. يمكننى أن أنسب إليه هذا الحوار فى إحدى المسرحيات:

قلت له: تحدث عنك للقدر. تحديث الحظ.

هل تجرئين، أيتها الساقطة. أنا لا يصيبنى مكروه فى الخير. والأشد فكاهة، أنه لا يصيبنى مكروه فى الشر. هل تعلم أنه يحمل قاطع أوراق صغيراً يلعب به مثل رجال آخرين فى عضوه؟

فى المقابل كان الرئيس لورينثيو تيران رصيناً لدرجة كبيرة. لا يتفوه بشىء أو بالقليل. ومن المؤكد أنه كان يتمتع بعضلات رجولية متقنة. كان يعرف أنه للحظ تفضلنا قوى الطبيعة فى المكسيك. إن لم تكن هناك هزات أرضية، فهناك فيضانات، أو جفاف أو أعاصير. يحول المسئولون بالمكسيك الكوارث الطبيعية إلى غنائم سياسية. ويكفى الرئيس أن يظهر فى مكان الكارثة ويختفى من جديد. وبالتالى يتم توفير الحاجة لحل المشكلات عن طريق الحكم بعمق.

ولكن قل لى إن كان هناك شخص أكثر شهرة من أونيسيمو كانابال، رئيس الكونجرس، هذا الهارب من المراحيض العمومية. محدود القدرة، وخنوع، ومعقد لقبحه الجسدى وأصله المتواضع، كمعظم الساسة المكسيكيين. ولكن، ألم يولد المسيح فى إسطبل؟ يقفز الأرنب فى أقل الأماكن توقعاً؟ لا أحد يمكنه أن يتخيل أن الصانع الرئيسى لهذه الخلافة هو العامل المسكين والسياسى أونيسيمو كانابال.

ولم يعرف أحد أنه كان حليفاً لأفعى قادرة أن تحمل ألوان جهنم إلى الفردوس، صديقتك الحميمة باولينا تارديجرادا. وأنا التى صدقت أنى نسخة متقنة من مدام مانتينون(*) معلمة الأميرات التى تزوجت الملك! هل أعتزل فى دير، مثل عشيقة لويس الرابع عشر الأخرى مدام مونتيسبان، لأعلم الراهبات لكى يصبحن نساء بلاط خيراً منى؟ أو هل تعتقد أن سلطتك الحالية، يا نيكولاس، سوف تقضى على عملية الخلافة، وانتخابات ٢٠٢٤ والتى ستحمل ـ أقسم لك ـ بيرنال إيريرا إلى الرئاسة؟ نعم. بيرنال إيريرا. من أجل خير البلد، يا نيكولاس. لأن بيرنال أكثرهم كتماناً، إن كانت كلمة "كتمان" تعنى التحفظ والحكمة، ولكن أيضاً الحذق، ورأى سديد بل أكثر، استخدام ناعم وذكى للقوة.

فلنتعارك، أنت وأنا، يا نيكولاس بالديبيا، لأنك لن تخدعنى. وصلت للسلطة كمجرد بديل فيما بين ٢٠٢٠ إلى ٢٠٢٤ . هل تظن أنى لا أخمن طموحك؟ ليس بوسعك أن تخلف نفسك. ولكن بوسعك أن تعيش طويلاً. وهذا ما أخشاه. مكيدة أخرى كبيرة منك للبقاء فى السلطة.

ثمة كتيبة ذرائع. أزمة اقتصادية، انفجارات لثورات داخلية، غزو خارجى، فراغ للسلطة. مالذى لا يمكن استدعاؤه للبقاء فى السلطة؟ كل شىء ما عدا التطلع لنيل جائزة نوبل للسلام. سوف يغرقك هذا كله لا محالة. ولكنى أخشاك. حان وقت المعركة. سوف نعمل بيرنال وأنا كل ما هو لازم لتترك السلطة فى ٢٠٢٤ . اللازم والمستحيل. كما ستفعل اللازم وأيضاً المستحيل لكى تظل للأبد فى كرسى النسر.

(*) زوجة ملك فرنسا لويس الرابع عشر (المترجمة).

لست لورينثيو تيران، الرجل الطيب الديمقراطى الذى لم يعشق السلطة. ياه، نحتاج دوماً إلى شخص نبيل يكفر بشرفه عن خسة وضعة الآخرين. وهذا الرجل الآن هو بيرنال إيريرا، كما كان لورينثيو تيران من قبل، ولكنه كان عليلاً. وأنت تعتقد أنك لا يُقضى عليك. وتعتمد على فضيلة بك، أعترف بها. إنك تمثل الدم الجديد. وسوف تشيخ بمجرد أن تبدأ فى إسالة دماء الآخرين، الأمر الذى لا مفر منه إن رغبت فى البقاء للأبد. ولكن تذكر ثمن الدم. تلاتيليكو[1] ، الثانى من أكتوبر ١٩٦٨ استغرقت ليلة ولكنها دامت مائة عام.

يثنون عليك الآن كمسئول نزيه وشاب. تمثل الأمل. وجدير باعتلاء السلطة.

ولكن بالنسبة لك، فإن السلطة ستفسدك. أقولها لك. فأنت لا تقاوم الإغراءات. أعرفك. لا تعرف كبح نفسك. ولقد أظهرتها، بفاعلية وإنما بتعجل، منذ أن وصلت للرئاسة. قضيت على تاثيتو قبلها، والآن ثيسار ليون منفى من جديد، وثيسار آروثا مقتول، وآنديغو آلماثان يعانى من خيانة زوجته، ومورو مدفون للأبد، ولكنه بجسد حاضر فى كل المراسم العامة وجثته اخترقها الرصاص وموجودة فى بيراكروث بلا شك، مزيحاً من طريقه أى سبب لوجود عجوز المقهى[2] ، والذى بدون سر مورو يصير لاعباً بائساً لقطع الدومينو البيراكروثية . مازال أمامك مصارعة الوزراء الذين ورثتهم عن لورينثيو تيران. وحكام الولايات فى الداخل. فلنر كيف ستفعل ذلك. فأنا أراقبك.

هل تعلم شيئاً، يا نيكولاس؟ قد يتوقف الرجل عن ممارسة السياسة. ولكن الذى لا يتوقف هى عواقب أفعاله السياسية. وأنت تعرف ذلك وستكون هذه معضلتك. كلما ردمت حفر خطاياك (وجرائمك؟)، سوف تنكشف فى كل حفرة مسدودة ثلاث أخر. تسمى "عواقب" وتعود سلبية

---

(١) مذبحة وقعت فى تلاتيليكو بالعاصمة المكسيك وراح ضحيتها الآلاف (المترجمة).

(٢) بالفرنسية فى الأصل raison d'etre (المترجمة).

الرئيس تيران لهذا. لم يرغب أن تكون هناك "عواقب". كان يحب أن يعيش فى سلام بعد الاعتزال. أصابه سرطان فى الدم، ولوكيميا مضاعفة مع انسداد رئوى. ولكنه خشى أن تكون "عواقب" أفعاله - أو سلبيته ـ التى هى فعل أيضاً، وربما أخطر فعل ـ تطاردونه لما بعد انتهاء وقته فى كرسى النسر. تدخل القدر. لم يمض الأمر هكذا. سنرى كيف يذكره التاريخ.

التاريخ. يبدأ بالنسبة لك، يا بالديبيا. تذكر أنك ستحكم بلداً مدمرة تتحامى، بخداع نفسها، فى نظريات نفسية مسروقة وحساسيات مستعارة من المعاناة من الفن والموت. أحببت، بلا جدوى، أن تخلق مساحة محايدة. لم يكن أمامك خيار آخر حينما كنت لا أحد. ولكن كانت تسكنك- وقد قلتها لك ـ وأعترف بها ـ ما يسميه الألمان ، الرغبة غير المحسوسة، ولكن عميقة لامتلاك السلطة وممارستها بأسلوبية.

الأسلوب هو الإنسان. الأسلوب هو كل شىء.

والجمال؟ هل هو جزء من الأسلوب. لا. الأغبياء هم يعتقدون هذا. الجمال، مثل الأسلوب، مسألة إرادة. كما أن الجمال سلطة. انظر إلىَّ، يا بطلى الوديع. هل تعتقد أنى لا أتطلع فى المرآة كل صباح؟ بدون تجميل؟ هل تظن أنى أخدع نفسى؟ أخدع الآخرين، بدلالى، بدون نجاح كبير. هل قلت لك إنى فى الخامسة والأربعين، أو فى السابعة والأربعين. فلا أتذكر. ليس مؤكداً. لقد أتممت التاسعة والأربعين. المسألة هى أنى أضطر كل صباح لبناء جمالى كما ترسم اللوحة، تنحت آلة، أو بتعبير أكثر احتقاراً، كما يلصق إعلاناً على الجدار. الحقيقة أنى لا أريد أن أقتنع. أرغب أن أكون جذابة لأحقق ما أريد. جذابة بدون أن يلمسنى أحد. أحب أن أكون تمثالاً. قال لى عاشق ذات يوم.

ـ أسوأ ما فى كونك جميلة من الخارج أنك لابد مخيفة من الداخل.

جاويته ـ لا. أسوأ ما فى الجمال أنه يحكم عليك بالجنس وأسوأ ما فى الجنس أنه بكونه متعة، لا يحول الأنباء السيئة إلى طيبة.

قال عاشقى المنسى: لكن ربما ينقذك بالرغم من سوئه.

قلت له، مريكةً إياه للأبد وأرغمته على الهرب من كل ما لا يفهمه، وكان كثيراً- أرغب فى إنقاذ نفسى بالرغم من كل شىء طيب.

هل تفهمنى أنت، يا صغيرى المسكين نيكولاس؟ انظر إلىَّ جيداً. العمر هو قاتل النساء الذى لا يعاقب. لابد أنك اعتقدت أنك بصغرك عشر سنوات عنى، قد تستمتع بنضجى وأنك قد تكون آخر رجل فى حياتى.

اكتشفت الحقيقة أمس، أيها المغفل؟

تعرف، رأيتك اليوم الذى توليت فيه الرئاسة فى سان لاثارو. رأيت فيك ابتسامة خطيرة لم أرها من قبل. أخفتنى. كانت ليست ابتسامة سلطة وإنما ابتسامة خداع. بوقاحة مطلقة. ابتسامة صعلوك. الابتسامة التى كانت تقول "لقد استغفلت الجميع"، " لا يعرف هؤلاء الحمقى من صّعدوه". قررت يومها أن أجعلك تعانى بكل المعاناة التى مرت بى فى حياتى، وليس لأنك سببت لى ألماً.

اعتبرتك سبباً لكل سيئ قد حدث لى- كالجوال الذى كنت أرغب أن أخزن فيه كل شقائى، مع أنك لست السبب.

أدركت وأنا أشاهدك ترتدى علم النسر والأفعى.

أصبح نيكولاس بالديبيا عظيماً. ولكن حبه ضئيل. رجل لا يعرف الحب.

تصفحتك سريعاً، ككتاب مفتوح. لم يتعرف عليك أى حب. لا أب ولا أم ولا عائلة. ولا خطيبات. ولا عشيقات. أنت كالجزيرة المعزولة التى تغطيها الحشائش الضارة، منعزلة وسط نهر صاخب. وأنت محشور بين أفرع طموحك، بدون اتصال عميق مع أى شخص. ترطمك مياه النهر، ولكنك لا تقدر على السباحة فيها. أنت كالجزيرة التى لا تعزلك فقط وإنما تشلك أمام الحب.

قل لى إن كان هناك فقدان للحب لا يعالج بوجود الشخص المحب. كان هذا وعدى. اقترحت عليك درباً للوصول لى. وأنت تهت عنه. احتقرتنى. فضلت "الوصول للحكم" عن" وعدتنى بالوصول للحكم". هل تعتقد أنه بإمكانى الغفران لك؟

أريد أن تعاني ما عانيته. انظر كم أنا أمينة. انظر كم أتنازل. انظر كيف أجعل نفسى تقودها العواطف، مخالفةً التحذيرات الجادة لرجلى الحقيقى بيرنال إيريرا. ولكن افهم شيئاً. أرغب أن تعانى ما عانيته منذ ولدت، وليس لأنك جعلتنى أتألم. وليس لأنى اعتقدت للحظة واحدة أنك أحببتنى حقيقةً، ولا أنا أحببتك.

جئت فى الموعد أمام نافذتى، كما حدث فى يناير.

هل آلمك رؤيتى الليلة فى النافذة؟

هل آلمك رؤيتى عارية مرة أخرى؟

هل آلمك رؤيتى بين ذراعى رجل آخر؟

هل وصلتك، مختلطة بنحيب الأشجار المضطرب، تنهيداتى أثناء الأورجازم، وتأوهات المتعة؟

اغفر لى. قلت لى دوماً كم تحبه. يا ليتك لم تقل. انتزعته منك. لعبت بكل الأوراق جيداً، ماعدا هذه الورقة.

على أن أشكرك بأنك عرفتنى على أفضل عشيق فى حياتى، وأجملهم، الذى يلعق مؤخرتى بكل وقاحة، ويدعك بظرى، ويدخل أصابعه فى مهبلى ويجعلنى أنتشى مرتين، بفمه وبعضوه، وهو يصرخ فى وجهى، ويطالبنى بأن أداعب مؤخرته، وهو الشىء الذى يرغبه كل الرجال فى السر لينتشوا بقوة أكبر- فتحة المؤخرة، الأقرب من البروستاتا، فجوة المتعة السرية، وغير المعترف بها، والأقل طلباً؟

نعم. يطلبها منى

- إصبعك فى مؤخرتى، يا ماريا ديل روساريو، من فضلك، متعينى........

أسمر، طويل، ذو عضلات، حنون، وقح، شغوف وشاب.

ياله من عاشق طويل منحته إياى، يا نيكولاس.

ولكن احذر منه جيداً.

يعتقد خيسوس ريكاردو ماجون أنك تريد قتله.

هذه نصيحتى الأخيرة. والأفضل أن تحترس أنت حتى لا يقتلك.

فالجريمة التى دافعها الخوف من القتل أكثر انتشاراً من الجريمة الناتجة عن الغربة فى القتل.

إنسانى كعشيقة. وأخشانى كخصم سياسى. وفتش عن شق تتسلل منه إلى روحى. ولن تجده، لأنه ليس فى. قد اختلف عن الآخرين، الرجال والنساء؟ من سلبك قلبك؟ من يعتقد هذا يخدع نفسه. ولسنا كذلك. فنحن لا نخضع للواقع. بل نخلقه. هيا يا حبيبى.

ـ ٦٤ ـ

من ماريا ديل روساريو جاليان

إلى بيرنال إيريرا

اتقبل ابتسامتك، يا بيرنال، أعرف أن ابتسامة تهكم صغيرة تلوح على شفتيك، ولكن عينيك تنظران لى بالعطف الذى نكنه لبعضنا البعض دائماً. أو هذا "الدائماً" الذى الآن، أو كان، أو نحب أن يكون، شبابنا. لم نخف عن بعضنا شيئاً، منذ ذلك الحين. نتطلع على حكايتنا الشخصية وقصص عائلتينا، التى تشبه بعضها. والأفضل، وأنت تعلم خير من الجميع ـ كل ما هو غامض فى حياتينا، أو الأكثر إثارة، أنه منذ طفولتنا بدأنا فى نسج ستار فون (أو تحت) الأحداث العائلية. كانت دوما مفاجأة إدراك أننا نسيطر على نفسينا داخل الدائرة العائلية التى تمنحنا الثياب، وتطعمنا، وتعلمنا، مع أننا أحرار، أحرار فى السر، فى العالم الداخلى الذى تعلمنا أن نخلقه، والذى اكتشفنا كثيرًا أنه ينتظرنا ببساطة والذى التصق بنا نحن ـ الاثنين ـ منذ الطفولة: عالم خارجى موضوعى مع تحيزنا الداخلى. يتبدل العالم الخارجى المحيط بنا ونعتبر أنفسنا، فى داخلنا، أيضاً. ها نحن هناك: نقيس القوى بين ما هو خارج عننا ويحتوينا وما هو داخلنا ونحتويه. أعتقد، أننا فى هذه السن، كانت الحياة كلها صراعاً بين تلك القوى. كان صراعاً متناغماً ـ كما هى العادة ـ فى حالتك. فى حين كان صراعاً غير طبيعى وجنسى، فى حالتى.

يا لها من مغامرة أننا تعرفنا فى شبابنا المبكر. وفهمنا أنه فى هذا الحدث على الواحد منا أن يمنح الآخر ما يفتقر إليه. يرجع تماسكك إلى

والدىَ. كنت ابناً لزوجين مكافحين اجتماعيين بسيطين وأمينين. ، بيرنال وكانديلاريا إيريرا، القائدين بمصنع الحبوب فى الشمال. وتعود لهما أفكارك التضامنية مع أشد المحتاجين للإحساس بأنهم ذوو قيمة وأن لديهم مأوى سياسيًا يمكنهم الاحتماء تحته. قلت إن هذه هى مهمة اليسار الخالد.

ـ لست وحدك. لديك مأوى.

كما شاهدت فى والديك أن نقاء المبادئ المثالية لا يكفى فى حد ذاته. وأننا لنربح نصف ما نريد، قد نضطر أحياناً للتضحية بالنصف الآخر. لم يتقبل والداك الالتزام قط. كانا بطلى النقابات ولم تضع تضحيتهما سدى بالتأكيد. من خدعهم، من جعلهما يعبران النهر الكبير فى الليل، وجعلهما يعتقدان أنهما سيخلصان جماعة من المهاجرين غير الشرعيين ليقعا هما نفسيهما كمهاجرين سريين فى أيدى رجال الهجرة الأمريكية ثم يقتلا بعد ذلك أثناء "فرارهما"؟ قانون الهروب(*)، يا بيرنال، الكذبة الظالمة والمؤلمة، أنت الذى عرفت جيداً بيرنال وكانديلاريا، والديك. لم يفرا من شىء قط. لم يعطيا ظهورهما لأحد.

ـ قانون الهرب. لم يدعو ولو ذبابة تهرب منهم.

عندما تعرفنا فى السوربون، حكيت لى عن حياتك وكيف راح والداك ضحيةً لمؤامرة رهيبة لمهربى المخدرات فى الشمال، ورجال السياسة الفاسدين على الجانبين من الحدود – تشواهوا وتكساس ـ وقوات الأمن المكسيكى والأمريكى الفاسدة. قلت لى:

لن أصير مثالى نقى كوالدىَ. سوف أفرق بين الشر الصغير والخير الكثير. سوف أخدم الخير الكثير عن طريق تنازلات للشر الصغير.

(*) طريقة للإعدام كانت تطبق فى المكسيك أثناء الثورة وأيام الحرب العالمية الثانية. يحمل السجين المحكوم عليه بالإعدام إلى منطقة تنفيذ الحكم. ويحرر من قيوده ثم يمنح فرصة للفرار. وإن لم يصبه الرصاص أثناء فراره، يعد طليقاً، وهى فرصة مستحيلة (المترجمة).

أحسدك على والديك، يا بيرنال، قلتها لك ساعتها وأكررها عليك الآن وأنا أفكر في والدىَ مع شعور بالمهزلة والمأساة معاً. لم أولد في الفقر مثلك. لم أرغم على الفرار نحو البؤس. على العكس. كان على التغلب على الثروة. وجدت نفسي بين الطبقة المخدومة. ولدت وأنا علىٍّ "كورسيه". جعلنى والدى متمردة، بشرط أن أعارضه هو نفسه، ألا أكون شبيهة له، وألا أنصت إلى ترهاته الوقحة، ولا عدم لجوئه للنفاق الذى يتباهى به ليسرج بمنتهى الوقاحة والتمام عن غشه وسرقاته وأنيابه في "البيزنس". رجال السياسة مدعوون، إنما رجال الأعمال يمكنهم أن يكونوا وحشيين ووقحين كما يشاءون.

سبب لى والدى رعباً هائلاً حتى أنه أرغمنى على التجسس عليه لمشاهدته. بدأت أتنصت على محادثاته في الهاتف عن طريق هاتف آخر في "الردهة".

ـ بع أسطول الشاحنات القديمة إلى شركة "سوبيدا آل ثيلو" بأعلى سعر ممكن...

ـ ولكن "سوبيدا ديل ثيلو" هى شركتنا، سيدى المحترم.

ـ بالفعل. أعلن مكسب رأس المال على أنه الدخل وباع أسهمها بأعلى سعر.

يقوم آل إيريرا في الشمال بأعمال شغب لتطبيق قوانين أمن العمل داخل مصانعهم، سيدى المحترم.

لنفعل كما فعلنا عندما أرادوا الحفاظ على هذا الجبل البيئى العاج بالطيور والفهود. لا لقوانين حماية البيئة ولا لقوانين أمن العمل، يا دومينجيث. اشتر العدد اللازم من النواب.

ـ اشترى؟

ـ حسناً، اقنعهم. سامحينى على وحشيتى.

ـ هناك نائب عنيد يطالب بقانون للمساءلة في عمليات الغش.

اسمع، يا رويث، أنت مهمتك فقط أن تضخم قيمة الأسهم الوهمية لتحقق أرباحاً. هذا هو "البيزنس". لا تشتت انتباهى.

ـ هناك تقارير عن خسائر فى شركة "ميريدا"، يا سيدى المحترم.

ـ ليس هناك شركة من شركاتى تبلغ عن خسائر بدون أن أقرر أنا. فى هذه الحالة، اخف الأمر ببيع الشركة التابعة لها بأعلى سعر.

ـ من سيرغب فى شرائها؟

ـ نحن ـ أيها السلحفاة ـ شركة "كينتانا روو"...

ـ كيف ستشتريها؟

ـ بقرض نحصل عليه. وهكذا يظل كل شىء فى بيته، وتمول شركاتنا الواحدة الأخرى، ونداري الخسائر ونجتذب المستثمرين...

ـ وإن لم نستطع...؟

اسمع، يا سيلفيا، عندما تصل أرباحنا عشرة أضعاف مالنا الخاص، حينئذ فقط نعلن إفلاسنا ولنترك المساهمين لمعاناتهم. وأثناء ذلك، نمد كاللبان الانطباع بأننا نزدهر حتى يواصل المساهمون استثماراتهم بدون أن يشموا أننا على وشك الإفلاس. هل تفهمنى؟

ـ أنت عبقرى، يا سيدى المحترم.

ـ لا العبقرية هى ماما التى ولدتنى للحياة. هه!

ـ ماذا سنفعل هذا العام مع تعويضات مديرى شركاتنا، يا سيدى المحترم؟

ـ ضاعفها، يا رودريجيث. وزد حقوقهم فى شراء الأسهم. واخف التكاليف عن المستثمرين. لا تدخل الامتيازات قط فى الحسابات البنكية. وتأكد أنك ستربح الملايين.

ـ والموظفون؟

ـ إلى الجحيم.

ـ أحذر سيادتك من أن كيكى، ملقن خطبك، يتجول مثرثرًا بأنه يمنحك كل الأفكار، يا سيدى.

ـ أما هذا الشخص لاعق المؤخرات فاقض عليه مرة واحدة. اخرج حاجياته من المكتب وإلقِ به إلى الشارع.

ـ ولكنه خدمك لمدة اثنى عشر عاماً.

ـ يجد المنافقون دومًا فرصة أخرى...

ـ والمساهمون؟

ـ عليهم اللعنة.

ـ والمدعون العموم؟

ـ اهدأ. لا تخبرهم بشيء. لن يرسل بنا أحدهم إلى السجن. يعتمد علينا الكثيرون.

كانت أمى أفضل منه. وكانت ترتدى السواد مثل أبى دائماً.

ـ أشعر بالحزن على المكسيك، حزن أبدى.

قلدته حتى أنها كثفت الصرامة الجنائزية وظلت ترتدى جونلة سوداء طويلة تصل إلى كعبيها.

عليك أن تتخيلينى وأنا طفلة، جالسة وقت الغداء بين أب وأم يرتديان السواد ولا يتبادلان كلمة واحدة.

وهو لا يكف عن التحديق فيها كقط جبلى.

وهى لا ترفع عينيها عن الطبق قط.

وتعلم الخدام ألا يصدروا أى صوت.

ولكن كانت هناك كراهية أشد فى نظرة أمى المتجهة لاسفل عن قسمات أبى الصارمة التى فى حالة مراقبة مستمرة.

وكان لا يطل الحنان - حنان غير مرغوب ومذنب ـ فى عينى أبى الصفراوين عندما كان يراقبنى. كنت أتنصت دوماً لتقريعه لأمى من وراء الباب.

ـ لم تعرفى أن تمنحينى وريثاً. فأنت لا تصلحين لشىء.

أنت تأمر فى كل شىء، يا باروسو جونيور، ولكن لا يمكنك إصدار أوامر للرب. أمر الرب أن تكون امرأة.

قالتها كما لو أن ماريا العذراء تعتذر من الروح القدس عن أن طفلها كان بنتاً.

عملت مرارة أبى هذه لصالحى. لم يكن لديه وريث ذكر. لم تستطع أمى كاسيلدا جالبان أن تتعرض للحمل مرة أخرى بأمر الأطباء. تبادل الاثنان الأحقاد. قرر أبى أن يعلمنى كرجل لأرث أعماله وأدير ثروته. ولذا تمكنت من الدراسة فى باريس، وتعرفت عليك ووقعت فى غرامك، يا بيرنال. أنا الطفلة المكسيكية حتى النخاع والمدفوع لها كل النفقات تدرس فى جامعة باريس وتنقذ ميراث أبيها المقدر بالملايين. وأنت الشاب الحاصل على منحة من الحكومة، المحمى والمبعوث إلى فرنسا كتعويض عن مقتل والديك وللإساءات التى تعرضت لها لتطابق اسمك معه.

بما أن اسمى بيرنال إيريرا، كأبى، سجنونى وعذبونى، معتقدين أنى أبى نفسه، حتى دخل رئيس شرطة خواريث وقال لهم: "كفوا عن وحشيتكم. مات الأب ونحن الذين دفناه".

شفت نظرتك، يا بيرنال، عن معاناة جادة حسدتك عليها: نظرة وريثة للألم والشجاعة والإيمان. لا أعلم. وأنت، فى المقابل، رأيت فى عينىَ حقداً موروثاً ولومتنى عليه:

الحقد والحسد وأيضاً الأسف على نفسك سموم تقتل، يا صبيتى. حولى ما تشعرين به إلى إرادة للحب. وحرية فى الفعل. لا ترهقى نفسك ببغضك لوالدك. تجاوزيه. أعلم أكثر منه. أنا أفضل منه. ولكنى مختلفة عنه. وسترين كيف تفاجئينه ـ ثم ضحكت، يا حبيبى.

أنت وأنا عاشقان، يا بيرنال إيريرا. عاشقان من أول نظرة. ولد حبنا فى قاعات الدرس وأثناء المحاضرات، وفى مقاهى بول ميش(*) ونزهاتنا على ضفاف السين، ومع الأفلام القديمة فى Rue Champollion ووجبات croquet-monsieur و café -lait والقراءة الشغوفة لـ Nouvel Obs و Jean Danielومراجعتنا فى ليالى الامتحانات ورحلاتنا بحثًا عن الكتب على طول Rue Soufflot وليالى حبنا بغرفتك العلوية فى rue Saint Jacques وصباحتنا مع مشهد Panteon وهو يضمنا. حب من أول نظرة.

نحن فى باريس. هنا لا شىء يتغير. المدينة هى نفسها دوماً، ولذا فإن حب باريس يظل للأبد.

عدت سريعًا إلى المكسيك لسببين.

الأول إن أبى خدع أمى. فلقد تزوجا بنظام الملكية المشتركة. كانت أمى وريثة لشركة تصنيع بيرة ضخمة وكان مفهوماً أن الملكية المشتركة لن تمتد إلى الشركة وتقتصر على ثروتها الشخصية.

وفى يوم استدعى مجلس إدارة الشركة أمى وأبلغها أن أبى لم يخسر كل ثروتها الخاصة فى عملياته المالية المشبوهة وحسب، وإنما زوّر توقيع كاسيلدا جالبان دى باروسو ليستولى على أسهمها بالشركة، وخدع الجميع.

وصلت إلى المكسيك وسط هذه الميلودراما. لم أفعل سوى أن زدته خطورة. أعلنت له أنى عاشقة لك وأنى سأتزوجك.

ـ شيوعى! جائع! ابن ألد أعدائى، مثيرا الشغب النقابيان فى الشمال! هل فقدت عقلك! ـ صرخ أبى وألقى بطبق الحساء المغلى على رأسى، ونهض من المائدة ووجه لكماته إلىَّ وأنا أصيح،

ـ ابعد عنى! وجه ضرباتك نحوى وليس نحو ابنى!.

ـ بيرنال، حبيبى. ليس بوسعنا أن نمنع الميلودراما فى حياتنا الشخصية. ليس هناك عائلة بدون مسلسلها الذى ترويه. وما الميلودراما سوى أنها كوميديا بدون مرح؟

(*) Boul Mich بالفرنسية فى الأصل (المترجمة).

انفجر أبى ـ لا أريد زوج ابن.

انفجرت الغضب الذى كان يقلق روح أب دائمًا مع تراكم المصائب، الابنة "الضائعة، من وجهة نظره ، والزوجة التى "تحطمه" من وجهة نظره أيضاً، وكان هو الذى يدمرنا نحن ـ الاثنتين ـ بغضبه الذى فاق التصور، الغضب الذى أخرجه عن جلده وحوله إلى عاصفة، إعصار فى أرض خلاء، واهتزاز لشجيرات جافة وأراضٍ بور وسماوات حانقة، يا بيرنال، غضب متفجر كبعث لفصول حياته الميتة جميعها، ربيع أخرس وصيف لا يرحم وخريف أسود وشتاء تعس، نعم، يا بيرنال، انفلت زمام أبى، كما لو أنه لم يكفه أن يسمم نفسه وإنما قرر أن يعدى العالم بأسره.

ـ ابنتى، بنت ليل مع هذا الشيوعى! ـ كان أبى يعوى كالحيوان ـ ابنتى عشيقة رجل طارد عائلتى ورغب فى تدير آل باروسو! حفيدى دمه مسمم!.

بنت ليل، خنزيرة، إلى الحظيرة، أخذ يصرخ فى وجهى ويلطمنى وهو ينتزع مفرش السفرة ويحطم الأطباق ويبقع السجاد، هذا كله أمام أمى الساكنة والباردة والمتشحة كلها بالسواد، محتقرةً أبى بنظرة قاتلة، إلى أن نهضت وأخرجت مسدساً من حقيبتها، عاينت زهول أبى الخاطف، ثم أخرج بدوره مسدساً من خصره وتواجه الاثنان كما يحدث فى فيلم لتارانتينو، وكل منهما شاهر المسدس فى وجه الآخر وأنا فى وسطهما، مضروبة ومرعوبة، جاهزة لأفصل بينهما، وتعوقنى بطنى نفسها، والرغبة التى لا يمكن كبحها فى إنقاذ ابنى، ابننا...

ابتعدت عن الجسدين المعتمين والفظين لأبى وأمى. انسحبت مديرةً لهما ظهرى، إلى خارج حجرة الطعام. رأيتهما يتبادلان نظرات كراهية تحمل علامة الدولار والألم فى حدقتيهما. الاثنان يواجهان بعضهما، مسلحين، شاهرين الأسلحة، ويقيسان من سيطلق النار أولاً؟ أضحت المعركة بعيدة.

صحت، خارج حجرة الطعام، وأنا أغطى أذنىّ لكى لا أسمع الطلقات، كنت أرتعش وأحتضنت بطنى بدون أن أجسر على العودة إلى حجرة الطعام.

كانا ميتين.

أبى ملقى على وجهه على المائدة، مجعداً لمفرشها بلا منطقية، ووجهه نصف غارق فى طبق من الفراولة بالكريمة.

وأمى مختفية تحت المائدة، وجونلتها مرفوعة حتى منطقتها الجنسية. طالعت لأول مرة بياض رجليها الذى يشبه الحليب. كانت ترتدى "رباط ضاغط"، قلت لنفسى بلا معنى.

ورثت ثروتى الاثنين. سددت ديون أبى. أنقذت أسهم أمى. عوضتنى شركة البيرة وكانت كريمة معى. ولكنها اكتسبت الحظ السيئ. أو أن الحظ الحسن يأتى مصحوباً بالحظ السيئ، كما يحدث دائماً.

ثروتى قليلة! متى ستكبر؟ كما كان الجنرال الراحل آروثا يقول.

عدت أنت للمكسيك. طلبتنى للزواج. فالعقبات قد زالت. مات أبى. ولكن ولد الطفل.

ما الكروموسوم؟ هو حامل الوراثة. يبلغ المعلومات الجينية . تحتوى نواة كل خلية جسمية إنسانية على ٢٣ زوجاً من الكروموسومات. نصفها من الأب والنصف الآخر من الأم. وقد ينقسم الكروموسوم إلى شبيه مطابق له. ولكن إن ظهر كروموسوم دخيل ـ زائد ـ يرتفع العدد الكلى إلى ٤٧ كروموسوماً ويمنحنا هذه الاختلاف مخلوقاً غريباً، وجه مسطح، عينان منغوليتان وأذنان مشوهتان وبؤبؤ متعدد الألوان وكفان عريضان وأصابع قصيرة وعضلات مرتخية مع الإعلان عن نمو عقلى متأخر. متلازمة داون.

ماذا كان بوسعنا أن نفعل؟

نحفتظ بالطفل معنا، معاملته كما هو، ابننا؟ أن نتفرغ له؟

كان علىَّ أن أتولى أمره، أنا الأم، المتفانية، محررةً إياك لتواصل طريقك؟

أن نقتله، يا بيرنال، ونتخلص من الحمل غير المرغوب فيه؟

أن نحبه، يا بيرنال، ونرى فى عينيه الغريبتين ومضة من الرب، واستعداد هذا المخلوق لأن يحب ويكون محبوباً؟

قرارنا بأن نكافح من أجل السلطة كان أقل إيلاماً من الكفاح من أجل ابن.

كم كنا باردين وذكيين، يا بيرنال. ماذا كنا نريد أنت وأنا؟ أردنا الشىء نفسه. العمل بالسياسة. أن نمارس ما تعلمناه فى الجامعة الفرنسية. بناء بلد أفضل على حطام المكسيك المدمرة مرارًا بسبب مكائد الزيادة والنقصان: البؤس والفساد، المتأصلين بنفس القدر؛ التنافس الرهيب بين الأشرار، واللاتنافسية الشديدة بين الأخيار؛ التصنع والادعاء فى أعلى، والخنوع الذليل فى أسفل؛ الفرص الضائعة، اللوم الذى تلقيه الحكومات على المواطنين لسلبيتهم ومن المواطنين على الحكومات لفقدان شهيتها؛ إيحاءات عامة لقدرية العلامات، كما لو أن بدلاً من أن يكون دستورنا قانوناً فيدرالياً، هو كتاب أسطورى يعود لحضارة المايا فى جواتيمالا ...

كنا سنغير هذا كله أنت وأنا. كنا نثق ثقة بلا حدود فى موهبتنا، وعلى استعداداتنا فى بلد الارتجال، وفى إرادتنا فى خلق أفعال قانونية مع مهارتنا فى التكيف مع الظروف.

ـ السياسة هى فن كل ما هو ممكن.

لا. السياسة هى فن كل ما هو مستحيل.

من قال أيهما؟ أنت الأول، وأنا الثانى، أو على العكس، كما يقول

وزيرنا للزراعة غير المفوه؟ الفعل، يا بيرنال، فقد كففنا أن نكون آباء لطفل معتقدين أننا سنتبنى بلداً.

سلمنا الطفل للملجأ. ونزوره بعض الأمسيات. تقل كل مرة، فالبعد الجسدى يثبط همتنا، والحاجز العقلى. ولم ننصت قط إلى الأصوات التى تخبرنا:

ـ اقتربا منه. هؤلاء الأطفال أذكى مما يبدوون عليه. ولكن ذكاءه من نوع آخر.

ـ أى نوع تتحدثين عنه، يا دكتورة؟

ـ ذكاء عالم خاص به.

ـ لا يمكن التسلل إليه؟

ـ ربما. لا نعرف حتى الآن. من الذى عليه أن يحاول؟

ـ يحاول فى ماذا...؟

ـ أكرر، من الذى عليه أن يحاول؟ أنتم والداه، أو هو؟

رفضنا هذه الألغاز. وابتعدنا عن هذه الخيارات. عملنا ما كان واجبًا أن نعمله بدون حمل شخص مغفل، نعم، أقولها، مغفل، ابننا، المحبوب، والفريد، الذى يخصنا... هل تذكر مادة إيميليو بيدو الفريدة فى الكلية الفرنسية عن محاورة فيدرو لأفلاطون، فقط عن هذا الحوار الذى هو بذر اللغة؟ اللغة "التى عندما تُرفض بدون حق، تحتاج إلى مساعدة أب، لأنها غير قادرة على الدفاع عن نفسها بمفردها". ولذا علمنا بيدو، كل لغة تحتاج أن تُفسر من أجل أن "تنغمس" فى "اللغة التى نشكلها، فى اللغة التى نحن عليها".

أمضينا عشرين عاماً، أنت وأنا، نتحدث لغة السياسة التقليدية. وفى المقابل لم نستطع أن نتحدث لغة طفل مبدعة؟ والتى ربما كانت لغة شاعرية....

وما الثمن، يا بيرنال؟ أعترف. لم ننفصل وحسب عن طفلنا، الذى يخصنا. بعد فترة، توغلنا فى مسيرتينا السياسية، وانفصلنا عن بعضنا البعض. لم نتوقف عن حبنا لبعض وعن مقابلتنا وحواراتنا وحياكة المؤامرات.. ولكننا لم نعد مغفلين، لم نعد نحن، لم نعد نعيش معاً، كنا نخرج أحيانًا إلى حانة أو نعاود النوم معاً. ولم تسر الأمور. اختفت العاطفة. فضلنا التوقف لكى لا نجعل صدقاتنا العظيمة مريرة.

أنت رجل طيب ولذا لم نستطع أن نعيش معاً. بدونك، استطعت أن أدرب الجزء المعتم من روحى، الجزء الذى ورثته عن أبى، بدون أن أسبب لك ألماً.

حكيت لك عن غرامياتى قبل أن تمسك سموم الأنباء. أعلم أنه فى السياسة الذى يكسب الجدال ليس صاحب الحق وإنما صاحب القدرة. قلت لك فى مناسبة أخرى إن: "الكذاب يسقط على الأرض أسرع من الأعرج". أن تكذب بنجاح يقتضى أن تكرس حياتك بكاملها لذلك. كان علينا أن نتفرغ كلياً لخلق الأكاذيب . وهو ما تسمح به السياسة.

فى أوقات ماضية كانوا يرسلون الكذاب إلى الدير ليتطهر من ذنبه. ولكن المكسيك ليست ديراً بل بيت دعارة. وكنت أنت الراهب الزاهد فى بيت دعارة السياسة المكسيكى. وهنا كمنت قوتك. الأخلاق. التناقض. خلقتهما كى تجد التبرير الضرورى لما أطلق عليه منذ أعوام "التجديد الأخلاقى". كنت حازماً ونفعيًا حين استلزم الأمر، وعادلاً وقانونيًا حين كان ضرورياً.

لم تحك لى قط عن حياتك الخاصة وأحياناً تخيلت أنك لا تملك بالفعل حياة خاصة. أو كما كان والدى ليوناردو باروسو جونيور يقول بوقاحة، كلنا لدينا حياة خاصة. بشرط أن يكون لدينا ثمنها.

تعاونت معك بدون ميعاد... كنت أعلم عن مرض لورينثيو تيران المميت منذ أن وصل إلى الرئاسة. لم يكن المريض الوحيد الذى تولى الحكم. كان فرانسوا ميتران يعرف أنه سيموت فى قصر الإليزيه بعد

اختياره رئيساً لفرنسا. كان روزفلت يعلم عندما تركهم ينتخبونه للمرة الرابعة. ربما معرفتهم هذه منحتهم قوة الإرادة للحياة بهذه الحيوية التى عهدناها فيهم. حفظت السر كما فعل تيران نفسه. وثق دائمًا ولهذا الغرض أعددت شاباً بدون خبرة، " لم تنبت ذقنه بعد"، كما قلت لك، مجرد صلصال فى يدى، ليتولى الرئاسة فى حال موات تيران ـ كرئيس مؤقت إن مات تيرات خلال العامين الأولين من فترة رئاسته؛ أو كرئيس بديل إن مات تيران خلال الأربعة أعوام الأخيرة من رئاسته -، ولكنه رئيس عابر، عابر وحسب يا نيكولاس بالديبيا، الجسر حتى رئاستك أنت، يا بيرنال، بعد القضاء على خصمك تاثيتو.

نفذ بالديبيا بدقة ما أردته. اتبع تعليماتى بالحرف الواحد. وصدق عندما قلت له،

ستصبح رئيساً، بأنى أشرت إلى فترة رئاسة من ست سنوات كاملة خاصة به. لم يرتبَ، وبمعرفتى أن الرئيس تيران مريضاً، لم أكن سأعتبره سوى كرئيس بديل أو مؤقت. بورتيس خيل(*) آخر. كان مطيعاً ومخلصاً. لم يتحكم فيما لا يستطيع أحد التحكم فيه. آلاعيب عجوز المقهى. عاطفة الحب الطفولية لسيدة المسلسلات هذه التى تدعى دولثى. لغز أولوا غير المفهوم. قضية مورو التى أردنا أن نخفيها من الخطب العامة، كما أنها لم تحدث، سر مكتوم للأبد فى أعماق البحر.

وفى المقابل، كم كان بالديبيا نافعاً لنا فى إجهاض مكائد الرئيس السابق ليون، ومؤامرات الجنرال المشئوم آروثا (لم نتصور قط أن نيكولاس سوف يسبقنا ويقيم علاقة سرية مع الجنرال بون بيرتراب ويطلع على كل تحركات آروثا)، وفى المقاصد الغبية لآماثان عاهرة يوكاتيكا وبئرها الملىء بالعلوم الاقتصادية والوهن السياسى، آندينو.

كل شىء تحت السيطرة ومن أجل مصلحتك، يا بيرنال. ابتسم الحظ لك. وصار الطريق ممهداً. يبحر رئيس الكونجرس أونيسيمو كانابال براية

(*) رئيس المكسيك فى الفترة (١٩٢٨م ـ ١٩٣٠م) (المترجمة).

الأبله ولكنه أكثر ذكاءً من القراصنة ويعلم من أين تهب الرياح. أحضرنا جميعاً ضغائننا فى أمعائنا. بالنسبة لكانابال كان الانتقام من الحقارات التى أطلقها عليه بتهور ثيسار ليون (لا ينبغى احتقار أى خصم)، المرعب السابق. تحول القضاء على ثيسار ليون إلى شبح داخلى مسيطر على أونيسيمو. كان الأمر يضحك آندينو، أما بيبا، فلا، لأنها تعرف الغرام السرى لبومبادور شبه الجزيرة مع تاثيتو وآروثا. ولكن حسب الرجل الماكر جداً الذى هو، أونيسيمو فإن هذه العواطف الخادعة سوف تقع، كالأعرج والكذاب الشهيرين... كما أن أونيسيمو يعلم كيف يستغل الكونجرس المتشرذم الذى نشعر به لتقسيمه والهيمنة عليه.

الذى لم نحسب له أنت وأنا، يا بيرنال إيريرا، هو أن أونيسيمو، الماهر أكثر مما توقعنا، استفاد من عميل سرى، عجوز بلا أية جاذبية، تتقن التخفى أكثر من الحرباء، التى تخلط ما بين صحراء تشهواها وغابات تاباسكو، هذه التارديجرادا بهيئتها كالراهبة، العذراء والشهيدة. لم تكن تارديجرادا بئراً لمعلومات أونيسيمو وحسب وإنما شىء أسوأ، شىء بصراحة يحرقنى، يا بيرنال.

وعدت نيكولاس بالديبيا:

- ستكون رئيساً للمكسيك.

- المعنى: سأجعلك رئيساً للمكسيك.

لم يحدث هذا. من صعد ببالديبيا إلى الرئاسة كانت الهاربة من الدير، باولينا تارديجرادا. يدين لها ولأونيسيمو، وليس لى ولا لك، بالديبيا بجلوسه اليوم على كرسى النسر.

احترق، يا بيرنال. أعترف لك. أحترق وأشعر بالقلق.

كان نيكولاس بالديبيا سيضحى الـ"دون تانكريدو" فى مصارعتنا التذكارية، أى المهرج الساكن الذى يلهى الثور أثناء دخوله الحلبة بأن يترك نفسه يقع على الأرض كى يأخذ المصارع الأضواء. ولكن انظر. والآن ما حدث أننا أصبحنا السيد والسيدة تانكريدو ويدين نيكولاس بالديبيا لأونيسيمو وباولينا، وليس لكِ ولى، فى وصوله للحكم.

ولكنى لن أقلق. فأنت كما أنت، حبى القديم وترشيحك هو الأكثر جدية وتفضيلاً فى الانتخابات الرئاسية فى ٢٠٢٤ .ولكن الحياة تخبئ لنا المفاجآت، كما يغنى الفنان البنمى روبن بلاديس. قد تظهر ترشيحات أخرى. طبيعى. بل علينا أن نعمل على ظهور ترشيحات أخرى. أتطلع إلى الأفق. ولا أرى من هو أقوى منك. على أية حال، تنفس بهدوء. تمنع الفقرة ٨٢ من الدستور المواطن الذى تولى منصب الرئاسة سواء كان منتخباً أو مؤقتاً أو بديلاً من العودة إلى تولى المنصب. ويضيف قانوننا الحاكم، لأى سبب. ولذا كان ثيسار ليون يرغب فى إرهاب أونيسيمو كانابال ليبدأ عملية تعديل للدستور لحذف الفقرة المذكورة والسماح له بالعودة للسلطة. لا أحد له الحق فى وطننا مرتين.

ما عدا نيكولاس بالديبيا؟

مخلوقى.

معطفى على الموضة الديمقراطية.

الدمية الخشبية سهلة الانقياد التى سوف تحملنا إلى الرئاسة بدون عوائق.

ولكن كانت الخادمة سيئة الأدب.

لا، لا أعتقد أنك ستهزم فى انتخابات حرة وديمقراطية. ثق فى فوزك. ما أخشاه يا بيرنال، هو أن يعثر بالديبيا على الوسيلة التى تبقيه على كرسى النسر. هل تعتقد أنه سيكتفى بعامين وبضعة أشهر فى الرئاسة؟ هل تعتقد أنه لا يدبر حالياً مع باولينا هذه الوسيلة للبقاء على الكرسى؟

ربما لا. ولكن الأفضل أن نمنع الخطر. فكر أنه على أية حال علينا ألا نغفر لنيكولاس بالديبيا زيفه. دع هذا لى. إن غفرت لمن وجه لك شراً، سيكتشف أعداؤك ويضاعفون الشر الذى بإمكانهم فعله بك.

أقولها لك، يا بيرنال الطيب، لأنك تقول دوماً،

ليس بإمكانى أن أظلم عدواً.

أنت مخطئ. لأن العدو سيكون ظالماً معك.

ـ ٦٥ ـ

باولينا تارديجرادا

إلى نيكولاس بالديبيا

أعتقد أنك نلت غنائمك بكافة الجبهات، يا نيكولاس. فعلت خيراً بعدم مساسك بمجلس وزراء الرئيس الراحل تيران، ماعدا وزيرى الأشغال العامة، أنطونيو بيخارانو، والإعلام، فيليبى آجييرى. فقد كان فسادهما واضحاً للجميع. بتضحيتك بهما، ترضى الرأى العام وتبرهن على تقديرك للعدالة. فلقد عرج النظام دوماً فى هذا: العدالة. لم نكن نحظى بثقافة الشرعية واكتفينا بإلقاء اللحم للأسود كل ستة أعوام. ولكن النظام لم يتبدل.

أعتقد أن أحد الواجبات الملحة والفورية بالنسبة لك هو إصلاح السلطة القضائية كليةً فى هذه الولايات التى إن حدث فيها هذا لن تتضر سلطتنا السياسية. سوف يقف الناس كثيراً أمام أفعال العدالة التى ستتخذها فى أواكساكا وجيريرو، وناياريت وخاليسكو، وإيدالجو، وميتشواكان، ولن يبقى أمامهم وقت للتفكير أنك لم تمس حكام الولايات القدامى فى سونورا، وكاليفورنيا السفلى، وتاماوليباس، وسان لويس بوتوسى. تحدثت معهم جميعاً. مع كابيثاس، مالدونادو، وكينتيرو، وديلجادو. كلهم أذكياء ويتفهمون عرضك. عدم الظهور فى الصورة. ولا للاستعراضات.

الخفاء. ستتعاون معم السلطات المحلية وينفذون ما يأمرونهم به، لوكان فى تكتم شديد.

ماذا يفضلون، المال أم الشهرة؟ ـ حذرتهم باسمك ـ عليكم الاختيار، أيها السادة. فلديكم الشهرة، الواسعة والسيئة. ولديهم أموال كثيرة أيضاً ولكن يمكنهم امتلاك المزيد. إما المال أو الشهرة. لا يمكنك أن تتزوج اثنين فى السياسة.

فضلوا المال بالطبع. وسيكونون حلفاءك السريين. يديرون خيوط القمع والاضطهاد أيضاً. كله فى الكتمان. يعرفون أن أيديهم بطشاء. ألقى قرارك بتسليم زعيم الزعماء(*) سيلبيستري باردو الرعب فى قلوبهم. يعرفون أنه ، لو أردت، بوسعك أن تربط بين أى من حكام الولايات الآخرين وتهريب المخدرات وتطردهم إلى الولايات المتحدة الأمريكية، حيث تنتظرهم عقوبة الإعدام. وأنت، لك عرفان البيت الأبيض.

نجاح فوري آخر لك. سمح لنا الأمريكان بالحياة. تم تقديم قرارك بدعم الغزو العسكرى الأمريكى فى كولومبيا على أنه جزء من حملة القضاء على تهريب المخدرات. ماذا سيحدث فى المراكز المالية الأمريكية بدون غسيل أموال وتهريب المخدرات؟ وبالنسبة للبترول، أقنعت الرئيسة كونداليزا رايس بأنك ستترك السوق تحدد السعر، بدون حاجتنا إلى تصريحات تدعم العرب.

ـ لا قوانين عند الحاجة، قلت عبر الهاتف لكونداليزا، وهى الحجة التى تفهمها جيداً.

عبر الهاتف، يا نيكولاس! هل أدركت؟ كفاك فعلىَّ انصياع كى ترفع واشنطن عنا العقوبات. وبما أن الرئيس تيران تمتع بالحكمة اللازمة بعدم الاحتجاج، فإن ما حدث بين يناير ومايو كأنه لم يحدث.

قالت لك السيدة كونداليزا- ثمة صفحات خاوية فى كتب التاريخ.

وما حدث أنهم سيعيدون كافة وسائل الاتصالات اليوم وستنتهى مهمة كتابة الرسائل المزعجة هذه بيننا.

(*) بالإيطالية فى الأصل Capo di tutti capi: تعنى زعيم الزعماء (المترجمة).

إذًا، لمَ أكتب لك؟

لأترك دليلاً . يستهوينى التفتيش فى الأرشيف. مثلك. بفضل دون كاستيلو ماجون المهمل حمرت البطاطس قبل تاثيتو دى لاكانال الحقير. منذ أن طالعت ملفك عن المدرسة الوطنية للإدارى فى باريس، شرعت فى التحقيق. شرلوك هولمز . هكذا يكتب صحيحاً؟ لأنه كان لدى صديق كوبى يهوى أن يقول «شيلموخونيس» كان واحداً من هؤلاء الكوبيين الغرباء الذى يعيدون اختراع الكتابة بحجة أنهم ينطقون كل شىء خطأ. كيف تعرف ممثل سينما شهير ينطقونه «كاجابليه» من أين أتوا بفيلم اسمه «المواطن كائين».

الخلاصة، لأنى بدأت أكون مستفزة. سأبدأ من الخاص إلى العام، قطعة قطعة.

جئت إلى المكسيك من المدرسة الوطنية للإدارة الفرنسية وأقمت فى مسقط رأسك مدينة خواريث، وكنت تعبر الحدود يومياً للاطلاع على الكتب بمكتبة تكساس فى الباسو والتهمت فى أرشيف الصحف كل ما خص السياسة المكسيكية منذ ساليناس[1] وكل من بعده. ثم أعلنت إقامتك فى خواريث واختلقت فعلاً مولدك المشوش والمحير، ابن لأب مكسيكى وأم أمريكية، الاثنان مهنتهما المحاسبة، بأجر فى شركات مصنعة هى بدورها واجهات لشركات أمريكية ولها نظامان محاسبيان أو ثلاثة، والتى يديرها رجل الأعمال العملاق ليوناردو باروسو الأب. أى أن سيرتك العائلية تنتمى لظلال لا يمكن الكشف عنها وترتبط بشركات هنا وهناك. والسر له تبرير. ولدت فى عيادة فى تكساس، ولكنك مكسيكى المولد بفضل الفقرة الثلاثين الجزء الأول ب، المولدون فى الخارج من أب مكسيكى. وهو الحظ الذى لم ينله خوسيه كوردوبا و روخيرو دى لا سيلبا، الرجلان القويان فى حكومات كارلوس ساليناس و ميجيل اليمان[2] ، ولكن منعهما الدستور من

---

(١) رئيس المكسيك من (١٩٨٨م ـ ١٩٩٤م) (المترجمة).

(٢) رئيس المكسيك من (١٩٤٦ ـ ١٩٥٢م) (المترجمة).

الوصول إلى كرسى النسر لكونهما أجنبيين. ولكنك تعلم هذا كله لأنه لا أحد يحمل تاريخ المكسيك السياسى فى ذهنه مثلك، لأنك درسته بعمق ومنذ وقت قليل... وليس كالآخرين، الذين درسناه فى المدرسة الابتدائية. أو رضعناه.

أواصل، يا صديقى بالديبيا. توفى والداك وأنت فى الخامسة عشرة فى حادث سيارة على الجانب الآخر. وبما أنك تتمتع بالجنسية المزدوجة، دفنتهما فى الجانب الأمريكى. جرت الطقوس على الجانب الآخر من الحدود تحت اسم "نيك فال"، لكى تعثر على فرصة عمل وتتلافى العنصرية، كما صرحت.

ثمة فاصل بين نيك فال الذى يدفن والديه فى تكساس ونيكولاس بالديبيا الذى يدرس فى المدرسة الوطنية للإدارة فى فرنسا، المنخرط لأذنيه مع جماعات الطلبة المكسيك فى فرنسا ـ يذكرونك جيداً ـ ويتحدث معهم، ويراقبهم، ويتعرف على حكاياتهم العائلية، معلناً فى ضربة واحدة أنك يتيم وتعانى من العنصرية لتكتسب تعاطف الآخرين.

كنت تريد أن تتطلع على أخبار الوطن الذى تحن له.

جهزت نفسك لخدمة المكسيك بالدراسة فى فرنسا. تماماً كماريا ديل روساريو جالبان وبيرنال إيريرا، فى الوقت الذى كان فيه الحديث بالفرنسية والدراسة فى باريس صيحة لنتميز عن الأمريكان ولمنحنا الأهمية.

حسناً، رأيت أنك لست وحدك الذى يعرف كيف يستفيد جيداً من المحفوظات. انظر، يا نيكولاس، بطاقة التعريف الخاصة بك لأن كاستولو موجون أبرزها لك عندما دخلت لوس بينوس:

المدرسة الوطنية للإدارة بباريس

نيكولاس بالديبيا

طالب. مستمع، فصول دراسية مفتوحة. المدرسة الوطنية للإدارة، باريس. جواز سفر مكسيكى. تاريخ الميلاد ١٢ ديسمبر ١٩٨٦ مكان

الإقامة: باريس، فرنسا. مشروع الاحتراف: العودة للمكسيك. التأهيل والعقيدة: اختيارى. الوصف الجسدى: بشرة قمحية صافية. عينان خضراوان. ملامح منتظمة. شعر أسود. طول القامة ١,٧٩ م. علامات مميزة: طابع حسن فى الذقن.

هذه بطاقتك فى باريس تحوى كل شىء وبصورة فوتوغرافية. انتابنى فضول. أين كنت قبل ذهابك لباريس، خلال الفترة بين عامك الخامس عشر والاثنين وعشرين؟ كعضوة فى الكونجرس لم يكن أمامى مشكلة أن أرسل بياناتك ووصفك إلى الإنتربول. كان يكفى أول حرفين. أعتقد أنك لم تكن ذكياً وقتئذ، يا نيكولاس الطيب. كفانى أن أرسل قوائم الطلبة المكسيك فى أوروبا ما بين ٢٠١٠ و ٢٠١٥ . مرهق بعض الشىء، ولكن ليس مع وسائل تحديد البيانات المتطورة ـ وسائل لم يطلع عليها كاستولو الطيب.

اختفى نيكولاس بالديبيا الذى فى باريس من القائمة. وظهر بدلاً عنه، آخر اسمه نيكو بالديس، ببطاقة صادرة من الشرطة السويسرية تحمل صورة فوتوغرافية: صورتك.

نيكو بالديس. طالب. جامعة جنيف، سويسرا. مسجل فى فصول الاقتصاد السياسى ونظريات الدولة. مطرود بعد اكتشاف تزييف وثائق تتعلق بدراسات سابقة. مكان الإقامة مجهول.

ما وثائقك المزيفة؟ لا يترك السويسريون ورقة واحدة تفلت منهم، كما تعلم جيداً. حدث أن "نيكو بالديس" كان مسجلاً من قبل فى سجل الأجانب ـ بالصورة ذاتها ـ تحت اسم "نيكو لابات" ولم يعجب السلطات السويسرية ازدواج الهوية ـ لأنها قد تؤدى إلى تعويض مزدوج.

من نيكو بات هذا الذى اعتقل ظلماً فى سويسرا؟ اليوم، أنت تعلم، يكفيك أن تمرر عبر الفحص الإلكترونى صورة فوتوغرافية وتراها تشير إلى سلسلة من الصور التى تبدو شيقة؛ لأنها تريك كيف يكبر الشخص فى

السن. ولكن كان بين "هويات" الوجه هذه المكتشفة كانت واحدة منها تخص توأمك، يا نيكولاس:

نيكولاس لابات، موظف إسبانى مقبول كحارس عقار . المقر الرئيسى إيديتوريال لى روفن. إبريل ٢٠٠٦ . معروف بانه موظف مثالى. قارئ نهم فى الفترات بين نوباته.

تمكن من إتقان اللغة الفرنسية. متهم بالتآمر مع عصابة سطو ليلية على المكاتب وسرقة فرنكات سويسرية ٢٥٠٠٠ .أطلق سراحه لعدم وجود أدلة دامغة. الوصف الجسدى. بشرة قمحية. عينان خضراوان صافيتان. ملامح منتظمة. شعر أسود مجعد صناعياً. طول القامة ١,٧٩م. علامة مميزة: طابع حسن.

شىء يؤدى إلى شىء آخر. ضرورى، يا حبيبى واطسون. يكفى استخدام الخلايا الرمادية الصغيرة لهرقل بوارو، آخر المفضلين لدى فى فن التحرى. انظر ـ على سبيل المثال ـ هذه البطاقة المستخرجة من محفوظات الشرطة فى برشلونة.

نيكو لابات: م. ١٢ ديسمبر ١٩٨٦ لأبوين قطالونيين فى مارسيليا، فرنسا. عاملان مهاجران. منضم منذ البلوغ لعصابات إجرامية فى مارسيليا. مخدرات، دعارة ذكورية، عصابات لفض المظاهرات. ناشط فى جبهة "لو بن" الوطنية. عوقب بعامين من السجن على أعمال تخريب معادية للسامية ٢٠٠٠ ـ ٢٠٠٢ وجهته غير معلومة بعد مغادرة السجن. ملزم بالمثول أمام السلطات وتجديد الوثائق. الوصف الجسدى. قمحى. عينان خضراوان. ملامح منتظمة. شعر حليق. الطول١,٧٩م .

فليغفينى الرب! رئيسة سوداء ورئيس قطالونى! .

أرسل لك نسخة من هذه الوثائق، يا حبيبى المقدس. واحتفظ بالأصول داخل مكتبى بالكونجرس، مغلقة ولن تُفتح إلا فى حال استخدام العنف ضدى. وهو احتمال بعيد، إن كنت تظللنى بعطفك وتفهمك. لا، لا

أعتقد أنه ينبغى أن أوافق على عرضك بالزواج منى. إن رغبت أن أكون إيفيتا بارون، سأفعلها بدون ان أضطر إلى النوم تحت نفس السقف معك، أو أعين متذوقاً للطعام مثل آل بورخا أو أتخيل أنى فى فيلم لهتشكوك كلما دخلت لأغتسل.

لا، الأفضل أن نبقى كما نحن، صديقين متعاطفين، ومتآمرين سريين، وعاشقين حكيمين.

دعنى أقول لك، يا نيكولاس. لا أرغب سوى أن أرافق رجل سياسة لا أشعر بعواطفه الشخصية. أنا أنتشلك من خطر الحب. معى، لا داعى للتظاهر، كما تفعل مع أميرتك المثيرة السيدة ماريا ديل روساريو جالبان.

من العسير الوصول إلى السلطة وأنت تعرف استحالة الممارسة الجادة والموضوعية لها. يتنازعها العاطفة والمتعة والألم والحب والخوف. هل تعلم، يبهرنى كم التجارب والمعارف التى راكمتها على مدار حياتك، بغض النظر عن من أين أتيت. تستمتع عن حق بذكر فلاسفك اليونانيين. "السلطة عبد يتحكم فيه الآخرون". (بروتاجوراس؟ اسم جميل. لو كان لدينا طفل.....) ولكنى أحيا من أجل مصيرى والأعوام المكتوب لى أن أعيشها. وستعلم أنه ليس لى غضبات عائلية، مثل صديقك بيداليس "اليد القوية" وأبناؤه التسعة الأشرار. كيف ستتصرف معه!.

لا أحتاج لرجل. سأفقد استقلالى. وسوف أبددك فى الحميمية الزوجية، أنت تفهمنى....

بروتاجوراس بالديبيا تارديجرادا؟ أو بروتاجوراس لابات فقط؟ اسمان فى فيلم كوميدى مع خواكين باردابيه. هالديك اسم: باردابيه. لا، نيكولاس بالديبيا!.

معى لن تتعرض لهذا الخطر. سأحميك من كافة المكائد، يا نيكولاس. سوف أحميك من الآخرين وأحميك من نفسك ذاتها.

أحب طريقتك الباردة والحرة والحكيمة فى ممارسة الحب معى. يقولون إن كل النساء الشابات جميلات. أنا لا. أعتقد أنى تعودت أن أعوض افتقارى للجمال بموهبتى وبجعل شخصيتى أكثر جاذبية من قبحى. أحب أن يحسدونى على شخصيتى وليس على وجهى.

وأنت، هل أنت وسيم؟ من الوسيم الحقيقى فى وقت تعرى روحه ومواجهته للحقيقة، ولسره، وانتهاكاته؟

ما أجمل أنه ليس لدينا أشياء حميمة نتذكرها. لا لحظات مشتركة أو ضحكات أو أسرار أو تدليل. وكل هذه الترهات. كل ما لدينا هى السياسة.

ما لدينا هو قرارنا بالحفاظ على السلطة فيما بعد الأعوام الثلاثة التى يخولها لك القانون. ثلاثة أعوام. كافية، إن تدبرنا أمورنا جيداً، لتعديل الدستور والسماح بإعادة انتخابك. كافية، إن واصلنا العمل بحماس شرعى ومرونة عملية. وبالاختيار الحكيم لكباش الفداء. وهما جالبان وإيريرا. (لا أعلم إن كان هذا اسمهما التجارى أم اسم زوج فى رسوم ساخرة مصورة) وحافظ على واجهتك الجادة والتى توحى بالثقة. وسر بحذر، يا نيكولاس. واعرف أن السخف دمر حكومات لاتينية أكثر من العجز أو الجريمة.

ساحرة مكسيكية تعثر فى حديقتها على عظام نائب بالكونجرس مفقود وتنسب التقارير العظام إلى جد للعرافة أو شىء من هذا القبيل. (منذ وقت طويل...).

ساحر أرجنتينى يقرر أفعال راقصة ملهى ليلى مرشحة للرئاسة. (منذ ألف سنة.)

رؤساء دولة أرجنتينيون وبرازيليون وبيروانيون يستعرضون نزاعاتهم الزوجية علناً.

رؤساء إكوادوريون يرقصون الروك والهيلاهوب علناً حول العضو الذكرى لأمريكى مخصى على يد اللبؤة جوديث الإكوادورية.

وكخلفية واقعية، الفساد الهائل، والقروض الدولية التى تستقر فى حسابات سويسرا، وحملات القمع، والتعذيب، وأشباه فلاديمير[1] والفلاديفيديو... [2] كيف سيحترم الآخرون أمريكا اللاتينية. كيف نتجنب الاحتقار، والفضيلة، والرفض، والشعور بسخافتنا؟

بالرصانة، يا سيدى الرئيس. وبالحرية والديمقراطية. بالآفاق المفتوحة على الفرص. بالشعار العظيم لأعظم عبقرى سياسى فى العصر الحديث، بونابرت: طرق مفتوحة للجميع.

قد يكون أصلك غير معلوم. وإن شئت أن تهون عن نفسك بعد قراءة هذه الرسالة الأليمة من صديقتك التى تخفف عنها الحقيقة دوماً، أضيف إليك بطاقتى شرطة أدونهما هنا:

تشيكليجربر أدولف، المعروف بـ"هتلر". مولود فى برونو، النمسا ١٨٨٩ شارك كعريف فى الحرب العالمية الأولى. تشرد فى شوارع فيينا. انضم إلى جماعات عنف يمينية متطرفة. صعد ببلاغة متحمسة خطاباً مناهضاً لليهود وللماركسيين. شارك فى تمرد حانات البيرة فى ميونخ ١٩٢٣. حوكم بتهمة الخيانة وأدين بعامين من الحبس فى سجن لاندسبرج، حيث كتب"كفاحى". مهووس بتفوق العرق الآرى والقضاء على اليهود المتسلقين.

دجيو جوزيف فيساريونوفيتش، المعروف باسم "ستالين"، "كوبا" و"سوسو". مولود فى جورى، جورجيا، ١٨٧٩. سجن إيركوستيك١٩٠٢. معتقل فولجادا، ١٩٠٨. السطو على بنك تابع للدولة، تيفليس، ١٩٠٧. إلقاء خطب مغادية للسامية. وصف اليهود بأنهم "خائنون مختونون".

لن أسهب فى التفاصيل العقيمة لسيرتى هذين الطاغيتين. يكفينى أن أذكر أصولهما التى ليست متدنية وحسب، وإنما إجرامية، لأفسر: أنها

(١) يقصد المؤلف فلاديمير مونتيسينوس الذراع اليمنى لرئيس بيرو السابق ألبرتو فوجيمورى. (المترجمة).

(٢) مصطلح يطلق على أشرطة الفيديو التى صورها مونتيسينوس، وهو يرشح مؤسسات وقنوات إعلامية كبرى فى بيرو (المترجمة).

لم تكن عقبة أمام صعودهما. كفاهما تزييف شخصية جديدة. كان سيحكم ألمانيا والعالم صعلوك اسمه تشيكليجربر؟ هل كان سيسيطر على روسيا والعالم لص بنوك اسمه كوبا. هل كان سيحكم المكسيك خارج عن القانون شاب اسمه نيكو سالبات؟

نعم، يمكن أن يكون أصلك معكراً. فالعلم الرئاسى كالمنظف. يلمع وينظف ويضفى بريقاً. يرفع كرسى النسر بلا شك، ولكن "لا أحد يمكنه الجلوس إلى ما أعلى من مؤخرته". وأنك لست، يا سيدى، أقل من منعم وفوخيموري. وقد رأيت أن الحضيض أنجب هتلر وستالين، وكانت سلطتهما تفوق بكثير ما تحلم به، يا سيدى الرئيس، بكثير.

ولكنهم احترسوا عند القضاء على من فتحوا لهم الطريق إلى السلطة. المتآمرين المتعاونين مع هتلر فى تمرد ميونخ. رفاق ستالين الشيوعيين عقب وفاة لينين وبالرغم من تحذيرات الأخير (ركز الرفيق ستالين السلطات بلا حدود فى يده ولست واثقاً أنه سيستخدمها جيداً). هل تعلم الآن، سيادتك، لماذا لن أستحم أبداً فى حمامك.

حسناً، يا صغيرى، كما تقول الجدات. الخلاصة أن السياسة هى عشاء لجماعة من البربر. كل أزتيكى يطعن جاره التلاكسكالتيكى والعكس. وأنت وأنا، لا نفعل سوى الجلوس على عرشينا بعيداً عن المأدبة لنشاهد من أعلى قبائلنا من الأتيلاس الأصليين وهم يتقاتلون فيما بينهم. وأنا وأنت رسولا التعقل والوساطة، يا حبيبى نيكولاس.

التعقل، يا نيكولاس. إن شئت أن تكتسب عدواً، برهن له أنك أذكى منه.

الرصانة، يا نيكولاس. لا تسمح أن تتحول أفعالك غير القانونية التى لا غنى عنها للاستحواذ على السلطة إلى خبر فى الصحف.

السلطة هى مجموع رهيب من الرغبات والقمع، ومن الدفاع والهجوم، والفرص الضائعة والفرص المكتسبة. لدينا جبرنا الخاص فى نظامنا

المحاسبى. أكرر، لا تحول ما ينبغى أن يبقى سراً لنا إلى خبر. بالرغم من أن الأسرار نسبية. التفكير الغبى الذى يعن على شخص لا يشعر به أحد غيره. كل شىء يحدث فى الوقت نفسه لملايين الأشخاص. لا تنس. احم السر. ولكن تذكر قوتنا. فنحن بشر ونشبه الجميع. رؤساؤنا ووزراء خارجيتنا ينسون هذا باستمرار. ولكننا سياسيون لأننا لا نشبه أحداً. يا له من عزاء بائس! ياله من تناقض مزعج ـ ، كما يقول أحد أشباه رجالنا الفطين!.

ستثير الحسد، ولا يمكننا كبح ذلك. يرغب الجميع فى التمتع بالقرب من الرئيس؛ لأن الجميع يرغبون فى التمتع بمزاياه. والآن حان وقت التصرف بمفردنا، يا حبيبى. بتحويل كل شىء إلى ميزة. ولكن كل الحذر مع نقاط ضعفنا. أكررها لك كامرأة. تعلم أن النساء يبغضن بعضهن البعض ويتعلمن إخفاء كراهيتهن. ولكن يحب الرجال بعضهم البعض ويتعلمون إخفاء تعاطفهم. ومزايانا هى نقاط ضعفنا، فى الحالتين.

ثمة رجل يحبك جداً، حتى أنه يرغب فى قتلك. وأنت تحبه جداً حتى أنك لا تجرؤ على قتله. خيسوس ريكاردو ماجون.

قرر، يا نيكولاس. لا يمكننى نصحك فى هذا. السياسة هى التمثيل العلنى للعواطف الشخصية. هل هناك سياسة علنية بدون عواطف شخصية؟ هل أنا فى حاجة الآن أن أكرر عليك ألف باء نظيرك الفلورنسى؟

أن يخاف الناس منك أكثر أماناً من أن تكون مسلحاً.

يتحطم الحب عندما يكف أن يكون مفيداً لنا.

وفى المقابل، لا يهجرنا الخوف أبداً.

يجب أن يخشى الناس الأمير بدون أن يسبب كراهية الشعب له.

زن كلماتك. وألا يفلت من شفتيك شيئاً لا يفهمه الآخرون على أنه عطف، تكافل، إنسانية، رحمة. تحكم الشعوب بناءً على ما يرونه أكثر مما يفهمونه.

زن كلماتك. تحدث موسوليني، في بداية حكومته، عن آخر نائب مستقل باق، ماتيوتي. ادعاءاته ـ ومداهانته ـ سمعوه وقتلوا النائب. تعضدت الدكتاتورية الفاشية. نتيجة هفوة لسان. كم كان أوبريجون حكيماً حين قال: " الرئيس لا يتحدث بسوء عن أحد".

جهز كلماتك الأخيرة، يا نيكولاس. " نور، مزيد من النور[1] في طرف. و "أنا ومن بعدي الطوفان"[2] في طرف آخر. عبارة الإنساني وعبارة الملك. ولكن لا تنتهي مثل المذكور بعاليه البائس آلبارو أوبريجون[3]، أفضل عسكري في تاريخ المكسيك (لماذا لم يحكمنا عام ١٨٤٨ بدلاً من الخائن الأعرج سانتا آنا)[4]، أوبريجون الذي هزم بانشو بييا ، الاستراتيجي والسياسي اللامع، الذي اغتيل في مأدبة على يد متعصب ديني في اللحظة التي مد فيها يده يطلب، مزيداً من العجة...

مزيد من العجة. احذر أن تكون هذه هي الكلمات التي يسجلها عنك التاريخ. لماذا قتلوا أوبريجون؟ لأنه رغب أن يعاد انتخابه. ولذا أعمل على أنه لو فزت يمكنك أن تقول "نور. مزيد من النور" وإن خسرت، "أنا ومن بعدي الطوفان". ولكن لا تقل مطلقاً، مطلقاً، "مزيد من العجة" . لا تخيب أملي. برؤيتك عائداً إلى أحياء مارسيليا الفقيرة. لأكرر عليك عبارة برناسوس[5] عن هتلر: اغتصب المكسيك مجرم وهي نائمة.

اقض على عجتك، يا نيكولاس. فمعلوماتي كاملة. المسئول العسكري بسفارة المكسيك بفرنسا عام ٢٠١١ كان الجنرال موندراجون بون بيرتراب. هو من أعطاك أوراق الهوية. واخترع لك سيرتك. وزيف الوثائق. كل شيء في خزانتي في الكونجرس.

---

(١) عبارة للشاعر الألماني جوته. (المترجمة)

(٢) عبارة تنسب إلى لويس الخامس عشر (المترجمة).

(٣) رئيس المكسيك في الفترة من (١٩٢٠م ـ ١٩٢٤م) (المترجمة).

(٤) جاء ذكره قبلا في المعركة التي خسرت فيها المكسيك ولاية تكساس (المترجمة).

(٥) جورج برناسوس: كاتب وصحفي فرنسي (١٨٨٨م ـ ١٩٤٨م) (المترجمة).

قضيت على الحقراء. تاثيتو دى لاكانال. آنديتو آلماثان. وزوجته بيبا. الجنرال ثيثيرو آروثا. عجوز المقهى. المنتحبة على مقابر بيراكروث، المونتيرية دولسى دى لا جارثيا. والشبح نفسه فى هذه المسرحية، توماس موكتيثوما مورو. وتبقينا أنت وأنا، يا نيكولاس. وظل يحوم على حياتينا. الجنرال موندراجون بون بيرتراب.

علينا التصرف سريعاً. أليس يقول المثل مهما نهضت مبكراً لا يمكنك أن تجعل الشمس تشرق أسرع؟ ولمن ينفع هذا المثل، لصانع خبز؟ السياسى ينهض مبكراً من الليلة السابقة. أو أنهم يسبقونه. أو يسبقونها.

ولا تشك فى حكمتى. كل ما قيل بين يدينا. وكما يقول المثل، «لا تباع المياه فى حارة السقايين». فأنا لا أؤمن بهذه التقارير عنك. هى اختراعات خالصة. فأنا أثق فيك. ولا أثق بأعدائك. هى مجرد افتراضات. وإن خرجت للعلن، نحاكم ماريا ديل روساريو جالبان وبيرنال إيريرا بتهمة السب والقذف. وتذكر ما كان الرئيس السابق ثيسار ليون يقول لأعدائه:

لن أعاقبكم، بل سأقلل من شأنكم.

اعتمد على إخلاصى. ولا تكف عن قياس العلاقة بين الثمن والخداع.

- ٦٦ -

الجنرال موندراجون بون بيرتراب
إلى نيكولاس بالديبيا

للسبب نفسه أنها لم تعد ضرورية، أكتب لك هذه الرسالة. وستخمن للسبب ذاته أن هدفى ليس إبلاغك وإنما لتبرير الوقائع. كلمك الجميع عن دراستى العسكرية ذات المتطلبات الفكرية العالية. وفى هذا السياق فإن مدرسة باندزفهر الألمانية جيدة. لم يتخرج أحد فيها دون أن يقرأ يوليوس قيصر وفون كلاوزفيتز، بالطبع، ولكنه يكون قد قرأ أيضاً كانط ليتعلم كيف يفكر و شوبنهار ليتعلم كيف يشك. كما أن المدرسة العسكرية بمكسيكو جيدة كذلك. فإنك لو تعلمت فى ألمانيا كيف تحاكى الانتصارات، تتعلم فى المكسيك كيف توارى الهزائم.

ومع ذلك لا أحد يُخدع. هناك آل آروثا ـ بلا شك ـ نجوا من المكسيك الوحشية فى الماضى- أو من علامات الوحشية التى كانت مقبلة ـ يعيشون فى الطبقة السفلية من بلادنا.

أما الطبقة الرسمية المكسيكية المثقفة فهى شىء آخر، ولكنها واقعية مثل الرسمية المتوحشة. هناك صراع بين الحقائق والأكاذيب فى كل علاقة إنسانية. من المستحيل الإجابة على السؤال، ما الحقيقة، وما الأكذوبة؟ إن لم نطبق معايير مطلقة وأخرى نسبية. كمثال، فى دروس الاستراتيجية العسكرية لا غنى عن تعلم الشك فى المعلومات التى تتلقاها.

هل تعرف باليننين دى لا سييرا، من قواد الثورة القدامى؟:

سأله الكولونيل،

من معك؟

ثمانمائة جندى

يقودهم ماريانو ميخييا فى الجبال.

صدق أم كذب؟ هل على الكولونيل المسئول أن يتقبل اعتراف الضابط المعتقل أم أن يضعه موضع شك؟ كيف سيعرف الحقيقة؟ إن الحقيقة نفسها عنيدة ومتحفظة كالقائد نفسه عندما يقول،

باليننين، لأنه رجل، لم يوافقهم الرأى.

إذًا باليننين لا يشاركهم الرأى والآخر يقول إنهم ثمانمائة رجل تحت قيادة ماريانو. ولكن لينقذ باليننين كتيبته، يضيف شيئاً مشتتاً أكثر.

أنا رجل بحق

من الذين اخترعوا الثورة

ماذا يفعل المسئول مع كل هذه المعلومات؟ إن خالت عليه قصة "ماريانو" يجب أن يتحقق منها أو يعرض نفسه للإخفاق. أو يمكنه أن يفسر صمت "باليننين" بأنه يتستر على الحقيقة و أن "ماريانو" كذبة. ولكن "باليننين" يضفى منحى فكرياً غامضاً على المعلومة: أنه رجل بحق من "الذين اخترعوا الثورة".

صدق أم كذب؟ فالمعلومة لا بد أن تعنى شيئاً. يمكن أن يفترض المسئول المسكين الذى يوجه الأسئلة أن حقيقة "ماريانو" موضوعية فى سياق استخدام جملة فرعية بعينها للإشارة لآخر، الذى هو "ماريانو ميخييا". ولكن لا يفعل "باليننين دى لا سييرا" الأمر نفسه. يصنع جملة فرعية: هو رجل بحق من الذين اخترعوا الثورة.

ومن هنا تأتى ـ يانيكولاس ـ صعوبة اتخاذ القرارات استناداً على قاعدة مؤكدة لما هو حقيقى وماهو مزيف. ونحن العساكر لحسن الحظ

نعمل بناء على قوانين تملى علينا سلوكنا. حتى نقطة معينة، مع ذلك؛ لأنه حتى لو اتبعنا القوانين المكتوبة بالحرف الواحد، فإن تناقض الكذب هو أن كل ما يقال هو حقيقة فقط إن لم يكن حقيقياً.

هذا ما أود أن تفهمه، يا نيكولاس، فى هذه الرسالة التى أعترف فيها بكذبى لأبرر حقيقتى.

وربما يكون معيار قول الحقيقة هو سؤال.

إن قلتها، هل أسبب راحة أم ضرراً؟

حقيقة الكذب هى أنه يعنى شيئاً. فالذى لا يعنى شيئاً لا يمكنه أن يكون مزيفاً حتى. لذا فإن ما تعنيه الحقيقة هى جزء مما تخفيه الحقيقة. ونصف الحقيقة كذب. ونصف الكذب حقيقة. لأنه كل ما نقوله أو نعمله، يا نيكولاس، هو جزء من علاقة لا يمكنها أن تستبعد نقيضها. يمكننى التأكيد، كمفكر، على سبيل المثال، أن كل شىء مختلق هو حقيقى. بما فيه الكذب.

وكعسكرى، لا يمكننى أن أمنح نفسى هذه الرفاهية. ولا أقبل بالحقيقة سوى عندما تكون متناسقة ومتوافقة مع القواعد التى تحكمنا. ولكن مع اتباعى للقواعد بالحرف الواحد ـ أى كما تنص القوانين ـ لايزال هناك شك، سر، شرخ فى روحى. لا تقتصر الحقيقة على ما يمكن التحقق منه. الحقيقة هى عنوان التراسل بينى وبين شخص آخر. وتجعل هذه المراسلة من حقيقتى نسبية.

اعكس الأمر وفكر فى هذه الحجج بناءً على السؤال المعاكس؟

متى يكون الكذب مبرراً؟

متى يريح ولا يضر؟

كل وجود هو حقيقته ذاتها، ولكنه دوماً يستجيب لحقيقة الآخر. وكل كذبة يمكن أن تكون هى حقيقتها ذاتها، إن تمتعت بحماية المصداقية القصوى للآخر، والتى هى حياته....

عندما ولدت فى عيادة ببرشلونة (وليس فى مارسيليا، كما تعتقد باولينا تارديجرادا المريضة) فى ١٢ ديسمبر ١٩٨٦ كنت معسكراً فى منطقة خواريث العسكرية، بعيداً جداً عن أمك. وكانت هى قد تزوجت، ولكن كان معروفاً أن زوجها معوق وأن عشيقها العجوز معوق. ولذا كان ينبغى أن يكون ابنها من رجل ثالث. عاملوها كما هى تقاليد الطبقة العليا المكسيكية، كما لو أنها صبية حامل وعزباء. وضعت وليدها فى مستشفى الولادة لراهبات ساريا.

لم يمكننى التواجد معها. كنت ما أزال صغيراً. وجبانًا أكثر من كونى غير مسئول. وعاشقًا أكثر من كونى غير مسئول. كنت خاضعاً للنظام العسكرى فى تشيهواها. كان هذا عذرى. كان هذا جبنى. كان علىّ أن أبقى بجوار أمك فى برشلونة، وأن أضمك، وأعلن نسبك لى منذ اليوم الأول... احكم علىّ، وأدنى، ولكن دعنى أعوض معك الوقت الضائع، ولنلوى عنق القدر ونسترد اليوم الذى كان يمكن يومها ولم يكن.

كانت عائلة والدتك خطرة للغاية. كانت تتحكم فى حدود الشمال، من ميكسيكالى إلى ماتاموروس. آل باروسو، ليوناردو باروسو وأولاده، بما فيهم حفيدته ماريا ديل روساريو باروسو جالبان. والآن لم تعد الآن سوى جالبان على اسم والدتها، لمقتها الشديد لاسم والدها ولجدها، باروسو العجوز، الذى جعل من والدتك ميتشيلينا لابوردى أكثر من مجرد عشيقته. عبدة جنسية له. جارية حبيسة. وزوجها من ابنه نفسه، شاب حساس، خجول، يقولون عنه إنه كان أبله ومعقداً. دم فاسد. لم يلمس ميتشيلينا. وعاش منعزلاً فى الريف، فى حظيرة تحيطها الأرانب والهنود، هؤلاء الهنود "الذين انمحوا من تشهواها". احتفظ ليوناردو باروسو العجوز لنفسه بالصبية ذات الجمال الباهر، أمك، يا نيكولاس، التى خضعت أكثر من أى وقت مضى لملايين آل باروسو بعد الهجوم ضد العجوز على الجسر الدولى بين خواريث والباسو.

اعتبروه ميتاً. ولكنه أصبح مشلولاً فقط، لا يمكنه استخدام الجزء السفلى من جسده، محكوم عليه أن يتبول فى مقعد متحرك، كشقيقه

الأكبر والقائد الشيوعى، إيمليانو باروسو، يالها من عدالة شاعرية!
ليوناردو عاجز، ولكنه على مقعده المتحرك، يحتفظ فى رأسه بكل طاقته الشريرة، والتى تمركزت أكثر من أى وقت مضى فى احتقار ابنه، وإذلال زوجته و ربط عشيقته بالسلاسل. كان له ابن من ارتباط آخر بزوجة ليوناردو، ابن ثان، ليوناردو الصغير. كان هذا الابن المتبنى أبو صديقتك ماريا ديل روساريو. وكان شؤماً؛ لأنه بدأ يحث أمك إلى أن تكون محظية للمرة الثانية لابن زوجته ليتجسس عليهما وليشعر بالإثارة عن بعد.....

كيف لا تفتش أمك ميتشيلينا وتعثر على الراحة أولاً ثم العاطفة لاحقاً من ضابط شاب، أنيق، كما كنت منذ خمسة وثلاثين عاماً..؟

أود أن تفهم، أود أن تعرف، أود أن تسأل نفسك، إلى أى درجة يستطيع البعد أن يفعل أكثر من الحضور؟ ولماذا يكوينا الإحساس بالبعد حتى نفقد عقلنا؟

وفى المقابل، إلى أى درجة ترغمنا المصالح الاجتماعية على هجر شعاع الحب والضياع فى الليل، والرزيلة، والخطيئة؟ وأخيراً، ولماذا نقطة الالتقاء بين طرفى عاطفتى- الاشتياق للغائب و رزيلة الهجر- ينتهيان إلى طرف فاسد فى وسط النسيان؟ أو الأسوأ، فى اللامبالاة.

لم تستطع ميتشيلينا لابوردى أن تعود إلى حضن آل بروسو الأقوياء، والذين كانوا مهمين، بالمقارنة مع ابن رجل عادى كما كنت. عادت للحدود وسرها تحفظه تقاليد العائلة. كنت فى إجازة فى أوروبا. أشترى تذكارات. وأزور المتاحف.

لم أرها مرة أخرى. ماتت بعد ذلك بقليل. أعتقد أنها ماتت من الاكتئاب ومن الحنين للمستحيل الذى يغزونا أحياناً لأننا نعلم أن مارغبناه كان من الممكن أن يتحقق.

وأنت سلموك إلى عائلة قطالونية، آل لابات، ومنحهم آل باروسو مبلغاً لتعليمك لم يستخدموه قط لتعليمك، وإنما لتنشئتك نشأة متواضعة

وإرسالك إلى الشارع والجريمة، مدرستك الحقيقية، يا نيكولاس، التى بدأت وأنت طفل فى برشلونة واستمرت فى مارسيليا، التى انتقل إليها آل لابات وأنت فى العاشرة، كعمال مهاجرين....

ومع ذلك، بك شىء، ربما هذا الحنين لما هو مستحيل، والذى دفعك منذ شبابك إلى المخاطرة وإلى حدة ذهنك أيضاً، وطموحك، لتكون أفضل مما كنت عليه، كما لو أن دمك يطالب بإرث معتم، لا مفر منه، تحلم به كشىء ضوئه باهر. قابلته تقريباً. أليس هذا صحيحاً؟ لقد أهلت نفسك فى البؤس، فى الشارع، فى الجريمة، فى الحاجة لأن تعيش، فى القناعة الحميمة بأنك لن تصير مهماً وحسب، بل إنك كنت شخصاً مهماً، مسكيناً، طفلاً محروماً من عائلته الثرية، شىء مهم. وابن رجل مهم. نبيل.

لم تكن مجرمًا أعمى. وإنما طفل تائه بعينين مفتوحتين على قدر آخر، ليس تعيساً، وإنما مصنوع من أجزاء متساوية من الإرث الذى تجهله والمستقبل الذى تتلهف عليه.

ولم يحدث أنى نسيتك، يا بنى. بل تجاهلتك. كنت أعلم أن ميتشيلينا الجميلة وضعت ابناً فى أوروبا. نجحت أن ترسل لى ملحوظة غير واضحة عندما عادت إلى تشيهواهوا:

رزقنا بطفل، يا حبيبى. ولد فى ١٢ ديسمبر ١٩٨٦ فى برشلونة. لا أعلم ماذا أسموه. ما أعرفه هو أنهم سلموه إلى عمال. سامحنى. أحبك للأبد، م.

كان العثور عليك كالبحث عن الإبرة الشهيرة فى كومة القش. ازدهر طموحى المهنى. ومستقبلى داخل الجيش. مناصبى داخل وخارج المكسيك، إلى أن وصلت إلى القنصلية العسكرية فى باريس، الذى يمتد نفوذها إلى سويسرا والبينلوكس. وكان هذا الوقت الذى أطلعونى فيه على قضية شاب يزعم أنه "مكسيكى" مسجون فى جنيف للاشتباه فى التآمر مع عصابة سطو على بنك.

زرتك فى سجن جنيف. كان شعرك طويلاً. وقفت مندهشاً. كنت أرى أمك فى هيئة رجل. أكثر اسمراراً منها، ولكن الشعر الأسود نفسه، المنسدل، الطويل. والتناسق المتقن لملامح الوجه. وجه كلاسيكى لاتينى. بشرة ذات ظلال متوسطية، زيتونية و سكر منقى. عينان واسعتان، سوداوان (خضراوان فى حالتك: مساهمتى)، أذنان كبيرتان، وجنتان مرتفعتان، فتحتا أنف لا تستقران. وهذه التفصيلة كما لو أن أمك طبعتها عليك، يا نيكولاس. طابع الحسن. الفاصل العميق فى طرف الذقن.

من غيرى سيقف يتأمل هذه التفاصيل؟ من؟ سوى أبوك؟ من غير العشيق السرى لأمك، الذى يقضى ساعات وهو يتذكر وجهها النائم؟

استجوبتك محاولاً أن أحافظ على هيئتى. ربطت الخيوط. أنت كنت أنت. تاريخ الميلاد، المظهر الخارجى، كل شىء يتفق معك. أعلنت أنك مكسيكى ودفعت الكفالة. تحملت مسئوليتك بوقار، ولكنى طلبت منك ـ كمقابل لشهادتى ـ مرحلة من الدراسات فى جامعة جنيف. ولكن السويسريين كلاب صحافة. طردوك لأن أوراقك السابقة كانت مزورة.

تدخلت مرة أخرى، وقلبى يرتجف ولكن محاولاً البقاء على برودة رأسى. فقد رأيت. لم أرغب قط أن أعرض منصبى للخطر. أليس هذا من الأفضل، من أجل ممارسة النفوذ؟ حملتك معى إلى باريس، وسجلتك كطالب منتسب فى المدرسة الوطنية للإدارة، نصحتك أن تقرأ كل شىء، وتعرف كل شىء عن المكسيك، قضينا ساعات ساهرين، أنت تنصت إلىَّ وأنا أحكى لك ما هى بلدنا، وتاريخنا، وعاداتنا، وحقائقنا الاقتصادية، والسياسية، والاجتماعية، ولهجاتنا، وأغانينا، وفلكلورنا، وكل شىء.

بين ما حكيته عليك وما قرأته، عدت إلى المكسيك أكثر مكسيكية من المكسيكيين. وكان هذا الخطر بعينه. أن يلاحظ أحد أن محاكاتك مبالغ فيها. أرسلتك خمسة أعوام لمدينة خواريث، على الحدود. توليت مع المسئولين أوراق ميلادك لأجعلك مولوداً فى تشيهواهوا بدلاً من قطالونيا.

وصار مكتوباً فى السجل المدنى لمدينة خواريث: ابن أب مكسيكى وأم أمريكية. كما كانت وثائق والديك المزيفين أيضاً سهلة الإنجاز. فأنت تعلم أن الرشوة فى المكسيك تفعل أى شىء. لا أحد يتقدم بدون رشوة.

عندما وصلت إلى وزارة الدفاع مع الرئيس لورينثيو تيران، شعرت بالأمان وأرسلت أستدعيك، أرسلتك فى جولة، مع توصيات منى إلى مختلف وزارات الدولة، وبالأخص وزارة الداخلية. وهناك تعرفت على ماريا ديل روساريو جالبان. وكان لا مفر مما حدث لاحقاً. لن تقاوم ماريا ديل روساريو شاباً جميلا. فضلاً أنها تعتقد أنها تستطيع تأهيله سياسياً، وصارت العلاقة بينكما حتمية. فهى بطبيعتها بيجماليون يرتدى جونلة.

كانت تعلم أن الرئيس يعانى من اللوكيميا ولاشفاء له. وأنا بحكم عملى فى الأمن القومى كنت أعلم هذا أيضاً. إجبارياً. كل لعب لعبته. جعلتك تعتقد أنها تراهن عليك للرئاسة. وكنت تعلم الحقيقة. نعم رئيس، ولكن بديل بعد وفاة تيران للتجهيز لانتخاب إيريرا. ولذا تحتم القضاء على الجميع فى ضربة واحدة. " المرتابون المعهدون"، كما يقولون فى الأفلام. تاثيتو دى لاكانال، ثيسار ليون، آندينو آلماثان، الجنرال ثيثيرو آروثا. وكان علينا القضاء على دسائس الرئيس البيراكروثى السابق وسره السجين فى قلعة أولوا. مع التغلب على الحوادث العاطفية لمنتحبة الميناء، دولسى دى لا جارثيا. ولا شىء أسهل، تخيل، من إبطال مفعول النساء، البسيطات بخطورة والعاشقات مثل دولسى دى لا جارثيا، والمتآمرات بغباء والمحظيات الشعبيات مثل خوسيفينا آلماثان، والذكيات، الذكيات كثيراً بالنسبة لمصلحتهم الخاصة، مثل باولينا تارديجرادا، والتى، أوكد لك، أنك لن تسمع عنها ثانيةً. وإليك تفصيلة شخصية وربما كانت رومانسية: لن يتردد عليها سوى حوت فى قاع خليج المكسيك، مع خزانتها المربوطة بسلاسل فى رجليها. لأنه كما اعتاد الجنرال ثيثيرو آروثا أن يقول:

العجائز مكانهن المياه!!!

ولذا لن تعدم صديقتك المرتابة باولينا تارديجرادا المياه، وهى التى بحوزتها أسرار كثيرة التى حولتها بخطورة لابتزازك. تعلم ألا تثق فى أحد. بل، لا تثق فى أنا، يا نيكولاس، فى أبيك نفسه. ولا تبك على باولينا.. ستأكلها حيتان خليج المكسيك. ولكن سيبقى قلبها نابضاً. ميزة القلب المسموم أنه يصبح محصناً ضد النار والمياه. وإن كان هذا سيعزيك، فكر فى أن قلب تارديجرادا سوف ينبض كأنه شرنقة دم فى قاع البحر.

لا تزال ثمة خيوط مفقودة، يا بنى. لا تنسها. ابنك بالتبنى خيسوس ريكاردو ماجون خائب الأمل تماماً، لأنه لم تبق أمامه أى اعتقالات فوضوية أو اغتيالات. طردته من البلد بتهمة الاتجار فى المخدرات. هو فى سجن فى فرنسا، حيث اعتقل أثناء نزوله من الطائرة لأسباب أمنية تتعلق بى. لا تشغل بالك. دفعت ثمن الرحلة فى الدرجة الأولى. يعتقد السيد والسيدة كاستولو أنه يدرس فى أوروبا. ما زال صغيراً! وشكرونى على "المنحة" التى أمرت بها، بناءً على أوامرك. أما الآنسة آراثيلى فلديها اشتراك طوال الحياة فى مجلة "أولا"! وتزوجت (زوجتها) من هوجو باترون، وهى سعيدة لعثورها على رفيق فى كانكون.

ويتبقى أمامنا المتآمران الرسميان، ماريا ديل روساريو جالبان وبيرنال إيريرا.

حساباتهما صحيحة. سوف يفوز إيريرا فى الانتخابات الرئاسية فى يوليو ٢٠٢٤ .ليس هناك من يقف أمامه. أنت نفسك سيبطل ترشيحك لمنصبك الحالى. لا يمكنك أن تخلف نفسك.

ما بين موهبتك الربانية وتوجيهاتى وتعليمى، طوال أربعة عشر عاماً، بين سنواتك العشرين والأربعة والثلاثين، سلحت نفسك بثقافة مبهرة. والآن عليك أن أسدى لك نصيحة. لا تتعجل. لا تبرز قطعة النحاس الأكثر بريقاً. لقد رأيت، نصب لك العجوز فخين- حرب الحلوى، ومابى كورتيس، الكونجا، بيم ـ بام ـ بوم ولكن كان لا سبب هناك لتعرف مابى كورتيس أو

الكونجا. نعم كان عليك أن تعرف عن حرب الحلوى. احذر. لا تبالغ فى تقدير ثقافتك. لا ترغم أحداً أن يخدش قوقعتك الذهبية ويكتشف أنك من معدن أقل قيمة. ولا تجعلهم يغيرون من ثقافتك. كن وسطاً. ولا تستغل الجريمة. فليست عذراً. نحن نعمل الذى لا غنى عنه لتعزيز سلطتنا.

لا يموت سوى الذين لا مفر من موتهم. فقد رأيت السمعة السيئة لآروثا المسكين. تباهى كثيراً بجرائمة ولم يخطر على باله قط أن أحداً سوف يتخطاه بقتل أحد آخر سوى ثيثيرو آروثا نفسه. كان لا مفر من قتل مورو. أخطأت عندما أرسلت بيداليس "اليد القوية". فهو رجل يعشق الانتقام ومقتنع بأن نسله العائلى سوف يمتد ليأخذ بثأره بالوراثة. اعتقدت أنك تورطه فى ذنبك أنت بقتل مورو فى أولوا. لا تعتقد ذلك. هو الذى سيورطك. سوف يسبب لنا صداعاً. علينا التفكير فى كيفية إبطال مفعوله بطريقة أفضل. يجب أن نعطى هذه الأفعى هدايا مسمومة. من الآن فصاعداً، علينا أن نغريه حتى ننومه. فالرئاسة لها مزاياها التنويمية. لم يعرف تيران استغلالها. اعثر على الطريقة التى لا تجعلك رجلاً عنيفاً، وتأكد أن يمر عنفك دوماً تحت اسم "العدالة". واحترس ألا يأتى عليك وقت تقول فيه الحقيقة. ولا تفكر، للحظة واحدة، أن وقت العنف قد انتهى فى المكسيك...

ابنى، وابن قلبى. تفهم بالتأكيد عمق شعور أب فقد أمك الغالية والتى لا مثيل لها بسبب طغيان وفساد وحشيين لعائلتها، آل باروسو. كانت هى المذبح الهش لأقوى عاطفة فى حياتى. علينا نحن ـ الاثنين ـ أن نعبد هذا المعبد المتهدم بفعل الكذب، والادعاء، والجشع، وغطرسة طبقة مهيمنة بلا كابح، والتى مثلتها بصورة واسعة عائلة باروسو، والتى وريثتها الوحيدة ماريا ديل روساريو جالبان الشريرة. فهل تظن أنى سأتركها تتآمر فى سلام؟

فكر فى أن ماريا ديل روساريو تأتى من هناك، من نفس طبقة أمك. أرى فى ماريا ديل روساريو أمك الثرية، والتى تتمتع بحياة حرمت منها أمك. انتقم من ماريا ديل روساريو للمصير القاسى الذى مرت به أمك.

وأنا سأتولى أمر بيرنال إيريرا.

أنت إنجازى، يا نيكولاس. ووريثى. وشريكى. وسترى أننا معاً سنحقق كل شىء. أهم شىء. الوصول للسلطة والبقاء هناك للأبد.

سوف تربط السلطة، بينك وبينى، يا نيكولاس بالديبيا، يا بنى، مثل الحنين للحقيقة. سوف نهيمن عليها.

إن نصحتك بشىء. فهو من الآن فصاعداً، لا تدع أحد يطلع تفكيرك، ولا حتى أنا. خاصةً إن فكرت أن تخوننى.

أقولها أنا لك. ليس هناك فى السياسة خيانة لا يمكن أن تحدث. أو على الأقل، لا يمكن تخيلها.

ـ ٦٧ ـ

اونيسيمو كانابال

إلى نيكولاس بالديبيا

سيدى الرئيس، أتوجه لسيادتك، ولأجل الضرورة، بتكتم حذر. تم انتهاك مقر كونجرس الأمة. حسناً، مكتب واحد فقط، ولكن كل الكونجرس مكان مقدس. هو معبد القانون، يا سيدى الرئيس. ولكن تخيل فأنا صحوت اليوم على مكالمة عاجلة من ساعية المكتب سيرنا.

دخل شخص، ليلاً، برلمان سان لاثارو. أبطل شخص صفارات الإنذار، غافل الحراس، ربما رشى الحراس. لا أعلم. شخص يتمتع بسلطة واضحة. سيدى الرئيس: انتهك مكتب النائبة باولينا تارديجرادا، الرفيقة التى ندين لها أنت وأنا بالكثير. اقتلعت الخزانة، نعم يا سيدى، اقتلعت من مكانها، تاركةً فجوة هائلة فى الجدار الذى لا يشوه المكتب وحسب، وإنما سيجبرنا على إعادة بناء الجدار. هل تدرك سيادتك المصروفات التى يتطلبها هذا؟ (بالمناسبة. متى ستعين وزير مالية جديداً بعد فصل آندينو آلماثان؟)

والأسوأ أن الخزانة قد سرقت. واختفت النائبة النبيلة، يا سيدى الرئيس. ليست فى شقتها بشارع إدجار آلان بو. ولم تنم هناك حتى، كما قالت خادمتها. وقمنا بتحقيق رصين. ولم تظهر. تبخرت بدون أن تترك أثراً.

أرغب فى استشارتك. هل علينا أن نطلق تحذيراً قومياً حول مستقر

باولينا تارديجرادا؟ المسكينة. لم تكن قديسة، ولكنها لم تكن مذنبة كذلك. لا أتخيل أن أحداً اختطفها لأسباب تتعلق بالعاطفة، غير مقبول. بالرغم من أنها كانت لديها النية لخطف شخص ما، أؤكد لك.

وفى النهاية، أنا فى حاجة أن تسمح سيادتك بإطلاق هذا التحذير. لا يمكننى بمفردى. فهأنت ترى المسئوليات. كما أن الرفات لا تظهر أبداً بعد ذلك. أو يتم العثور عليها فى حديقة ساحرة، ويتبين أنها مزيفة. أو أن باولينا أجرت فجأة جراحة فى وجهها كمهرب المخدرات الشهير هذا، سيد السموات(*) . اعذر تهورى، يا سيد نيكولاس. ولكنى أعتقد أنها كانت معجبة بسيادتك... العفو، المعذرة.

حسناً لا أود الخوض فى المزيد. هل سيادتك تتفق معى على أهمية القضية. فى انتظار أوامرك للتصرف أو لترك الموضوع يموت، كما يشاء السيد الرئيس.

أونيسيمو كانابال.

رئيس الكونجرس.

(*) اسمه الحقيقى أمادو كاريو فوينتس (١٩٥٦م - ١٩٩٧م) توفى فى المستشفى إثر إجرائه عملية تجميل لتغيير شكله حيث كان مطلوبًا فى الولايات المتحدة الأمريكية والمكسيك. (المترجمة).

ـ ٦٨ ـ

بيرنال إيريرا

إلى ماريا ديل روساريو جاليان

معكِ حق، يا ماريا ديل روساريو. جعلونا نغير اللعبة. بالرغم أن بالديبيا سوف يحترم فى الظاهر مواعيد الانتخابات، ولكنى لا أظن أن شيئاً فى رأسه أو قلبه سوف يحركه لتسليمى السلطة فى ١ ديسمبر ٢٠٢٤ إن انتخبت. أمامنا مشكلة: لم يظهر خصم معروف أمام ترشيحى. على الأقل فإن تاثيتو يأتى مثلى من مجلس الوزراء. وتفتقر الأحزاب الصغيرة إلى شخصيات ذات كاريزما. وسوف يتأقلم حكام الولايات مع من يعرض عليهم الأمان. الخطر الذى أواجهه هو أن أبقى وحيداً، بارزاً لدرجة أن يتحول ارتفاعى إلى ضرر لى. كان الجنرال ديجول يقول أسوأ ما فى الارتفاع، أنه يجعلنا قيد الملاحظة. واختتم:

ـ ولذا علينا نحن ـ الرجال المرتفعين ـ أن نكون أخلاقيين أكثر من غيرنا.

بمناسبة تاثيتو ، قلتِ لى ذات مرة، إن الكراهية أكثر ذكاءً من الحب. سوف أواصل رعايتى للسيد المحترم دى لاكانال. لا أثق فى تواضعه المكتسب مؤخراً. يبدو أنه اشتراه من سوق "الكانتو". حب الابن هذا لا يدعو للثقة. لا أؤمن سوى فى إخلاصه الذى يشبه إخلاص القطط. هاهو قد أغوى خادمة والده، كما قدموا لى فى التقرير. واحدة تزعم أنها "جلوريا مارين". حسناً، أنت قلت لى ذات يوم،

الإخلاص مؤسف!

ماريا ديل روساريو: هيا نواصل العمل معاً، وهذه المرة من مواقع غير مفضلة. لا تسخرى منى إن حذرتك من إعادة بعث الومضة القديمة لحبنا. الأفضل أن أتحدث فى هذا بصراحة. حبنا للمرة الثانية سوف يكون دليلاً حقيراً أننا كزوج سياسى قد عانينا من العوائق ونعوض المر بالعسل. سوف يكون دليلاً على فقدان الهمة وخيبة الأمل.

أقولها لك كتحذير وحسب. فأنا ألاحظ فيكِ شاعرية ربما تخفف من هزيمتنا العابرة. وأشاركك فيها. حتى أن فكرة أن يعود حبنا كما فى البداية تشدنى.

سوف تصبح نقطة ضعف وأنت تعلمين هذا. سوف نعود لبعضنا فقط لكى نلعق جراحنا. نواسى بعضنا اليوم. وغداً يمقت كل منا الآخر.

تذكرى ببرود ما كانت عليه علاقتنا فى بدايتها. لم أكن أرغب سوى أن أمنحك الحب. وأنت كنت لا تريدين سوى الرغبة فى الحب. أعتقد أن لا حباً يرضيك إلا إن كان رغبة خالصة. لا تتحملين عاطفة مؤكدة، ملكك، كل يوم. بلا مخاطرة. أنت امرأة تحب المخاطرة. وتأخذينها إلى الحد الذى يطلق عليه آخرون لا يحبونك قدر حبى لك، لا أخلاقية. تشعرين بالسعادة عندما تسرقين رجلاً من امرأة ـ أو من رجل آخر. عاطفتك الشهوانية جامحة حتى حولتك إلى امرأة عنيدة. لا تنكرى.

أنا لست عنيداً. أنا مداوم. وفى مداومتى لا يتدخل الحنين إلى حب قديم. أعلم: بالنسبة لك أنك تكون غير وفى لا يعنى أن تكون غير مخلص. لذا، العيش معكِ سوف يرغمنى أن أفعل شيئاً لا أحب أن أكرره أبداً. لا أريد أن أفحص فى كل لحظة قلبى ومعيشتنا. يعرضنى العيش معكِ لهذا الاستشهاد الداخلى. هل هذه المرأة، مخلصة لى أم لا؟

ما أجمل أننا لم نتزوج قط. استطعنا العمل معاً بدون أن نضطر أن نحتمل بعضنا معاً. لا يمكننا العودة إلى ما كنا عليه ذات يوم. لن تحتمليه. ومعكِ حق. هل نكون عاشقين مرة أخرى؟ نعلم أنتِ وأنا أن المرة الثانية

ليست خطأ وحسب، وإنما غباء. وسوف ينتهى بى الأمر بأفضل ما تعطينى إياه: البعد اللازم لأن أحبك لدرجة ألا أعتبرك جديرة بحبى.

(تعلمين أنى معجب بكِ لكل ما يحتقره الآخرون فيكِ).

(لا تفزعى. فكرى فى كل ما لم نقله.)

لنترك خلفنا فى هذا الموقف المستجد إغواء وجاذبية عاطفة مستأنفة. وتذكرى أننا لم نهجر بعضنا. ولكننا فككنا الرباط. ما الذى يربطنا؟ ليس إمكانية الحب وإنما عدم إمكانية أن نعمل الواحد بدون الآخر.

أود أن أؤكد، فى هذا الوقت، على اتفاقنا.

تذكرى أنه يمكننا أن يدمر الواحد منا الآخر. ولكن الأفضل لنا أن نستمر معاً. فليعم السلام بيننا. فإن متعتنا كانت عاصفة. جداً. واليوم، أكثر من أى وقت مضى، علينا العمل بهدوء.

وتذكرى أننا استطعنا دوماً أنتِ وأنا أن نتفق حتى فى الوقت الذى اختلفنا فيه.

اخضعى كما خضعت. وسلمى نفسكِ لخيالى، كما أسلم نفسى لخيالك. هنالك، فى رأسينا، يمكننا أن نعيش الحب للأبد.

مع أنه ينبغى أن أعترف لكِ أن أبواب عقلى حالياً مثل أبواب "الكانتين": تُفتح وتُغلق وترتطم..ولا أعلم سوى شىء واحد.

علينا أن نعثر على نقطة ضعف نيكولاس بالديبيا. الجرح الذى ينزف منه. أكثر سر يخجله. فليس أمامنا طريق آخر لهزيمته. علينا أن نضم رأسينا كى لا يبقى نيكولاس بالديبيا فى السلطة للأبد.

وفى اللحظة الأخيرة، فكرى أن قليلاً من الحظ العثر هو أفضل ترياق للمرارة المتوقعة. وأشد مرارة من مرارة أصحاب السلطة: فلا شىء يرضيهم، يريدون المزيد دوماً وهذا يجعلهم يخسرون. فلنعلم ماذا يجعل نيكولاس بالديبيا غير راضٍ وهكذا نكون قد امتلكنا مفتاح هزيمته.

ـ ٦٩ ـ

ماريا ديل روساريو جالبان

إلى بيرنال إيريرا

مشيت كثيراً هذا المساء، يا بيرنال، أفتش عن مكان مرتفع ونظيف أرى منه وادى المكسيك الذى يخصنا وأجدد أملى. هل هذه هى المدينة ذات الهالات والألوان التى أفزعت (وقتلته شاباً) النبيل رامون لوبيث بيلاردى(*). هل "وادى مكسيكو، فم معتم، لافا اللعاب، المدمر لتاج العنب" الذى ضربه بعنف أنقذه منه أوكتافيو باث. أم هى الصورة الدقيقة والمتوازنة لشاعر الهدوء، خوسيه إيميليو باتشيكو، الذى احتفلنا للتو بميلاده الثانى والثمانين، حيث يترك نفسه يجر بالأم بالدلائل ويغنى بصوت جريح " مساء مكسيكو فى جبال الغروب الكئيبة..."

(هناك الشفق

متألم جداً ليقول:

الليلة الحبلى هكذا تدوم للأبد.)

مكسيكو ذات الفصول الأبدية، "الربيع الخالد"... بدأ موسم المطر، ويغسل الليلة الأبدية، والفم المعتم، النظرة التى تحيطها الهالات والألوان.... ويهدئ التراب. ليعيد شفافية الهواء الغائبة. والأكيد هو أنك فى أمسيات المطر، ما بين زخة وأخرى، وحتى من الطريق الدائرى المشئوم، ترى بصفاء بروفيل الجبال البارز.

(*) شاعر مكسيكى (١٨٨٨ ـ ١٩٢١م) (المترجمة).

أفضل الصعود على رجلى حتى قلعة تشابولتيبيك والنظر إلى المدينة والوادى من هذا الارتفاع الإنسانى، المتوسط، حتى يمكن رؤية الجبال التى استطعت ان أنتقيها أخوسكو، بوبوكاتيبتيل، إزتاكسيهواتل هذا المساء بالنظر العادى والتى أرغب أن أنقذها يا بيرنال فى نهاية هذه المرحلة من حياتنا.

هل أدركت أن هذه الحكاية عشناها فى الحبس، كما لو أننا نقدمها على خشبة سجن؟ سردنا حكاية محرومة من الطبيعة. باتشيكو عنده حق:" هل الأحجار وحدها هى التى تحلم؟... هل العالم هو هذه الأحجار الساكنة؟.." ولذا أنا هنا، أحاول أن أتذكر الطبيعة المنسية، المفقودة فى غابة من الكلمات، والغارقة فى بئر من الخطب، والمخصية بسكين الطموح.

هل تعلم؟ قبل خروجى، تطلعت لنفسى بدون تجميل فى المرآة كى لا أوهم نفسى. مازلت أحتفظ بجسد فاره، ولكن بدأ وجهى يخوننى. وأدركت أنى كنت وأنا شابة، رائعة الجمال. واليوم، فإن الجمال الذى تبقى لى هو من صنعى الخالص. هو سر بين المرآة وبينى. أقول للمرآة:

العالم يعرف عنى. ولكن لا يعرفنى العالم.

لمَ نفرط فى جمالنا وشبابنا؟ أنظر للخلف وأشعر أنى سلمت شبابى وجنسى إلى رجال انتهوا إلى رماد أو إلى تماثيل . أتحسس جسدى هذا الصباح. لا شىء يؤلم الجسد كالرغبة. لا أنتهى من إرضاء رغبتى، أعترف وأنا أتحدث إليك، وأنت الرجل الحقيقى الوحيد فى حياتى. لم يشبعنى أحد، يا بيرنال. لماذا؟ احتفلت كثيراً فى مذابح بدون آلهة. مذابحى هى تلك التى تعجز أسرع من القلوب. الشهرة والسلطة. ولكنى امرأة. ولا أستسلم لدلائل الزمن. أقول لنفسى مقتنعةً بأن جاذبيتى الجنسية لا علاقة لها بالعمر. أنا مرغوبة حتى لو لم أكن شابة.

أسترجع الأشخاص، والأماكن، والمواقف التى زرناها منذ أزمة يناير لا طعم فى فمى. أرغب أن أستدعى أى طعم حلو، ولكنها المرارة أيضاً، ولكن لا تقيؤ. لسانى وحلقى لا طعم لهما.

أستشير حواسى الأخرى. ماذا أسمع؟ طنين كلمات فارغة. ماذا أشم؟ الفضلات التى يتركها الطموح في طريقه. ماذا ألمس؟ بشرتى نفسها التى ترتخى كل يوم، وتصير معرضة للتلف أكثر، وأكثر رقة. وبماذا ألمس؟ بعشرة أظافر كالمطاوى التى تجرحنى أنا نفسى. وليس أنها لا تداعبنى وحسب. فهى حتى لا تخدشنى. بل تغرق فى، وأنا أتساءل ماذا سيحدث لبشرتى، كم باق لها من الحياة، ما المتعة القليلة والمرهقة التى تنتظرها فى نهاية المطاف. العدم.

لى عينان. أحول هذه الأمسية إلى نظرة خالصة. كل شىء آخر يخدعنى، ويجعلنى غريبة عن نفسى. لا أحتفظ سوى بنظرة وأدرك بذهول أنها نظرة عاشقة، يا بيرنال. لست فى حاجة إلى مرآة لأتحقق منها. من تشابولتيبيك أتطلع بحب إلى المدينة ووادى المكسيك.

نظرة حب. أهديها لمدينتى ولزمنى. ليس بحوزتى شىء آخر أمنحه للمكسيك سوى نظرة حبى فى هذا المساء المضىء من شهر مايو بعد هطول المطر ، حين تصبح أشجار البوجامبيليا أعمدة الزينة الصابرة لجمال المدينة وفى لحظة مجيدة تتوج المدينة بلون اللافاندا وأشجار الفلامبويان. يشع الوادى ضوءاً ساطعاً هذا المساء، يا بيرنال، حتى أنه يجعلنى مزدوجة الحضور، يهجرنى فى الشرفة الكبيرة ذات الرخام الأبيض والأسود فى القصر، ولكنه يحملنى كبساط سحرى إلى كافة أطراف المدينة، مجتازاً عناقيد البالونات ذات الألوان الكثيرة التى تباع فى الشوارع، سامحاً لى أن أداعب الرءوس الصغيرة للأطفال فى الحدائق، والسير على وحل بحيرة الغابة والاستمرار فوق مياه تشوتشيميلكو الحمراء، كما لو أن قدمى العاريتين تنشدان التطهر فى القنوات المفقودة لما كانت فينيسيا أمريكا، يا بيرنال، المدينة التى تعانق المياه كما تعانق الحياة نفسها، المدينة التى أخذت تجف تدريجياً حتى ماتت من العطش والاختناق.

ولكن هذه الأمسية لا، معجزة هذا المساء الذى اخترته لأعيد بعثى هو مساء رطب، أمطرت وتحولت كل الدروب إلى قنوات مائية، وصحراوات أحجار التيبياتيه البركانية إلى بحيرات، وقنوات الصرف إلى ينابيع.

أواصل نظرتى المبعوثة من جديد إلى المدينة التى شهدت من يماثل اسمك بيرنال دياث بالقلعة عام ١٥١٩والتى أحيت ثانيةً عن طريق قوة الرغبة، وأدع خلفى كل بؤس الميلودراما السياسية التى مررنا بها أنت وأنا أعيد بعث المدينة القديمة، وهى تفرد دروبها المشجرة الذهبية والفضية، وأسقفها المغطاة بالريش وجدرانها المرصعة بالأحجار الكريمة، وطبقاتها الأرضية المصنوعة من جلود الجاجوار، والفهود، والثعالب، والغزلان. أتمشى بجوار صيدليات الهنود بما تحويه من دهان الأفاعى وفك حوت وشموع جنائزية وعين غزال حنون. أدلف إلى الميادين ذات اللون الأحمر وأشم عطر العنبر والتبغ الطازج، والكزبرة و الفستق والعسل. أتوقف أمام دكاكين الخيكاما والمرميه والسفرجل والصبار. أستريح على مقاعد خشبية تحت سقوف طينية، ما بين سيمفونيات الدجاج و الديوك والأرانب البرية.

كيف لا نعود مرات ومرات فى خيالنا المكسيكى- وإلا إذا كنا فقدناه- فى هذه المدينة المليئة بالبحيرات والتى تشعل حماستنا الشعرية، والتى كأننا أدركنا فيها مهد جذورنا؟ " تنبت الزهور، وتتفتح، ومن داخلها تخرج زهيرات السعادة". ولكن يا حبيبى، هل هناك قصيدة هندية واحدة ليس فيها الحكمة التى تربط بين السعادة فى الحياة والتحذير من الموت؟ " تنبئ المرارة بمصيرنا......سوف تزيل بحبر أسود ما كان يسمى الإنسانية، المجتمع، النبل...

هل تعلم، يا بيرنال، ما الذى يتنبأ بالكارثة المحدقة؟ ذكريات الجمال والسعادة التى كانت أو لم تكن، لا أعرف. ما أعرفه أن الجمال والسعادة كانا متخيلين، وأن الخيال يدفع لنا ثمناً هو فى الوقت نفسه هدية: الذاكرة. لماذا أعتقد هذا، ابتهل ألا يستطيع أحد أو شىء أن يسلبنا الذاكرة. فالتذكر هو هبة من السماء. لأنك يجب أن تثق أن جسدينا ستحرقهما الرغبة؟ هل يمكننا أن نستعيد كل ما نحيناه جانباً لنصبح ما نحن عليه الآن؟ لحظات الحب التى ضحينا بها، واجبنا، حلمنا؟ كل هذه الخسارة تعوضنا عنها الذاكرة.

نعم، كنت أتطلع من تشابولتيبيك نحو المدينة التى لم تعد كما كانت، مكسيكو- تينوتشتيتلان، وفجأة أرى الجرزان والقطط الجبلية تخرج مسرعة من حاراتها، وفجأة، اسمع، يا بيرنال، نباحاً ثم آخر ثم لا أستطيع أن أكمل؛ لأنه تنطلق فى الوادى مئات الكلاب الضخمة والمتوحشة، تنبح، وتزيل مع كل نباح لها نقنقة الدجاج ورائحة العنبر، و مطرقة العمل اليومى، وتغزو الوادى بأسره أسراب الكلاب المتوحشة هذه التى أطلقها أسيادها الأشرار مع الغروب... طريق رهيب من الكلاب الضخمة، المسعورة، الثائرة، ذات أعين جائعة، وأنوف تبغى الانتقام، كلاب بلا سادة، كلاب مهجورة؛ لأن أصحابها ذهبوا فى إجازات أو أطلقوها لإهمالهم أو ضربوها كعادة سيئة: المدينة بأسرها فى حوزة كلاب مسعورة، كل منها يتطلع نحوى بعينين ناريتين، وكل منها يجرى صاعداً الهضبة، نحو شرفتى، يقتربون أكثر وأكثر، ويصبحون أكثر تهديداً، بجلودهم المصبوغة ومخالبهم الصفراء، يجرون خلف كلب يزمجر بقهقهة إنسانية وفى عنقه طوق لأفاعى قاتلة. تعرفت عليه، يا بيرنال: إنه الفرعون. كلب الرئيس الراحل تيران، يفتش عن قبر سيده. والكلاب بأصوات مفزعة تصرخ فى:

ـ اذهبى. لا تترددى. لا تريه مرة أخرى.

ـ من، من؟ سألت بصوت عالٍ ـ من الذى لا ينبغى أن أراه ثانيةً؟

الوادى مزروع بالرماح

وبحيرة الزمن تنكمش،

وليست بحيرة الوادى وحدها.

ولم يتبق لنا سوى رماد الزمن.

وحينئذ أرى بعث الملك الحقيقى.

ملك الوادى. لا أود أن أتطلع فيه.

أقول لنفسى إنه سراب.

وأفتش بيأس عن مكان للسكينة

حيث أسمع وأفهم.

أشعر أن حياتى المنسية تنبعث من البحيرة الميتة.

أو الحياة التى لم أعشها.

أود أن أصير سهماً لأدافع عن نفسى.

ينظر نحوى ملك المكسيك بلا جفون

ويفتح فماً من الوحل والفضة:

ستهب العواصف.

ولا يقول لى شيئاً آخر قبل أن يختفى مع الكلاب التى سبقته والغبار الذى أحدثته. ياه، يا بيرنال، كم أشعر بقلبى ثقيلاً وروحى متعجلة.

تطاردنى ظلال الألم والخطيئة. أتعجب لماذا لم أنتحر هناك قبل أن تعضنى أسراب الكلاب الجائعة.

أشعر بالرغبة فى النزول فى بحيرة لا عمق لها من المياه المثلجة تطهرنى وتعيد لى قوتى. تلاشى الضجيج. وخلت المدينة.

صمتت الكلاب، هربت، عادت إلى حظائرها فى جبال القمامة بالمدينة. ويهيم الفرعون فقط ويعوى على سيده.

وأنا أعود إلى بيتى فى غابات لاس لوماس. أعود لأصبح ما أنا عليه.

لن أرغب بعد ذلك فى الانتحار. لأن العودة لحبك هى صورة من صور الانتحار للشخصية التى عرفت أن أشكلها بمجهود كبير (من جهة) وضعف كبير (من جهة أخرى).

لا تشغل بالك. معك حق.

كيف يكون الزواج محتملاً بين اثنين يجنن كل منهما الآخر؟

سوف أسلم نفسى من جديد للانتحار البطىء الذى هو السياسة.

أرغب أن أفرغ نفسى لأولد ثانيةً.

بدلاً من أن أخضع للعالم.

بيرنال إيريرا، سوف تصبح رئيساً للمكسيك. أقسم لك على هذا.

- ٧٠ -

لورينثو إيريرا جالبان

(أنا ألعب الاستغماية فى الحديقة وأضحك كثيراً، لأنهم لا يجدوننى أختبأ خلف الشجرة ويقولون إنه هناك سوف نعثر عليه أجرى وأختبئ خلف شجرة أخرى وأصرخ أنا هنا وأنا الذى أصرخ لأنى ألعب مع نفسى وحدى وأعتقد أنه يجب أن أصرخ أنا هنا أليس كذلك؟ أنا هنا ألعب مع نفسى وحدى بين أشجار البيت الذى أعيش فيه دائماً ولدت هنا؟ تقول الدكتورة لا وأنهم أحضرونى من هم؟ لا تقول شيئاً وأنا أحاول أن أتذكر من أحضرنى إلى هنا إلى بيتى أسمعهم يتحدثون عن البيت ولكنى لا أعرف سوى أن أقول بيتى، لأنه لم يكن لدى غيره وأعلم أنى لن أخرج من هنا أبداً لا أشكو لدى صورة حائلة مثل الأيام الغائمة لسيد وسيدة كانا يزوراننى وأنا صغير وقلت زيارتهم مع الوقت قالت لى الدكتورة هم يحبونك، يحبونك هم منشغلون هم أشخاص من الطبقة الراقية لا أعلم ماذا يعنى أشخاص من الطبقة الراقية وأنا أحبهما أيضاً وأحب كل من يقترب منى ويلقى علىَّ التحية ويحدثنى ويلمسنى أحب هذا كثيرًا يحدث مرات قليلة أنا وحدى جداً تقول لى الدكتورة أسمعهم ينادون عليها هكذا هم يحبونك أحب أن أتكلم مثلها لا أعرف انا أتكلم فقط بدون أن أفتح فمى إن عرفوا ما أقول بدون أن أفتح فمى أنا أسمع الجميع، ولكن أحدًا لا يسمعنى أتكلم للداخل تحدثوا معى تحدثوا معى كثيراً من فضلكم أسمعهم وأفهمهم أفهم كل ما يقولونه يقولون لى القليل لأنهم يعتقدون أنى لا أفهم لا أعلم أن أقول ما أحب خاصةً فيما أفكر وبدون أن أتكلم أقول ما

يقولونه أفهمهم جيداً تقول الدكتورة أنت ذكى ذكى ذكى أفهمهم جيداً وهم لا يعلمون ولذا لا يتحدثون إلىّ يتحدثون عنى دائماً ولكنهم لا يتحدثون معى يجب أن يعرفوا أنى أفهم كل شىء بالرغم من أنى لا أعرف الكلام لاشك أن الدكتورة تدرك أنى أفهم؛ لأنها لو لم تكن كذلك ما كانت ستضحك بهذا القدر حين نلتقى جميعاً فى يوم من الأسبوع يسمى الأحد الأحد الأحد ويعطوننا رسومات لكلاب وفئران وقطط تجعلنا نغرق فى الضحك جميعاً لم أكن أعرف أول الأمر ماذا أفعل مع بطة غضبانة تكسر الأطباق من قوة غضبها بدأت فقط فى الضحك عندما رأيت الأطفال الآخرين يضحكون وهم ينظرون إلى البطة الغضبانة الضحك مسموح ليس الضحك ممنوعاً الجميع يضحكون وهم ينظرون إلى البطة الغضبانة لم أكن أرى الأطفال سوى يوم الأحد الأحد الأحد يبعدونهم عنى باقى الأيام تتحدث الدكتورة بصوت خفيض مع الممرضات تسميهم هكذا جميعهن يرتدين البياض لون أبيض أبيض رأين كيف أفهم أبيض أحد أحد أبيض بطة غضبانة تتحدث الدكتورة بصوت خفيض لا أعلم ماذا تقول لهن أنا لوحدى ماعدا أيام الآحاد والآن تغيرت لأنى أكبر كما يقولون لى لم أعد طفلاً احذر يديك لا أعلم ماذا أفعل بيدىَ أسأل لأنى لا أرى شخصاً آخر لأنى وحدى دائماً كانوا يربتون على رأسى من قبل والآن فقط ليس هناك احذر يديك ولكى تمتلئ عينا الدكتورة بالماء وتقول بصوت خافت للممرضات الأخريات ذوات الأبيض الأبيض أن لا أحداً أصبح يأتى لرؤيتى كما قبل عندما كنت صغيراً وأستخدم يدى فى اللعب بالكرة لا تحرك يديك مع الكرة يا لينشو يقولن لى لينشو أو لينشيتو والآن أحب أن أسألهن لم هن شاحبات هكذا ماذا حدث ماذا سيحدث لا أعرف شيئاً خارج هذا المكان من يعرف ماذا وراء الجدران لماذا يبدو عليهن الحزن عندما ينظرن إلىَ لماذا يحركن رءوسهن هكذا وعندما تتساقط المياه يغلقن النوافذ لا أعلم ماذا يجرى هناك بالخارج حيث كنت ألعب الاستغماية من قبل والآن يحبسوننى فى غرفة مظلمة ماذا فعلت ماذا فعلت ماذا فعلت لا أعرف أشعر أن رأسى يدور بالرغم منى أنى لا أدور أنا بمفردى فى غرفة

مظلمة أو قل إنى عطوف مع النباتات والحيوانات والأشجار وأحبهم وأشم النباتات وأقف تحت الأشجار أنا مثلها أنا هى ليس لدى أحد غير الحديقة من قبل لا يدعوننى أخرج مرة أخرى إلى الحديقة أنا الشجرة أنا النبات أنا الحيوان ليس لدى أحد سواهم لا أرى الأطفال نعم أرى الفئران الكلب أصيص الزرع بالأزهار لا يتركوننى أخرج ليس لدى سوى كراس أزرق سمعتهم يقولون اتركوه يشخبط فى كراسه الأزرق عندما أفعل أترك أشياءً من الذى أقولها أكتب بدون حبر الكراس به حروف وأنا لا أملك سوى أصبع واحد للكتابة على الصفحات البيضاء متذكراً السيد والسيدة اللذين كانا يزوراننى من قبل ولا أسألهما إن كنا سنجتمع ثانيةً أحياناً أفكر أنى لن أراهما أبداً حلمت بهما أسأل الدكتورة من هما ولم لا يزوراننى هى تقول لى الحب يا لينشو الحب موجود يا لينشو الحب موجود أكتبه فى كراسك الأزرق وتذكر بأصبعك كل ما تفكر فيه، واحلم لأنك لن تراهما مرة أخرى هما مهمان أطرق على الباب؟ لا يسمعاننى؟ لن يعودا لرؤيتى؟ لماذا ربطوا يدىَّ وراء ظهرى؟ كيف سألعب؟ كيف سأكتب هكذا فى كراسى الأزرق)؟

الفهرس

صدر من هذه السلسلة

١ ـ «ملكة الصمت» للكاتبة الفرنسية «ماري نيمييه» ـ رواية ـ جائزة ميديسيس.

٢ ـ «فتاة من شارتر» للكاتب الفرنسي «بيير بيجي» ـ رواية ـ جائزة «إنتر».

٣ ـ «موال البيات والنوم» للكاتب المصري «خيري شلبي» ـ رواية ـ جائزة الدولة التقديرية.

٤ ـ «أوائل زيارات الدهشة» للشاعر المصري «محمد عفيفي مطر» ـ سيرة ذاتية ـ جائزة «سلطان العويس».

٥ ـ «اللمس» للكاتبة السعودية «ملحة عبدالله» ـ مسرح ـ جائزة «أبها».

٦ ـ «عاشوا في حياتي» للكاتب المصري «أنيس منصور» ـ سيرة ذاتية ـ «جائزة مبارك».

٧ ـ «قبلة الحياة» للكاتب المصري «فؤاد قنديل» ـ رواية ـ «جائزة التفوق».

٨ ـ «ليلة الحنة» للكاتبة المصرية «فتحية العسال» ـ مسرح ـ «جائزة التفوق».

٩ ـ العاشقات ـ للكاتبة النمساوية «إلفريدة يلينك» ـ رواية ـ «جائزة نوبل».

١٠ ـ نوّة الكرم، للكاتبة المصرية نجوى شعبان، رواية، «جائزة الدولة التشجيعية».

١١- «الفسكونت المشطور» للكاتب الإيطالى ـ إيتالوكالفينو.
رواية (عدد خاص) جائزة «فياريچيو».

١٢- القلعة البيضاء / للكاتب التركى أورهان باموق ـ رواية ـ «جائزة نوبل».

١٣ - أين تذهب طيور المحيط/ للكاتب المصرى إبراهيم عبدالمجيد ـ أدب رحلات - «جائزة التفوق».

١٤ ـ قرية ظالمة / للكاتب المصرى محمد كامل حسين ـ عدد خاص ـ «جائزة الدولة للأدب».

١٥ ـ الرجل البطىء / للكاتب الجنوب أفريقى ج . م . كوتسى ـ رواية ـ «جائزة نوبل».

١٦ ـ طحالب / للكاتبة الجنوب إفريقية مارى واطسون ـ متتالية قصصية / «جائزة كين» .

١٧ ـ شوشا / للكاتب البولندى اسحق باشيفيس سنجر/ رواية / «جائزة نوبل».

١٨ - شارع ميجل/ للكاتب من ترينداد/ ف. س. نايبول. رواية/ «جائزة نوبل».

١٩ ـ الحياة الجديدة ـ للكاتب التركى «أورهان باموق» ـ رواية ـ «جائزة نوبل».

٢٠ ـ عشر مسرحيات مختارة ـ للكاتب الإنجليزى «هارولد بنتر» ـ مسرح ـ «جائزة نوبل».

٢١ ـ الآخر مثلى - للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو» - رواية - «جائزة نوبل».

٢٢ ـ المستبعدون ـ للكاتبة النمساوية «إلفريدة يلينك» ـ رواية ـ «جائزة نوبل».

٢٣ ـ الأنثى كنوع ـ للكتابة الأمريكية «جويس كارول أوتس» ـ قصص ـ «جائزة بن مالامود».

٢٤ ـ ثلاثة أيام عند أمى ـ للكاتب الفرنسى «فرانسوا فايرجان» ـ رواية ـ «جائزة الجونكور».

٢٥ ـ اسطنبول.. الذكريات والمدينة.. للكاتب التركى «أورهان باموق».. «جائزة نوبل».

٢٦ ـ الطوف الحجرى.. للكاتب البرتغالى «جوسيه سارامارجو».. رواية.. «جائزة نوبل».

٢٧ ـ نار وريبة.. للكاتبة الألمانية «بريچيتّه كروناور» مختارات جائزة «چورج بوشنر الكبرى».

٢٨ ـ الذكريات الصغيرة.. للكاتب البرتغالى «جوسيه ساراماجو» .. سيرة ذاتية.. «جائزة نوبل».

٢٩ ـ إليزابيث كُستّلّو.. للكاتب الجنوب إفريقى ج. م. كوتسى .. رواية.. «جائزة نوبل».

٣٠ ـ السيدة ميلانى والسيدة مارتا والسيدة جيرترود.. للكاتبة الألمانية بريچيته كروناور .. قصص.. «جائزة چورج بوشنر الكبرى».

٣١ ـ حين تقطعت الأوصال .. للكاتبة المكسيكية أمبارو دابيللا.. قصص.. «جائزة بيربياروبيا».

٣٢- مارتش.. للكاتبة الأمريكية «جيرالدين بروكس» رواية.. «جائزة البوليتزر».

٣٣ – اغتنم الفرصة.. للكاتب الكندى «سول بيللو».. رواية.. «جائزة نوبل للآداب».

٣٤ – البصيرة.. للكاتب البرتغالى «جوسيه ساراماجو».. رواية.. «جائزة نوبل».

٣٥ – بريك لين.. للكاتبة الإنجليزية البنغالية.. «مونيكا على».. رواية.. «جائزة البوكر».

٣٦– بريد بغداد.. للكاتب التشيلى «خوسيه ميجيل باراس».. رواية.. «الجائزة الوطنية للآداب».

٣٧ – عن الجمال.. للكاتبة البريطانية «زادى سميث» رواية.. «جائزة الأورانج».

٣٨ – العار.. للكاتب الجنوب إفريقي ج. م. كوتسى.. رواية.. «جائزة نوبل».

٣٩ – قبلات سينمائية.. للكاتب الفرنسى إيريك فوتورينو.. رواية.. «جائزة الفيمينا».

٤٠ ـ هكذا كانت الوحدة.. للكاتب الإسبانى خوان خوسيه مياس.. رواية.. «جائزة نادال».

٤١ ـ الشلالات.. للكاتبة الأمريكية جويس كارول أوتس.. رواية.. «جائزة الفيمينا».

٤٢ ـ العشب يغنى.. للكاتبة الإنجليزية دوريس ليسنج.. رواية.. «جائزة نوبل».

٤٣ ـ العالم.. للكاتب الإسبانى خوان خوسيه مياس.. رواية.. «جائزة بلانيتا».

٤٤ ـ ميراث الخسارة.. للكاتبة الهندية كيران ديساى.. ر واية.. «جائزة البوكر».

٤٥ ـ الطفل الخامس.. للكاتبة الإنجليزية دوريس ليسنج.. رواية.. «جائزة نوبل».

٤٦ ـ بن يجوب العالم.. للكاتبة الإنجليزية دوريس ليسنج.. رواية.. «جائزة نوبل».

٤٧ ـ ثورة الأرض.. للكاتب البرتغالى جوزيه ساراماجو.. رواية.. «جائزة نوبل».

٤٨ ـ ملك أفغانستان لم يزوجنا.. للكاتبة الفرنسية انجريد توبوا.. رواية.. «جائزة الرواية الأولى فى فرنسا».

٤٩ ـ الكهف.. للكاتب البرتغالى جوزيه ساراماجو.. رواية.. «جائزة نوبل».

٥٠ ـ يوميات عام سئ.. للكاتب الجنوب إفريقى ج.م كوتسى.. رواية.. «جائزة نوبل».

٥١ ـ كازانوفا.. للكاتب الإنجليزى أندرو ميللر.. رواية.

٥٢ ـ إنقطاعات الموت.. للكاتب البرتغالى جوزيه ساراماجو.. رواية.. «جائزة نوبل».

٥٣ ـ العم الصغير.. للكاتب الألمانى شيركو فتّاح.. رواية.. «جائزة هيلده دومين لأدب فى المنفى».

٥٤ ـ اللعب مع النمر.. للكاتبة الانجليزية دوريس ليسنج.. مسرح.. «جائزة نوبل».

٥٥ ـ فى أرضٍ على الحدود.. للكاتب الألمانى شيركو فتّاح.. رواية.. «جائزة نظرات أدبية».

٥٦ ـ الإرهابية الطيبة.. للكاتبة الإنجليزية دوريس ليسنج.. رواية.. جائزة نوبل.

٥٧ ـ المسرحيات الكبرى جـ١.. للكاتب الإنجليزى «هارولد بنتر».. مسرح.. جائزة نوبل.

٥٨ ـ المسرحيات الكبرى جـ ٢.. للكاتب الإنجليزى «هارولد بنتر.. مسرح.. جائزة نوبل.

٥٩ ـ نصف شمس صفراء.. للكاتبة النيجيرية «تشيماماندا نجوزى آديتشى».. رواية.. جائزة الأورانج.

٦٠ ـ مذكرات چين سومرز «مذكرات جارة طيبة».. للكاتبة الإنجليزية دوريس ليسنج.. رواية.. جائزة نوبل.

٦١ ـ مذكرات چين سومرز «إن العجوز استطاعت».. للكاتبة الإنجليزية دوريس ليسنج.. رواية.. جائزة نوبل.

٦٢ ـ الحوت.. للكاتب الفرنسي جان مارى جوستاف لوكليزيو.. رواية..جائزة نوبل.

٦٣ ـ رقة الذئاب.. للكاتبة الاسكتلندية «ستيف بينى».. رواية.. جائزة كوستا.

٦٤ ـ رحلة العم ما.. للكاتب الجابونى چان ديڤاسا نياما.. رواية.. جائزة الأدب الكبرى لأفريقيا السوداء.

٦٥ ـ مسيرة الفيل.. للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو» رواية.. جائزة نوبل.

يصدر قريباً من هذه السلسلة

١ـ أين نـذهب يـابابا؟.. جون لـوى فـورنييه.. جائـزة الفيـمينا ٢٠٠٨.

٢ ـ نداء دينيتى.. چان ديڤاسا نياما.. جائزة الأدب الكبرى لأفريقيا السوداء ٢٠٠٩ .

٣ ـ صخب الميراث.. جان ديڤاسا نياما.. جائزة الأدب الكبرى لإفريقيا السوداء ٢٠٠٩.

كارلوس فوينتس:

• أهم كاتب مكسيكى فى النصف الثانى من القرن العشرين، وأحد أكبر أدباء أمريكا اللاتينية، التصق اسمه بالأرجنتينى "بورخيس" والكولومبى "جابرييل جارسيا ماركيز" وغيرهما من رواد الواقعية السحرية فى أدب أمريكا اللاتينية.

• ولد فى ١١ نوفمبر ١٩٢٨ فى المكسيك.

• روائى وقاص وكاتب مسرحى وكاتب مقال، نال نجاحًا كبيرًا فى كل هذه الفروع.

• من أهم رواياته: كل العائلات السعيدة، منطقة مقدسة، تغيير الجلد، عيد ميلاد، منطقة شفقة.

• من أهم مجموعاته القصصية: الأيام السوداء، نشيد العميان، حدود زجاجية، أبناء الفاتح.

• من أهم أعماله المسرحية: "كل النساء سواء"، "الأعور ملكًا"، "طقوس الفجر".

• من كتبه التى حققت أصداء واسعة "ضد بوش".

• حصل على العديد من الجوائز المهمة فى إسبانيا وأمريكا اللاتينية وهو المرشح الدائم لجائزة نوبل فى الآداب.

الجائزة: جائزة سرفانتس.

أرفع جائزة أدبية إسبانية، تعتبر بمثابة نوبل فى الآداب الناطقة بالإسبانية. تأسست عام ١٩٧٦، باسم ميجيل دى سرفانتس، وتمنح سنويًا لمؤلف من إسبانيا أو أمريكا اللاتينية قدم إسهامًا ملحوظًا فى الأدب الإسبانى، تتجاوز قيمتها ٩٠ ألف يورو (١١٠٣٠٠ دولار أمريكى) من قبل وزارة الثقافة الإسبانية، ولأكثر من ربع القرن حازها كبار الكُتَّاب فى إسبانيا وإمريكا اللاتينية ومن أوائلهم "كارلوس فوينتس" الذى حازها عام ١٩٨٧، وتحتل جائزة سرفانتس مكانة كبرى بين الجوائز العالمية حيث يُطلق عليها الجميع بكل اطمئنان "نوبل اللغة الإسبانية".


مكتبة
تليجرام
غواص في بحر الكتب
محمد خطاب

الرواية

هذه الرواية مكونة من سبعين رسالة متبادلة بين مجموعة من المتناحرين على السلطة، تنبعث من بين سطورها جميع الحيل الدبلوماسية، ويسدل عليها مكيافيلى عباءته، وأحداث الرواية مستقبلية تدور فى العام ٢٠٢٠ وبافتراض فانتازى هو حيلة "فوينتس" الروائيه، حيث يتم فجأة انقطاع جميع الاتصالات السلكية واللاسلكية فى المكسيك، فيبدأ أبطال الرواية فى تبادل الرسائل التى نقرأ فيها اعترافاتهم ووشاياتهم ببعضهم البعض وتهديداتهم وأشكال تحالفاتهم وكذبهم وتورطهم فى عدة اغتيالات وكيفية إجادتهم للعبة الكراسى المتحركة.. سبعون رسالة يناضلون من خلالها للقضاء على منافسيهم فى الانتخابات الرئاسية المقبلة سعياً لاعتلاء "كرسى النسر".

الروائى: كارلوس فوينتس، أكبر كاتب مكسيكى.
الجائزة: جائزة سرفانتس للآداب عام ١٩٨٧.




ISBN# 9789774212782
6 221149 016385
٠٦ جنيهًا

الهيئة المصرية العامة للكتاب